السبيل

في فقه الدعوة وكيفية الوعظ بالدليل

الجزء الأول

إعداد
أبو إسلام
صالح بن طه عبد الواحد
إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن
الأردن-عمان

السبيل

في فقه الدعوة وكيفية الوعظ بالدليل

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المؤلف

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينهُ ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب].

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالة في النار.

معرفةُ السبيل في الدعوة إلى الله سببٌ لنجاح الدعاةِ إلى الله في دعوتهم، وسببٌ للحصولِ على سعادة الدنيا والآخرة، وسببٌ لاجتماع الأمة.

ولذلك قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾[يوسف].

وقال أيضاً: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[النحل].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم قال: «**هذه سبيل الله**»، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سبلٌ**»، قال يزيد: «متفرقة».

على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣][1].

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: (عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكَرَ الله ففاضت عيناهُ من خشية ربه؛ فيعذّبه الله أبداً، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك إذا أصابتها ريح شديدة، فتحاتَّ عنها ورقُها؛ إلا حطّ الله عنه خطاياه، كما تحاتّ عن تلك الشجرة ورقها.

وإن اقتصاداً في سبيلٍ وسنة خيرٌ من اجتهادٍ في خلافِ سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم -إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً- أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم)[2].

---

(١) **حسن**: «مشكاة المصابيح» (١/ ٥٩).

(٢) «سلسلة الآثار الصحيحية» رقم (٣٩٥).

• وسُئِلَ فضيلةُ الشيخ الإمام الوالدِ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ سؤالاً حول معرفة الأسس التي يجبُ على الدعاة إلى الله أن يبدأوا بها في دعوتهم.

وهذا نص السؤال: ما هي الأسس التي ترون من خلال مرئياتكم أنه يمكن للعالم الإسلامي أن ينهض بها؟

الجواب: قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الذي أعتقده هو ما جاء في نص الحديث الصحيح، -وهو جواب عن مثل هذا السؤال وعن كثير من الأسئلة التي تطرح في العهد الحاضر- وهو قوله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد**» -في سبيل الله- «**سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعو إلى دينكم**»[1].

فالأساس هو الرجوع إلى الإسلام، وهذا الأمر قد أشار إليه إمام دار الهجرة الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في كلمة مأثورة عنه تُكتب كما كانوا يقولون قديماً بماء الذهب، وهو قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، اقرأوا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً)، وقال: (ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

وهذه الجملة الأخيرة هي بيت القصيد فيما يتعلق بالجواب عن ذاك السؤال، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

(١) «الصحيحة» (١١).

فكما أن الأمة العربية في عهدها في الجاهلية ما صلح أمرها إلا بعد أن جاءهم نبيهم ﷺ بوحي السماء، الذي أسعدهم في الدنيا وفي الأُخرى، فإن الأساس الذي ينبغي أن تكون الحياة الإسلامية السعيدة في هذا الزمن عليه ليس إلا الرجوع إلى الكتاب وإلى السنة، غير أن هذا الكلام يحتاج إلى شيء من التفصيل لكثرة الجماعات أو الأحزاب الإسلامية الموجودة الآن في الساحة؛ فإن كل جماعة تدَّعي لنفسها أنها هي التي وضعت المنهج الذي يمكنهم به أن يُحققوا المجتمع الإسلامي، والحكم بالإسلام، فكلهم كما قيل قديماً:

وكلهم يدعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

ونحن نعلم من كتاب الله ومن حديث رسول الله ﷺ: أن **السبيل** الذي به يمكن تحقيق السعادة في الدنيا ثم السعادة في الآخرة إنما هو **سبيل** واحد، فلا بد من تحديد هذا **السبيل** ليسلك عليه من كان حقاً يبتغي العمل لصالح الدعوة الإسلامية والأمة الإسلامية، هذا **السبيل** هو ما ذكره الله تبارك وتعالى في غير ما آية في القرآن الكريم، قال ربنا عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام:١٥٣] فالطريق التي تؤدي إلى ما ينشده كل مسلم اليوم -ولكن الجماهير ما يعرفونه- إنما هو **السبيل** الذي أُشير إليه في هذه الآية الكريمة.

ولقد أوضح النبي ﷺ هذا **السبيل** المذكور في الآية الكريمة بمثلٍ رائع جداً رسمه لأصحابه على الأرض -التي كان من عادته أن يجلس عليها دون أي كبرياء- فقد خطَّ لهم رسول الله ﷺ يوماً خطاً مستقيماً على الأرض، ثم خطَّ على

جانبيه خطوطاً قصيرة، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام وهو يمر بأصبعه الشريفة على الخط المستقيم الآية السابقة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ ثم أشار إلى الخطوط التي على جانبي الخط المستقيم بقوله بتمام الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾.

في اعتقادي أن الطريق الذي تنشده كل جماعة أو كل فرد من هذه الأمة لتحقيق السعادة لها في الدنيا والآخرة طريق واحد ولن يجدوا لهم إلا هذا **السبيل**، وبخاصة أن النبي ﷺ قد أتم بيان خطورة الحيدة عن هذا الطريق المستقيم بقوله -في تمام الحديث السابق- حيث قال: «**هذا صراط الله، وهذه طرق، وعلى رأس كل طريق منها شيطان يدعو الناس إليه**»[1].

فالدعاة إذن كثيرون، لكن الداعية إلى الحق إنما هو الذي يدعو الناس إلى أن يسيروا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، ومن جاءوا من بعدهم واتبعوهم بإحسان.

وقد أكَّد ربنا عز وجل بالآية الأخرى في القرآن الكريم ما ذكر في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[النساء:١١٥].

فالسبيل يُذكر دائماً في القرآن مفرداً، وليس هناك سبل تُتَّبع، ولو أن السالكين على هذه السُبل والسائرين على تلك الطرق كانت مقاصدهم ونواياهم حسنة

---

(١) تقدم تخريجه.

-إن افْتُرِض فيهم ذلك- فإنهم لن يصلوا إلى بُغيتهم، ما دام أنهم لم يسلكوا الطريق الوحيد المستقيم الذي يؤدي بهم إلى مقصدهم المشروع.

ولقد جاء في الحديث الصحيح الذي تتفق عليه كل الجماعات والأحزاب الإسلامية فكراً، ولكنهم يختلفون في تطبيقه سلوكاً، قول النبي ﷺ: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**هي الجماعة**».

هذه هي الرواية المشهورة، وثمة رواية أخرى تفسِّر الأولى، وهي قوله: «**هي التي على ما أنا عليه وأصحابي**».

فإذاً، واحدة من ثلاث وسبعين فرقة هي الفرقة الناجية -كما اصطلح على ذلك العلماء قاطبة- وهذه الفرقة الناجية هي فقط التي تستطيع أن تنهض بالأمة الإسلامية اليوم، وأن تحقق السعادة لها، ثم لغيرها من الأمم الأخرى التي لم تهتدِ بهدي الإسلام[1].

---

(١) ويشير إلى هذا المعنى الحديث الآخر عن معاوية بن قرة، عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**».

ولذلك ورد عن أئمة العلم وجهابذته أن المقصود بهذه الطائفة: أهل الحديث، وهم الذين يلتزمون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بفهم السلف الصالح على الحقيقة، لا مجرد ادعاء زائف، أو كلمات جوفاء تُطلق بعيدةً عن معانيها.

وأهل هذه الطائفة قد يكونونَ متفرقين بين الناس، وليس بالضرورة أن يكون لهم انتماء إلى جماعة من الجماعات التي على الساحة اليوم، بل انتماؤهم: انتماءٌ صحيحٌ إلى الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.

ولعل من أسباب التراجع في ذلك: أن المسلمين أنفسهم لم يعودوا -مع الأسف- كما كانوا من قبل دعاة بأفعالهم وأعمالهم، فالأقوال وحدها لا تفيد بين الناس.

ثم إن النبي ﷺ لـمّا ذكر أن الفرقة الناجية هي فرقة واحدة، وحتى لا يضل المسلمون عن معرفة وصفها، أجاب عن ذاك السؤال: من هي الفرقة الناجية من بين ثلاث وسبعين فرقة؟ قال: «**هي التي على ما أنا عليه وأصحابي**».

ونلاحظ هنا بوضوح تامٍ أن النبي ﷺ لم يقتصر في جوابه عن ذاك السؤال على قوله فقط: «**التي هي على ما أنا عليه**» لم يقتصر ولم يقف في كلامه إلى هنا: «**على ما أنا عليه**» فقط، لا، بل عطف على ذلك قوله: «**وأصحابي**»، ذلك لأن أصحاب النبي ﷺ -كما لا شك ولا إشكال- هم الذين تلقوا الوحي عن رسول الله ﷺ بقسميه القرآن والسنة غضاً طرياً، ثم عملوا به وطبقوه أحسن التطبيق، ثم نقلوه -كما فهموه وكما طبقوه- إلى من جاء من بعدهم[1]، وهكذا حتى سخر الله عز وجل للمسلمين من جمع لهم السنة، من بعد ما سخر في الأولين من جمع القرآن الكريم بين دفتين، فاجتمع الوحيان المشار إليهما في القرآن في عديد من الآيات، كمثل قوله تبارك وتعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤].

(١) ولذلك كان معرفتهم بالأمر يحدث فيصلاً بين البدعة والسنة، فهم أعلم بما أوحي إلى النبي ﷺ، والأصول التي تندرج تحتها الأعمال، وما يكون من سنة ومن بدعة، فهم -كما قال عمر بن عبد العزيز-: (عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبالخير لو كان في تلك الأمور أحرى).

ففي هذه الآية نص صريح أن بيان النبي ﷺ هو شيء زائد عن القرآن، وأن القرآن مبيَّن ببيانه ﷺ، فالمبيَّن شيء والمبيِّن شيء آخر -شيء زائد عليه- وإن كان لا يخرج عن أنه مستقى من مشكاة واحدة، كما جاء النص يصرح بذلك، ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يقول هذا كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً حللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»(١).

وفي حديث آخر: «**ألا إنما حرَّم رسول الله مثل ما حرَّم الله**»(٢).

ذلك أن الله عز وجل -كما بيّن في الآية السابقة- أنزل القرآن على قلب نبينا ﷺ، وكلفه أن يبينه للناس، وهذا البيان هو السنة، لكن هنا شيء أشارت إليه تلك الرواية السابقة، حينما سُئل النبي ﷺ عن الفرقة الناجية، فقال: «**هي التي على ما أنا عليه وأصحابي**».

فأصحاب الرسول عليه السلام ذُكروا في هذا الحديث لهذه النكتة التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[النساء].

فنحن نقول: في هذه الآية حكمة بالغة كالحديث السابق، و«**أصحابي**» قد ذُكر في الحديث عطفاً على سنته عليه السلام، أي: ما عليه أصحابه الكرام كذلك، وهنا في

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، أبو داود (٤٦٠٤) [«المشكاة» (١٦٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١٢)، الترمذي (٢٦٦٤)، والدارمي (٥٩٠)، [«صحيح الجامع» (٨١٨٦)].

الآية الكريمة عطف **سبيل** المؤمنين على ما جاء به الرسول ﷺ ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[النساء].

فلم يقل رب العالمين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ وإنما أدخل جملة عطفها على ما قبلها فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النساء:١١٥].

كأن النبي ﷺ حينما قال: «**أنا وأصحابي**» كان -إن لم يكن وحياً من الله مباشرة- اقتباساً من الآية التي كان الله عز وجل أوحى بها حيث قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النساء:١١٥].

فما هي النكتة وما هي الحكمة في ذكر الله عز وجل في هذه الآية **لسبيل** المؤمنين، وفي عطف الرسول عليه السلام أصحابه على نفسه في الحديث السابق؟

الجواب: أن هؤلاء الصحابة الكرام -كما أشرنا سابقاً- هم الذين تلقوا الوحيين من رسول الله ﷺ مبيناً منه لهم مباشرة دون واسطة، لا كما هو شأن من جاء من بعدهم، ولا شك أن الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المعروف: «**الشاهد يرى ما لا يرى الغائب**»[1].

ولذلك كان إيمان الصحابة الأولين أقوى من إيمان من جاء من بعدهم، وقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله في الحديث الصحيح بل المتواتر: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٨٣)، والبزار «كشف الأستار» (١٤٩١)، وفي «مسند الشهاب» (٨٥)، [«الصحيحة» (١٩٠٤)].

وعلى ذلك، فلا يستطيع مسلم أن يستقل بفهم الكتاب والسنة بشخصه، بل لابد أن يستعين على فهمها بالرجوع إلى الأصحاب الكرام الذين تلقوا ذلك عن النبي ﷺ مفسراً مبيناً، تارةً بقوله عليه السلام، وتارة بفعله، وتارةً بتقريره.

ولعلكم تعلمون جميعاً: أن السنة تنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة: قولٌ وفعلٌ وتقريرٌ، فإذا ما صرف صارف نظر أحدٍ ما عن هذه السنة، أو أراد أحدهم أن يستقل بفهم القرآن، مقتصراً على ذلك باللغة العربية، فسوف لن يستطيع أن يصل إلى فهم مُراد الله تبارك وتعالى من آياته[1].

وأكبر دليل على ذلك: أن هناك بعض الآيات يتردد فيها لفظُ مُعينٌ كـ«اليد» مثلاً في آية التيمم، و«اليد» في آية حد السارق، ونحو ذلك، فهذه الآية تُفسَّر على ضوء ما جاء في السنة.

---

(١) وقد وقع مثل هذا لبعض أهل العلم، حينما عزفوا في بعض المسائل عن اعتبار فهم السلف، والاعتماد في فهم الأدلة على اللغة وحدها، من ذلك ما وقع للإمام النووي في فهمه لقوله ﷺ في الحديث الذي عند مسلم (٢/ ٦٧٢): «**نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها**».

ففهم الإمام النووي أن الضمير في هذا الحديث يعود على الرجال دون النساء، فقال -رحمه الله- في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٦٣٨): (يُجاب عن هذا بأن «**نهيتكم**» ضمير ذكور، فلا يدخل فيه النساء على المذهب الصحيح المختار في الأصول).

وهذا مخالف لفهم الصحابة ولهذا النص الذي يدخل في عموم رخصته الرجال والنساء جميعاً، كما دلَّ عليه فهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فقد أخرج الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٣/ ٢٣٣) بسند صحيح عن عبد الله بن أبي مليكة: (أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، ثم أمر بزيارتها).

وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٩)، والترمذي في «الجامع» (١٠٥٥)، من وجه آخر بنحوه، وهذا الأثر استدل به أحمد على جواز زيارة النساء للقبور، وأنهن في عموم الرخصة في ذلك.

فلا يجوز حينئذ أن يستقل إنسان ما بفهم الآية، دون أن يستعين على ذلك بسنة النبي ﷺ بأقسامها الثلاثة التي ذكرتها آنفاً.

فمثلاً آية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[المائدة:٣٨].

«اليد» في اللغة إذا أُطلقت فقد يُراد الكفُ، وقد يُراد بها الكف والذراع، وقد يُراد ما فوق ذلك إلى المنكب، فبأي هذه المعاني يستطيع -إن لم يعد إلى السنة التي هي بيان القرآن- أن يُفسِّر مثل هذه الآية؟

ثم كلمة «السارق» تشمل كل سارقٍ مهما كانت قيمة ما سرق منحطاً وقليلاً ولا قيمة له تُذكر!! فلابد في هذا وفي هذا وفي غير ذلك أن يُرجع إلى السنة بأقسامها الثلاثة.

وأوضح مثال معروف عند العلماء هو: الصلاة التي أُمرنا بها في القرآن الكريم، والحج، والصيام، والزكاة... ونحو ذلك، لا يستطيع أحد مطلقاً أن يفهم هذه الأركان التي أُمرنا بها في القرآن إلا على ضوء بيان الرسول عليه السلام لها بقوله وفعله وتقريره.

فإذا كان الأمر كذلك، فلا بُد من الرجوع إلى السنة مع القرآن؛ لأن السنة تبين القرآن كما ذكرنا آنفاً في الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

يبقى هناك شيء آخر -وهو بيت القصيد الآن- من كلمتنا هذه نذكره في آخر هذه الكلمة أو هذا الجواب وهو: أن الصحابة نقلوا إلينا أقواله ﷺ وأفعاله

وتقاريره التي لا نعرفها من القرآن الذي رُوِيَ بالتواتر كما هو معلوم، وإنما نعرف ذلك من السنة، فتقاريره عليه السلام -وهي أن يرى شيئاً فيقره- مثلاً لا تُعرف إلا من نقل الصحابة وليس من قوله عليه السلام.

فإذاً من الضروري جداً أن نضم إلى الدعوة إلى الكتاب والسنة كما نقول دائماً في مثل هذه المناسبة: **وعلى ما كان عليه سلفنا الصالح** إعمالاً لما سبق ذكره في بعض الآيات والأحاديث المتقدِّمة، فحينما ذكر الله **سبيل** المؤمنين، وذكر نبيه الكريم أصحابه لم يكن ذلك إلا لحكمة بالغة، وهي أنه يجب الرجوع في فهم الكتاب والسنة إلى ما كان عليه سلفنا الأول الذين هم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

على هذا يأتي هنا شيءٌ هام جداً يغفلُ عنه كثير من الجماعات الإسلامية أو الأحزاب الإسلامية القائمة اليوم على وجه الأرض، ألا وهو: ما هو **السبيل** إلى معرفة ما كان عليه الرسول عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير؟ ثم معرفة ما كان عليه أصحابه من فهم وتطبيق لهذه السنة؟

لا **سبيل** إلى ذلك إلا بالرجوع إلى علمٍ عُرف عند العلماء قاطبة بـ«علم الحديث»، «علم مصطلح الحديث»، و«علم الجرح والتعديل» الذي له قواعده وله اصطلاحاته، التي يتمكن بها العلماء من أن يعرفوا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يصح.

لكن أكثر الجماعات الإسلامية اليوم لا يرفعون رؤوسهم أولاً إلى ما يُعرف بالسنة!! و«السنة» في لغة الشرع أعمُّ وأشمل منها في عُرف الفقهاء، ذلك لأن الفقهاء يُطلقون لفظة «السنة» على ما كان من العبادات غير المفروضة على المسلم.

لكن «السنة» في لغة الشرع: هي الطريقة والمنهج والسلوك الذي سلكه الرسول ﷺ في تفسيره -في بيانه- للقرآن، وتطبيقه إياه[١].

وعلى هذا جاء قوله عليه السلام في الحديث الصحيح -والمتفق عليه بين الشيخين- من حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: عن النبي ﷺ أنه قال: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[٢].

فليس المقصود هنا من رغب عن سنتي سنة الفجر، أو سنة الظهر القبلية والبعدية... إلى آخر ما هنالك من السنن الرواتب، ليس هذا هو المقصود في هذا الحديث، وإنما المقصود به: السنة والطريقة التي جاء بها النبي عليه السلام في هذه الأمة كبيانٍ للقرآن -كما سبق الكلام عليه-، والذي يؤكد لنا هذا المعنى: شيئان اثنان، أحدهما: يتعلق بسبب ورود الحديث، والشيء الآخر: اتفاق الأمة على أن من

---

(١) ومن ثمَّ فلا يصح صرف «السنة» إلى كل مندوب، فالمتقدمون قد أطلقوا السنة على «الاعتقاد»، وما يجب أن يعقد المسلم قلبه عليه من الاعتقاد الصحيح في الله تبارك وتعالى، وفي رسوله، وفي دينه، ومنهم من أطلق السنة على ما هو واجب، بل عُرف عند علماء الحديث أن الخبر المروي عن أحد الصحابة إذا نسب شيئاً ما إلى السنة بقوله: (من السنة كذا) صُرف إلى نسبته إلى النبي ﷺ، مما قد يُستحب فعله، أو يجب فعله، أو يُكره فعله أو تركه.

ولذا صح عن مكحول الدمشقي -رحمه الله- أنه قال: (السنة سنتان: سنة الأخذ بها فريضة، وتركها كفر، وسنة الأخذ بها فضيلة، وتركها إلى غير حرج).

أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٠٤)، وابن بطة في «الإبانة» (١٠١) بسند لا بأس به.

ولا سبيل إلى معرفة ذلك كله، لا سيما ما يصح إلى النبي ﷺ أو إلى أحد صحابته فضلاً عن أي أحد من أهل العلم إلا بدراسة الأسانيد الموصلة إلى هذه الأخبار، فمفتاح ذلك كله علم الحديث بفنونه وأقسامه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

حافظ على الفرائض وانتهى عن المحرمات فهو إن شاء الله من أهل الجنة، كما جاء في «صحيح مسلم»:

أن رجلاً قال: يا رسول الله! أرأيت إن أنا صليت الصلوات الخمس، وصمتُ رمضان، وحللت الحلال وحرَّمتُ الحرام، أأدخل الجنة؟ قال: «**نعم، إن أنت صليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان، وحلَّلت الحلال، وحرَّمت الحرام فأنت من أهل الجنة**»[(١)].

فإذن، هنا لا شيء مما يُسمى في اصطلاح الفقهاء بـ«السنة» يمنع من قام بما سبق ذكره في هذا الحديث من الفرائض أو يحول بينه وبين دخول الجنة، لكنه على العكس من ذلك إذا ترك السنة بمعناها الشرعي، فلازم ذلك أنه حاد عن **سبيل** الرسول عليه السلام التي هي **سبيل** المؤمنين، أما سبب الحديث، وهو الشيء الأول الذي يدل على المعنى الصحيح لهذه الجملة: «**فمن رغب عن سنتي...**».

أن ثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ سألوا عن عبادته ﷺ، فلما أُخبروا بها تقالوها، أي: وجدوا عبادته عليه السلام قليلة، وجدوها قليلة بالنسبة لما كان يدور في ذهنهم من أن الرسول عليه السلام ينبغي أن يكون أعبد العُباد فيما يتصورون هم العبادة، وهو بلا شك أعبدهم جميعاً، لكن العبادة ليست بالكثرة حسب ما جاء عن الرسول عليه السلام، فبناءً على ما كان قائماً في أذهانهم من المبالغة في العبادة،

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٥) انظر: لفظ الحديث عنده.

وجدوا عبادته عليه السلام قليلة، وكأنهم شعروا بأن هذا نقص في حق الرسول عليه السلام، فجاءوا بتعليل من أبطل ما يكون- نرجو أن الله عز وجل يغفره لهم بسبب صحبتهم لنبيه ﷺ، حيث قالوا -بعد أن تقالوا العبادة-: هذا رسول الله ﷺ قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه!! كأنهم يقولون: لماذا يُتعب الرسول ﷺ نفسه، ولماذا يجهدها ويتعبها وقد حصَّل غاية المنى ألا وهو كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح:٢]!!

فإذن؛ الرسول عليه السلام قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، فلم يبق هناك ما يدعوه إلى أن يقوم الليل كله، ويصوم النهار كله، ويبتعد عن النساءِ بكله، ولذلك عادوا إلى أنفسهم: أما نحن فلم نظفر بعد بمغفرة الله، فيجب أن نسعى إلى عبادة الله عز وجل، لعل الله أن يغفر لنا، وتعاهدوا فيما بينهم، فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: أما أنا فأصوم الدهر ولا أُفطر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، وانصرفوا متعاهدين على هذا.

ولما جاء الرسول عليه السلام خطب في أصحابه قائلاً:

«**ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا**» يُعيد قول كلٍ منهم، هذا يقول: أصوم الدهر ولا أفطر، وذاك يقول: أقوم الليل ولا أنام، والثالث يقول: لا أتزوج النساء، وهذا من أدبه عليه السلام أنه كان يكني ويُعرِّض ولا يُصَرِّح فيقول: ما بال فلان، قال كذا، وفلان قال كذا، «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا**»، لأن المقصود ليس التشهير؛ وإنما التعليم.

فقال ﷺ: «**أما أنا فإني أخشاكم لله وأتقاكم له، أما إني أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[١].

هذا هو سبب ورود هذا الحديث: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**» أي: من جاء بعبادةٍ يتعبد الله بها، ويتقرب بها إلى الله زُلفى ولم أكن أتعبد الله بها فهو راغب عن طريقي وعن منهجي، فهو ليس مني.

فلو أن رجلاً لم يقم الليل مطلقاً، ولم يصم من الدهر شيئاً أكثر من شهر رمضان، فهو الذي يستحق أن يكون من أهل الجنة بشهادة ذلك الحديث السابق، ولا يُقال في مثله أنه: قد رغب عن سنة رسول الله ﷺ، لكن لو صام أحدهم مع رمضان كل الأيام التي لم ينه الشارع الحكيم عن صيامها، ثم قام الليل في السنة كلها وقام الليل بطوله كله، فهذا قد رغب عن سنة الرسول ﷺ، فشتان ما بين القانع بالفرائض وبين الذي يزيد على السنن ظناً منه بأنه قد زاد في الطاعة والعبادة، والواقع أنه قد خالف منهج الرسول وسيرته.

لأجل ذلك كله قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ**»[٢].

إذا عرفنا أن سنة الرسول ﷺ هي التي نقلها إلينا أصحابه الكرام وجب علينا أيضاً أن نعرفها كما لو كنا نحياها معه ﷺ، فكان لابد لنا من الرجوع -كما

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، انظر لفظ الحديث عندهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

قُلت آنفاً- إلى علم الحديث، وعلم الحديث علمٌ مستقلٌ عن سائر العلوم الشرعية، ولا **سبيل** إلى التفقه في الدين وإلى فهم القرآن الكريم إلا بسلوك طريق هذه السنة، لذلك أعتقد -وهذا يكون إن شاء الله نهاية لهذا الجواب- أنه لابد للمسلمين اليوم أو بعبارة أوضح لابد للمسلمين الذين يريدون أن يُعيدوا العزة للإسلام والمجد للإسلام والحكم للإسلام، لابد لهؤلاء أن يحققوا أمرين اثنين: عليهم أن يعيدوا إلى أذهان المسلمين شريعة الإسلام مُصفاة من كل ما دخل فيها، مما لم يكن منها يوم أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، عليهم إعادة هذا الأمر اليوم إلى ما كان عليه في العهد الأول، وهذا بلا شك يحتاج إلى جهود جبارة من عديد من علماء المسلمين في مختلف أقطار الأرض، لينشروا العلم الصحيح، الذي هو القرآن ببيان السنة وبنقل الصحابة وفهمهم.

إن الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة في فهم الشريعة أمر هام جداً، وهو الشيء الأساسي في إعادة المفهوم الصحيح للإسلام بعد أن تفرقت السُبل وتعددت الطرق، حتى لقد قال بعض غُلاة الصوفية: إن الطرق الموصلة إلى الله تبارك وتعالى هي بعدد أنفاس الخلائق!! ذلك يعني أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يدرسوا علم الكتاب وعلم السنة، بل يكتفي أحدهم أن يخلو في خلوة ويشترطُ فيها أن تكون مظلمة!! بل ولا يكتفي بذلك حتى يُغمض عينيه!! ولا يقتصر على ذلك أيضاً، بل يضع رأسه بين ركبتيه!! ظلمات بعضها فوق بعض، وهو بذلك يهيئ نفسه -بزعمه- أن يتلقى -ولا يقولون: الوحي! لأنهم إن قالوا ذلك

خرجوا من دائرة الإسلام، لكن يقولون: يتلقى الإلهام من رب الأنام!! ثم هو يعمل بمقتضى هذا الإلهام!! فأمثال هؤلاء ليس عندهم طريقة واحدة توصل إلى الله تبارك وتعالى، خلافاً لكل ما سبق بيانه!!

فأنا أقول: لابد لعلماء المسلمين حقاً أن يُقَرِّبوا هذا الإسلام مُصفى من كل ما دخل فيه؛ ما دخل في العقائد، ما دخل في الأحاديث، ما دخل في السنة من أحاديث ضعيفة وموضوعة، ما دخل في الفقه من آراء فجة وأقوال غريبة جداً، الإسلام يتبرأ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب كما كان يُقال، ثم ما دخل أيضاً في السلوك والأخلاق من انحراف عما كان عليه الرسول عليه السلام وأصحابه من الاعتدال، ما دخل في السلوك من الغلو في الزهد في الدنيا والانصراف عن الناس، والرسول عليه السلام يقول: «**إن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**»(١).

على العلماء أن يُصفُّوا الإسلام من كل شائبة، ومن كل دخيل دخل فيه، سواءً في أي جانب كان: في العقائد أو في الفقه أو في الحديث أو في السلوك.

ثم الشيء الثاني -مع هذه التصفية-: ينبغي أن يقترن العمل بهذا العلم.

ولذلك أنا أُلخص ذلك في كلمتين: لابد للجماعة المسلمة حقاً أن تقوم بواجب أمرين اثنين: التصفية والتربية، تصفية الإسلام مما ذكرنا آنفاً، بحيث يعود

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، وأحمد (٢/ ٤٣)، ، والترمذي (٢٥٠٧)، [«صحيح الجامع» (٦٦٥١)].

المسلمون إلى فهمهم لدينهم، كما لو كانوا بصحبة نبيهم أو على الأقل في صحبة أصحابه عليه الصلاة والسلام، يعودون للإسلام غضاً طرياً كما أُنزل، ثم عليهم أن يكونوا حريصين على تطبيق هذا الإسلام المُصفى تطبيقاً عملياً صحيحاً، فيوم أن يُهيأ المسلمون لمثل هذه التصفية، ويُوجهون ويُربون على أساس العمل بها، يومئذٍ أعتقد سيفرح المؤمنون بنصر الله تبارك وتعالى، هذا ما يمكنني أن أقوله بهذه المناسبة، ونسأل الله لنا ولعامة المسلمين أن يُفَهِّمنا الإسلام فهماً صحيحاً على ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، وعلى ما كان عليه سلفنا الصالح، وأن يوفقنا للعمل بذلك، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين[1].

وانطلاقاً من قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[الأعراف:٦٢].

ومن قوله ﷺ: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟

قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2].

ومن قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3].

انطلاقاً من هذا كُلِّهِ قمتُ بجمع القواعد في الدعوة والدعاةِ التي تُبين للدعاةِ إلى الله السبيلَ الموصلَ إلى سعادة الدنيا والآخرة من كتاب الله، ومن سنةِ رسول الله ﷺ ومن منهج السلف الصالح في هذا الكتاب وسميته: «**السبيل في فقه الدعوة وكيفية الوعظِ بالدليل**».

---

(١) انظر كتاب «الأسئلة المنهجية».

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وأصل هذا الكتاب هو عشر محاضرات ألقيتُها في دورة مركز الإمام الألباني، الأردن -عمان- مسجد إبراهيم الحاج حسن السادس من ربيع الثاني ١٤٢٩ هـ الموافق ١٢/ ٤/ ٢٠٠٨م، ولمدة أسبوعين وكانت بعنوان «فقه الدعوة إلى الله».

ورتبت هذا الكتاب على النحو التالي مقدِّمة وخمسة عشر باباً:

الباب الأول: قواعد في الدعوة والدعاة من كتاب الله -عز وجل-.

الباب الثاني: قواعد في الدعوة والدعاة من السنة النبوية.

الباب الثالث: قواعد في الدعوة والدعاة من منهج السلف الصالح.

الباب الرابع: قواعد في التعامل مع العلماء.

الباب الخامس: قواعد في شخصية طالب العلم الداعي إلى الله من السنة النبوية.

الباب السادس: فقه الدعوة إلى الله.

الباب السابع: أصول الدعوة إلى الله.

الباب الثامن: الدعوة إلى الله وخطورة الأحاديث الضعيفة.

الباب التاسع: الدعوة إلى الله والفهم الصحيح لقاعدة (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

الباب العاشر: الدعوة إلى الله والتفريق بين البدعة والمصلحة المرسلة.

الباب الحادي عشر: الدعوة إلى الله ومعرفة الصوارف عن الحق.

الباب الثاني عشر: المنهاج النبوي في دعوة الشباب إلى الله.

الباب الثالث عشر: الفتاوى المنهجية في الدعوة والدعاة للشيخ الألباني رحمه الله.

الباب الرابع عشر: ضوابط منهج السلف في الدعوة، وشروطها.

الباب الخامس عشر: السبيل بين الاتباع والابتداع.

فما كان في هذا الكتاب من خيرٍ ونفعٍ فهو من الله وحده فله الحمـد، فالفـضلُ كُلُّهُ لله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الـشيطان، فأسـتغفر الله، وأنـا تائـبٌ منها إلى الله -عز وجل-.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود].

• وانطلاقاً من قوله ﷺ: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[1] فلا يفـوتني أن أشكر كل من ساهم في إخراج هذا العمل وفي مقدمتهم الأخ الفاضل/ مـصطفى بن أحمد الزهيري -حفظـه الله- فقـد بـذل جهـداً كبـيراً معـي في هـذا الكتـاب، والأستاذ الفاضل/ إسماعيل بن عايش -حفظه الله-، وأسأل الله تعـالى أن يكـون ذلك في ميزان حسناتنا جميعاً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الشعراء].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه
أبو إسلام
صالح بن طه عبد الواحد
إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن
الأردن- عمان
بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء
٢٤ من ذي الحجة لعامة ١٤٣١ هـ
الموافق ٣٠/١١/٢٠١٠م

(١) «صحيح الجامع» (٦٤٧٧).

١

الباب الأول

قواعد في الدعوة والدعاة من كتاب الله عز وجل

قواعد في الدعوة والدعاة من كتاب الله عز وجل

• معشر الدعاة إلى الله! هذه قواعد في الدعوة والدعاة من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعضوا عليها بالنواجذ.

القاعدة الأولى: الإخلاص في الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ ﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص:٨٧].

القاعدة الثانية: الدعوة إلى الله تكون على علم وبصيرة

قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾ [يوسف].

القاعدة الثالثة: التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام!

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾ [الأنبياء].

وما من نبي إلا قال لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٦٥].

القاعدة الرابعة: الصبرُ في الدعوة إلى الله وعدم الاستعجال.

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم].

القاعدة الخامسة: التزام الحكمة في الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥].

القاعدة السادسة: المجادلة بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

القاعدة السابعة: دفع السيئة بالحسنة.

قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

القاعدة الثامنة: موافقة العمل للقول.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

القاعدة التاسعة: الدعاة إلى الله لا يسألون الناس أجراً على دعوتهم.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود:٢٩].

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود].

وما من نبي إلا قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء].

القاعدة العاشرة: الامتناع عن السب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام].

القاعدة الحادية عشرة: التوكل على الله وحده في الدعوة إلى الله.

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

القاعدة الثانية عشرة: اللين والرفق في الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء].

القاعدة الثالثة عشرة: التواضع وخفض الجناح.

قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

القاعدة الرابعة عشرة: العفو والصفح والإحسان.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون].

القاعدة الخامسة عشرة: معرفة السبيل.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

القاعدة السادسة عشرة: التبشير والتيسير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح]

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

القاعدة السابعة عشرة: النصيحة.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف].

القاعدة الثامنة عشرة: الاتحاد والاعتصام وعدم التفرق.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

القاعدة التاسعة عشرة: الاتباع وعدم الابتداع في الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف].

القاعدة العشرون: سبيل النجاة: الإسلام والسنة بفهم سلف الأمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

٢

الباب الثاني

قواعد في الدعوة والدعاة من السنة النبوية

قواعد في الدعوة والدعاة من السنة النبوية(*)

• معشر الدعاة إلى الله! وهذه قواعد في الدعوة والدعاة من كلام النبي الذي قال الله في وصفه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم]، فعضوا عليها بالنواجذ.

القاعدة الأولى: أساس الأعمال.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

وهذا الحديث قاعدةٌ هامةٌ من قواعد الدين، فالنية أساس الأعمال، فالواجب على الداعي إلى الله أن يحسِّن نيته حتى يرى الأمور كلها على حقيقتها دون أي زيوف، فإذا اطمأن قلبه بذلك سهل عليه أن يعرف واقع الأمة اليوم، وما يعانيه الناس من: ذل المسلمين.

القاعدة الثانية: ذل المسلمين.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**(٢)».

(*) هذا العنوان وما تحته مأخوذ من كتاب «الأربعون حديثاً في الدعوة والدعاة» لأخينا الفاضل فضيلة الشيخ: علي الحلبي -حفظه الله- بشيء من التصرف.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١)، (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي في «السنن» (٥/ ٣١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٣٧)، [«صحيح الجامع» (٤٢٣)].

وما أشار إليه الحديث من واقع الأمة «شيءٌ مشاهدٌ ظهرت آثاره في المسلمين، حين صاروا عبيد الأرض والزرع، بل هو ظاهرٌ في كل أمةٍ استعبدتها الأرض، وقصرت نفسها على الزرع، والجهاد هو ملاك الأمر كله في الإسلام رضي عبيد أوروبا أم أبوا»[١]، وهذا الذل الذي تعيشه الأمة ولَّد أمراً عظيماً يبوء أهله بالخسران إن لم يفيقوا من سباتهم ويستيقظوا من غفلتهم، ألا وهو: الاختلاف.

القاعدة الثالثة: الاختلاف.

عن عبدالله بن مسعود قال: (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: «**هذه سبلٌ، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه**»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية)[٢] [الأنعام:١٥٣].

وهذا الحديث يوضح لنا قضية مهمةً جداً ينبغي تأملها وتدبرها وهي قضية اختلاف الأمة في معرفة الصراط النبوي المستقيم، وهذا الاختلاف أدى إلى: تفرق الأمة.

القاعدة الرابعة: تفرق الأمة.

عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلهم في النار إلا واحدةٌ**» قالوا: وما هي تلك الفرقة؟ قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣].

(١) من تعليق الشيخ أحمد شاكر على «المسند» (رقم: ٤٨٢٥).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والدارمي (٢٠٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٣)، [«مشكاة المصابيح» (١٦٦)].

(٣) **حسن**: أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٧٢٤) واللفظ له، والترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ٢١٨، ٢١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٨٦)، [«صحيح الجامع» (٥٣٤٣)].

والتفرق المشار إليه في هـذا الحـديث حقيقـةٌ واقعـةٌ، لا ينكرهـا أعمـى، ولا يجحدها مستكبر، وفي الحديث نفسه إشارةٌ إلى حل مشكلة هـذا التفـرق، وذلـك بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ولكن: ما السبيل؟

القاعدة الخامسة: ما السبيل؟

عن حذيفة بن اليمان قال: كـان النـاس يـسألون رسـول الله ﷺ عـن الخـير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّـا كنَّـا في جاهليـةٍ وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» قلـت: وهـل بعد ذلك الشر من خيرٍ؟ قال: «**نعم، وفيه دخنٌ**» قلـت: ومـا دَخَنُـهُ؟ قـال: «**قـومٌ يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر**». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قـال: «**نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يـا رسـول الله! صفهم لنا، قال: «**هـم مـن جلـدتنا، ويتكلمـون بألـسنتنا**». قلـت: فـما تـأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم تكن لهم جماعـةٌ ولا إمامٌ؟ قال: «**فاعتزل تلك الفـرق كلهـا، ولـو أن تعـض بأصـل شـجرةٍ حتـى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[1].

وهذا الحديث يدل على الأصول العامة التي ينبغي على المسلم اتباعها، وأهـم شيء في ذلك هو اعتزال مواضع الفتنة التي تؤثر على حياة المسلم ودينـه، خاصـة عند غياب جماعة المسلمين ذات الإمام الواحد المنفذ للأحكام المقيم للحدود.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

وهذا ما أشار إليه الإمام الطبري[(١)] حيث قال: (وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمامٌ، وافترق الناس أحزاباً، فلا يتبع أحداً في الفرقة[(٢)]، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك، خشيةً من الوقوع في الشر).

هذا هو السبيل اليوم في غربة الإسلام، وضياع حملة الدين ودعاته. ولكن لا بد من: بيان السبيل.

القاعدة السادسة: بيان السبيل.

عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله! إن هذه لموعظة مودعٍ فماذا تعهد إلينا؟ قال: «**قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد**»[(٣)].

فالسبيل أبيض نقي، واضحٌ جلي، بيِّنٌ صفي، حق إن «ليله كنهاره»! ومع ذلك، فالناس يتخبطون، لا الحق يعرفون، ولا الباطل يجتنبون، فما السبب في ذلك؟.

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٣٧).

(٢) ولا يعني هذا إيقاف الدعوة، ومنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما سيأتي تقريره.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٧٥، ١٧٦)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٤٧)، في «مسند الشاميين» (٢٠١٧)، [«الصحيحة» (٩٣٧)].

هل هو خفاء السبيل؟ لا، فالسبيل معروفٌ، ولكن معالمه عند الكثير لا زالت غامضةً، لذا وجب معرفة: معالم السبيل.

القاعدة السابعة: معالم السبيل.

عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ الناس في حجة الوداع فقال: «**يا أيها الناس! إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتي**»[(١)].

فالركيزتان الأساسيتان لهذا السبيل هما الكتاب والسنة، لا مناص من وجوب الأخذ بهما، ولا مفر من المصير إليهما، بعيداً عن آراء ذوي الأهواء، وفي معزلٍ عن محكِّمي التجارب الشخصية والنزعات النفسية.

ويبرز هنا سؤالٌ قد يرد على ذهن البعض: وهل ينكر أحدٌ من الناس هاتين الركيزتين؟.

فالجواب: نعم، ولكنه إنكارٌ مبطنٌ مخبوءٌ غير ظاهرٍ، فلا يجرؤ أحدٌ من الناس مهما كان في الضلالة غريقاً أن ينكرهما صراحة!.

ولكن: هنا دقيقةٌ ينبغي التنبيه إليها، والتذكير بها، وهي قضية فهم هاتين الركيزتين، ولا يكون ذلك إلا بـ: الفيصل.

القاعدة الثامنة: الفيصل.

عن أبي هريرة قال: (سئل رسول الله ﷺ: أي الناس خيرٌ؟ فقال: «**أنا، والذين معي، ثم الذين على الأثر، ثم الذين على الأثر**» ثم كأنه رفض من بقي)[(٢)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٤) واللفظ له، وعنده (سنة نبيه) بدل (سنتي)، والحاكم (١/ ١٧١)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٥٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠)].

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧ و ٣٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٩٤)، [«الصحيحة» (٤/ ٤٥٥)].

والفيصل في صواب فهم الكتاب والسنة هو تطبيق الصحابة ومن كان على الأثر بعدهم، ثم من كان بعد أولاء على أثرهم أيضاً، فهم الخير كل الخير، وسواهم مرفوضٌ، ليس فيهم خيرٌ قط.

فمن ادعى أنه على الكتاب والسنة دون هذا الفيصل فهو لنفسه مخادعٌ دون شك أو ريب.

وعلى قلة من سار على هذا النهج الرشيد من المسلمين، فليس من شك أن: الخير باقٍ.

القاعدة التاسعة: الخير باقٍ.

عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس**»[1].

وهذا الخير على مر الأعصار وفي مختلف الأمصار باقٍ، لا يزيله تدبير ماكرٍ، ولا يقمعه مكر مخاتلٍ، لذا فإن من خذل هذه الطائفة من أبنائها ممن اجتالته شياطين الشهوات والشبهات، لا يضرها، وكذا من خالفها ممن جاهرها المخالفة، وناصبها العداء، فهي ثابتةٌ بأمر الله، منتظرةٌ أمر الله.

وكل فردٍ من أفراد هذه الطائفة عمدته في دعوته: صلاحٌ وإصلاح.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

القاعدة العاشرة: صلاح وإصلاح.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء**». قالوا: يا رسول الله! وما الغرباء؟ قال: «**الذين يُصلحون(*) عند فساد الناس**»(١).

فغربة الإسلام بين الناس تزيد المؤمن إيماناً، وترفع يقينه، وتضاعف ثباته، فهو صالحٌ في نفسه، مصلحٌ لغيره. وهذه الغربة ليس هو وحيداً فيها، إنما مثله في ذلك مثل كثير من الأنبياء عليهم السلام، كما قال ﷺ: «**عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرُّهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد...**»(٢).

«وفي هذا الحديث دليلٌ واضحٌ على أن كثرة الأتباع وقلتهم ليست معياراً لمعرفة كون الداعي على حق أو باطل»(٣).

وصلاح الداعي في نفسه وإصلاحه غيره قائمٌ على أصول ثلاثة، أولها: توحيد الله.

القاعدة الحادية عشرة: توحيد الله.

عن ابن عباس قال: لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: أن يوحدوا الله تعالى،**

(*) بضم الياء تعني: إصلاح الآخرين،وبفتحها تعني: صلاح الذات.

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٤) واللفظ له، وفي «الأوسط» (٣٠٥٦)، وفي «الصغير» (٢٩٠)، والقضاعي (١٠٥٥)، [«الصحيحة» (١٢٧٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) واللفظ له.

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٨٤) للعلامة الألباني.

فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس»(١).

وهو الأمر الأول الذي يجب على المرء معرفته، فمن دونه لا يدخل أحدٌ الإسلام، فتوحيد الله سبحانه هو الشق الأول من كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

والشق الآخر من هذه الكلمة الطيبة: «محمد رسول الله» وهي تعني: لا متبوعٌ بحق إلا رسول الله ﷺ، وهذا هو الأصل الثاني: الاتباع.

القاعدة الثانية عشرة: الاتباع.

عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيشٍ، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم، ويقول: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**» ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهُدى هُدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعةٍ ضلالةٌ**»(٢).

وفي تأييد ذلك ما قاله المفسرون عند قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة] قالوا: «وهو محسنٌ»: أي اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٧).

أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده.

والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة.

فمتى كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يتقبل»[١].

فإذا استقرت في نفس العبد حقيقة الأصلين المتقدم ذكرهما، وهما: التوحيد والاتباع، كان ذلك مفتاحاً للأصل الثالث من أصول دعوة الإسلام، وهو: التزكية.

القاعدة الثالثة عشرة: التزكية.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يُعلِّم من يعمل بهن؟**»، فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعدَّ خمساً فقال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[٢].

والتزكية هي تحرير النفس من الشوائب، والأمراض التي يسلطها الشيطان على عباد الله الصالحين الموحدين، فكلما زكَّى الإنسان نفسه، قرب من ربه، وانصاع لأوامر خالقه، وسهل عليه ما تستصعبه النفوس المريضة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس].

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٣١).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وأحمد (٢/ ٣١٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠٥٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٢٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٤٣)، [«الصحيحة» (٩٣٠)].

والداعي إلى الله في تطبيقه لأصول دعوته الثلاثة، يجب أن لا يغيب عـن بالـه قط: طبيعة الدين.

القاعدة الرابعة عشرة: طبيعة الدين.

عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»[١].

وهـي المبنيـة عـلى التبـشير دون التنفـير، وعـلى التيـسير دون التعـسير، فـإذا وعظ أحداً فبسهولةٍ وحكمةٍ، وإذا أمر بمعروفٍ فبلـينٍ ويـسرٍ، وإذا أنكـر منكـراً فبرحمةٍ وشفقةٍ.

وبهذه الصفات وحدها -مع ما تقدم- نمضي قدماً بديننا نحو الطريـق الأتـم الأكمل في الصدارة من كل شيءٍ في حياتنا، وإلا فنحن بانتظار: بداية الخلل.

القاعدة الخامسة عشرة: بداية الخلل.

عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قـال: «**أيـن أُرَاه الـسائل عن الساعة**»؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الـساعة**»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٢) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٩).

فإذا لم يعرف الإنسان قدر نفسه، وتطاول قلبُه للصدارة وهو دونها، كان ذلك بداية النهاية له، وفي مثله يقال: «من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه»!.

وإذِ الأمر كذلك فلا بد من معرفة: سبب الخلل.

القاعدة السادسة عشرة: سبب الخلل.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلةً**»[(١)].

«هذا الحديث مشتملٌ على خبرٍ صادق، وإرشادٍ نافعٍ:

أما الخبر: فإنه ﷺ أخبر أن النقص شاملٌ لأكثر الناس، وأن الكامل -أو مقارب الكمال- فيهم قليلٌ، كالإبل المئة تستكثرها، فإذا أردت منها راحلةً تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها، وهكذا الناس كثيرٌ، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة .. لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة، قياماً صالحاً، وهذا هو الواقع، فإن الإنسان ظلومٌ جهولٌ، والظلم والجهل سببٌ للنقائص، وهي مانعةٌ من الكمال والتكميل.

وأما الإرشاد: فإن مضمون هذا الخبر إرشادٌ منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع»[(٢)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).

(٢) «بهجة الأبرار» (ص٣١٦) للعلامة عبدالرحمن السعدي.

القاعدة السابعة عشرة: علاج الخلل.

عن تميمٍ الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[1].

فبالنصيحة وحدها نُقوِّم أنفسنا، ونصلح ذاتنا، ونعالج خللنا، فهي بهذا «فرضٌ لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير، لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه»[2].

والناصح الأمين له علامةٌ، فعلامته «إذا أراد زينة المنصوح له أن ينصحه سراً، وعلامة من أراد شينه أن ينصحه علانية»[3].

وبالنصيحة -إن شاء الله- نصل إلى: الواقع الذي نريده.

القاعدة الثامنة عشرة: الواقع الذي نريده.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء**» قيل: من هم؟ لعلنا نحبهم! قال: «**هم قومٌ تحابوا بنور الله من غير أرحامٍ ولا أنسابٍ، وجوههم نورٌ، على منابر من نورٍ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥٥) وعنده ذكر (الدين النصيحة) مرة واحدة، انظر [«الإرواء» (٢٦)].

(٢) «الرسالة» (رقم ١٧٠) للإمام الشافعي.

(٣) «روضة العقلاء» (١٩٦) لابن حبان.

ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾[(١)] [يونس].

فبالمحبة في الله سبحانه يسود الدعاةَ الخيرُ كل الخير، وبها تتآلف قلوبهم، وتسمو أرواحهم. وهذه المحبة يفرضها عليهم الإسلام العظيم بصفائه ونقائه، لا الحزبية الضيقة، والعصبية المقيتة!. والمحبة هذه: توجب على المسلمين والدعاة تأدية ما عليهم من: الحقوق.

القاعدة التاسعة عشرة: الحقوق.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست**». قالوا: ما هن يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيه سلم عليه، وإذا دعاه أجابه، وإذا استنصح نصحه، وإذا عطس فحمد الله يشمته، وإذا مرض عاده، وإذا مات صحِبهُ**»[(٢)].

فهذه الحقوق -وغيرها- واجبٌ على الداعي إلى الله أن يؤديها لأهلها من إخوانه وأصحابه، فهي سياجٌ يحمي الدعوة من التفكك، ويقي الداعي إلى الله من التسيب، فهي صونٌ لنفسه وصيانةٌ لإخوانه. ولابد -بعد ما تقدم- من معرفة أمورٍ كليةٍ ينبغي على المسلم -أي مسلمٍ- أن يتنبه إليها ولا تغيب عنه، منها: بداية الداعي.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٥٧٢)، وأبو يعلى (٦١٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٢٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢١٦٢) بلفظ آخر، وابن حبان (٢٤٢) واللفظ له.

القاعدة العشرون: بداية الداعي.

عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل عملٍ شِرَّةٌ(*)، ولكل شِرَّةٍ فترةٌ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»(١).

ليس بخافٍ أن كل بدايةٍ صعبةٌ، وصعوبة البدايات تختلف باختلاف الناس، وبالنسبة للمسلم الذي يُيَمِّمُ وجهه شطر الدعوة إلى الله سبحانه، تكون بدايته قويةً، وذلك أنه يريد أن يطبق الدين كله، ويريد أن ينهى عن الشر كله و .. وهكذا..

وهذا «النشاط والحماس» يوافق بعده فترةً وكسلاً عن تلك البداية القوية، فإذا صادفت هذه الفترة سنةً نبويةً، وسمتاً حسناً، كانت له الهداية، وقارنه التوفيق(٢) وإلا: فقد هلك -عياذاً بالله-.

وقد كان منهج السلف الصالح في هذا الدلالة إلى أهل السنة، فقد قال أيوب السختياني: إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله للعالم بالسنة»(٣).

وقال ابن شوذب: «إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يؤاخي صاحب السنة يحمله عليها»(٤).

(*) هو النشاط والحماس: «قاموس:٥٣٢».

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٨، ٢١٠)، وابن حبان (١١)، وابن خزيمة (٢١٥٠)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٦)].

(٢) انظر الحديث الآتي في القاعدة (٣٤).

(٣) أخرجه اللالكائي، «شرح أصول السنة» (رقم: ٣٠) وابن الجوزي (ص١٨)، وهو حسنٌ.

(٤) أخرجه اللالكائي، «شرح أصول السنة» (رقم:٣١) وابن الجوزي (ص١٨) وهو كسابقه.

فالعجب ممن ينفر الشباب المسلم من علماء السنة ودعاتها وذلك بالتشنيع عليهم، والتقليل من قدرهم، والتنقيص من شأنهم!! وفي بداية الداعي يجب عليه معرفة: أهمية الصحبة. ككك

القاعدة الحادية والعشرون: أهمية الصحبة.

عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبةً. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد [منه] ريحاً خبيثةً**»[1].

وهذا تتميمٌ للمبحث السابق:

فبمثل هذه الصحبة ينقذ اللهُ الضُّلال، ويهدي الفسقة، وقد روى العلماء[2] عن يوسف بن أسباط أنه قال: «كان أبي قدرياً، وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان»[3].

وهكذا، فإن «صحبة الأخيار: توجب العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار تحرم من ذلك أجمع»[4].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، وابن حبان (٥٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٤٣٥)، [«الصحيحة» (٣٢١٤)]، وفيها: (إنما مثل الجليس الصالح).

(٢) «شرح أصول السنة» (رقم: ٣٢) للالكائي.

(٣) هو الثوري إمام السنة.

(٤) «بهجة الأبرار» (ص٢٢٦).

وإذا استقر الداعي إلى الله على المنهج الحق، مرافقاً الصحبة الصالحة من أهل السنة، وجب عليه المحافظة على: قوام الدعوة.

القاعدة الثانية والعشرون: قوام الدعوة.

عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي بعثه الله في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريون[1]، وأصحابٌ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ[2]، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤْمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردلٍ**»[3].

وروح الدعوة وقوامها، ولبها ولبابها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لم يكن ذلك جاء من الله الغضب، وعمنا منه العقاب، كما قال النبي ﷺ: «**ما من قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي؛ هم أكثرُ وأعز ممن يعملُ بها، ثم لا يغيرونه، إلا يوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابٍ**»[4].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له درجاتٌ وردت في حديث الباب، ينبغي على الداعي إلى الله ألا يتجاوز درجة على حساب أخرى، إنما يتدرج فيها على حسب وسعه، ووفق قدرته.

---

(١) أنصار.

(٢) جمع «خَلْف». وهو من يجيء بعد مَن مضى.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥٠).

(٤) **حسن**: أخرجه أبو داود(٤٣٣٨)،وابن ماجه (٤٠٠٩)، وأحمد(٤/ ٣٦٤)، وابن حبان (٣٠٠)، [«الصحيحة» (٣٣٥٣)].

والمسلم في أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، لا يخرج في فعله عن: أخلاق الداعي إلى الله.

القاعدة الثالثة والعشرون: أخلاق الداعي إلى الله.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاثٌ مهلكاتٌ، شحٌّ مطاعٌ، وهوى متبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاثٌ منجياتٌ: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا**»[1].

والأخلاق المشار إليها هي النبائل كلها. والفضائل جمعاء، هي البعد عن كل سوء، والقرب من كل خيرٍ.

ومن الأخلاق السيئة التي ينبغي تجنبها: إعجاب المرء بنفسه! ويزيد ذلك سوءاً إذا وافقه جهلٌ من البعض، فيتبعون هذا المعجب بنفسه -عياذاً بالله- علماً أن مثل هذا الاتباع وحده عند كثيرٍ من العلماء الربانيين مكروهٌ مستقبحٌ، فلقد رأى عاصم بن ضمرة قوماً يتبعون رجلاً، فقال: «إنها فتنةٌ للمتبوع، مذلةٌ للتابع»[2]!

فكيف بمعجبٍ بنفسه، يطعن بغيره، ليكثر أتباعه! فمثل هذا يجمع سوءاً على سوءٍ على سوءٍ!!!

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو نعيم (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٥)، [«الصحيحة» (١٨٠٢)].

(٢) «العلل» (٢/ ١٦) لأحمد بن حنبل.

فأخلاق الداعي إلى الله الفاضلة تدفعه دفعاً حثيثاً لأن يحافظ على: سياج الدعوة.

القاعدة الرابعة والعشرون: سياج الدعوة.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَفْرَكْ**[١] **مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر**»[٢].

«وهذا الأدب الذي أرشد إليه ﷺ ينبغي سلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين، فإن نفعه الديني والدنيوي كثيرٌ، وصاحبه قد سعى في راحة قلبه، وفي السبب الذي يدرك به القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، لأن الكمال في الناس متعذرٌ. وحسب الفاضل أن تُعَدَّ معايبه.

وتوطين النفس على ما يجيء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان، يسهل عليه حسن الخلق، وفعل المعروف، والإحسان مع الناس»[٣].

وفائدةٌ أخرى مهمةٌ يشير إليها هذا الحديث الشريف، وهي: «زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين.

ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ بل عكس القضية، فَلَحظ المساوئ، وعمي عن المحاسن، فلابد أن يقلق، ولا بد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة. ويتقطع كثيرٌ من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها»[٤].

---

(١) يبغض.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٤٦٧).

(٣) «بهجة الأبرار» (ص١٧٥) للسعدي.

(٤) «الوسائل المفيدة ... » (ص١٩) للسعدي، تحقيق: علي الحلبي.

ومعرفة الداعي إلى الله لسياج الدعوة يجعله بالمحل الأعلى من: تقدير الأمور.

القاعدة الخامسة والعشرون: تقدير الأمور.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة! لولا أن قومك حديثو عهدٍ بجاهليةٍ، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغتُ به أساس إبراهيم**»[1].

فبتقدير الأمور يوضع كل شيءٍ في نصابه، وتتجلى حكمة الداعي إلى الله في أعلى صورها، فلا يضخم صغيراً، ولا يصغر عظيماً، ويتأمل السياسة الشرعية في سائر أفعاله.

ولقد غلا أناسٌ في هذه المسألة، فتراهم لا يقيمون للسنة وزناً، ولا للحق رأساً! حرصاً -بزعمهم- على وحدة الأمة، وشعور الناس!!

وفي ظني أن غلوهم هذا جاء ردَّة فعل لما يفعله بعض الناس أيضاً -فتراهم يقيمون الدنيا على أقل الأمور!

والحق بين هاتين الفئتين:

فنحن لا نسكت عن الحق وتبليغ السنة، وفي الوقت نفسه، نبلغها بكل حكمةٍ وبكل أسلوب حسنٍ.

فإذا رأينا أن هناك أشياء عكسية حصلت أو ستحصل، اكتفينا بالذكرى ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات].

وهذا هو أسلوب النبي ﷺ في: طريقة التربية.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣).

القاعدة السادسة والعشرون: طريقة التربية.

عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة! إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»[1].

فالمنهج إذاً:

الدعوة برفق ويسرٍ ولينٍ، والبعد عن العنف والشدة والقسوة.

فبهذا: يستجيب لنا الناس والمدعوون في الدنيا، ونحظى برضا الله وعفوه في الآخرة.

ومن الأمور الكلية التي ينبغي معرفتها: الفرق بين النظرية والتطبيق.

القاعدة السابعة والعشرون: الفرق بين النظرية والتطبيق.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ليلة أسري بي رجالاً تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نارٍ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!**»[2].

وهذه قضيةٌ من أهم ما يواجهها الدعاة إلى الله سبحانه، فترى الداعي إلى الله أو الخطيب يتحدث عن الزهد وهو عنه بمعزلٍ، أو يتكلم عن الغيبة وهو لها صاحبٌ ورفيقٌ، أو يُذكّر بالآخرة وهو (آخر) من يفكر فيها أو يعد لها!!

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٩)، والطيالسي (٢١٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧٣)، [«الصحيحة» (٢٩١)].

فالذي هذا حاله: الخوف عليه كبيرٌ، والبعد عنه مغنمٌ وفير، إلا لنصحٍ أو تذكير!

ومن الأمور الواجب معرفتها: دقة الداعي إلى الله وحرصه.

القاعدة الثامنة والعشرون: دقة الداعي إلى الله وحرصه.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يُحدث بكل ما سمع**»[1].

فالداعي إلى الله دقيقٌ في كل شيءٍ، وبخاصة فيما يسمعه من الناس، أو يقرؤه من الكتب. فالواجب أن يحرص جداً على التثبت من كل ما يصل أذنه أو عينه قبل إشاعته بين الخلائق، ونشره.

وتزداد دقته في صورتين ثنتين:

الأولى: إذا كان الذي بلغه شيءٌ له صلةٌ بالدين والشرع، كحديث مروي، أو حكم فقهي، ونحوه!

الثانية: إذا كان الذي بلغه خبر سوءٍ عن رجلٍ، أو كلمة شر عن أحدٍ!

فحينئذٍ يجب عليه التثبت، والحرص على الدقة وتوخي الحقيقة، لا المسارعة إلى النقل، والاندفاع إلى الإخبار!

والحرص يدفع الداعي إلى الله إلى الحفاظ على: قيمة الوقت.

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حبان (٣٠)، والحاكم (١/ ١٩٥)، [«صحيح الجامع» (٤٤٨٢)].

القاعدة التاسعة والعشرون: قيمة الوقت.

عن الزبير بن عدي قال: (أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحَجَّاج[١]، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم، سمعتُه من نبيكم ﷺ)[٢].

فللوقت قيمةٌ كبرى، في كل يومٍ تزداد عما قبله، بخاصةٍ أن ما أشار إليه الحديث السابق نذير خطرٍ على الأمة كلها إن هي لم تستثمر وقتها، وتستفد منه.

ومما يبين قيمة الوقت ما قاله المفسرون في سورة ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر]، من ذلك ما قاله الفخر الرازي في «تفسيره»[٣]:

«أقسم الله تعالى بالعصر -الذي هو الزمن- لما فيه من الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، ولأن العمر لا يقوّم بشيءٍ نفاسةً وغلاءً.

فلو ضيعت ألف سنةٍ فيما لا يعني، ثم تبت وثبتت لك السعادة في اللمحة الأخيرة من العمر، بقيت في الجنة أبد الآباد، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكان الزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم الله به، ونبه سبحانه على أن الليل والنهار فرصةٌ يضيعها الإنسان! وأن الزمان أشرف من المكان فأقسم به، لكون الزمان نعمة خالصةٌ لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان».

---

(١) هو الثقفي المعروف قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤٣) في ختام ترجمته: «نسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله»!!

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

(٣) (٣٢/ ٨٤)

فمن عرف للوقت ثمنه وللزمن قيمته وجب عليه أن يعلم أن ساعات عمره إما له، وإما عليه، فحينئذٍ يقال له: فاغتنمها.

القاعدة الثلاثون: ... فاغتنمها.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجلٍ وهو يعظه: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(١).

فهذه الأمور المطلوب اغتنامها والفرص المأمور اهتبالها: كلها علامات خيرٍ، وإشارات بر، وإن لم يفعل: انقلبت هي عليه، وكانت ضده، وقيل له(٢):

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه   وأراه أسهل ما عليك يضيع

وهكذا فإن «وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله، فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته، وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خيرٌ له من حياته»(٣).

ومما تجب معرفته للحذر منه: فتنة الداعي.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم(٤/ ٣٤١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٤٨)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٥٥)].

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٢٨١).

(٣) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الثاني» (ص١٨٤) لابن القيم.

القاعدة الحادية والثلاثون: فتنة الداعي.

عن أبي الأعور السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم وأبواب السلطان، فإنه قد أصبح صعباً هَبوطاً**»[1].

فالقرب من السلطان من أشد الفتن، وبه يتعرض الداعي لبلاءٍ كبيرٍ، «ومن أعظم ما يُخشى على من دخل على الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم، ويعينهم على ظلمهم ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرئاسة وهو حريصٌ عليهما، لا يقدم على الإنكار عليهم، بل ربما حسّن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقرباً إليهم ليحسِّن موقفه عندهم ويساعدوه على غرضه»[2].

ومن البلاء الكبير أن يزين الشيطان للداعي قربه من السلطان بأنه لنفع الدعوة، وخير الدين، وهو عن ذلك بمعزل!! إنما لمصلحته الشخصية، محافظةً على كيانه ومنصبه وجاهه!

والقرب من السلطان إذا كان لدعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فهو عملٌ خيرٌ يجزى عليه صاحبه الجزاء الحسن من ربه، وهكذا فإن: جهر الداعي بالحق من القضايا المهمة ...

القاعدة الثانية والثلاثون: جهر الداعي بالحق.

عن علي قال: لما ضممت إليّ سلاح رسول الله ﷺ وجدت في قائم سيف رسول الله ﷺ رقعة فيها: «**صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل**

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٦/ ٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» طبعة الرشد (٨٩٥٨)، [«الصحيحة» (١٢٥٣)].

(٢) «شرح حديث ما ذئبان جائعان» (ص٥٠) لابن رجب.

الحق ولو على نفسك»[١].

من القضايا المهمة الواجب تذكرها والتذكير بها، وبخاصة في هذا الزمن الذي اضطربت فيه المفاهيم، واختلفت فيه المبادئ، فأصبحت المداهنة مكان النصح، والمجاملة مكان الذكرى.

فالداعي يجهر بالحق -بالأسلوب الطيب كما أسلفت- دونما فرقٍ بين حاكمٍ أو محكومٍ، شيخٍ أو مريدٍ، نفسه أو غيره.

وجهره بهذا الحق يستلزم منه: الانتصار للمؤمنين.

القاعدة الثالثة والثلاثون: الانتصار للمؤمنين.

عن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ ومعه أصحابه، وقع رجلٌ بأبي بكرٍ، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكرٍ، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكرٍ، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكرٍ: أوجدت عليَّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نزل ملكٌ من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت، وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**»[٢].

فالانتصار للمؤمنين أمرٌ عظيمٌ جداً، يحافظ به الداعي على حبل وده مع إخوانه ممن يعرف أو لا يعرف، أما إذا سكت وما تكلم، وآثر الصمت على الذب

(١) **صحيح**: [«الصحيحة» (١٩١١)].

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٦٩)، [«الصحيحة» (٢٣٧٦)].

عن إخوانه والانتصار لهم، فقد خالف أمر الرسول ﷺ القائل: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»[1].

وليس بخافٍ أنه إذا انتصر المسلم لأخيه المسلم من ألسنة من يستغيبه أو يطعن فيه، كان ذلك سبباً كبيراً -زيادة على قمع الشيطان وكيده- في صلاح نفسه وأخيه، وفي تقليل بذور الشر والفساد من بين الناس، وفي هذا رفعٌ للدعوة وتعظيمٌ لشأنها.

وهذا الذي أسلفت التنبيه عليه يشير إلى مسألةٍ مهمة أيضاً، وهي: بيئة الداعي.

القاعدة الرابعة والثلاثون: بيئة الداعي.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعةً وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله، فقال له: هل لي من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل؟ فقال له رجلٌ: ائتِ قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فَنَاءَ بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه: أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوُجِدَ إلى هذه أقرب بشبرٍ، فغفر له**»[2].

فإصلاح الداعي بيئته أمرٌ من الأهمية بمكانٍ رفيعٍ، وبخاصةٍ إذا كان الداعي في أول توجهه وبداية دعوته، فإن لم يستطع ذلك وجب عليه الانتقال من بيئته التي هي بيئة ضعفٍ وشر ومعصيةٍ إلى بيئةٍ يغلب عليها الخير والصلاح.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

والحديث المذكور هنا دليلٌ قوي على ما ذكرت «ففيه إشارةٌ إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمان المعصية، والتحول منها كلها، والاشتغال بغيرها»[(١)].

ومن الأمور التي يجب معرفتها: منهج الداعي إلى الله.

القاعدة الخامسة والثلاثون: منهج الداعي إلى الله.

عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: كنت عند علي بن أبي طالب، فأتاه رجلٌ فقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليك؟! قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليّ شيئاً يكْتُمُهُ الناس، غير أنه قد حدثني بكلماتٍ أربعٍ، قال: فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: قال: «**لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غيَّر منار الأرض**»[(٢)].

فهذا الحديث -على قلة جمله ووجازة عباراته- يبين للداعي إلى الله أصول منهجه، وقواعد دعوته، والحقوق التي بني الدين عليها:

فالجملة الأولى تقرر حق النفس.

والجملة الثانية: تقرر حق التوحيد.

والجملة الثالثة: تقرر حق العبادة.

والجملة الربعة: تقرر حق الغير.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٧٨).

فمن حافظ على حق نفسه، وحمى حق توحيد الله، وصان حق العبادة، وحفظ حق الغير، اكتمل منهجه، وحسن تطبيقه.

والتذكير بهذه القضايا الكلية الأربعة، والدعوة إليها: ليس بالأمر السهل اليسير كما يتوقعه أو يظنه البعض، بل هو أمرٌ عسيرٌ يستغرق الجانب الأكبر من حياة الداعي وهو -بعد- لم يستطع أن يؤديه بعض حقه.

فمن أبعد عن هذا المنهج الواضح بالدعوة، إلى هذه القضايا المشار إليها، مستبدلاً ذلك بسفاسف من الأمور، وقشورٍ من المسائل، وجب عليه إعادة نظره والتفكير بأمره.

وهذا يحتاج إلى معرفة: فطنة الداعي.

القاعدة السادسة والثلاثون: فطنة الداعي.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلدغُ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين**»[1].

فهو إذا تلبس بأمرٍ، وعلم -على طول الدهر- عدم جدواه، وضآلة نفعه، فهو يقيم عليه ويستمر فيه!؟

إن فعل فهو عن الفطنة بعيد، وإن حذر واجتنب فهو من الإيمان والفطنة بالمحل الأعلى.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

والحديث المذكور «مثلٌ ضربه النبي ﷺ لبيان كمال احتراز المؤمن ويقظته، وأن المؤمن يمنعه إيمانه من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتها، وأنه متى وقع في شيءٍ منها، فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة، ومن تمام توبته: أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب، كحال من أدخل يده في جحرٍ فلدغته حيةٌ، فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر، لما أصابه فيه أول مرة»[1].

وأمر الداعي إلى الله في هذا، كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره»[2].

فكيف بمن تعظه نفسه ولا يتعظ!؟

ومن الأمور التي تزيد في الفطنة: ابتلاء الداعي إلى الله.

القاعدة السابعة والثلاثون: ابتلاء الداعي إلى الله.

عن خباب بن الأَرَتِّ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[3].

(١) «بهجة الأبرار» (ص٢٢٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦١٢).

فبها يتمحص القوي من الضعيف، والذكي من البليد، كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

فالابتلاء يزيد الداعي إلى الله ولا ينقصه، ويفيده -عند الله- ولا يضره وهو لا بد منه لمحب الله ورسوله، كما قال النبي ﷺ: «**إن البلايا أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه**»[1].

وهذا الابتلاء سنة الله سبحانه في الأنبياء والصالحين والدعاة على مر العصور، وفي الكتاب الكريم والسنة المطهرة القصص الكثيرة الموضحة لذلك، والمؤكدة له.

فللثبات على الدعوة، وللصبر على الابتلاء لابد من التركيز على: الكيف لا الكم.

القاعدة الثامنة والثلاثون: الكيف لا الكم.

عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة على قصعتها**». فقال قائلٌ: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ! ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**». فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[2].

(١) **حسن**: أخرجه ابن حبان (٢٩١١)، [«الصحيحة» (١٥٨٦)].

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، والطيالسي (١٠٨٥)، وأبو نعيم (١/ ٢٣٩)، والطبراني في «مسند الشافعيين» (٦٠٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٢٤٤)، [«الصحيحة» (٩٥٨)].

فلو أننا اهتممنا بالكثرة والكمية لكان الغثاء خيراً منـا، إذ الكثـرة دون وعـيٍ وفهمٍ ورويةٍ وتربيةٍ، ضررها مؤكدٌ وخطرها يقيني، إذ تولد الغرور، وعليه: فعدم قبول الحق، فالاختلاف .. فالفشل والهزيمة.

ولعل هذا ما أشار إليه النبي ﷺ حينما قال: «... **ولا يغلب اثنا عشر ألفاً مـن قلة**»[(١)] !! إذاً: هذا العدد ليس بقليلٍ، بل هو كثيرٌ، فلماذا تهزم هذه الكثرة؟

إن هزيمتها لأنها لم تهتم بالجانب الأصيل من الإسلام وهو توحيد الله تبـارك وتعالى، ولم ترب الدعاة على معرفة الحقوق وأداء الواجبات، فـضعفوا، ووهنـوا، فصاروا في ذيل القافلة بعد أن كانوا سادتها، وصاروا ضعافاً بعد أن كانوا أقوياء.

فلو أن الداعي إلى الله تربى التربية الحقة، وسار عـلى نهـج النبـي ﷺ فإنـه لا شك واصلٌ إلى: الهدف الأسمى.

القاعدة التاسعة والثلاثون: الهدف الأسمى للداعي إلى الله.

عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم**»[(٢)].

وهذا هو الذي يريـده الله منـا، أن نـسير عـلى الـنهج، فـإذا وصـلنا إلى العـز والسؤدد والنصر فمن فضل الله ونعمته، وإلا فقد قدمنا العـذر لأنفـسنا أمـام الله سبحانه، بأننا قمنا بواجبنا المطلوب منا.

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وابن ماجه (٢٨٢٧)، وابن حبـان (٤٦٩٧)، [«الصحيحة» (٢/ ٦٨٢-٦٨٥) (٩٨٦)].

(٢) **صحيح**: أخرجـه أحمـد (٤/ ٢٦٠)، وأبـو داود (٤٣٤٧)، وابـن الجعـد (١٢٨)، والقـضاعي (٨٨٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٥٧)، [«صحيح الجامع» (٥٢٣١)].

وعليه: فليس من الشرط على الله عز شأنه أن يقدم لنا نصراً على عدونا ندركه في حياتنا، لا، بل قد يقوم الواجب الذي قدمناه بالتوطئة لنصرٍ وفلاحٍ سيأتي على يد أبنائنا أو من بعدهم.

وفي التاريخ الإسلامي العريق أكبر عبرةٍ. ومنه قول الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد].

وهذا درسٌ عظيمٌ للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى لكي يعرفوا ما لهم وما عليهم، فيتوبوا إلى ربهم ويرجعوا إلى منهاج نبيهم ﷺ، ويقولوا بملء أفواههم: نحن مسلمون وكفى.

القاعدة الأربعون: نحن مسلمون وكفى.

عن الحارث الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلماتٍ، يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل يعملون بهن، وأن عيسى بن مريم عليه السلام قال له: إن الله (أمرك) بخمس كلماتٍ، تعمل بهن، وتأمر بهن بني إسرائيل يعملون بهن، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، قال: إنك إن تسبقني بهن خشيت أن أُعذب أو يُخسف بي، قال: فجمع الناس في بيت المقدس، حتى امتلأ، وقعد الناس على الشرفات، قال: فوعظهم، قال: إن الله أمرني بخمس كلماتٍ، أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجلٍ اشترى عبداً من خالص ماله بذهبٍ أو ورِقٍ، قال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إليّ، فجعل يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ فإن الله خلقكم**

ورزقكم، فلا تشركوا به شيئاً، وآمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، وأن مثل ذلك كمثل رجلٍ كانت معه صرةٌ فيها مسكٌ، ومعه عصابةٌ، كلهم يعجبهم أن يجد ريحها، فإن الصائم عند الله، يعني أطيب من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أسره العدو، وقاموا إليه فأوثقوا يده إلى عنقه، فقال: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ قال: فجعل يعطيهم القليل والكثير ليفك نفسه منهم، وآمركم بذكر الله كثيراً، وأن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، حتى أتى على حصنٍ حصين فأحرز نفسه فيه، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله عز وجل».

وقال رسول الله ﷺ: «**وأنا آمركم بخمسٍ أمرني الله بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله عز وجل، فمن فارق الجماعة قيد شبرٍ خَلَع، يعني ربقة الإسلام من رأسه، إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم**». قيل: وإن صام وصلى؟ قال: «**وإن صام وصلى، فادعوا بدعوى الله الذي سمى الله به: المسلمين، المؤمنين، عباد الله**»[1].

وهذا الحديث «جامع لفنون من العلم»[2]، وأهم ما نريد التنبيه عليه هنا هو خاتمته: «فادعوا بدعوى الله الذي سمى الله به: المسلمين المؤمنين، عباد الله».

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، والترمذي (٢٨٦٣)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وابن حبان (٦٢٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٨٥-٢٨٧)، وأبو يعلى (١٥٧٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢)]، ولفظه غير اللفظ الذي أورده مؤلف الكتاب (الأصل) الشيخ علي الحلبي فإني لم أجده.

(٢) «الاستيعاب» (٢/ ٢٢٧) لابن عبدالبر.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية[١] عـن بعـض الـسلف قولـه: «مـا أبـالي أي النعمتين أعظم؟ على أن هداني الله للإسلام أو جنبني هذه الأهواء، والله تعالى قـد سمانا في القرآن المسلمين المؤمنين عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قومٌ، وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان».

فإذا عرفنا هذا ووعتـه عقولنـا، رجـع إسـلامنا إلى نـصاعته الـسلفية الأولى، وغدت الدعوة إلى الله سبحانه وسيلةً ساميةً لا هدفاً.

أجل فالدعوة وسيلةٌ لعبادة الله سبحانه وتوحيده، كما قال عز شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وهذه قضيةٌ مهمةٌ في طريق السالك إلى الله سبحانه، تختلط على الكثـير ممـن لم يتلق العلم ويتحصل عليه من منابعه الأصـيلة، فتنقلـب عنـده الأمـور، فتـصبح الوسائل غاياتٍ والغايات وسائل! فلا قوة إلا بالله.

(١) «الوصية الكبرى» (ص٧٦) تحقيق: علي الحلبي.

٣

الباب الثالث

قواعد في الدعوة والدعاة من منهج السلف الصالح

قواعد في الدعوة والدعاة من منهج السلف الصالح(*)

• معشر الدعاة إلى الله! وهذه قواعد في الدعوة والدعاة من منهج السلف الصالح فعضوا عليها بالنواجذ، لأن منهج السلف هو المنهج الحق القائم على الكتاب والسنة وهو الذي يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

(١)

القاعدة الأولى

الدين مبني على أصلين عظيمين: الإخلاص، والمتابعة للنبي ﷺ

الأول: الإخلاص، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر]، ولقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1].

الثاني: متابعة النبي ﷺ، بأن يكون العمل موافقاً لما شرعه ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال الفضيل بن عياض: «أحسن عملاً: أخلصه وأصوبه». قيل: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «الخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة»[2].

(*) هذا العنوان وما تحته أخذناه كاملاً من كتاب: «الإصباح في بيان منهج السلف في التربية والإصلاح» لأخينا فضيلة الشيخ: عبدالله بن صالح العبيْلان -حفظه الله- وأنصح طلاب العلم بالرجوع إلى هذا الكتاب؛ فإن فيه خيراً كثيراً، وقد أجاد فيه مؤلفه وأفاد.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٨/ ١٧٦)، وابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (١)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (ص٢٠)، عن إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل بن عياض بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقول الرسول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**». أخرجه الشيخان، وهذا لفظ مسلم[1].

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة؛ وهم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم؛ بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارفٍ بهم البتة؛ بل من جاهلٍ بشأنهم وجاهلٍ بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه، وحبه وبغضه، ولا يعامل أحدٌ الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقةٌ لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧١٨).

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه». قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة». وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]. فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]. وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: مَنْ لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقاً لشرع، وليس هو خالصاً للمعبود؛ كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم،

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧١٨).

فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلصٌ في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر؛ كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله؛ فهذا حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله؛ كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياءً وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال؛ فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير صالحة، فلا تقبل، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر والإخلاص له في العبادة، وهم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[١] [الفاتحة].

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٨٣).

(٢)

القاعدة الثانية

أن مصدر التشريع والدعوة والعبادة هو: القرآن والسنة الصحيحة

لقوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الأعراف:٣]. وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات:١]. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم].

وقوله ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتي**»[(١)].

(٣)

القاعدة الثالثة

أن أهل السنة والجماعة لا يستقلّون بفهم القرآن عن السنة

لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩]. وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل:٤٤]. وقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٢)، والدارقطني في «السنن» (٤٦٠٦)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٧)].

وقال ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجلٌ شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه**»(١). وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودعٍ، فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبدٌ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ**»(٢).

وكما في «صحيح البخاري» عن حذيفة قال: «**يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً**»(٣).

• وللشيخ الألباني رحمه الله قدم راسخة في الدعوة إلى الله وفي بيان أهمية فهم القرآن من خلال السنة ودعا الناس إليه من خلال دروسه ومحاضراته وكتبه وتحقيقاته فقال رحمه الله في رسالته القيمة النافعة «منزلة السنة في الإسلام» تحت عنوان «**وظيفة السُّنة مع القرآن**»:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٨٣)، [«المشكاة» (١٦٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٧٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧)].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٨٢).

تعلمون جميعاً أن الله تبارك وتعالى اصطفى محمداً ﷺ بنبوته، واختصَّه برسالته، فأنزل عليه كتابه القرآنَ الكريمَ، وأمره فيه -في جملة ما أمره به- أن يبيِّنَه للنَّاسِ؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

والذي أراه أن هذا البيان المذكور في هذه الآية الكريمة يشتمل على نوعين من البيان:

الأول: بيان اللفظ ونظمه، وهو تبليغ القرآن، وعدمُ كتمانه، وأداؤه إلى الأمة، كما أنزله الله تبارك وتعالى على قلبه ﷺ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث لها: (ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفِرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧])[١].
وفي رواية لمسلم: (ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه لكَتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧])[٢].

والآخر: بيان معنى اللفظ أو الجملة أو الآية الذي تحتاج الأمَّة إلى بيانه، وأكثر ما يكون ذلك في الآيات الْمُجْمَلة، أو العامة، أو المطلقة، فتأتي السنة فتُوضِّح الْمُجْمَلَ، وتُخصِّص العام، وتقيِّد المطلق، وذلك يكون بقوله ﷺ، كما يكون بفعله وإقراره.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦١٢)، ومسلم (١٧٧) وللفظ له.
(٢) **حديث رقم** (١٧٧).

ضرورة السنة لفهم القرآن وأمثلة على ذلك

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] مثال صالح لذلك؛ فإنَّ السَّارق فيه مطلق كاليد، فبيَّنت السنة القولية الأول منهما، وقيدته بالسارق الذي يسرق ربع دينار بقوله ﷺ: «**لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً**»[١]. كما بيَّنت الآخر بفعله ﷺ أو فعلِ أصحابه وإقراره؛ فإنهم كانوا يقطعون يد السارق من عند المفصل، كما هو معروف في كتب الحديث، بينما بَيَّنَت السنة القولية اليد المذكورة في آية التيمم: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ [المائدة:٦] بأنها الكف أيضاً بقوله ﷺ: «**التيمُّم ضربة للوجه والكفين**»[٢].

وإليكم بعض الآيات الأخرى التي لا يمكن فهمُهَا فهماً صحيحاً على مراد الله تعالى إلا من طريق السنة.

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] فقد فهم أصحاب النبي ﷺ قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ على عمومه الذي يشمل كل ظلم، ولو كان صغيراً؛ ولذلك استشكلوا الآية فقالوا: يا رسول الله! أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال ﷺ: «**إنه ليس بذاك؛ ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]**»[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧٨٩)، ومسلم (١٦٨٤) وللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٣)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والدارمي (٧٤٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٤٥)، وفي «الأوسط» (٥٤٢)، [«الصحيحة» (٦٩٤)].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤).

٢- قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء:١٠١]، فظاهر هذه الآية يقتضي أنَّ قـصر الـصلاة في الـسفر مـشروط لـه الخوف؛ ولذلك سأل بعضُ الصحابةِ رسولَ الله ﷺ فقـال: مـا بالنـا نقـصر وقد أَمِنَّا؟ قال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**»(١).

٣- قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]، فبينت السنة القولية أنَّ ميتةَ الجراد والسمك، والكبد والطحال من الدم حلال؛ فقال ﷺ: «**أُحِلَّـتْ لنـا ميتتـان ودمان: فأما الميتان فالحوت والجـراد** (أي: الـسمك بجميـع أنواعـه)، **وأمـا الدمان فالكبد والطحال**»(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥]. ثم جاءت الـسنة فحرَّمـت أشياءَ لم تُذْكَر في هذه الآية؛ كقولـه ﷺ: «**كـل ذي نـاب مـن الـسباع، وكـل ذي مخلب من الطـير حـرامٌ**»(٣). وفي البـاب أحاديـث أخـرى في النهـي عـن ذلك؛ كقوله ﷺ يوم خيبر: «**إنَّ الله ورسوله ينهيـانكم عـن الحُمُـر الأهليـة؛ فإنها رجسٌ**»(٤).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٦٨٦)، وجملة: (ما بالنا نقصر وقد أمِنَّا) ليست من لفظ الحديث.

(٢) **صحيح**: أخرجه أخرجه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجـه (٣٣١٤)، وعبـد بـن حُميـد (٨٢٠)، والبيهقـي في «السنن» (١/ ٢٥٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٨٠٣)، [«الصحيحة» (١١١٨)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٣٤).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٥٢٨)، ومسلم (١٩٤٠).

٥- قولـه تعـالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]. فبيَّنت السنة أيضاً أن من الزينة ما هو محرَّم؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه خرج يوماً على أصحابه وفي إحدى يديه حريرٌ، وفي الأخرى ذهبٌ، فقال: «**إن هذين حرام على ذكور أمَّتي، حلٌّ لإناثهم**»[1].

والأحاديث في معناه كثيرة معروفة في الصحيحين وغيرهما، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المعروفة لدى أهل العلم بالحديث والفقه.

ومما تقدم يتبيَّن لنا أيها الإخوة أهمية السنة في التشريع الإسلامي؛ فإننا إذا أعدنا النظر في الأمثلة المذكورة فضلاً عن غيرها مما لم نذكر، نتيقَّن أنه لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً إلا مقروناً بالسنة.

ففي المثال الأول فهم الصحابة «**الظُّلْمَ**» المذكورَ في الآية على ظاهره، ومع أنهم كانوا رضي الله عنهم كما قال ابن مسعود: (أفضل هذه الأمة، أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً)[2] فإنهم مع ذلك قد أخطأوا في ذلك الفهم، فلولا أن النبي ﷺ ردهم عن خطئهم، وأرشدهم إلى أن الصواب في «**الظلم**» المذكور إنما هو الشرك، لاتبعناهم على خطئهم، ولكن الله تبارك وتعالى صاننا عن ذلك بفضل إرشاده ﷺ وسنته.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥)، والترمذي (١٧٢٠)، وأحمد (٤/ ٣٩٤)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ١٤١)، والبزار «كشف الأستار» (٣٠٠٦)، [«صحيح الجامع» (٢٢٧٤)].

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٧).

وفي المثال الثاني: لولا الحديث المذكور لبقينا شاكِّين على الأقل في قصر الصلاة في السفر في حالة الأمن -إن لم نذهب إلى اشتراط الخوف فيه كما هو ظاهر الآية- وكما تبادر ذلك لبعض الصحابة لولا أنهم رأوا رسول الله ﷺ يقصر، ويقصرون معه وقد أَمِنُوا.

وفي المثال الثالث: لولا الحديث أيضاً لحرَّمنا طيبات أحلت لنا: الجراد والسمك، والكبد والطحال.

وفي المثال الرابع: لولا الأحاديث التي ذكرنا فيه بعضها لاستحللنا ما حرَّم الله علينا على لسان نبيه ﷺ من السباع وذوي المخلب من الطير.

وكذلك المثال الخامس: لولا الأحاديث التي فيه لاستحللنا ما حرَّم الله على لسان نبيه من الذهب والحرير؛ ومن هنا قال بعض السلف: «السنة تقضي على الكتاب».

ضلال المستغنين بالقرآن عن السنة

ومن المؤسف أنه قد وُجِد في بعض المفسرين، والكُتَّاب المعاصرين، مَنْ ذهب إلى جواز ما ذُكِر في المثالين الأخيرين من إباحة أكل السباع، ولبس الذهب والحرير؛ اعتماداً على القرآن فقط، بل وُجِد في الوقت الحاضر طائفة يتسمَّون بـ (القرآنيين) يفسرون القرآن بأهوائهم وعقولهم، دون الاستعانة على ذلك بالسنة الصحيحة، بل السنة عندهم تبع لأهوائهم، فما وافقهم منها تشبثوا به، وما لم يوافقهم منها نبذوه وراءهم ظهريا، وكأن النبي ﷺ قد أشار إلى هؤلاء بقوله في الحديث الصحيح: «**لا أُلفيَنَّ أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما**

أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[(١)]، وفي رواية لغيره: «**ما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه، ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**»[(٢)].

وفي أخرى: «**ألا وإن ما حرَّم رسول الله مِثلُ ما حرم الله**»[(٣)].

بل إن من المؤسف أن بعض الكُتَّابِ الأفاضل أَلَّف كتاباً في شريعة الإسلام وعقيدته، ذكر في مقدمته أنه أَلَّفه وليس لديه من المراجع إلا القرآن!

فهذا الحديث الصحيح يدل دلالةً قاطعةً على أن الشريعة الإسلامية ليست قرآناً فقط؛ وإنما هي قرآن وسنة، فمن تمسَّك بأحدهما دون الآخر، لم يتمسك بأحدهما؛ لأن كل واحد منهما يأمر بالتمسك بالآخر، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٦٣)، وأبو داود (٤٦٠٥)، وابن ماجه (١٣)، وأحمد (٦/ ١٠)، والحاكم (١/ ١٩٠، ١٩١)، وانظر: [«صحيح الجامع» (٧١٧٢)].

(٢) لم أجده بهذا اللفظ وكأن الشيخ الألباني رحمه الله جمع بين حديثين الحديث الأول: «ما وجدنا فيه من حرام حرمناه» وهو عند ابن ماجه وأحمد وغيرهم، والحديث الثاني: «ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه» وهو عند أحمد وأبو داود والطبراني وغيرهم وكلا الحديثين من رواية الصحابي المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه، ثم إن الحديث قد جاء بلفظ آخر كما عند أحمد (٤/ ١٣٠)، وابن حبان (١٢)، غير اللفظ الذي أورده الشيخ الألباني رحمه الله، انظر: [«الصحيحة» (٢٨٧٠)].

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١٢)، والدارمي (٥٩٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٩٤٨)، وفي «الكبير» (٢٠/ ٢٧٤)، [«صحيح الجامع» (٨١٨٦)].

وبمناسبة هذه الآية يعجبني ما ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو: (أن امرأةً جاءت إليه، فقالت له: أنت الذي تقول: لعن الله النَّامصات والمتنمِّصات، والواشمات... الحديث؟ قال: نعم، قالت: فإني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره، فلم أجد فيه ما تقول! فقال لها: إن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى! قال: فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لعن الله النامصات...)[1] الحديث.

عدم كفاية اللغة لفهم القرآن

ومما سبق يبدو واضحاً أنه لا مجال لأحدٍ مهما كان عالماً باللغة العربية وآدابها أن يفهم القرآن الكريم، دون الاستعانة على ذلك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم القوليَّة والفعليَّة؛ فإنه لن يكون أعلم في اللغة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين نزل القرآن بلغتهم، ولم تكن قد شابتها لوثة العجْمة والعامِّية واللحن، ومع ذلك فإنهم غلطوا في فهم الآيات السابقة حين اعتمدوا على لغتهم فقط.

وعليه فمن البدهي أن المرء كلما كان عالماً بالسنة، كان أحرى بفهم القرآن واستنباط الأحكام منه، ممن هو جاهل بها، فكيف بمن هو غير معتدٍّ بها، ولا ملتفتٍ إليها أصلاً؟

ولذلك كان من القواعد المُتَّفَق عليها بين أهل العلم، أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن والسنة[2] ثم بأقوال الصحابة... إلخ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥) بنحوه.

(٢) لم نقل كما هو شائع لدى كثير من أهل العلم: يفسر القرآن بالقرآن إن لم يكن ثمة سنة، ثم بالسنة؛ لما سيأتي بيانه في آخر هذه الرسالة عند الكلام على حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ومن هنا يتبيَّن لنا سبب ضلال علماء الكلام قديماً وحديثاً ومخالفتهم للسلف رضي الله عنهم في عقائدهم، فضلاً عن أحكامهم؛ وهو بُعْدهم عن السنة والمعرفة بها، وتحكيمهم عقولهم وأهواءهم في آيات الصفات وغيرها، وما أحسن ما جاء في «**شرح العقيدة الطحاوية**» (ص٢١٢- الطبعة الرابعة): (وكيفَ يتكَلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان؟ وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله، لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثِّقات الذي تخيرهم النقاد؛ فإنهم لم ينقلوا نظمَ القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه بمعانيه، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه، وبما يظنه دينَ الله، ولم يتلقَّ ذلك من الكتاب فهو مأثوم(!) وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره).

ثم قال (ص٢١٧): (فالواجب كمالُ التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو نحمله شبهة أو شكَّاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فنوحده ﷺ بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المُرْسِلَ سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكُّل).

وجملة القول: أن الواجب على المسلمين جميعاً ألَّا يفرقوا بين القرآن والسنة، من حيث وجوب الأخذ بهما كليهما، وإقامة التشريع عليهما معاً؛ فإن هذا هو

الضمان لهم ألَّا يَميلوا يميناً ويساراً، وألَّا يرجعوا القهقرى ضلالاً، كما أفصح عن هذا رسول الله ﷺ بقوله: «**تركت فيكم أمرين، لن تضلُّوا ما إن تمسكتم بهما: كتابَ الله، وسنتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض**»[١].

تنبيه هام:

ومن البدهي بعد هذا أن أقول:

إن السنة التي لها هذه الأهمية في التشريع، إنما هي السنة الثابتة عن النبي ﷺ بالطرق العلمية والأسانيد الصحيحة المعروفة عند أهل العلم بالحديث ورجاله، وليست هي التي في بطون مختلف الكتب من التفسير والفقه، والترغيب والترهيب، والرقائق والمواعظ وغيرها؛ فإن فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة والمنكرة والموضوعة، وبعضها مما يتبرَّأ منه الإسلام؛ مثل: حديث هاروت وماروت، وقصة الغرانيق، ولي رسالة خاصة في إبطالها وهي مطبوعة[٢]، وقد خَرَّجْتُ طائفة كبيرة منها في كتابي الضخم «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة»، وقد بلغ عددها حتى الآن قرابة أربعة آلاف حديث[٣]! وهي ما بين ضعيف وموضوع، وقد طُبِع منها خمس مئة فقط.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك في «الموطأ» (رواية يحيى الليثي) (٢٦١٨)، والحاكم (١/ ١٧٢)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٤)، والدارقطني (٤٦٠٦)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٧)].

(٢) واسمها «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق» طبع المكتب الإسلامي.

(٣) وقد جاوز العدد الآن الخمسة آلاف، ولعل الله ييسر طبعها قريباً، [وقد طبعت كاملة الآن في عشرين مجلداً وبلغت أحاديثه (٧١٦٢)] (المحقق).

فالواجب على أهل العلم، لا سيما الذين ينشرون على الناس فقههم وفتاويهم ألَّا يتجرءوا على الاحتجاج بالحديث إلا بعد التأكُّد من ثبوته؛ فإن كتب الفقه التي يرجعون إليها عادةً مملوءة بالأحاديث الواهية المنكَرة وما لا أصل له، كما هو معروف عند العلماء.

وقد كنتُ بدأتُ مشروعاً هامّاً في نظري، وهو نافع جداً للمشتغلين بالفقه سميته «الأحاديث الضعيفة والموضوعة في أمهات الكتب الفقهية» وأعني بها:

١- الهداية للمرغيناني في الفقه الحنفي.

٢- المدونة لابن القاسم في الفقه المالكي.

٣- شرح الوجيز للرافعي في الفقه الشافعي.

٤- المغني لابن قدامة في الفقه الحنبلي.

٥- بداية المجتهد لابن رشد الأندلسي في الفقه المقارن.

ولكن لم يُتَح لي إتمامه -مع الأسف- لأن مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتيَّة التي وعدت بنشره، ورحبت به، حين اطلعت عليه لم تنشره.

وإذ قد فاتني ذلك، فلعلي أوفَّق في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى إلى أن أضع لإخواني المشتغلين بالفقه منهجاً علميّاً دقيقاً يساعدهم، ويسهل لهم طريق معرفة درجة الحديث بالرجوع إلى المصادر التي لا بد من الرجوع إليها من كتب الحديث، وبيان خواصِّها ومزاياها، وما يمكن الاعتماد عليه منها، والله تعالى ولي التوفيق.

ضعف حديث معاذ في الرأي وما يُستنكر منه

وقبل أن أنهي كلمتي هذه أرى أنه لا بد لي من أن ألفت انتباه الإخوة الحاضرين إلى حديث مشهور، قلَّما يخلو منه كتاب من كتب أصول الفقه؛ لضعفه من حيث إسناده، ولِتَعارضه مع ما انتهينا إليه في هذه الكلمة من عدم جواز التفريق في التشريع بين الكتاب والسنة، ووجوب الأخذ بهما معاً، ألا وهو حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له حين أرسله إلى اليمن:

«بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيِي ولا آلو، قال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، لما يحب رسول الله».

أما ضعف إسناده، فلا مجال لبيانه الآن، وقد بيَّنت ذلك بياناً شافياً ربما لم أسبق إليه في السلسلة السابقة الذكر[١] ، وحسبي الآن أن أذكر أن أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري رحمه الله قال فيه: (**حديث منكر**). وبعد هذا يجوز لي أن أشرع في بيان التعارض الذي أشرت إليه؛ فأقول:

إن حديث معاذ هذا يضع للحاكم منهجاً في الحكم على ثلاث مراحل، لا يجوز أن يبحث عن الحكم في الرأي إلا بعد ألَّا يجده في السنة، ولا في السنة إلا بعد ألَّا يجده في القرآن، وهو بالنسبة للرأي منهج صحيح لدى كافة العلماء، وكذلك

(١) وهو برقم (٨٨٥) من السلسلة المذكورة، ونرجو أن يطبع المجلد الموجود فيه قريباً إن شاء الله، [وقد طبع ولكن رقم الحديث في «السلسلة الضعيفة» هو (٨٨١) وليس (٨٨٥) كما ذكر الشيخ رحمه الله].

قالوا: «إذا ورد الأثر بطل النظر». ولكنه بالنسبة للسنَّةِ ليس صحيحاً؛ لأن السنة حاكمة على كتاب الله ومبيِّنة له، فيجب أن يبحث عن الحكم في السنة، ولو ظن وجوده في الكتاب لما ذكرنا؛ فليست السنة مع القرآن، كالرأي مع السنة، كلّا ثم كلّا، بل يجب اعتبار الكتاب والسنة مصدراً واحداً لا فصل بينهما أبداً، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»[1] يعني السنة، وقوله: «**لن يتفرقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض**»[2].

فالتَّصنيف المذكور بينهما غير صحيح؛ لأنه يقتضي التفريق بينهما، وهذا باطل؛ لما سبق بيانه.

(٤)

القاعدة الرابعة

أنهم لا يستقلون بفهم الكتاب والسنة عن فهم السلف الصالح

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء]. ولقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة:١٠٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة].

---

(١) **صحيح**: [«المشكاة» (١٦٣)] وقد تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: [«صحيح الجامع» (٢٩٣٧)] وقد تقدم تخريجه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»(١).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل؛ حتى إن كان منهم من أتى أمه علانيةً؛ لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملةً واحدةً**». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(٢). وفي رواية عند أحمد وأبي داود عن معاوية، فسَّر الناجية بأنها «**الجماعة**»(٣).

وفي حديث العرباض المتقدم: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ**»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم**»(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ٢١٨، ٢١٩)، والآجري في «الشريعة» (٢٤)، والمروزي في «السنة» (٦٠)، [«هداية الرواة» (١٦٩)].

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٩٥٧)، والدارمي (٢٥٢١)، [«هداية الرواة» (١٧٠)].

(٤) **صحيح**: [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧)] وقد تقدم تخريجه.

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) واللفظ له.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (الخوارج شر الخلق عند الله؛ انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين)[١].

وقال الأوزاعي: (اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف بما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم)[٢].

فإن السلف كانوا أعظم عقولاً، وأكثر فهوماً، وأحدّ أذهاناً، وألطف إدراكاً، كما قال عبدالله بن مسعود: (من كان منكم مستناً، فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا على آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[٣].

وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بأن خير قرون هذه الأمة القرن الذي بعث فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وأعظم الفضائل؛ فضيلة العلم والإيمان، فهم أعلم الأمة باتفاق علماء الأمة، ولم يدعوا الطرق المبتدعة المذمومة عجزاً عنها؛ بل كانوا كما قال عمر بن عبدالعزيز: (على كشف الأمور أقوى، وبالخير لو كان في تلك الأمور أحرى)[٤].

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه البخاري تعليقاً (٩٢-كتاب: استتابة المرتدين/ (٦) باب: قتال الخوارج والملحدين...)، [«مختصر صحيح البخاري» (٤/ ٢٣٩/ ١٣٧٨)].

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣١٥).

(٣) «مشكاة المصابيح» للتبريزي (١٩٣).

(٤) «درء تعارض العقل مع النقل» (٧/ ٢٨٧).

هذا فيما انفردوا به عنا، أما المدارك التي شاركناهم فيها من دلالات الألفاظ والأقيسة فلا ريب أنهم كانوا أبر قلوباً، وأعمق علماً، وأقل تكلفاً، وأقرب إلى أن يوفقوا فيها لما لم نوفق له نحن؛ لما خصهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين؛ بل قد غُنُوا عن ذلك كله فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا.

والثاني: معناهُ كذا وكذا.

وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرةٌ مجتمعةٌ عليهما، وأما المتأخرون فقواهم متفرقةٌ، وهممهم متشبعةٌ، فالعربية وتوابعها قد أخذت من قُوى أذهانهم شعبةً، والأصول وقواعدها قد أخذت منها شعبةً، وعلم الإسناد وأحوال الرواة قد أخذ منها شعبةً، وفكرهم في كلام مصنفيهم وشيوخهم -على اختلافهم- وما أرادوا به قد أخذ منها شعبةً، إلى غير ذلك من الأمور، فإذا وصلوا إلى النصوص النبوية، إن كان لهم همـٌّ تسافر إليها وصلوا إليها بقلوب وأذهانٍ قد كلت من السير في غيرها، وأوهن قواهم مواصلة السُّرى[1] في سواها[2].

---

(١) السير: المشي بالنهار والليل، والسرى: المشي ليلاً. انظر «اللسان» (س ي ر).

(٢) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٤٨).

حدث في هذا الزمان جماعات تريد فصل المسلمين عن سلفهم، وينكرون السلفية، وينكرون اتباع السلف، ويطالبون بالمعاصرة، يسمونه المسلم المعاصر! والعصرنة، يريدون قطع الصلة بين السلف والخلف، من أجل ماذا؟ من أجل أن يضلوا الناس عن صراط الله عز وجل.

ومتحذلقوهم يوصون باتباع الكتاب والسنة، ويحذرون من اتباع السلف، وكيف لنا الاعتصام بالكتاب والسنة مع تركنا لمنهج السلف، الذين هم خير من اتبع الكتاب والسنة، وفهم الكتاب والسنة، وأوصانا الله، جل وعلا، وأوصانا رسوله ﷺ باتباع منهجهم، إذا تركنا منهج السلف فكيف لنا بفهم الكتاب والسنة؟! فهذا معصية لله ورسوله ﷺ، ودعوةٌ لضلال، وقطعٌ لخلف هذه الأمة عن سلفها الصالح، وقد جاء في الحديث أنه من علامات الساعة أن يظهر من يسب السلف ويلعن آخر هذه الأمة أولها[1]، فلا يبعد أن يكون هذا بدايةً لما سيحدث، مما أخبر به الرسول ﷺ.

وليس لهم شُبهٌ في ذلك إلا أنهم يقولون: إن الأخذ بهدي السلف تقليد، ونحن مأمورون بالكتاب والسنة، ومنهيون عن التقليد!

ونقول لهم: التقليد ليس مذموماً على الإطلاق، فالتقليد في الحق واتباع أهل الحق مأمور به.

---

(١) إشارة إلى حديث علي رضي الله عنه كما عند الترمذي (٢٢١٠): «ولعن آخر هذه الأمة أولها...» وكذلك عن أبي هريرة وعن جابر وأبي أُمامة رضي الله عنهم بمختلف ألفاظ أحاديثهم في السنن والمسانيد والمعاجم وهو حديث ضعيف. انظر [«الضعيفة» (١١٧٠، ١١٧١، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٧٢٧)].

قال تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]. فيوسف عليه السلام يخبر أنه اتبع من قبله لما كانوا على هدىً، والله جل وعلا إنما ذم اتباع الآباء والأجداد، لأنهم على غير علم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]. فذمهم لأنهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فدل بمفهومه على أن من سبقنا إذا كانوا يعلمون ويفهمون الكتاب والسنة فإنهم يُتبعون في ذلك، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة]. فدل على أن الذي يعلم هو الذي يُقتدى به، إنما الذم على من يتبع من لا يعلم، فليس التقليد ممنوعاً بإطلاق، ولا جائزاً بإطلاق، وإنما فيه تفصيل: فمن كان على الحق فإنه يتبع ويقلد، مع ما جاء في الكتاب والسنة من الأمر باتباع السلف والاقتداء بهم، ومن خالف الحق فإنه لا يتبع ولا يقلد، هذا هو فصل النزاع في هذه المسألة.

(٥)

القاعدة الخامسة

أنهم أول ما يدْعُونَ إلى التوحيد، فلا تنجح دعوة ولا تصلح عبادة إلا به

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ

مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليُكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**». الحديث رواه البخاري ومسلم[1].

وكما بدء النبي ﷺ دعوته بالتوحيد، فقد ختمها بالتوحيد أيضاً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما نَزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصةً[2] له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال -وهو كذلك-: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يحذر ما صنعوا) [3]. (لولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجداً)[4]. رواه البخاري ومسلم.

وقال عليه السلام: «**الأنبياء إخوةٌ من عَلاتٍ**[5]، **وأمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ**»[6]. أخرجاه، وهذا لفظ مسلم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) ولفظ الحديث عندهما: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله.... » الحديث.

(٢) **الخميصة**: كساء أسود له أعلام،يكون من صوف وغيره. «فتح الباري» (١/ ٤٠٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩) وهذه الزيادة من حديث عائشة رضي الله عنها منفصلة عن الحديث السابق الذي جمع بينهما المؤلف (العبيلان) حفظه الله.

(٥) **أولاد العلات**: هم الإخوة لأب من أمهات شتى. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١١٩).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له.

(٦)

القاعدة السادسة

أنهم يبدءون دعوتهم بما بدأ الله به ورسوله ﷺ؛ فيقدمون ما قدمه الله ورسوله ﷺ ويؤخرون ما أخّره الله ورسوله ﷺ، وبهذا يمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت]. وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وعن يوسف بن ماهَك قال: (إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خيرٌ؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين؛ أريني مصحفك. قالت: لمِ؟ قال: لعلي أؤلف[1] القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف. قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورةٌ من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر]. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[2].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر في صفة الحج: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[3].

(١) المراد بالتأليف هنا الترتيب، وينظر «فتح الباري» (٩/ ٤٠).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٩٣).
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٧)

القاعدة السابعة

أنهم يعظمون جميع أمور الدين، فيدعون إلى ما دعا إليه النبي ﷺ قدر الاستطاعة

لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]. قال ابن كثير[١]: «يقول الله آمراً عباده المؤمنين المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك، قال مجاهد: أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر».

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]. وقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**عباد الله! لتسوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم**»[٢].

وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شيءٍ ما حسدتكم على السلام والتأمين**»[٣].

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٣٣٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦)، واللفظ لمسلم وعندهما: «وجوهكم» بدل «قلوبكم».

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٨٥٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٨)، وإسحاق بن راهويه (١١٢٢)، [«صحيح ابن ماجه» (٧٠٤)].

وعن الأزرق بن قيس قال: «صلى بنا إمام لنا يكنى أبا رِمثَة، فقال: صليت هذه الصلاة -أو مثل هذه الصلاة- مع النبي ﷺ. قال: وكان أبو بكر وعمر يقومان في الصف المقدم عن يمينه، وكان رجلٌ قد شهد التكبيرة الأولى من الصلاة، فصلى نبي الله ﷺ، ثم سلم عن يمينه وعن يساره، حتى رأينا بياض خديه، ثم انفتل كانفتال أبي رمثة -يعني نفسه- فقام الذي أدرك معه التكبيرة الأولى من الصلاة يشفع، فوثب إليه عمر فأخذ بمنكبه فهزه، ثم قال: اجلس، فإنه لم يُهلك أهل الكتاب إلا أنهم لم يكن بين صلواتهم فصلٌ. فرفع النبي ﷺ بصره وقال: «**أصاب الله بك يا ابن الخطاب!**»[1].

فانظر رحمك الله إلى ما يؤديه ترك هذه السنن من الاختلاف والهلاك، وكيف حسدنا عليها اليهود.

ولما قيل لسلمان رضي الله عنه: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخِراءة! قال: «أجل». ولم ينكر عليه ذلك. رواه مسلم[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٠٠٧) واللفظ له، والبيهقي في «السنن» (٢/ ١٩٠)، والحاكم (١/ ٤٠٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٨٤، ٢٨٥)، [«الصحيحة» (٧/ ١/ ٥٢٣، ٥٢٤)].

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٢).

(٨)

القاعدة الثامنة

أنهم لا يعارضون النصوص بعقولهم ولا بأهوائهم ولا بأذواقهم، ولا بقول رجال مثلهم

لقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى:١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناسٌ جهالٌ يُستفتون فيُفتون برأيهم فيُضلون ويَضلون**». رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري[1].

وعن علي موقوفاً: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه»[2].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٦٢)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٩٢)، والدارقطني (٧٧٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٣٩)، [«إرواء الغليل» (١٠٣)].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁ قال: اقتتلت امرأتان من هُذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ أن دية جنينها غُرةٌ: عبدٌ أو وليدةٌ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورَّثها ولدها ومن معهم. فقال حَمَلُ ابن النابغة الهُذلي: يا رسول الله! كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟! فمثل ذلك يُطَلُّ[1]. فقال رسول الله ﷺ: «**إنما هذا من إخوان الكُهان**». من أجل سجعه الذي سجع[2].

قال ابن القيم ﵀: (والمعارضون للوحي بآرائهم خمس طوائف:

١- طائفة عارضته بعقولهم في الخبريات وقدمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل ولكم النقل!

٢- وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل الحديث: لكم الحديث ولنا الرأي والقياس!

٣- وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم وقالوا: لكم الشريعة ولنا الحقيقة!

٤- وطائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة!

٥- وطائفة عارضته بالتأويل الباطن، فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن!

(١) يُطلّ: يُهدَر ويلغى ولا يضمن. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١/ ١٧٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١)، واللفظ له.

ثم إن كل طائفة من هذه الطوائف لا ضابط لما تأتي به من ذلك؛ بل ما تأتي به تبع لأهوائها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

فما هو إلا الهوى أو الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

فجعل النطق نوعين: نطقاً عن الوحي، ونطقاً عن الهوى.

ثم إذا رُد على كل من هؤلاء باطله رجع إلى طاغوته، وقال: في العقل ما لا يقتضيه النقل. وقال الآخر: في الرأي والقياس ما لا يجيزه الحديث. وقال الآخر: في الذوق والحقيقية ما لا تسوغه الشريعة. وقال الآخر: في السياسة ما تمنع منه الشريعة. وقال الآخر: في الباطن ما يكذبه الظاهر.

فباطل هؤلاء كلهم لا ضابط له، بخلاف الوحي؛ فإنه أمر مضبوط مطابق لما عليه الأمر في نفسه، تلقاه الصادق المصدوق من لدن حكيم عليم) اهـ[١].

قال شيخ الإسلام: «قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر؛ وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته، فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب

(١) «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٥١، ١٠٥٢).

إمكانها، فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه، وإنما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان]. والناس عنده في هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين، من الترك وغيرهم، يقولون: «يال: ياغي» أي صديقي وعدوي. فمن وافق هواهم كان ولياً، وإن كان كافراً مشركاً، ومن لم يوافق هواهم كان عدواً، وإن كان من أولياء الله المتقين، وهذه هي حال فرعون، والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية وجحود الصانع، وهؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى.

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد، بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله! ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه، وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل.

وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها، كالصلوات الخمس فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله والاقتداء به أكثر من غيره، وربما أبغض نظيره وأتباعه؛ حسداً وبغياً، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة:٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى:١٤]. ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون، وسلط عليهم من انتقم به منهم، فقال تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص]. وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ [الإسراء]. ولهذا قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾ [القصص:٨٣].

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه ويشكروه ويعبدوه، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده، وليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف]. وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا وأن لا يتفرقوا فيه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون]. قال قتادة: أي دينكم دين واحد وربكم رب واحد، والشريعة مختلفة. وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء:٩٢]. أي دينكم دين واحد. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبدالرحمن بن زيد نحو ذلك. وقال الحسن: بين لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: إن هذه سنتكم سنة واحدة». «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢١٩).

(٩)

القاعدة التاسعة

أن ظهور المسلمين وصلاح أحوالهم مربوط بأمرين: العلم النافع، والعمل الصالح

لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]. وقال في ضمن آيات الجهاد: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به»**[1].

وقال عليه السلام: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا»**. أخرجاه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وعن زياد بن لَبيد؛ قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «**ذاك عند أوان ذهاب العلم**». قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم، إلى يوم القيامة؟! قال: «**ثكلتك أمك زياد؛ إن كنت لأُراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيءٍ مما فيهما**». رواه أحمد وابن ماجه[١].

وفي حديث عدي بن حاتم: «**إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى**». الحديث رواه أحمد والترمذي وغيرهما[٢].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي كان قبله، أما إني لست أعني عاماً أخصب من عام، ولا أميراً خيراً من أمير، ولكن علماؤكم وخياركم وفقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفاً، وتجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم»[٣].

وهذه القاعدة فيها أن صلاح الأمة وفلاحها مرتبط بأمرين لابد منهما، فإن فقد أحدهما فلا صلاح للأمة ولا فلاح لها، وهما:

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠)، والحاكم (١/ ١٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٢٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٩٩)، والطيالسي (١٢٩٢)، [«صحيح ابن ماجه» (٣٢٨٨)].

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، والترمذي (٢٩٥٤)، وابن حبان (٦٢١٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٩، ١٠٠)، [«الصحيحة» (٣٢٦٣)].

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه الدارمي (١٩٤)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٥)، [«سنن الدارمي» (١/ ٢٨٠) تحقيق: حسين سليم أسد].

أولاً: العلم النافع. **وثانياً**: العمل الصالح.

فإن هذين الأمرين هما اللذان بعث الله بهما نبيه محمداً ﷺ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]. فالهدى: هو العلم النافع. ودين الحق: هو العمل الصالح. فهما مقترنان، لا ينفع علم بدون عمل، ولا ينفع عمل بدون علم، فالعلم بدون عمل ما نفع اليهود، فعندهم التوراة ويعلمون ما فيها، حُمِّلوها ولكنهم لم يعملوا بها، فقد شبههم الله بالحمار الذي يحمل الكتب ولا ينتفع بها، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة].

وقد سماهم الله مغضوباً عليهم، لأنهم عصوا الله على بصيرة، فذلك غضب الله عليهم، لأنهم أوتوا علماً ولم يعملوا به، فكل من اتصف بهذه الصفة فإنه يستحق هذا الوعيد، ويكون مغضوباً عليه، كل من علم ولم يعمل بعلمه فإن الله يغضب عليه، سواء من اليهود أو من هذه الأمة.

وكذلك العمل بدون علم، العمل تبعاً للأهواء وتبعاً للتقليد الأعمى والعادات، هذا لا يغني شيئاً، وإن تعب صاحبه به، فإن العمل بدون علم ضلال، سماه الله ضلالاً، وسمى الذين يعملون بدون علم ضالين، وهذا في آخر سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]. ذكر ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الذين أنعم الله عليهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، وهؤلاء هم الذين ذكرهم الله في قوله:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء].

والطائفة الثانية: المغضوب عليهم، وهم الذين أخذوا العلم فقط، وتركوا العمل، هؤلاء مغضوب عليهم، لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم، من عصى الله وهو يعلم فإنه أشد ممن عصى الله وهو لا يعلم.

الطائفة الثالثة: الضالون، وهم الذين أخذوا العمل وتركوا العلم، أخذوا العمل وأجهدوا أنفسهم به، ولكنهم على غير علم، ما يأخذون بالدليل من الكتاب والسنة، والعمل لابد أن يكون مبنياً على دليل، كل عبادة ليس عليها دليل فهي بدعة، قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١]. وقال: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعةً وكل بدعةٍ ضلالةٌ**»[٢]. فهؤلاء أتعبوا أنفسهم بالعمل وهم في ضلال، وعملهم باطل؛ لأنه لم يبن على أصل، ولم يبن على دليل من الكتاب والسنة.

فلم ينج إلا الطائفة الأولى، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، وهؤلاء هم الذين نسأل الله في كل ركعة أن يهدينا صراطهم، وأن يجنبنا صراط الطائفتين المخالفتين.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ١٧٦، ١٧٧)، [«صحيح الجامع» (٢٥٤٩)].

وبالمناسبة، فإن من الصنف الثالث الذين يعبدون الله على غير علم: الصوفية، فالصوفية عندهم اجتهاد في الذكر والعبادة والتقشف، وتنطع كثير، لكنهم على غير علم، بل يزهدون في العلم ويزهّدون فيه، ويسخرون من الذين يعتنون بالعلم، ويقولون: هؤلاء يشغلون أنفسهم بالوسيلة ويتركون الغاية. فالغاية: عندهم العمل، والوسيلة: العلم، صحيح أن العمل غاية، وأن العلم وسيلة، ولكن الغاية لا يتوصل إليها إلا بالوسيلة، فإذا ضيعت الوسيلة لم يُتوصل إلى الغاية، ونحن لا نقول للناس: اشتغلوا بالعلم، واتركوا العمل. وإنما نقول لهم: اجمعوا بين الأمرين، بين العلم والعمل.

فهؤلاء الصوفية، ولا يزالون، هذه طريقتهم، يشتغلون بالعبادة وبالذكر، وبالأوراد وبالمصطلحات التي وضعوها لأنفسهم، أو وضعها لهم مشايخ الطرق، ويبايعون عليها، ويعاهدون عليها، وهي ضلال في ضلال؛ لأنها مبنية على غير علم، وأهلها لا يريدون العلم، بل هم أزهد الناس بالعلم، وهذا خداع من الشيطان، فالواجب الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

ثم إن النبي ﷺ قسم الناس ثلاثة أقسام بالنسبة إلى ما جاء به ﷺ من العلم النافع والعمل الصالح:

القسم الأول: جمعوا بين رواية العلم، رواية النصوص وحفظها وإتقانها وإبعاد الدخيل عنها، وبين الفقه فيها، جمعوا بين الحفظ والتفقه فيها وشرحها وبيان معانيها وما تشتمل عليه، فهذا القسم هم أفضل الأقسام، وهم أهل الرواية

والدراية، فقهاء المحدثين كالإمام أحمد والإمام البخاري والإمام الشافعي، وكل فقهاء المحدثين من هذا الصنف، وهذه الطبقة العالية، نسأل الله الكريم من فضله.

القسم الثاني: وهم دون الأول، لكن فيهم خير، وفيهم فضل، وهم الذين عُنوا بالرواية والأسانيد، بدراسة الأسانيد وبيان الصحيح من غيره، حفظوا المتون وأتقنوها، ولكنهم لم يشتغلوا بالفقه، بل هم حفاظ فقط، هذه أمسكت الماء، ولكن لم تنبت كلأً، أما الطبقة الأولى فهي مثل الأرض الطيبة، التي أمسكت الماء وأنبتت الكلأ، فانتفع الناس بها، انتفعوا بالماء وانتفعوا بالكلأ، هذا رعي، وهذا شراب، والطائفة الثانية أمسكت الماء، نفعت الأمة بأنها قامت على حفظ الكتاب والسنة بأمانة، وهؤلاء هم علماء الرواية الذين اشتغلوا بالرواية فقط، وفيهم فضل، وفيهم خير كثير، وإن كانوا دون الطبقة التي قبلها، كما تقدم، لكنهم نفعوا الناس نفعاً عظيماً، بحفظ النصوص وإتقانها وضبطها وإبعاد الزيف والدخل عنها.

القسم الثالث: لا خير فيهم، مثل الأرض الجدبة التي لا تنبت ولا تمسك ماءً، يأتي عليها السيل فلا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، بل هي لا تزال على حالها كأنها لم يأتها شيء من المطر! أجادب، فهؤلاء هم الذين لا علم عندهم، لا رواية ولا دراية، جهال الناس، الذين لا عناية لهم بالعلم، ولا يشتغلون به أبداً، ولا يُعرفون به، هؤلاء لا خير فيهم ولا فائدة منهم.

وهذه أقسام الناس بالنسبة لما جاء به الرسول ﷺ، فالطبقة الأخيرة لم ترفع رأساً بما جاء به الرسول ﷺ ولم تهتم به، لا رواية ولا دراية، فقدوا الأمرين، فهم لا فائدة منهم ولا خير فيهم.

وهذا أراد به النبي ﷺ حث الناس على طلب العلم والتفقه في دين الله، وحذرهم من إهمال العلم والفقه، فإذا كان في الناس من الصنفين الأولين فهم في خير، فيهم علماء رواية ودراية، وعلماء رواية، الناس في خير، عندهم مصادر الخير، لكن إذا فُقد الصنفان الأولان ولم يبق إلا الصنف الثالث، الذين هم لا رواية ولا دارية، فإن الأمة تكون في شر، وهذا يكون في آخر الزمان، إذا قبض العلم بموت العلماء، ولم يبق للناس علماء يُرجع إليهم إلا من جنس الطبقة الثالثة، فإن الناس إلى أين يذهبون، ومن أين يستمدون العلم والعمل، ومن يسألون إذا فُقد العلماء ورفع العلم؟ فإن هذا علامة شر في الأمة، فلا بقاء للأمة إلا بوجود العلم والعلماء، بوجود العلم والعمل، فإذا فقد العلم والعمل والعلماء فإن الأمة تكون في ظلام؛ يتخذون رؤوساً جهالاً، فيسألون فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون.

والعلم أيضاً لا يأتي عفواً، العلم يحتاج إلى طلب، إلى تعلم، ليس بالشيء السهل يحصل عليه الإنسان متى ما أراد، العلم له أصول وطرق، كما قال ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة**»[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

لابد من سلوك طريق التعلم، وأخذ العلم عن العلماء ما داموا موجودين، والعلم ما يؤخذ من الكتب، أو من القراءة، أو من الجهال، أو من المتعالمين، هذا ليس علماً، هؤلاء يسمون قراء، في آخر الزمان يكثر القراء ويقل الفقهاء، وجود القراء ما يغني شيئاً ولا ينفع شيئاً، إذا عدم الفقهاء فإن وجود القراء يضر الناس أكثر مما ينفع، أو لا ينفع أصلاً، فالعلم لابد أن يؤخذ من العلماء، يؤخذ من أصوله، يؤخذ من متونه ومبادئه، لابد من هذا.

وصية الشيخ الألباني[(١)]

العلم النافع والعمل الصالح.

كنا كثيراً ما نخرج مع شيخنا إلى البر، وكان شيخنا رحمه الله لا يكلُّ ولا يمل من الإجابة على أسئلتنا، وفي آخر مجلس جلسناه مع شيخنا في مزرعةٍ لأحد إخواننا في منطقة (الغور) بالأردن والشيخ في مرضه الذي مات فيه وبعد أن أجاب على أسئلتنا قلنا له: أوصنا يا شيخنا فقال رحمه الله: (أوصيكم بالعلم النافع، والعمل الصالح. والعلم النافع هو قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، والعمل الصالح هو ما كان لله ووافق السنة).

فيا معشر المسلمين! من أراد سعادة الدنيا والآخرة فعليه بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم النافع يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، والعمل الصالح يُقربُ صاحبه من رحمة الله.

(١) والكلام في هذه الوصية من كلامي (المؤلف).

(١٠)

القاعدة العاشرة

أنهم يعتقدون أن الجماعة أصل من أصول دينهم

لقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير الآية: «حبل الله: الجماعة». رواه ابن جرير(١).

وفي حديث الافتراق، لما سئل عن الفرقة الناجية قال: «**الجماعة**»(٢).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تُناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(٣).

قال الشافعي رحمه الله: (فإن قلت: ما معنى أمر النبي صلى الله عليه وسلم في لزوم جماعتهم؟

قلت: لا معنى له إلا واحدة.

فإن قلت: فكيف لا يحتمل إلا واحدة.

---

(١) في «تفسيره» (٧/ ٧١).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وابن ماجه (٣٩٩٢)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، [«الصحيحة»(١٤٩٢)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧١٥) وليس عنده: «**وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن حبان (٣٣٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٩٩)، وفي «السنن» (٨/ ١٦٣)، [«صحيح الجامع» (١٨٩٥)].

قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم أبدان أقوام متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة في المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم جماعتهم معنى إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعتهم فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها)[١].

وقال أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ: (حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل من بعدهم)[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتةً جاهليةً**». أخرجه البخاري[٣]. وفي رواية له: «**فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتةً جاهليةً**»[٤].

هذه القاعدة في بيان أنه لابد للمسلمين من جماعة تجمعهم، ولا يصلح المسلمون وهم متفرقون، كل له طريقة، كل له منهج مستقل، لا بد أن يكون منهجهم واحداً وطريقتهم واحدة.

---

(١) «الرسالة» (ص٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) «الباعث على إنكار البدع» (ص٢٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٤٣).

ربما تسأل وتقول: أين الطريق وأين المنهج الذي يجمع الناس، الناس كل له رأي وله اتجاه، ليست عقولهم واحدة، ولا مداركهم واحدة حتى يجتمعوا على منهج واحد، هذا مستحيل، إن الناس يكونون على منهج واحد، وعقولهم مختلفة، ومداركهم مختلفة، كل يبتكر غير ما يبتكره الآخر، كل واحد يرى أن ما عليه صواب وما عليه الآخر خطأ؟

فنقول جواباً على هذا:

إن الله لم يكل الناس إلى عقولهم وإلى مداركهم، وإنما أنزل لهم كتاباً وبعث لهم نبياً يسيرون على نهجه، نهج الكتاب والسنة، ولا يعتمدون على عقولهم وأفكارهم واستحساناتهم، أو ما يبتكره لهم رؤساؤهم أو عشائرهم أو قبائلهم أو شعوبهم، لا، إن الله لم يكل إلى هذا، لو وكلهم إلى هذا لتفرقوا ولتقاتلوا ولتناحروا وضلوا، ولكن الله أنزل لهم هدىً يسيرون عليه، فقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)﴾ [طه].

فالله لم يكلنا إلى عقولنا ومداركنا أو مدارك غيرنا، وإنما أنزل إلينا كتاباً وأرسل إلينا رسولاً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فإذا رجع الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حصل الاجتماع، كما هو واقع في صدر هذه الأمة، كانوا متفرقين، العالم كله كان متفرقاً أشد التفريق،

وخصوصاً العرب، فلما بعث الله رسوله، وأنزل كتابه واجتمعوا عليه، صاروا مجتمعين متآلفين، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[الأنفال].

فلا يؤلف القلوب ويجمع الناس إلا الكتاب والسنة، بدون ذلك لا يمكن أن يجتمعوا، متى ما اختطوا مناهج من عند أنفسهم فإنهم لا يمكن أن يجتمعوا أبداً، لا يوحد الناس إلا الكتاب والسنة واتباع منهج السلف الصالح، هذا هو المنهج الصحيح للاجتماع، وهذا هو الذي يرضاه الله عز وجل، يقول الله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وقال ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»(١). هذه الثلاث هي التي تجمع الناس، وتفصيلها كالآتي:

الأمر الأول: التوحيد، العقيدة الصحيحة، التي هي على وفق الكتاب والسنة، لا إله إلا الله، مدلولها ومعناها ومقتضاها، هذا هو الذي يجمع الناس، أما إذا صار لهم عقائد مختلفة فإنهم يتفرقون.

فالمصدر الأول العقيدة، تكون العقيدة واحدة هي عقيدة القرآن والسنة.

---

(١) تقدم تخريجه.

الأمر الثاني: المصدر الذي يرجعون إليه إذا تنازعوا واختلفوا، كما في قوله ﷺ: «**وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**». وحبل الله: هو القرآن وسنة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

الذي يقضي على النزاع هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، أما الرجوع إلى مناهج الناس ومناهج البشر فإنه يفرق الناس، وأما الرجوع إلى الكتاب والسنة فهو الذي يحسم النزاع بين الناس، لأنه تنزيل من حكيم حميد، أنزله ليحكم به بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهو الذي يحسم النزاع، ويرضي الجميع، لأنه من الرب سبحانه وتعالى، عدل وحكم وقسط، وصراط مستقيم.

الأمر الثالث: من مقومات الاجتماع: القيادة، طاعة القيادة، أن يكون للمسلمين قيادة موحدة، وهو الإمام المسلم، وأن يطيعوه ولا يخالفوه، قال ﷺ: «**وأن تُناصحوا من ولّاه الله أمركم**».

فمن مناصحته: طاعته وعدم الاختلاف عليه.

ومن مناصحته بيان الخطأ الذي يحصل حتى يجتنب، ودلالته على الخير.

ومن مناصحته القيام بما يكله إلى الرعية كي يقوم بالعمل على الوجه المطلوب، الوظيفة يؤديها على الوجه المطلوب حتى تتم المصالح.

ومن النصيحة لولي الأمر، أيضاً، الدعاء له بالصلاح والتوفيق والتسديد. كل هذا من النصيحة لولي الأمر.

أما الذي يعصي ولي الأمر ويخالفه، أو يتكلم فيه أمام الناس ويبغّضه للناس، وَيُحَقِّدُ الناس عليه، هذا من الخيانة لولي الأمر، كذلك الذي يرى الخطأ يقع ولا يبلغ ولي الأمر عنه، يرى الخلل في الناس، يرى المخالفات في الناس ولا يبلغ ولي الأمر؛ من أجل تدارك هذا الشيء قبل أن يستفحل، هذا من خيانة ولي الأمر.

بهذه الأمور الثلاثة يتم الاجتماع:

١- العقيدة الصحيحة.

٢- الرجوع إلى الكتاب والسنة عند النزاع.

٣- طاعة ولي الأمر ونصيحته والنصح له.

بهذه الأمور يحصل الاجتماع، إذا اختل واحد منها حصل التفرق، حصل الاختلاف والنزاع، تشتتت الأمة.

فهذه القاعدة، قاعدة عظيمة وهي: أن المسلمين لا بد لهم من اجتماع، ولا اجتماع إلا على الكتاب والسنة، والعقيدة الصحيحة، والقيادة الصالحة التي تطاع وينقاد لها، بهذا تحصل المنافع والهيبة للمسلمين.

(١١)

القاعدة الحادية عشرة

أنهم يعتقدون أن أعظم أسباب الافتراق هو تشيّع وتحزّب بعض المسلمين إلى طائفة أو جماعة أو شخص غير رسول الله ﷺ وصحابته الكرام

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩].

قال ابن كثير[١]: (الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم].

قال ابن كثير[٢]: (وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نِحَلٍ كلها ضالة إلا واحدة؛ وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما روى الحاكم في «مستدركه» أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية، فقال: «**من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣].

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٦٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٥٧٢).

(٣) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٨٤٠) واللفظ له، وفي «الصغير» (٧٢٤)، والضياء في «المختارة» (٢٧٣٣)، [«هداية الرواة» (١٦٩)]. والحاكم (١/ ٢١٨، ٢١٩): وليس عنده: «**من كان على**...».

وفي حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وأنا آمركم بخمسٍ الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيْد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثى جهنم**». فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟! قال: «**وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله**»[(١)]. رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقيل لابن عباس: أنت على ملة علي أو على ملة عثمان؟ فقال: (بل أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم)[(٢)].

وعن إبراهيم النخعي، قال: كان يكره أن يقال: سنة أبي بكر وعمر. ولكن سنة الله وسنة رسوله. ثم قال ابن حزم: (فإذا كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم لا يستجيزون نسبة ما يعبدون به ربهم ولا مذاهبهم إلى أبي بكر ولا إلى عمر ولا إلى عثمان ولا إلى علي، ولا ينتسبون إلى أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف بهم لو شاهدوا ما نشاهده من المصائب الهادمة للإسلام على من امتحنه الله به من الانتماء إلى مذهب فلان وفلان والإقبال على أقوال مالك وأبي حنيفة والشافعي وترك

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي ٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وابن خزيمة (١٨٩٥)، وابن حبان (٦٢٠٠)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢)].

(٢) إسناده **صحيح**: أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٣٧)، ولفظه: (عن ابن عباس قال: قال معاوية: أنت على ملة علي، قلت ولا على ملة عثمان، أنا على ملة محمد صلى الله عليه وسلم). وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٠٤)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٣٣)، [«الإبانة الكبرى لابن بطة»: تحقيق: سيد عمران].

أحكام القرآن وكلام النبي ﷺ ظهرياً؟! والحمد لله على تثبيته إيانا على دينه وسنته التي مضى عليها أهل الأعصار المحمودة قبل أن تحدث بدعة التقليد وتفشو، وبالله نعتصم) اهـ.

وهذه القاعدة مكملة للقاعدة التي قبلها، وهي: قاعدة الاجتماع، وأن دين المسلمين لا يقوم إلا على الاجتماع والألفة فيما بينهم.

هذه القاعدة فيها أن الشذوذ والانفراد عن الجماعة يولد شراً ويفتح ثغرة في جماعة المسلمين، فيجب على كل مسلم أن ينضم مع جماعة المسلمين، وأن لا يشذ برأي ولا مذهب ولا منهج، وإنما يكون منهجه وطريقته طريقة جماعة المسلمين، حتى لو أن له رأياً في نفسه أو اجتهاداً رآه في نفسه، فإنه لا يظهره للناس، بل ليرجع لما عليه جماعة المسلمين، ويترك ويتهم رأيه واجتهاده، أما إذا صار لكل واحد حرية الاختيار، حرية التنقيب والظهور بآراء جديدة يبتكرها، حتى ولو كان يراها صحيحة، ما دامت تؤثر على اجتماع المسلمين وتشتت أفكارهم فلا يجوز له أن يظهرها.

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يتركون آراءهم، وإن كانت مبنية على الكتاب والسنة، يتركونها إذا كانت تخل باجتماع الكلمة، فهذا عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه لما أتم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه الصلاة بمنى، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يرى القصر بمنى، فكان إذا صلى خلف عثمان رضي الله عنه أتم، فلما قيل له في ذلك، قال: (يا بني، الخلاف شر)[1].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٦٠)، وأبو يعلى (٥٣٧٥)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٤٣، ١٤٤)، والبزار «البحر الزخار» (١٦٤١)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٧)، [«صحيح أبي داود» (١٧٢٦)].

فها هو ﷺ يصلي مع عثمان ﷺ ويتم الصلاة، مع أنه يرى أن الصلاة تقصر في منى، تنازل عن رأيه إلى رأي أمير المؤمنين من أجل جمع الكلمة، هذا في شأن الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، فكيف بالذي يبتكر له اجتهادات جديدة وآراء جديدة، ثم يظهرها للناس، في صلاتهم، في أمور عباداتهم، فيحصل بذلك تشويش على الناس، يقول لهم: فلان قال، وفلان قال ... الناس يسيرون على جادة واحدة، وعلى منهج واحد، ثم يأتي واحد ويظهر مخالفات وآراء جديدة توصل إليها باجتهاده أو برأيه، ويريد أن يقتنع بها الناس، لا شك أنه سيجد من يشذ معه، ويجد من يحبذ رأيه، فيحدث في الناس افتراق، فالواجب على المسلم أن يلاحظ هذا الشيء، وأن يحافظ على وحدة المسلمين، وعلى اجتماع المسلمين، أحياناً يُترك الشيء الفاضل إلى الشيء المفضول، إذا كان المفضول يحصل عليه الاجتماع، فعليه أن يتنازل عن الشيء الفاضل ويسير إلى الشيء المفضول؛ من أجل اجتماع الكلمة واجتماع المسلمين، فهذا -كما ذكرت لكم- ابن مسعود ﷺ تنازل عن الذي يراه فاضلاً، وهو القصر، إلى الشيء المفضول، الذي هو التمام، من أجل جمع كلمة المسلمين، ما دام هذا لا يخل بالدين، أما إذا كان يخل بالدين فلا، فيجب على المسلم أن يتنازل عن رأيه واجتهاده، ولو كان يراه فاضلاً، فكيف إذا كان الذي عليه الجماعة هو الفاضل وما عليه هذا المخالف هو المفضول، أو غير صحيح؟!

فعلى طلبة العلم والمنتسبين إلى العلم أن يلاحظوا هذه القاعدة: أنه إذا كان عند المسلم آراء أو اجتهادات، وكان في إظهارها للناس تشويش ونزاع، فإنه لا يظهرها، ويسير على ما عليه جماعة المسلمين، فإنه أضمن له وأقرب إلى الحق.

قلت: ولعل بعضاً ممن قصر فهمه وإدراكه لهذه القاعدة العظيمة يغفل أو يتغافل عما تورطت به هذه الأمة من التمزق والتفرق بسبب ما اعتقده عامة المسلمين بالزام التمذهب بواحد من المذاهب الأربعة ومما زاد أسى المسلمين وشرذمتهم فرقاً وإحزاباً تجرؤ كثير ممن انتسبوا للعلم وتعالموا على القول بآرائهم ضاربين بأدلة الكتاب والسنة عرض الحائط محتجين بأنهم رجال وأولئك رجال؟؟

فهؤلاء مع ما تسببوا به من مصائب وفتن وإضلال لعامة المسلمين أساءوا ظنهم بعلماء الأمة السابقين وخصوصاً الأئمة الأربعة فمع ظلمهم حين ساووا أنفسهم بأولئك الأفاضل فقد ظلموهم بظنهم فيهم أنهم خرجوا عن الكتاب والسنة فيما قالوا أو أفتوا! وهذا باطل وزور وافتراء فإنهم رحمهم الله ساروا مع الكتاب والسنة حيث سارا بهم وكانوا أهلاً للاجتهاد بما حباهم الله من العلوم والمعارف بخلاف غيرهم. ونصرة لهم وبياناً للحق لكل طالبيه ننقل ما أورده محدث العصر الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه النافع الذي لم يؤلف مثله «صفة صلاة النبي ﷺ» فقال رحمه الله في مقدمته:

(ولما كان موضوع الكتاب إنما هو بيان هدي النبي ﷺ في الصلاة؛ كان من البديهي أن لا أتقيد فيه بمذهب معين للسبب الذي مر ذكره، وإنما أورد فيه ما ثبت عنه ﷺ؛ كما هو مذهب المحدثين[1] ....

(١) قال أبو الحسنات اللكنوي في «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام» (ص١٥٦) ما نصه:
(ومن نظر بنظر الإنصاف، وغاص في بحار الفقه والأصول متجنباً الاعتساف؛ يعلم علماً يقينياً أن أكثر المسائل الفرعية والأصلية التي اختلف العلماء فيها؛ فمذهب المحدثين فيها أقوى من مذاهب غيرهم، وأني كلما أسير في شعب الاختلاف أجد قول المحدثين فيه قريباً من الإنصاف، فلله درهم، وعليه شكرهم -كذا الأصل- كيف لا؛ وهم ورثة النبي ﷺ حقاً، ونواب شرعه صدقاً؟ حشرنا الله في زمرتهم، وأماتنا على حبهم وسيرتهم).

قديماً وحديثاً[(١)]، وقد أحسن من قال:

أهل الحديث هم أهل النبي وإن ... لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا[(٢)]

ولذلك؛ فإن الكتاب سيكون إن شاء الله تعالى جامعاً لشتات ما تفرق في بطون كتب الحديث والفقه -على اختلاف المذاهب مما له علاقة بموضوعه- بينما لا يجمع ما فيه من الحق أي كتاب أو مذهب، وسيكون العامل به إن شاء الله ممن قد هداه الله ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة].

ثم إني حين وضعت هذا المنهج لنفسي -وهو التمسك بالسنة الصحيحة- وجريت عليه في هذا الكتاب وغيره -مما سوف ينتشر بين الناس إن شاء الله تعالى- كنت على علم أنه سوف لا يرضي ذلك كل الطوائف والمذاهب؛ بل سوف يوجه بعضهم أو كثير منهم ألسنة الطعن، وأقلام اللوم إليّ، ولا بأس من ذلك

(١) قال السبكي في «الفتاوى» (١/ ١٤٨).

(وبعد؛ فإن أهم أمور المسلمين الصلاة، يجب على كل مسلم الاهتمام بها، والمحافظة على أدائها، وإقامة شعائرها، وفيها أمور مجمع عليها لا مندوحة عن الإتيان بها، وأمور اختلف العلماء في وجوبها، وطريق الرشاد في ذلك أمران: إما أن يتحرى الخروج من الخلاف إن أمكن؛ وإما ينظر ما صح عن النبي ﷺ فيتمسك به، فإذا فعل ذلك؛ كانت صلاته صواباً صالحة داخلة في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]).

قلت: والوجه الثاني أولى، بل هو الواجب؛ لأن الوجه الأول -مع عدم إمكانه في كثير من المسائل- لا يتحقق به أمره ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»؛ لأنه في هذه الحالة ستكون صلاته حتماً على خلاف صلاته ﷺ، فتأمل.

(٢) من إنشاد الحسن بن محمد النسوي؛ كما رواه الحافظ ضياء الدين المقدسي في جزء له في «فضل الحديث وأهله».

عليّ؛ فإني أعلم أيضاً أن إرضاء النـاس غايـة لا تـدرك، وأن: «**مـن أرضى النـاس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»؛ كما قال رسول الله ﷺ[١].

ولله در من قال:

ولـست بنـاجٍ مـن مقالـةِ طـاعنٍ   ولـو كنـتُ في غـارٍ عـلى جبـلٍ وعـرِ
ومن ذا الذي ينجو مـن النـاس سـالماً   ولو غاب عنهم بـين خـافيتي نـسر[٢]

فحسبي أنني معتقد أن ذلك هو الطريق الأقوم الذي أمر الله تعالى به المـؤمنين، وبينه نبينا محمد سيد المرسلين، وهو الذي سـلكه الـسلف الـصالح مـن الـصحابة والتابعين ومن بعدهم، وفيهم الأئمة الأربعـة -الـذين ينتمـي اليـوم إلى مـذاهبهم جمهور المسلمين- وكلهم متفق على وجوب التمسك بالسنة والرجوع إليها، وتـرك كل قول يخالفها؛ مهما كان القائـل عظـيماً؛ فـإن شـأنه ﷺ أعظـم، وسـبيله أقـوم، ولذلك؛ فإني اقتـديت بهـداهم، واقتفيـت آثـارهم، وتبعـت أوامـرهم بالتمـسك بالحديث؛ وإن خالف أقوالهم، ولقد كان لهذه الأوامـر أكـبر الأثـر في نهجـي هـذا النهج المستقيم، وإعراضي عن التقليد الأعمى، فجزاهم الله تعالى عني خيراً.

(١) الترمذي والقضاعي وابن بشران وغيرهم، وقد تكلمـت عـلى الحـديث وطرقـه في تخـريج أحاديـث «شرح العقيدة الطحاوية»، ثم في «الصحيحة» (٢٣١١)، وبينت أنه لا يضره وقف من أوقفه وأنه صححه ابن حبان.

(٢) الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، وتكون وراء القوادم.

أقوال الأئمة في اتباع السنة وترك أقوالهم المخالفة لها

ومن المفيد أن نسوق هنا ما وقفنا عليه منها أو بعضها، لعل فيها عظةً وذكرى لمن يقلدهم -بل يقلد من دونهم بدرجات تقليداً أعمى[١]- ويتمسك بمذاهبهم وأقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء، والله عز وجل يقول: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف].

١- أبو حنيفة رحمه الله.

فأولهم الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله، وقد روى عنه أصحابه أقوالاً شتى وعبارات متنوعة؛ كلها تؤدي إلى شيء واحد وهو: وجوب الأخذ بالحديث، وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة له:

١- «إذا صح الحديث فهو مذهبي»[٢].

---

(١) وهذا التقليد هو الذي عناه الإمام الطحاوي حين قال: «لا يقلد إلا عصبي أو غبي». نقله ابن عابدين في «رسم المفتي» (١/ ٣٢) من «مجموعة رسائله».

(٢) ابن عابدين في «الحاشية» (١/ ٦٣)، وفي رسالته «رسم المفتي» (١/ ٤ من مجموعة رسائل ابن عابدين)، والشيخ صالح الفلاني في «إيقاظ الهمم» (ص٦٢) وغيرهم، ونقل ابن عابدين عن «شرح الهداية» لابن الشحنة الكبير شيخ ابن الهمام ما نصه:

«إذا صح الحديث، وكان على خلاف المذهب؛ عمل بالحديث، ويكون ذلك مذهبه، ولا يخرج مقلده عن كونه حنفياً بالعمل به، فقد صح عن أبي حنيفة أنه قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وقد حكى ذلك الإمام ابن عبدالبر عن أبي حنيفة وغيره من الأئمة».

قلت: وهذا من كمال علمهم وتقواهم؛ حيث أشاروا بذلك إلى أنهم لم يحيطوا بالسنة كلها، وقد صرح بذلك الإمام الشافعي كما يأتي، فقد يقع منهم ما يخالف السنة التي لم تبلغهم، فأمرونا بالتمسك بها، وأن نجعلها من مذهبهم رحمهم الله تعالى أجمعين.

٢- «لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه»(١).

وفي رواية: «حرام على من لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي».

زاد في رواية: «فإننا بشر، نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً».

وفي أخرى: «ويحك يا يعقوب! (هو أبو يوسف) لا تكتب كل ما تسمع مني، فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد»(٢).

---

(١) ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص١٤٥)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٠٩)، وابن عابدين في «حاشيته» على «البحر الرائق» (٦/ ٢٩٣)، وفي «رسم المفتي» (ص٢٩ و٣٢)، والشعراني في «الميزان» (١/ ٥٥) بالرواية الثانية، والرواية الثالثة رواها عباس الدوري في «التاريخ» لابن معين (٦/ ٧٧/ ١) بسند صحيح عن زفر، وورد نحوه عن أصحابه: زفر وأبي يوسف وعافية بن يزيد؛ كما في «الإيقاظ» (ص٥٢)، وجزم ابن القيم (٢/ ٣٤٤) بصحته عن أبي يوسف والزيادة في التعليق على «الإيقاظ» (ص٦٥) نقلاً عن ابن عبدالبر وابن القيم وغيرهما.

قلت: فإذا كان هذا قولهم فيمن لم يعلم دليلهم؛ فليت شعري! ماذا يقولون فيمن علم أن الدليل خلاف قولهم، ثم أفتى بخلاف الدليل؟ فتأمل في هذه الكلمة؛ فإنها وحدها كافية في تحطيم التقليد الأعمى، ولذلك أنكر بعض المقلدة من المشايخ نسبتها إلى أبي حنيفة حين أنكرت عليه إفتاءه بقول لأبي حنيفة لم يعرف دليله!

(٢) قلت: وذلك لأن الإمام كثيراً ما يبني قوله على القياس، فيبدو له قياس أقوى، أو يبلغه حديث عن النبي ﷺ فيأخذ به ويترك قول السابق. قال الشعراني في «الميزان» (١/ ٦٢) ما مختصره:

(واعتقادنا واعتقاد كل منصف في الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه لو عاش حتى دونت الشريعة، وبعد رحيل الحفاظ في جمعها من البلاد والثغور وظفر بها؛ لأخذ بها وترك كل قياس كان قاسه، وكان القياس قل في مذهبه كما قل في مذهب غيره بالنسبة إليه، لكن لما كانت أدلة الشريعة مفرقة في عصره مع التابعين وتابعي التابعين في المدائن والقرى والثغور؛ كثر القياس في مذهبه بالنسبة إلى غيره من الأئمة ضرورة؛ لعدم وجود النص في تلك المسائل التي قاس فيها؛ بخلاف غيره من الأئمة، فإن الحفاظ كانوا قد رحلوا في طلب الأحاديث وجمعها في عصرهم من المدائن والقرى، ودونوها، فجاوبت أحاديث الشريعة بعضها بعضاً، فهذا كان سبب كثرة القياس في مذهبه، وقلته في مذاهب غيره).

ونقل القسم الأكبر منه أبو الحسنات في «النافع الكبير» (ص١٣٥)، وعلق عليه بما يؤيده ويوضحه، فليراجعه من شاء.

=

٣- «إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ؛ فاتركوا قولي»[(١)].

٢- مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ اللهُ.

وأما الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ فقال:

١- (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)[(٢)].

=**قلت**: فإذا كان هذا عذر أبي حنيفة فيما وقع فيه من المخالفة للأحاديث الصحيحة دون قصد -وهو عذر مقبول قطعاً؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها- فلا يجوز الطعن فيه كما قد يفعل بعض الجهلة، بل يجب التأدب معه؛ لأنه إمام من أئمة المسلمين الذين بهم حفظ هذا الدين، ووصل إلينا ما وصل من فروعه، وأنه مأجور على كل حال أصاب أم أخطأ، كما أنه لا يجوز لمعظميه أن يظلوا متمسكين بأقواله المخالفة للأحاديث؛ لأنها ليست من مذهبه؛ كما رأيت نصوصه في ذلك، فهؤلاء في واد وأولئك في واد، والحق بين هؤلاء وهؤلاء، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

(١) الفلاني في «الإيقاظ» (ص٥٠)، ونسبه للإمام محمد أيضاً، ثم قال:

(هذا ونحوه ليس في حق المجتهد؛ لعدم احتياجه في ذلك إلى قولهم، بل هو في حق المقلد).

قلت: وبناءً على هذا قال الشعراني في «الميزان» (١/ ٢٦):

(فإن قلت: فما أصنع بالأحاديث التي صحت بعد موت إمامي ولم يأخذ بها؟ فالجواب: الذي ينبغي لك أن تعمل بها؛ فإن إمامك لو ظفر بها، وصحت عنده؛ لربما كان أمرك بها؛ فإن الأئمة كلهم أسرى في يد الشريعة، ومن فعل ذلك؛ فقد حاز الخير بكلتا يديه، ومن قال: «لا أعمل بحديث إلا إن أخذ به إمامي»؛ فاته خير كثير كما عليه كثير من المقلدين لأئمة المذاهب، وكان الأولى لهم العمل بكل حديث صح بعد إمامهم تنفيذاً لوصية الأئمة، فإن اعتقادنا فيهم أنهم لو عاشوا وظفروا بتلك الأحاديث التي صحت بعدهم؛ لأخذوا بها، وعملوا بما فيها، وتركوا كل قياس كانوا قاسوه، وكل قول كانوا قالوه).

(٢) ابن عبدالبر في «الجامع» (٢/ ٣٢)، وعنه ابن حزم في «أصول الأحكام» (٦/ ١٤٩)، وكذا الفلاني (ص٧٢).

٢- (ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك؛ إلا النبي ﷺ)[١].

٣- قال ابن وهب: (سمعت مالكاً سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء؟ فقال: ليس ذلك على الناس. قال: فتركته حتى خف الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو ابن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبدالرحمن الحبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه. فقال: إنَّ هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة. ثم سمعته بعد ذلك يُسأل، فيأمر بتخليل الأصابع)[٢].

٣-الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فالنقول عنه في ذلك أكثر وأطيب[٣]، وأتباعه أكثر عملاً بها وأسعد، فمنها:

---

(١) نسبة هذا إلى مالك هو المشهور عند المتأخرين، وصححه عنه ابن عبدالهادي في «إرشاد السالك» (٢٢٧/ ١)، وقد رواه ابن عبدالبر في «الجامع» (٢/ ٩١)، وابن حزم في «أصول الأحكام» (٦/ ١٤٥ و١٧٩) من قول الحكم بن عتيبة ومجاهد، وأورده تقي الدين السبكي في «الفتاوي» (١/ ١٤٨) من قول ابن عباس متعجباً من حسنه، ثم قال:

(وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهدٌ، وأخذها منهما مالك رضي الله عنه واشتهرت عنه).

قلت: ثم أخذها عنهم الإمام أحمد، فقد قال أبو داود في «مسائل الإمام أحمد» (ص٢٧٦): (سمعت أحمد يقول: ليس أحد إلا ويؤخذ من رأيه ويترك؛ ما خلا النبي ﷺ).

(٢) مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ص٣١-٣٢)، ورواها تامة البيهقي في «السنن» (١/ ٨١).

(٣) قال ابن حزم (٦/ ١١٨):

(إن الفقهاء الذين قلدوا مبطلون للتقليد، وإنهم نهوا أصحابهم عن تقليدهم، وكان أشدهم في ذلك الشافعي، فإنه رحمه الله بلغ من التأكيد في اتباع صحاح الآثار، والأخذ بما أوجبته الحجة، حيث لم يبلغ غيره، وتبرأ من أن يقلَّد جملة، وأعلن بذلك، نفع الله به وأعظم أجره، فلقد كان سبباً إلى خير كثير).

١- (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت؛ فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي)[١].

٢- (أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ؛ لم يحل له أن يدعها لقول أحد)[٢].

٣- «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ؛ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت). وفي رواية: (فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى قول أحد)[٣].

٤- (إذا صح الحديث فهو مذهبي)[٤].

---

(١) رواه الحاكم بسنده المتصل إلى الشافعي؛ كما في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٥/ ١/ ٣)، و«إعلام الموقعين» (٢/ ٣٦٣ و٣٦٤)، و«الإيقاظ» (ص١٠٠).

(٢) ابن القيم (٢/ ٣٦١)، والفلاني (ص٦٨).

(٣) الهروي في «ذم الكلام» (٣/ ٤٧/ ١)، والخطيب في «الاحتجاج بالشافعي» (٨/ ٢)،وابن عساكر (١٥/ ٩/ ١)، والنووي في «المجموع» (١/ ٦٣)، وابن القيم (٢/ ٣٦١)، والفلاني (ص١٠٠)، والرواية الأخرى لأبي نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٧) وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٨٤- الإحسان» بسنده الصحيح عنه نحوه.

(٤) النووي في المصدر السابق، والشعراني (١/ ٥٧) وعزاه الحاكم والبيهقي، والفلاني (ص١٠٧)، وقال الشعراني: (قال ابن حزم: أي: صح عنده أو عند غيره من الأئمة).

قلت: وقوله الآتي عقب هذا صريح في هذا المعنى، قال النووي رحمه الله ما مختصره:

(وقد عمل بهذا أصحابنا في مسألة التثويب، واشتراط التحلل من الإحرام بعذر المرض وغيرهما مما هو معروف في كتب المذهب، وممن حكي عنه أنه أفتى بالحديث من أصحابنا: أبو يعقوب البويطي، وأبو القاسم الداركي، وممن استعمله من أصحابنا المحدثين: الإمام أبو بكر البيهقي وآخرون، وكان جماعة

=

٥-(أنتم[1] أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث الصحيح؛ فأعلموني به أي شيء يكون: كوفياً أو بصرياً أو شامياً؛ حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً).

=من متقدمي أصحابنا إذا رأوا مسألة فيها حديث، ومذهب الشافعي خلافه؛ عملوا بالحديث وأفتوا به قائلين: مذهب الشافعي ما وافق الحديث.

قال الشيخ أبو عمرو: فمن وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نظر؛ إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقاً -أو في ذلك الباب أو المسألة- كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم تكمل -وشق عليه مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفه عنه جواباً شافياً- فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي، ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا، وهذا الذي قاله حسن متعين. والله أعلم.

قلت: وهناك صورة أخرى لم يتعرض لذكرها ابن الصلاح، وهي فيما إذا لم يجد من عمل بالحديث؛ فماذا يصنع؟ أجاب عن هذا تقي الدين السبكي في رسالة «معنى قول الشافعي ... إذا صح الحديث ... » (٣/ ١٠٢) فقال:

«والأولى عندي اتباع الحديث، وليفرض الإنسان نفسه بين يدي النبي ﷺ وقد سمع ذلك منه؛ أيسعه التأخر عن العمل به؟ لا والله ... وكل واحد مكلف بحسب فهمه».

وتمام هذا البحث وتحقيقه تجده في «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٠٢ و٣٧٠)، وكتاب الفلاني المسمى «إيقاظ همم أولي الأبصار، للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار، من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار»، وهو كتاب فذ في بابه، يجب على كل محب للحق أن يدرسه دراسة تفهم وتدبر.

(١) الخطاب للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٩٤-٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٦)، والخطيب في «الاحتجاج بالشافعي» (٨/ ١)، وعنه ابن عساكر (١٥/ ٩/ ١)، وابن عبد البر في «الانتقاء» (ص٧٥)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٤٩٩)، والهروي (٢/ ٤٧/ ٢) من ثلاثة طرق عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أن الشافعي قال له ... فهو صحيح عنه، ولذلك جزم بنسبته إليه ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٣٢٥)، والفلاني في «الإيقاظ» (ص١٥٢)، ثم قال:

(قال البيهقي: ولهذا كثر أخذه -يعني: الشافعي- بالحديث، وهو أنه جمع علم أهل الحجاز والشام واليمن والعراق، وأخذ بجميع ما صح عنده من غير محاباة منه، ولا ميل إلى ما استحلاه من مذهب أهل بلده؛ مهما بان له الحق في غيره، وفيمن كان قبله من اقتصر على ما عهده من مذهب أهل بلده، ولم يجتهد في معرفة صحة ما خالفه، والله يغفر لنا ولهم).

٦- (كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت؛ فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي)[1].

٧- (إذا رأيتموني أقول قولاً، وقد صح عن النبي ﷺ خلافه؛ فاعلموا أن عقلي قد ذهب)[2].

٨- (كل ما قلت؛ فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح؛ فحديث النبي أولى، فلا تقلدوني)[3].

٩- (كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني)[4].

٤- أحمد بن حنبلٍ رحمه الله.

وأما الإمام أحمد؛ فهو أكثر الأئمة جمعاً للسنة وتمسكاً بها، حتى (كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي)[5]، ولذلك قال:

١- (لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا)[6].

---

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٧)، والهروي (٤٧/ ١)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٦٣)، والفلاني (ص١٠٤).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٩٣)، وأبو القاسم السمرقندي في «الأمالي» كما في «المنتقى منها» لأبي حفص المؤدب (٢٣٤/ ١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٦)، وابن عساكر (١٥/ ١٠/ ١) بسند صحيح.

(٣) ابن أبي حاتم (ص٩٣) وأبو نعيم وابن عساكر (١٥/ ٩/ ٢) بسند صحيح.

(٤) ابن أبي حاتم (ص٩٣-٩٤).

(٥) ابن الجوزي في «المناقب» (ص١٩٢).

(٦) الفلاني (١١٣)، وابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٣٠٢).

وفي رواية: (لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعدُ الرجل فيه مخير). وقال مرة: (الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد التابعين مخير)[(١)].

٢- (رأي الأوزاعي، ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار)[(٢)].

٣- (من رد حديث رسول الله ﷺ؛ فهو على شفا هلكة)[(٣)].

تلك هي أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الأمر بالتمسك بالحديث، والنهي عن تقليدهم دون بصيرة، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً، وعليه؛ فإن من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الأئمة؛ لا يكون مبايناً لمذهبهم، ولا خارجاً عن طريقتهم، بل هو متبع لهم جميعاً، ومتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقولهم، بل هو بذلك عاصٍ لهم، ومخالف لأقوالهم المتقدمة، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

---

(١) أبو داود في «مسائل الإمام أحمد» (ص٢٧٦ و٢٧٧).

(٢) ابن عبدالبر في «الجامع» (٢/ ١٤٩).

(٣) ابن الجوزي (ص١٨٢).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى:

(فالواجب على كل من بلغه أمر الرسول ﷺ وعرفه أن يبينه للأمة، وينصح لهم، ويأمرهم باتباع أمره، وإن خالف ذلك رأي عظيم من الأمة؛ فإن أمر رسول الله ﷺ أحق أن يعظم ويقتدى به من رأي أي معظَّم قد خالف أمره في بعض الأشياء خطأ، ومن هنا رد الصحابة ومن بعدهم على كل مخالف سنة صحيحة، وربما أغلظوا في الرد[1]، لا بغضاً له؛ بل هو محبوب عندهم معظّم في نفوسهم، لكن رسول الله أحب إليهم، وأمره فوق أمر كل مخلوق، فإذا تعارض أمر الرسول وأمر غيره؛ فأمر الرسول أولى أن يقدم ويتبع، ولا يمنع من ذلك تعظيم من خالف أمره وإن كان مغفوراً له[2]، بل ذلك المخالف المغفور له لا يكره أن يخالف أمره إذا ظهر أمر الرسول ﷺ بخلافه)[3].

---

(١) قلت: حتى ولو على آبائهم وعلمائهم؛ كما روى الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٧٢) وأبو يعلى في «مسنده» (٣/ ١٣١٧ - مصورة المكتب) بإسناد جيد رجاله ثقات عن سالم بن عبدالله بن عمر قال: (إني لجالس مع ابن عمر رضي الله عنه في المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج؟ فقال ابن عمر: حسن جميل. فقال: فإن أباك كان ينهى عن ذلك؟ فقال: ويلك! فإن كان أبي قد نهى عن ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به؛ فبقول أبي تأخذ أم بأمر رسول الله ﷺ؟! قال: بأمر رسول الله ﷺ. فقال: فقم عني). وروى أحمد (رقم ٥٧٠٠) نحوه، والترمذي (٢/ ٨٢ بشرح التحفة) وصححه، وروى ابن عساكر (٧/ ٥١/ ١) عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم (يعني: ابن عبدالرحمن بن عوف) على رجل برأي ربيعة بن أبي عبدالرحمن، فأخبرته عن رسول الله ﷺ بخلاف ما قضى به، فقال سعد لربيعة: هذا ابن أبي ذئب، وهو عندي ثقة، يحدث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به، فقال له ربيعة: قد اجتهدت ومضى حكمك. فقال سعد: واعجباً! أنفذ قضاء سعد و [لا] أنفذ قضاء رسول الله ﷺ؟! بل أرد قضاء سعد ابن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ. فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضي عليه.

(٢) **قلت:** بل هو مأجور لقوله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، فأصاب؛ فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، فأخطأ؛ فله أجر واحد**» رواه الشيخان وغيرهما.

(٣) نقله في التعليق على «إيقاظ الهمم» (ص٩٣).

قلت: كيف يكرهون ذلك وقد أمروا به أتباعهم كما مر، وأوجبوا عليهم أن يتركوا أقوالهم المخالفة للسنة؟ بل إن الشافعي رحمه الله أمر أصحابه أن ينسبوا السنة الصحيحة إليه ولو لم يأخذ بها، أو أخذ بخلافها، ولذلك لما جمع المحقق ابن دقيق العيد رحمه الله المسائل التي خالف مذهب كل واحد من الأئمة الأربعة الحديث الصحيح فيها انفراداً واجتماعاً في مجلد ضخم؛ قال في أوله:

(إن نسبة هذه المسائل إلى الأئمة المجتهدين حرام، وإنه يجب على الفقهاء المقلدين لهم معرفتها؛ لئلا يعزوها إليهم فيكذبوا عليهم)[1].

ترك الأتباع بعض أقوال أئمتهم اتباعاً للسنة

ولذلك كله كان أتباع الأئمة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ١٤﴾ [الواقعة] لا يأخذون بأقوال أئمتهم كلها، بل قد تركوا كثيراً منها لما ظهر لهم مخالفتها للسنة، حتى إن الإمامين: محمد بن الحسن وأبا يوسف رحمهما الله قد خالفا شيخهما أبا حنيفة (في نحو ثلث المذهب)[2]، وكتب الفروع كفيلة ببيان ذلك، ونحو هذا يقال في الإمام المزني[3] وغيره من أتباع الشافعي وغيره، ولو ذهبنا نضرب على ذلك الأمثلة لطال بنا الكلام، ولخرجنا به عما قصدنا إليه في هذا البحث من الإيجاز، فلنقتصر على مثالين اثنين:

(١) الفلاني (ص٩٩).

(٢) ابن عابدين في «الحاشية» (١/ ٦٢)، وعزاه اللكنوي في «النافع الكبير» (ص٩٣) للغزالي.

(٣) وهو القائل في أول «مختصره في فقه الشافعي» والمطبوع بهامش «الأم» للإمام ما نصه:

«اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله؛ لأقربه على من أراده، مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره؛ لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه».

١- قال الإمام محمد في «موطئه»[1] (ص١٥٨): (قال محمد: أما أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فكان لا يرى في الاستسقاء صلاة، وأما في قولنا: فإن الإمام يصلي بالناس ركعتين، ثم يدعو ويحول رداءه) الخ.

٢- وهذا عصام بن يوسف البلخي من أصحاب الإمام محمد[2] ومن الملازمين للإمام أبي يوسف[3] (كان يفتي بخلاف قول الإمام أبي حنيفة كثيراً؛ لأنه لم يعلم الدليل، وكان يظهر له دليل غيره فيفتي به)[4]، ولذلك (كان يرفع يديه عند الركوع والرفع منه)[5]؛ كما هو في السنة المتواترة عنه ﷺ، فلم يمنعه من

(١) وقد صرح فيه بمخالفة إمامه في نحو عشرين مسألة نشير إلى مواطنها منه (٤٢ و٤٤ و١٠٣ و١٢٠ و١٥٨ و١٦٩ و١٧٢ و١٧٣ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٤٠ و٢٤٤ و٢٧٤ و٢٧٥ و٢٨٤ و٣١٤ و٣٣١ و٣٣٨ و٣٥٥ و٣٥٦) من «التعليق الممجد على موطأ محمد».

(٢) ذكره فيهم ابن عابدين في «الحاشية» (١/ ٧٤)، وفي «رسم المفتي» (١/ ١٧)، وأورده القرشي في «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (ص٣٤٧) وقال: (كان صاحب حديث ثبتاً، وكان هو وأخوه إبراهيم شيخي بلخ في زمانهما).

(٣) «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص١١٦).

(٤) «البحر الرائق» (٦/ ٩٣)، و«رسم المفتي» (١/ ٢٨).

(٥) «الفوائد» (ص١١٦) ثم علق عليه بقوله وقد أجاد:

(**قلت**: يعلم منه بطلان رواية مكحول عن أبي حنيفة: «أن من رفع يديه في الصلاة فسدت صلاته» التي اغتر بها أمير كاتب الاتقاني كما مر في ترجمته، فإن عصام بن يوسف كان من ملازمي أبي يوسف وكان يرفع، فلو كان لتلك الرواية أصل؛ لعلم بها أبو يوسف وعصام. قال: ويعلم أيضاً أن الحنفي لو ترك في مسألة مذهب إمامه لقوة دليل خلافه لا يخرج به عن ربقة التقليد، بل هو عين التقليد في صورة ترك التقليد، ألا ترى أن عصام بن يوسف ترك مذهب أبي حنيفة في عدم الرفع ومع ذلك هو معدود في الحنفية؟ قال: وإلى الله المشتكى من جهلة زماننا؛ حيث يطعنون على من ترك تقليد إمامه في مسألة واحدة لقوة دليلها، ويخرجونه عن جماعة مقلديه!! ولا عجب منهم فإنهم من العوام، إنما العجب ممن يتشبه بالعلماء ويمشي مشيهم كالأنعام!).

العمل بها أن أئمته الثلاثة قالوا بخلافها، وذلك ما يجب أن يكون عليه كل مسلم بشهادة الأئمة الأربعة وغيرهم كما تقدم.

وخلاصة القول؛ إنني أرجو أن لا يبادر أحد من المقلدين إلى الطعن في مشرب هذا الكتاب، وترك الاستفادة مما فيه من السنن النبوية بدعوى مخالفتها للمذهب، بل أرجو أن يتذكر ما أسلفناه من أقوال الأئمة في وجوب العمل بالسنة، وترك أقوالهم المخالفة لها، وليعلم أن الطعن في هذا المشرب إنما هو طعن في الإمام الذي يقلده أياً كان من الأئمة، فإنما أخذنا هذا المنهج منهم كما سبق بيانه، فمن أعرض عن الاهتداء بهم في هذا السبيل؛ فهو على خطر عظيم؛ لأنه يستلزم الإعراض عن السنة، وقد أُمرنا عند الاختلاف بالرجوع إليها والاعتماد عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن قال فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور]).

(١٢)

القاعدة الثانية عشرة

أنهم يعتقدون أن البيعة الشرعية لا تكون إلا لإمام مسلم بايعه أهل الحل والعقد، والعامة تبعٌ لهم

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبةٌ، ما أقام فيكم كتاب الله**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء تُكثر**». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**فُوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»[٢].

وعن عدي بن حاتم قال: قلنا: يا رسول الله، لا نسألك عن طاعة من اتقى، ولكن من فعل وفعل. فذكر الشر، فقال: «**اتقوا الله، واسمعوا وأطيعوا**»[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٤٢)، وليس عنده: (ما أقام فيكم كتاب الله) فإنها من حديث آخر عند أحمد (٤/ ٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥/ ١٥٦) من حديث أم الحصين الأحمسية وهو حديث صحيح.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٠١)، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١٠٦٩)، [«ظلال الجنة» (١٠٦٩)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أراد بحبوحة الجنة[1] فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد**»[2].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[3].

قال ابن تيمية رحمه الله: (المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إماماً ولهذا قال أئمة السلف: من صار له قدرة وسلطان يفعل بهما مقصود الولاية فهو من أُولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصية الله. فالإمامة ملكٌ وسلطان. والمُلك لا يصير مُلكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير مَلكاً بذلك، وهكذا كل أمر يفتقر إلى المعاونة عليه لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه)[4].

(١) بحبوحة الجنة: وسطها. اللسان. (ب ح ح).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٤٥٥٧)، وأحمد (١/ ٢٦)، والترمذي (٢١٦٥)، والحاكم (١/ ١٩٧، ١٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٦٥٩)، [«الصحيحة» (٤٣٠)].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٤٤).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (١/ ٥٢٧).

(١٣)

القاعدة الثالثة عشرة

أنهم لا يرون الخروج على الولاة الظلمة والفسقة؛ بل يذمون ذلك، ويذمون من خرج على الولاة ديناً ودنيا

لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سيكون بعدي أُمراء فتعرفون منهم وتُنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**». قالوا: أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «**لا؛ ما أقاموا فيكم الصلاة**»[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يكون بعدي أئمةً لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيكون فيكم رجالٌ قلوبهم قلوب الشياطين في**

---

(١) **صحيح**: وهما حديثان وليس حديث واحد أخرجه مسلم (١٨٥٤)، وفيه: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون) بدل (سيكون بعدي أمراء فتعرفون منهم وتنكرون) وفيه أيضاً: (قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا) بدل (قالوا: فلا ننابذهم بالسيف؟ قال: لا؛ ما أقاموا فيكم الصلاة) والحديث الثاني عند مسلم برقم (١٨٥٥).

جثمان إنسٍ» قال: قلت: كيف أصنع؟ يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «**تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك؛ فاسمع وأطع**»[١].

وعن عرفجة الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتاكم وأمركم جميعٌ على رجل واحدٍ، يريد أن يشق عصاكم، ويفرق جماعتكم؛ فاقتلوه**»[٢].

وعن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال إني: سمعت نبيَّ الله ﷺ يقول: «**يُنصب لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة**». وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايَع رجلٌ على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل[٣] بيني وبينه[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، عليه رحمة الله:

(والمبتدع الذي يظن أنه على حق مثل الخوارج والنواصب الذين نصبوا العداوة والحرب لجماعة المسلمين، فابتدعوا بدعةً وكفروا من لم يوافقهم عليها، فصار بذلك ضررهم على المسلمين أعظم من ضرر الظلمة الذين يعلمون أن الظلم محرمٌ، وإن كانت عقوبة أحدهم في الآخرة، لأجل التأويل، قد تكون أخف، لكن أمر النبي ﷺ بقتالهم ونهى عن قتال الأمراء الظلمة، وتواترت عنه بذلك

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٤٧) وفيه: (وسيقوم فيهم رجال) بدل (وسيكون فيكم رجال).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٥٢).

(٣) الفيصل: القطيعة التامة. اللسان (ف ص ل).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١١١).

الأحاديث الصحيحة[1]، فقال في الخوارج: «**يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم**)[2].

وقال في بعضهم: «**يقتلون أهل الإيمان، ويدعون أهل الأوثان**»[3]. وقال للأنصار: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[4]. أي: تلقون من يستأثر عليكم بالمال ولا يُنصفكم. فأمرهم بالصبر ولم يأذن لهم في قتالهم.

وقال أيضاً: «**سيكون عليكم بعدي أمراء يأخذون منكم حقهم ويمنعونكم حقكم**». قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم**»[5].

وقال: «**من رأى من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**»[6]. وقال: «**من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات**

---

(١) في «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٤٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) بلفظ آخر.

(٣)**صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) وعندهما: (أهل الإسلام) بدل (أهل الإيمان).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٥٢)، وعنده: (إنكم سترون بعدي أثرة وأمور تنكرونها) بدل (سيكون عليكم بعدي أمراء...).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩)، ولفظ الحديث عند البخاري: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية) ولم أجده بهذا اللفظ الذي أورده شيخ الإسلام رحمه الله.

مات ميتةً جاهليةً»[١]. وقال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون**[٢] **عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تُبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**». قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلوا**»[٣].

وهذه الأحاديث كلها في الصحيح إلا أحاديث أمثالها.

فهذا أمره بقتال الخوارج، وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة، وهذا مما يستدل به على أنه ليس كل ظالمٍ باغٍ يجوز قتاله، ومن أسباب ذلك: أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يقاتَل في العادة إلا لأجل الدنيا، يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات، وحتى لا يظلمهم، ولم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا، ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة]. وقال فيهم عليه السلام: «**من قُتل دون ماله فهو شهيدٌ، ومن قُتل دون حرمته فهو شهيدٌ**»[٤]. لأن أولئك معادون لجميع الناس،

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٤٨).

(٢) يصلون: يدعون. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٣٢٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٥٥)، وعنده: (قيل: يا رسول الله! أفلا نُنابذهم بالسيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة) بدل (قالوا: أفلا نقاتلهم؟....).

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي (٤٠٩٥) بهذا اللفظ وعنده: (دون أهله) بدل (دون حرمته)، وأحمد (١/ ١٩٠)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢٦٦)، [«أحكام الجنائز» (ص٥٧)].

وجميع الناس يعينون على قتالهم، ولو قدر أنه ليس كذلك العداوة والحرب؛ فليسوا ولاة أمر قادرين على الفعل والأخذ، بل هم بالقتال يريدون أن يأخذوا أموال الناس ودماءهم، فهم مبتدئون الناس بالقتال، بخلاف ولاة الأمور؛ فإنهم لا يبتدئون بالقتال للرعية، وفرقٌ بين من تقاتله دفعاً وبين من تقاتله ابتداءً.

وبالجملة، العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة، وهذا قتالٌ على الدنيا، ولهذا قال أبو برزة عن فتنة ابن الزبير، وفتنة القراء مع الحجاج، وفتنة مروان بالشام: «هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء إنما يقاتلون على الدنيا»[١].

وأما أهل البدع، كالخوارج، فهم يريدون إفساد دين الناس، وقتالهم قتالٌ على الدين، والمقصود بقتالهم أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، ولهذا أمر النبي ﷺ بهذا ونهى عن ذاك)[٢] اهـ. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩].

قال ابن القيم رحمه الله: (وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم؛ بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها، منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بما

---

(١) **صحيح**: انظر الأثر بتمامه عند البخاري (٧١١٢).

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٢).

عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، **وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم**.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا[1] شابت لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر؛ بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها، ومن له فطنةٌ إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرةً في القضاء والقدر، ظاهرةً وباطنةً فيه، كما في الخلق والأمر سواءً.

فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئاً من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة؛ بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعةٌ على أتم وجوه والحكمة والصواب)[2].

وقال أيضاً: (والله تعالى قد جرت سنته في خلقه بأن يحرم الطيبات شرعاً وقدراً على من ظلم وتعدى حدوده وعصى أمره، وأن ييسر للعسرى من بخل بما أمره به فلم يفعله، واستغنى عن طاعته باتباع شهواته وهواه، كما أنه سبحانه ييسر لليسرى من أعطى واتقى وصدق)[3].

---

(١) الشَّوْبُ: الخلط. «اللسان» (ش و ب).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٣).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٣٧).

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدين النصيحة**». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: نهانا كبراؤنا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تبغضوهم، واتقوا الله واصبروا، فإن الأمر قريبٌ**»(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خمسٌ من فعل واحدةً منهن كان ضامناً على الله عز وجل: من عاد مريضاً، أو خرج مع جنازةٍ، أو خرج غازياً، أو دخل على إمام يريد تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس**»(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاث خصالٍ لا يغل عليهن قلب مسلم أبدا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»(٤).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥٥) وليس عنده: (يا رسول الله).

(٢) **إسناده جيد**: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٢٣)، [«ظلال الجنة» (١٠١٥)].

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٧، ٣٨)، والبزار «كشف الأستار» (١٦٤٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢١)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٧١)].

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٢٣٠)، والترمذي «٢٦٥٨»، والدارمي (٢٢٨)، وابن حبان (٦٧)، [«الموسوعة الحديثية»]

وقوله: «**مناصحة أئمة المسلمين**». هذا أيضاً منافٍ للغل والغش، فإن النصيحة لا تجامع الغل، فهي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد بريءَ من الغل.

وقوله: «**ولزوم الجماعة**». هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه بلزومه لجماعة المسلمين؛ يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسره ما يسرهم، وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم، كفعل أهل البدع والخوارج والمعتزلة وغيرهم، فإن قلوبهم ممتلئة عليهم غلاً وغشاً؛ تجد أهل البدع أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة، وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين). انتهى كلامه يرحمه الله[1].

(١٤)

القاعدة الرابعة عشرة

أنهم يعتقدون أن اتباع الأهواء في الديانات -البدع- أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات

فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٣).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ الآية، إلى قوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:٢٨، ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [الأنعام:١١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة]. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾ [البقرة]. وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩].

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

وقال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا، وثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مطاعٌ، وهوى متبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه**»(١). والحب والبغض يتبعه ذوق، عند وجود

(١) **حسن**: أخرجه البيهقي في«شعب الإيمان» (٧٤٥)، بنفس ألفاظ الحديث لكن فيه تقديم وتأخير، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، وأبو نعيم (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠)، والقضاعي (٣٢٥)، [«الصحيحة» (١٨٠٢)].

المحبوب والمبغَض، ووجدٌ وإرادةٌ وغير ذلك، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؛ بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه.

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه؛ هل هو موافق لأمر الله ورسوله، وهو هدى الله الذي أنزل على رسوله ﷺ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض، لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله، فإنه قد قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١] [(١)].

وفي مناظرة لشيخ الإسلام مع بعض أهل البدع، قال رحمه الله: «فقال لي: البدعة مثل الزنا. وروى حديثاً في ذم الزنا، فقلت: هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والزنا معصية، والبدعة شر من المعصية، كما قال سفيان الثوري: (البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، فإن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها). وكان قد قال بعضهم: نحن نتوّب الناس. فقلت: مماذا تتوّبونهم؟ قال: من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم، فإنهم كانوا فساقاً، يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله، ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله، ويبغضون ما يحبه الله.

---

(١) انظر: «الاستقامة» لشيخ الإسلام (٢/ ٢٢٣).

وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

قلت -مخاطباً للأمير والحاضرين-: أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب: (أن رجلاً كان يُدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحد، فلعنه رجلٌ مرة، وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»[1].

قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد، يحب الله ورسوله، شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، ونهى عن لعنه.

وأما المبتدع؛ فمثل ما أخرجا في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري وغيرهما، دخل حديث بعضهم في بعض: «أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم، فجاءه رجل ناتئ[2] الجبين، كث اللحية، محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال! فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «**يخرج من ضئضئ[3] هذا قومٌ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم،**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧٨٠) بلفظ: (أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يلقب حِمَاراً، وكان يُضحكُ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يُحب الله ورسوله**»).

(٢) ناتئ الجبين، من النتوء، أي: أنه يرتفع على ما حوله. «فتح الباري» (٨/ ٦٨).

(٣) الضئضئ: النسل والعقب. «فتح الباري» (٨/ ٦٩).

وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ»[١]. وفي رواية: «**لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد ﷺ لنكلوا عن العمل**»[٢]. وفي رواية: «**شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه**»[٣].

قلت: فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة، أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته)[٤].

قلت: وفيه دليل لما اشتهر عن السلف: أن الله لا يقبل من المبتدع عملاً، وأن الاتباع متعلق بالألوهية، كما تقدم في القاعدتين الأوليين.

واعلم (أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٤٣٥١، ٣٦١٠، ٦١٦٣، ٦٩٣٣، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤)، وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بينهم وجعلهم حديثاً واحداً، وجملة: (وقراءته مع قراءتهم) ليست موجودة في كتب الحديث وخصوصاً الصحيحين.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠٦٦) بلفظ: (لو يعلم الجيش الذين يُصيبونهم، ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ، لاتَّكلُوا عن العمل...).

(٣) **إسناده حسن**: أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦)، وأحمد (٥/ ٢٥٦)، والحاكم (٢/ ١٦٣)، [«هداية الرواة» (٣٤٨٥)].

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٧٢).

صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين؛ حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئاً إلا أفسده)[١].

إن الغلو داء خطير، وشر مستطير له آثار قبيحة، منها:

١- إنه يجر إلى الشرك بالله، وذلك كالغلو في الأشخاص فإنه يفضي إلى عبادتهم من دون الله، كما حصل لقوم نوح لما غلوا في الصالحين، وكما حصل للنصارى لما غلوا في المسيح، وكما حصل لعباد القبور من هذه الأمة لما غلوا في الأولياء والصالحين فأصبحت قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله في كثير من البلاد، حتى آل الأمر إلى أن من أنكر ذلك يعد من الغلاة الذين يكفرون المسلمين!

٢- إنه يحمل على تكفير المسلمين وسفك دمائهم، كما حصل للخوارج من هذه الأمة حتى قتلوا خيارها كعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وكثير من صحابة رسول الله ﷺ.

٣- إنه يحمل على الخروج على ولي أمر المسلمين وشق عصا الطاعة وتفريق كلمة المسلمين، كما حصل ويحصل من الخوارج على مدار التاريخ، وقد أمر النبي

(١) «روضة المحبين» (١/ ٤٧٤) لابن القيم.

ﷺ بقتل من يفعل ذلك في قوله: «**من جاءكم وأمركم جميعٌ على واحدٍ منكم يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه كائناً من كان**»[١].

٤- إنه يزهِّد في السنة والوسطية والاعتدال -باعتبار ذلك تساهلاً في الدين والعبادة- كما في قصة الثلاثة الذين تقالُّوا عمل النبي ﷺ[٢].

٥- إنه يحمل على التقنيط من رحمة الله، كما حصل من الذي قال: «والله لا يغفر الله لفلان!»[٣].

٦- إنه يسبب الانقطاع عن العمل الصالح، وقد يحمل على الزيغ والانسلاخ من الدين، فإن النفس تضعف مع شدة العمل، وقد تعجز أو تمل من العمل فتتركه؛ ولهذا قال ﷺ عن المتشدد في الدين -فيما روي عنه-: «**فإن المُنبت**[٤] **لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»[٥] وقد رأينا من هذه النماذج في وقتنا الحاضر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٥٢)، بلفظ: (إنه ستكون هَنَات وهَنَات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع فاضرِبوه بالسيف، كائناً من كان).

(٢) انظر القصة في «صحيح البخاري» (٥٠٦٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٤) انبتَّ الرجل في السير: جهد دابته حتى أعيت، وهو يقال لمن يبالغ في طلب الشيء ويُفرط حتى ربما يفوّته على نفسه. الوسيط (ب ت ت).

(٥) **ضعيف**: أخرجه البزار «كشف الأستار» (٧٤)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٨)، والقضاعي (١١٤٧)، [«ضعيف الجامع» (٢٠٢٢)].

(١٥)

القاعدة الخامسة عشرة

أن دعوتهم ظاهرة للناس جميعاً، لا سرية فيها ولا تخصيص

لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أوصني. قال: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاة، وآتِ الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت واعتمر، واسمع وأطع، وعليك بالعلانية، وإياك والسر**»[١].

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»[٣].

---

(١) **إسناده جيد**: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٧٥)، [«ظلال الجنة» (١٠٧٠)].

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٢٠).

(٣) أخرجه الدارمي (٣١٥).

وقــول الله تعــالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ الآية [الكهف:٢٨].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم**»(١).

قال الإمام البخاري: «باب كيف يُقْبَضُ العلمُ، وكتب عمرُ بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزمٍ: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتُبهُ، فإنِّي خفتُ دروس العلم(٢) وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يُعَلَّمَ من لا يَعْلَمُ، فإن العلمَ لا يَهلِكُ حتى يكون سراً»(٣).

(١٦)

القاعدة السادسة عشرة

أنهم يعتقدون أن التمكين في الأرض منحةٌ من الله سبحانه وتعالى، يمنحها لمن قام بما أوجب الله عليه من العلم النافع والعمل الصالح

لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٨٩٦).

(٢) دروس العلم، أي: ذهابه. «مقدمة فتح الباري» (١/ ١١٦).

(٣) باب (٣٤) «البخاري مع الفتح» (١/ ٢٥٦).

فاشترط للتمكين والأمن تحقيق التوحيد وموافقة شرعه، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الحج:٤١].

فالخلافة الراشدة لا يمكن وقوعها في المسلمين إلا بمنهج الخلافة الراشدة الأولى، القائم على المنهج النبوي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة، ثم سكت**»[1].

هذه القاعدة معناها: أن التمكين في الأرض إنما يكون بالعلم النافع والعمل الصالح، وهذا مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣)، والبزار «كشف الأستار» (٥٨٨)،[«الصحيحة» (٥)] وراوي الحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

أسباب التمكين في الأرض:

الإيمان والعمل الصالح، والإيمان يتضمن العلم، لأنه لا يمكن الإيمان الصحيح إلا بعلم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور:٥٥]. الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله لا شريك له: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥]. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، هذه أسباب التمكين في الأرض، فيجب على المسلمين أن يحققوا هذه الأمور حتى يتحقق لهم وعد الله عز وجل، فإذا نقصوا شيئاً من هذه الأمور نقص التمكين، أو زال.

وتعاقب الأدوار التي ذكرها رسول الله ﷺ في هذا الحديث: خلافة، ثم ملك، ثم خلافة، ثم كذا، تعاقب هذه الأدوار لتغير أحوال الناس، فإذا صلحوا وحققوا هذه الأمور تحقق لهم الخير والأمن والاستقرار، والتمكين في الأرض، وإذا فقدوا هذه الأمور فقدوا التمكين نهائياً، وإذا نقصوا هذه الأمور نقص تمكينهم في الأرض؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وإذا وجد السبب وجد المسبَّب، وإذا فقد السبب فقد المسبب، أو إذا نقص السبب نقص المسبَّب، هذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

(١٧)

القاعدة السابعة عشرة

أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالعلم والرفق والصبر، بقصد الإصلاح

لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**»[١].

وعن أبي بكر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»[٢].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦].

وعند عبد الله بن المغفل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**»[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٥)، وابن تيمية (٤٠٠٥)، وابن حبان (٣٠٥)، وأبو يعلى (١٢٨)، [«صحيح الجامع» (١٩٧٤)].

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٨٠٧)، ومسلم (٢٥٩٣)، [«صحيح الجامع» (١٧٧١)].

وقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف:١٣٧]. وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود:٨٨]. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء:٧٧]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فيُقتنع بالخير اليسير إذا لم يحصل الكثير، ويُدرأ الشر الكبير بالشر اليسير، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان)[1].

وقال: (والقيام بالواجبات -من الدعوة الواجبة وغيرها- يحتاج إلى شروط يقام بها، ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، أن يكون عالماً بما يأمر به عالماً بما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه، فالعلم قبل الأمر، والرفق عند الأمر، والحلم بعد الأمر، فإن لم يكن عالماً لم يكن له أن يقْفُ ما ليس له به علم، وإن كان عالماً ولم يكن رفيقاً كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض، فلا يقبل منه، وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد، وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]. ثم إذا أمر أو نهى؛ فلا بد أن يؤذَى في العادة فعليه أن يصبر ويحلُم، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٩٦).

وقد أمر الله نبيه بالصبر على أذى المشركين في غير موضع، وهو إمام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فإن الإنسان عليه أولاً أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما أمر به، وهو يحب صلاح المأمور، وإن فعل ذلك لطلب الرياسة في نفسه ولطائفته وتنقيص غيره، كان ذلك حمية لا يقبله الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء، كان عمله حابطاً، ثم إذا رد عليه ذلك أو أذوي أو نسب إلى أنه مخطئ وغرضه فاسد، طلبت نفسه الانتصار لنفسه وأتاه الشيطان، فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوىً يطلب به أن ينتصر على من آذاه، وربما اعتدى على ذلك المؤذي، وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة إذا كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وأنه على السنة، فإن أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوىً أن ينتصر جاهه أو رياسته وما نسب إليهم، لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله؛ بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهداً معذوراً، لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن كان يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد، ليس له علم ولا حسن قصدٍ، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله، وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون إلا أهواءهم، ويقولون: هذا صديقنا، وهذا عدونا! لا ينظرون إلى موالاة الله ورسوله، ومعاداة الله ورسوله، ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩]. فإن لم يكن الدين كله لله كانت فتنة.

وأصل الدين أن يكون الحب والبغض لله، والموالاة لله والمعاداة لله، والعبادة لله والاستعانة بالله، والخوف من الله، والرجاء بالله، والإعطاء لله والمنع لله، وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله ﷺ الذي أمره أمر الله، ونهيه نهي الله، ومعاداته معاداة الله، وطاعته طاعة الله، ومعصيته معصية الله.

وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضى الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله؛ بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن ما يرضى له ويغضب له هو السنة وهو الحق وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، أو أن تكون كلمة الله هي العليا؛ بل قصد الحمية لنفسه وطائفته، أو الرياء، أو أن يعظَّم أو يُثنى عليه، أو فعل ذلك شجاعةً وطبعاً، أو لغرضٍ من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة! وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وكفر بعضهم بعضاً وفسق بعضهم بعضاً، ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة])[1].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٥٦).

والناس هنا ثلاثة أقسام:

قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم، فلا يرضون إلا بما يعطَونه ولا يغضبون إلا لما يُحرمونه، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال أو الحرام؛ زال غضبه وحصل رضاه، وصار الأمر الذي كان عنده منكراً، ينهى عنه ويعاقب عليه، ويذم صاحبه ويغضب عليه مرضياً عنه، وصار فاعلاً له وشريكاً فيه، ومعاوناً عليه ومعادياً لمن ينهى عنه وينكر عليه.

وهذا غالبٌ في بني آدم: يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وسببه: أن الإنسان ظلوم جهول، فلذلك لا يعدل؛ بل ربما كان ظالماً في الحالين، يرى قوماً ينكرون على المتولي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم، فيرضى أولئك المنكرون ببعض الشيء من منصب أو مال، فينقلبون أعواناً له، وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه.

وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي حتى يُدخلوا أحدهم معهم في ذلك، أو يرضوه ببعض ذلك، فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم.

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التي كانوا عليها، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره.

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا، فهؤلاء هم الذين آمنوا

وعملوا الصالحات، وهم من خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا وهم غالب المؤمنين، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

وهذه القسمة الثلاثية، كما قيل: الأنفس ثلاث: أمارة، ومطمئنة، ولوامة. فالأولون هم أهل الأنفس الأمَّارة التي تأمرهم بالسوء، والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر]. والآخرون هم أهل النفوس اللوَّامة التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه، وتتلون تارة كذا وتارة كذا، أو تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهؤلاء يرجى أن يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة]) [(١)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، وينكر عليهم آخرون إنكارا منهياً عنه، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً؛ إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأول وجهله من نوعٍ،

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٤٩).

وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوعٍ آخر وآخر، ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها)[1].

وهذه القاعدة من أصول أهل السنة والجماعة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بالمعروف: كل طاعة. والمراد بالمنكر: كل معصية. كل طاعة مشروعة فهي معروف؛ لأن العقول تعرفها، والفطر تقبلها، وأما المنكر فهو كل ما نهى الله عنه، كل معصية؛ لأن الفطر والعقول تنكرها ولا تقبلها، والمراد العقول السليمة والفطر السليمة، لا الفطر المنحرفة، أو العقول المنحرفة، وإلا فقد يكون هناك فطر تقبل الشر، وعقول تقبل الشر، لكن نقول هذه منحرفة ليست على أصلها ومغيَّرة، هذا هو المعروف الممكن، وقد أمر الله بالمعروف، ونهى عن المنكر، ووصف المؤمنين بذلك، ووصف الرسول ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]. فهم يأمرون بكل طاعة وبكل خير، وينهون عن كل معصية وكل شر، ولكن على ما توجبه الشريعة.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أهل السنة والجماعة يجب أن يكون على ما توجبه الشريعة، لا على طريقة المبتدعة من المعتزلة والخوارج الذين يسمون خروجهم على ولاة الأمور وشق عصا الطاعة، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، هذا هو الأمر بالمنكر نفسه والنهي عن المعروف.

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٤١).

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بحسب الاستطاعة، كما قال ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»(١). بحسب الإمكان، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فالذي عنده سلطة وقدرة يغير المنكر بيده، فولي الأمر له سلطة، ونواب ولي الأمر، ورجال الحسبة لهم سلطة، فبحسب ما أُعطوا ومُنحوا من الصلاحيات يغيرون باليد، وصاحب البيت له سلطة على بيته، يغير باليد، قال ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر**»(٢). فصاحب البيت، له سلطة على من في بيته، يؤدبهم ويضربهم إذا أخطأوا واستحقوا الضرب، والزوج له سلطة على زوجته يضربها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤]. **فهذا له سلطة.**

أما الذي ليس له سلطة، وهو يقدر على البيان، يعرف الحلال والحرام، ويميز بين هذا وهذا، يتكلم وينصح ويبين للناس ما يقعون فيه، وإن كان الأمر يختص بفرد فإنه يناصحه سراً، وإن كان الأمر عاماً، والمخالفة عامة، فإنه ينكر على الجميع إنكاراً عاماً، ولكن لا يخصص أشخاصاً ويسميهم؛ لأن النبي ﷺ كان يقول: «**ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا**»(٣). ولا يخصِّص؛ لأن التخصيص يلزم منه مفاسد، ويلزم منه نفرة الشخص الذي يخصَّص أمام الناس، لكن يعمم، ويقول: ما بال أقوام فعلوا كذا، هداهم الله، أو نحو ذلك.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٢٢٩)، والدارقطني (٨٧٦)، [«إرواء الغليل» (٢٤٧)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٤٠١)، وعنده: (قالوا) بدل (يفعلون).

أما التشهير والتعيير والتحريش، والكلام في المجالس عن فلان وغيره، وأنهم يعملون كذا، هذا لا يأتي بخير، بل هذا من إشاعة الفاحشة، فالناس ما سمعوا عن هذا الشيء وأنت تنشره عليهم، تقول: فلان فعل كذا، والمحل الفلاني فيه كذا، فالناس ما سمعوا عن هذه الأمور، هذه الأمور تفرح المنافقين والأشرار، والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]. فليس من إنكار المنكر إشاعته على الناس، خاصة على من لم يسمع به، وتنبيه المنافقين الذين يتربصون بالمسلمين، هذا أمر لا يجوز، ولا يزيد المنكر إلا منكراً، لكن يعالج المنكر بالعلاج النافع، العلاج المناسب.

فإذا لم تستطع هذا ولا ذاك: لا السلطة ولا اللسان، فعليك أن تنكر المنكر بقلبك، لا ترضى بالمنكر، بل تكون مبغضاً له، ومبتعداً عنه، لأن الإنكار ما يسقط أبداً، وأضعف الإيمان أن يعلم الله من قلبك أنك مبغض لهذا المنكر، وأنك لو كان لك قدرة لعملت على إزالته، ولكنك لا تقدر، فهذا يكفي منك، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والله تعالى أعلم.

قلت: أثابك الله، كلام شيخ الإسلام واضح في **منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو:**

أولاً: يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عاملاً بذلك في نفسه وفي أهله، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف]. فيبدأ بنفسه أولاً.

ثانياً: أن يخلص النية لله، لا يكون قصده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحصيل رياسة، أو تحصيل مال وراتب، أو مطمع دنيوي، أو تحصيل مدح من الناس، فإن هذا لا خير فيه، كيف يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذا قصده؟! هذا مقصد دني، لا، يجب أن يكون قصده لله عز وجل.

ثالثاً: أن يكون قصده انتصار الحق لا انتصار نفسه، وأن يكون قصده نشر الخير، ونفع الناس، ما يكون قصده الانتصار لنفسه، بحيث أنه إذا أوذي أو ناله ضرر ينتقم لنفسه، لا، هو ما جاء يريد نصر نفسه، بل جاء يريد نصر الدين، ونشر الخير، ونفع الناس، فإن أصابه شيء فليصبر على ذلك، ولا يطالب بالانتصار لنفسه، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر:٣] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] على ما يصيبهم من جراء ذلك، فيكون قصده نشر الخير، ونفع الناس، وعلامة هذا أنه إذا أصابه شيء صبر، لأنه ما جاء يريد الانتصار لنفسه، إنما جاء يريد نشر الخير، ونفع الناس، فهذه مقومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكذلك من مقومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أنه ما ييئس إذا أمر ونهى ولم ير له أثراً؛ وذلك لأمرين:

أولاً: أنه برئت ذمته.

وثانياً: أنه ينتظر من الله حصول النتائج، ولو في المستقبل، ولو فيما بعد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف:١٦٤].

فالنبي ﷺ لما جاءه ملك الجبال في مرجعه من الطائف واستأذنه أن يطبق الأخشبين على أهل مكة الذين أخرجوه وضايقوه، قال له ﷺ: «**لا، بل أستأني بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً**»[١]. فلم ييئس عليه الصلاة والسلام، بل انتظر الفرج من الله عز وجل، وقد تحقق له ﷺ ذلك.

فهذه مقومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باختصار، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(١٨)

القاعدة الثامنة عشرة

ويدعون كل من تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى اعتبار المصالح والمفاسد بميزان الشريعة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**لولا أن قومك حديثو عهدٍ بجاهلية (أو قال بكفر) لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها من الحِجْر**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) وعندهما: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٣٣٣).

وفي قصة المنافقين من حديث جابر، لما قيل للنبي ﷺ: ألا تقتلهم؟ قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما؛ بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكرٍ؛ بل ينظر:

فإذا كان المعروف أكثر أُمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم يُنه عن منكر يستلزم تفويت معروفٍ أعظم منه؛ بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب؛ نهي عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله.

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم يُنه عنهما.

فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهي، وتارةً لا يصلح لا أمرٌ ولا نهي، حيث كان المنكر والمعروف متلازمين، **وذلك في الأمور المعينة الواقعة.**

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً ويُنهى عن المنكر مطلقاً، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها ويُنهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروفٍ فوات معروفٍ أكبر منه، أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروفٍ أرجح منه، وإذا اشتبه الأمر استثبت المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلمٍ ونيةٍ، وإذا تركها كان عاصياً، فترك الأمر الواجب معصيةٌ، وفعل ما نُهي عنه من الأمر معصيةٌ، وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أُبيّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور، لما لهم من الأعوان، فإزالة منكره بنوعٍ من عقابه مستلزمةٌ إزالة معروفٍ أكبر من ذلك: بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه.

وجماع ذلك داخلٌ في القاعدة العامة: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، أو تعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً تحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر؛ لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، **لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة**، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام)[1].

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢١٧).

(١٩)

القاعدة التاسعة عشرة

أنهم يعتقدون أن الجهاد فريضةٌ ماضيةٌ إلى يوم القيامة

ويكون بالقلب، والدعوة، والحجة، والبيان، والرأي، والتدبير، والبدن، والمال، فيجب بغاية ما يمكنه، وجهاد الكفار ابتداء بالسنان له شروط لا يصح ويكون مشروعاً إلا بها، **منها:**

أولاً: أن يكون القصد منه والدافع له إعلاء كلمة الله، فقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». أخرجاه من حديث أبي موسى رضي الله عنه [1]. وقال عليه السلام: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله. فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله**». أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [2].

ثانياً: ظهور العلم النافع والعمل الصالح بين المسلمين، قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]. **فاشترط** لظهور المسلمين على غيرهم وجود العلم النافع والعمل الصالح.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٠) واللفظ له.

قال البخاري في «صحيحه»: «بابٌ: عملٌ صالحٌ قبل القتال. وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم».

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف][1].

ثالثاً: الإعداد العسكري الذي يرهب الكفار، وذلك حسب الإمكان، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال]. وإلا فلا يقدمون على القتال، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء].

وذلك أنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح، لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيِّم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحةٌ على مصلحة الانتصار والمقابلة.

رابعاً: اجتماع المسلمين على إمام يقودهم، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦﴾ [البقرة].

---

(١) باب (١٣) «البخاري مع الفتح» (٦/ ٣١).

وقال ﷺ: «**الإمام جُنةٌ يقاتل من ورائه ويُتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً، وإن قال بغيره فإن عليه منه**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [١].

وقال ﷺ: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرةٍ حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**». من حديث حذيفة [٢].

وقوله ﷺ: «**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» من حديث أبي هريرة [٣].

وأما جهاد الدفع فإن حكمه يختلف باختلاف الظروف المحيطة به، وذلك بالنظر إلى تزاحم المفاسد، فإن كانت مفاسد ترك القتال أعظم وجب، وإن كانت المفاسد بالقتال أعظم لم يجب؛ بل قد يحرم، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن]. وهذا إذا لم يستنفر الإمام الناس، وإلا فيجب، وإن عدم الإمام اجتمع أهل العلم والرأي والتدبير ودعوا المسلمين للأصلح وعليهم تنصيب إمام لهم.

(والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٥٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب؛ حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد)[1].

(٢٠)

القاعدة العشرون

ويؤمنون بما دل عليه القرآن من سنة الله الكونية القدرية في قول

الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران].

إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل:

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأَشِروا، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه، وخضعوا له

(١) انظر: «الاستقامة» (٢/ ٢٧١، ٢٧٢).

وانكسروا له وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائماً منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول ﷺ، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أُحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

فذكر سبحانه أنواعاً من الحكم التي لأجلها أُديل عليهم الكفار، بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون، بما أُعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله؛ فقد مس أعداءَهم القرح في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولاً بين الناس، فيصيب كلاً منهم نصيبه منها، كالأرزاق والآجال، ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم، قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعاً، ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عند الله ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه وأنفعها للعبد، ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي: تخليصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أُديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين، ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم، فهذه بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم وإدالته في بعض الأحيان)[1].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٩١).

(وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يديل الكافرين على المؤمنين تارة، كما يديل المؤمنين على الكافرين، كما كان يكون لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]. وإذا كان في المسلمين ضعفٌ وكان عدوهم مستظهراً عليهم، كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥].وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج])[١].

وقد نبه القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام؛ تنبيهاً بها على غيرها:

المشكلة الأولى:

هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعُدد عن مقاومة الكفار، وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها، فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى وإفراده بالتعلق، وقوة الإيمان به والتوكل عليه، لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء، فمن كان من حزبه على

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٤٥).

الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار، ولو بلغوا من القوة ما بلغوا، فمن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

كان علاج ذلك هو ما ذكرنا فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة واقتصاداً، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم، وحلوا به هذه المشكلة العظمى، هو ما بينه جل وعلا في سورة الأحزاب بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

فهذا الإيمان الكامل وهذا التسليم العظيم لله جل وعلا، ثقةً به وتوكلاً عليه، هو سبب حل هذه المشكلة العظمى، وقد صرح القرآن بنتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونه ولا يحسبون أنهم ينصرون به؛ وهو: الملائكة والريح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

ولما علم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١٨]. أي: من الإيمان والإخلاص؛ كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جل وعلا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح].

فصرح جل وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدروا عليها، وأن الله جل وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

المشكلة الثانية:

هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء، مع أن المسلمين على الحق، والكفار على الباطل، وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ، فأفتى الله جل وعلا فيها وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه، جل وعلا، وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد، فقُتل عم رسول الله ﷺ وابن عمته ومُثل بهما، وقُتل غيرهما من المهاجرين، وقُتل سبعون رجلاً من الأنصار، وجُرح ﷺ وشقت شفته وكسرت رباعيته، وشج ﷺ استشكل المسلمون ذلك، وقالوا: كيف ينال منا المشركون ونحن على الحق وهم على الباطل؟! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]. فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح بأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين وتنازعهم في الأمر وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ، ومن عرف أصل الداء عرف الدواء، كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة:

هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال]. فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً، فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك، وقد بين تعالى في سورة الحشر أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما هو ضعف العقل، قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]. ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر].

ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي، لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً، ويضيء الطريق للمتمسك به، فيريه الحق حقاً والباطل باطلا، والنافع نافعاً والضار ضاراً، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران] (١).

(١) «أضواء البيان» للشنقيطي.

(٢١)

القاعدة الحادية والعشرون

أن الاقتصاد بالعمل والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [المائدة:٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «**القُط لي حصى**». فلقطت له سبع حصيات هنَّ حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا**». ثم قال: «**أيها الناس، إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**». رواه الإمام أحمد والنسائي(١).

وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع**

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي (٣٠٥٧)، والبيهقي في «السنن» (٥/ ١٢٧)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٦٠). [«صحيح ابن ماجه» (٢٤٧٣)].

والديارات ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]»[(١)].

فنهى النبي ﷺ عن التشديد في الدين، وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه؛ إما بالقدر وإما بالشرع: فالتشديد بالشرع كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل فيلزمه الوفاء به. وبالقدر: كفعل أهل الوسواس، فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم.

فالفقه كل الفقه الاقتصاد في الدين والاعتصام بالسنة، قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: (عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبدٍ على السبيل والسنة ذكر الله عز وجل فاقشعر جلده من خشية الله تعالى، إلا تحاتَّت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها، وإن اقتصاداً في سبيلٍ وسنةٍ خيرٌ من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصاداً أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم)[(٢)(٣)].

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٩٠٤) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (٣٠٧٨)، وأبو يعلى (٣٦٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٨٤)، [«الصحيحة» (٣١٢٤)].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٣)، وأبو نعيم (١/ ٣١٨)، وأحمد في «الزهد» (١٠٩٦).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٢).

(٢٢)

القاعدة الثانية والعشرون

أنهم يحثون الأمة على فهم القرآن والحديث

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]. وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد]. وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

وقال عليه السلام: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**». أخرجاه من حديث معاوية رضي الله عنه [(١)].

يحتاج المسلمون إلى شيئين:

أحدهما: معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل.

والآخر: معرفة ما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ، فإن الرسول ﷺ لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلّغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه، فإن المعاني

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين، مثل معنى التوحيد، ومعنى الواحد والأحد، والإيمان والإسلام، ونحو ذلك كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته، ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر)[١].

قال مالك: (إن أقواماً ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك). قال: (وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب: إنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا. فكتب إليه عمر: (أن افرض لهم من بيت المال). فلما كان في العام الثاني كتب إليه: إنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير. لأكثر من ذلك، فكتب إليه عمر: أن امحهم من الديوان، فإني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه على غير تأويله)[٢].

قلت: وهذا ما وقع فيه الخوارج، وبه يظهر معنى قوله عليه السلام: «**لا يجاوز حناجرهم**»[٣].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٥٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢٣)

القاعدة الثالثة والعشرون
أنهم يحثون على دراسة السنة النبوية والعمل بها، ويحذِّرون من هجرها

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]. وقال ﷺ: «**لا يزال الناس بخيرٍ ما عجلوا الفطر**». أخرجاه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه[1].

قال الإمام البخاري: «باب: كيف يقبض العلم؟ وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يُعلّم من لا يَعلَم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»[2].

قال ابن القيم: (فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضة وجوههم إذا اسودت وجوه أهل البدعة، قال

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

(٢) «البخاري مع الفتح» (٣٤)، (باب: كيف يقبض العلم؟) (١/ ٢٥٦).

تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]. قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق». وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]. والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة)[١].

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]. فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. وهذا الصراط المستقيم الذي وصانا باتباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة، وإن قاله من قاله، لكن الجور قد يكون جوراً عظيماً عن الصراط، وقد يكون يسيراً، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، وهذا كالطريق الحسي؛ فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جوراً

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٩).

فاحشاً، وقد يجور دون ذلك، فالميزان الـذي يعـرف بـه الاسـتقامة عـلى الطريـق والجور عنه هو ما كان رسول الله ﷺ وأصحابه عليـه، والجـائر عنـه إمـا مفـرط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل، فمنهم المستحق للعقوبـة، ومـنهم المغفـور له، ومنهم المأجور أجراً واحداً، بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعـة الله تعالى ورسوله أو تفريطهم)[1].

قال شيخ الإسلام: (وهذا سبب ظهور البدع في كـل أمـة، وهـو خفـاء سـنن المرسلين فيهم، وبذلك يقع الهلاك، ولهذا كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة.

قال مالك رحمه الله: السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلـك. وهذا حق؛ فإن سفينة نوح إنما ركبها مـن صـدق المرسـلين واتـبعهم، وإن مـن لم يركبها فقد كذب المرسلين، واتباع السنة هو اتباع الرسالة التـي جـاءت مـن عنـد الله، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة باطناً وظاهراً، والمتخلف عـن اتبـاع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه»[2].

(لكن أعظم المهم في هذا الباب وغيره: تمييز السنة من البدعة؛ إذ السنة ما أمر به الشارع، والبدعة ما لم يشرعه من الدين، فـإن هـذا البـاب كثُـر فيـه اضـطراب الناس في الأصول والفروع، حيث يزعم كل فريق أن طريقـه هـو الـسنة وطريـق مخالفه هو البدعة، ثم إنه يحكم على مخالفه بحكم المبتدع! فيقوم من ذلك من الـشر ما لا يحصيه إلا الله)[3].

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٣٧).

(٣) «الاستقامة» (١/ ١٣).

(٢٤)

القاعدة الرابعة والعشرون

مقاصد الشريعة

أنهم يقررون أن مقاصد الشريعة ثلاثة: **الأول**: درء المفاسد، المعروف عند أهل الأصول بالضروريات **والثاني**: جلب المصالح، المعروف عند أهل الأصول بالحاجيات. **والثالث**: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينيات والتتميمات؛ وكل هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها.

المقصد الأول: الضروريات التي هي درء المفاسد، إنما درؤها عن ستة أشياء:

الأولى: الدين، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]. وفي آية الأنفال: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]. وقال تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦].

وقال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**». الحديث[1]. وقال ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[2]. إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على المحافظة على الدين.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٠١٧).

والثانية: النفس، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعدلها، ولذلك أوجب القصاص؛ درءاً للمفسدة عن الأنفس، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٧٩]. وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]. وقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الإسراء:٣٣].

الثالثة: العقل، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾. إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠، ٩١].

وقال ﷺ: «**كل مسكرٍ حرامٌ**»[1]. وقال: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[2]. وللمحافظة على العقل أوجب ﷺ حد الشارب؛ درءاً للمفسدة عن العقل.

الرابعة: النسب، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، ولذلك حرم الزنا وأوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت؛ لئلا يختلط ماء رجلٍ بماء آخر في رحم امرأة؛ محافظةً على الأنساب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]. ونحو ذلك من الآيات، وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:٢].

وقال تعالى في إيجاب العدة؛ حفظاً للأنساب: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٤٣)، ومسلم (١٧٣٣) في كتاب الأشربة: (٧) باب: بيان أن كل مسكر خمر.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)،والنسائي (٥٦٠٧)، وابن ماجه (٣٣٩٣) [«صحيح الجامع» (٥٥٣٠)].

[البقرة:٢٣٤]. ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره؛ فمنع نكاح الحامل حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

الخامسة: العرض، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، وأوجب عليه إن رماه بِفِرْية حد القذف ثمانين جلدة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات:١٢]. وقبح جل وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

وقال: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات].

وقال في إيجاب حد القاذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور:٤، ٥].

السادسة: المال، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، ولذلك منع أخذه بغير حق شرعي، وأوجب على السارق حد السرقة، وهو قطع اليد، كما سيأتي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡ﴾ [النساء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]. وكل ذلك محافظةً على المال ودرءاً للمفسدة عنه.

المقصد الثاني: جلب المصالح، وقد جاء القرآن بجلب المصالح بأقوم الطرق وأعدلها، ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠]. وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]. ولأجل هذا جاء الشرع الكريم بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه المشروع، ليستجلب كل مصلحته من الآخر؛ كالبيوع والإجارات والأكرية والمساقاة والمضاربة، وما جرى مجرى ذلك.

المقصد الثالث: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وقد جاء القرآن بذلك بأقوم الطرق وأعدلها، والحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[1]. لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق، لأن الله تعالى يقول في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]. فدل مجموع الآية وحديث عائشة رضي الله عنها على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق أنه يكون على خلق عظيم، وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق)[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ١٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٢٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٤٣٥)، [«صحيح الجامع» (٤٨١١)].

(٢) «أضواء البيان» للشنقيطي.

(٢٥)

القاعدة الخامسة والعشرون

أنهم يحذرون من الابتداع في الدين ومن القول على الله بلا علم

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

قال شيخ الإسلام: (وليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة، حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾. أي: وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم.

وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم؛ بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣].

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧].

فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٧]. أي: لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع، وهذا يسمى استثناءاً منقطعاً)[1].

---

(١) «الجواب الصحيح» (٢/ ١٩١).

وثبت في «**الصحيحين**»: أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر. وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم. فقام النبي ﷺ خطيباً، فقال: «**ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[١].

وفي «**صحيح البخاري**» أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال: «**مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه**»[٢].

وثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «**خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمدٍ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعةٍ ضلالةٌ**»[٣].

وقال عليه السلام لأبي بردة بن نِيارٍ: «**شاتك شاة لحمٍ**». أخرجاه من حديث البراء[٤]، والمعنى: أنها لم تقع الموقع الشرعي الذي يحبه الله.

(قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]. فالقول على الله بلا علم أشد هذه

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) وقد جمع شيخ الإسلام رحمه الله بين الحديثين وجعلهما حديثاً واحداً، انظر لفظ الحديث في الصحيحين.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧٠٤)، وانظر لفظه.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٧) وعنده: (خير الحديث كتاب الله) بدل (خير الكلام كلام الله).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١).

المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال؛ بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال، فإن المحرمات نوعان: محرمٌ لذاته، لا يباح بحال. ومحرمٌ تحريماً عارضاً في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾. فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أُسست البدع والضلالات.

فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان؛ إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ الآية [النحل:١١٦][(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٢).

(وكل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهم ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة! وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم:٥٩]. وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٦٩)﴾ [الأعراف].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا. وإن عَرَض لهم عَرَضٌ آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه. وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟! فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا

بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات)(١).

(**وبالجملة** فكل من أبغض شيئاً من الكتاب والسنة ففيه من عداوة النبي ﷺ بحسب ذلك، وكذلك من أحب ذلك ففيه من الولاية بحسب ذلك)(٢).

(٢٦)

القاعدة السادسة والعشرون

أنهم يحذِّرون من طريقة أهل البدع في رميهم العلماء السائرين على طريقة السلف الصالح بالغلظة والشدة بقصد التنفير منهم

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب]. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء].

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٠١).

(٢) «درء تعارض العقل» (٥/ ٢١٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ما ذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتي هي أحسن فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا، لكن كل شيء في موضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هي أحسن، ومن المعلوم أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. فمن كان مؤمناً فإنه الأعلى بنص القرآن.

وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢٠، ٢١]. والله محقق وعده لمن هو كذلك، كائناً من كان.

ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ولا الدين طلب رضى المخلوقين؛ لوجهين:

أحدهما: أن هذا غير ممكن، **قال الشافعي**: (رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك؛ فالزمه ودع ما سواه ولا تعانه).

والثاني: أنا مأمورون بأن نتحرى رضا الله ورسوله، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحداً إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]. وقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]. ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة].

فعلينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا، ونؤدي إليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا، ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم، ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له، كما كتبت عائشة إلى معاوية رضي الله عنهما: «أما بعد؛ فإنه من التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، وعاد حامده من الناس ذاماً، ومن التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[١]. فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضى ربه واجتناب سخطه، والعاقبة له، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٢].

وقال: (وهكذا الرد على أهل البدع إن لم يُقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم؛ لم يكن عمله صالحاً، وإذا غلّظ في ذم بدعةٍ ومعصيةٍ كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد، كما في نصوص الوعيد وغيرها، وقد يُهجر الرجل؛ عقوبةً وتعزيراً، والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله؛ للرحمة والإحسان، لا للتشفي والانتقام، كما هجر النبي ﷺ أصحابه الثلاثة الذي خُلفوا، لما جاء المتخلفون عن الغزاة يعتذرون ويحلفون وكانوا يكذبون، وهؤلاء الثلاثة صدقوا وعوقبوا بالهجر، ثم تاب الله عليهم ببركة الصدق)[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (٢٧٦)، وإسحاق بن راهويه (١١٧٥)، والقضاعي (٤٩٩)، وعبد بن حُميد (١٥٢٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٢١٣)، [«الصحيحة» (٢٣١١)]، وجملة: (وعاد حامده من الناس ذاماً) من حديث آخر عند ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٧٨) وغيره راجع الصحيحة للألباني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٣٣).

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٣٩).

(٢٧)

القاعدة السابعة والعشرون

أنهم لا يوالون ولا يعادون في غير مرضاة الله

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

وقال عليه السلام: «**ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[(١)].

وقال عليه السلام: «**إن أوثق عرى الإسلام: أن تحب في الله وتبغض في الله**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: (وذلك يجري [أي: من يوالي ويعادي من أجل هواه] فيمن يحب صاحب بدعة لكونه له داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع -مع علمهم بأنهم على الباطل- ينصرون ذلك الباطل لأجل الأتباع والمحبين،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣١٢)، والطيالسي (٧٨٣)، [«صحيح الجامع» (٢٠٠٩)].

ويعادون أهل الحق ويهجَنون[1] طريقهم، فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه، فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقةٍ هذه، ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم وفيما يحبونه، وكلاهما ضرر عليه؟! قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة].

قال الفضيل بن عياض، عن ليث، عن مجاهد: (هي المَوَدَّات التي كانت لغير الله، والوَصَلات التي كانت بينهم في الدنيا).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]. فالأعمال التي أراهم الله حسراتٍ عليهم هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا كانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله، فالخير كله في أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[2].

(ولهذا تجد قوماً كثيرين يحبون قوماً ويبغضون قوماً لأجل أهواءٍ لا يعرفون معناها ولا دليلها، بل يوالون على إطلاقها، أو يعادون، من غير أن تكون منقولة

(١) هَجَن الأمر: قبحه وعابه. المعجم الوسيط (هـ ج ن).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٠٦- وما بعدها).

نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ وسلف الأمة، ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها ولا يعرفون لازمها ومقتضاها.

وليس لأحد أن يُنصِّب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا يُنصِّب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة؛ يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون، والخوارج إنما تأولوا آيات من القرآن على ما اعتقدوه وجعلوا من خالف ذلك كافراً؛ لاعتقادهم أنه خالف القرآن، فمن ابتدع أقوالاً ليس لها أصل في القرآن وجعل من خالفها كافراً كان قوله شراً من قول الخوارج)[1].

(٢٨)

القاعدة الثامنة والعشرون

أنهم يحذِّرون من جعل الدين وسيلة للحصول على الدنيا

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٦٤).

ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة].

وقال عليه السلام: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(١).

(فصاحب البدعة يبقى صاحب هوىً يعمل لهواه لا ديانةً، ويصدر عن الحق الذي يخالفه هواه، فهذا يعاقبه الله على هواه، ومثل هذا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، ومن فسَّق من السلف الخوارجَ ونحوهم، كما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه تأول فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة]. فقد يكون هذا قصده، لاسيما إذا تفرق الناس فكان ممن يطلب الرياسة له ولأصحابه، وإذا كان المسلم الذي يقاتل الكفار قد يقاتلهم شجاعة وحميةً ورياءً، وذلك ليس في سبيل الله، فكيف بأهل البدع الذين يخاصمون ويقاتلون عليها، فإنهم يفعلون ذلك شجاعة وحميةً، وربما يعاقبون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله لا لمجرد الخطأ الذي اجتهدوا فيه)(٢).

وقال: (وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له وإخلاص دينها له، كما قال شداد بن أوس: «يا بقايا

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (/ ٢٥١).

العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»[١]. قيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: «حب الرئاسة»[٢]، وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[٣].

فبين أن الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم، وذلك بيِّن؛ فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف] اهـ)[٤].

(وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بين الله تعالى في كتابه حال فرعون وقارون، فقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨٢٧)، [«الجامع لشعب الإيمان» (٦٤٠٨)/ طبعة الرشد/ تحقيق: مختار أحمد النووي] وعنده (يا نعايا) بدل (يا بقايا).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٥٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٧٠)، وأحمد (٣/ ٤٦٠)، والدارمي (٢٧٣٢)، وابن حبان (٣٢١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٥٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٧١٠)] وليس في لفظ الحديث (زريبة) بل هو من حديث آخر.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٥).

فإن الناس أربعة أقسام:

القسم الأول: يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

وروى مسلم في «صحيحه» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمانٍ**». فقال رجل: يا رسول الله! إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً، أفمن الكبر ذاك؟ قال: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق وغمط الناس**»[1]. فبطر الحق: دفعه وجحده. وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وهذا حال من يريد العلو والفساد.

والقسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلا علو؛ كالسراق والمجرمين من سفلة الناس.

والقسم الثالث: يريدون العلو بلا فساد، كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

وأما القسم الرابع: فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩١) مفرقاً، والترمذي (١٩٩٩) واللفظ قريباً له، وجملة (أفمن الكبر ذاك) فهي من حديث آخر عند أحمد وأبو داود.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولاً، وكم ممن جُعل من الأعلين وهو لا يريد العلو ولا الفساد)[١].

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]. فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان، عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾. ولم يقل: (تبعه). فإن في معنى (أتبعه) أدركه ولحقه، وهو أبلغ من (تبعه) لفظاً ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٩٣).

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفعه به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلادٍ إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام، وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض؛ لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخسُّ الحيوانات همة، وأسقطها نفساً وأبخلها وأشدها كَلَباً[1]، ولهذا سُمي كلباً.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا: إن تُرِكَ فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعظ وزُجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكَلال وحال الراحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً

(١) يعني: حرصاً. وينظر اللسان (ك ل ب).

لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه)[1].

(٢٩)

القاعدة التاسعة والعشرون

يعتقدون وجوب لزوم المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام].

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني رَحِمَهُ اللَّهُ: عن جماعة يجتمعون على قصد الكبائر من القتل وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٠١ - وما بعدها).

وغير ذلك، ثم إن شيخاً من المشائخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مباح بغير شبابةٍ[1]، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي، يتورع عن الشبهات، ويؤدي المفروضات، ويجتنب المحرمات، فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه؛ لما يترتب عليه من المصالح، مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا؟

فأجاب: (الحمد لله رب العالمين، أصل جواب هذه المسألة وما أشبهها:

١- أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأنه أكمل له ولأمته الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

٢- وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه، والشقاوة لمن عصاه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن].

٣- وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء].

(١) الشبابة: نوع من المزمار. وينظر «فيض القدير» (٦/ ٤٣٣).

٤- وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

٥- وأخبر أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وقد أمر الله الرسول بكل معروف ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب وحرم كل خبيث، وثبت عنه ﷺ في «الصحيح» أنه قال: «**ما بعث الله نبياً إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**»(١)، وثبت عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. قال: فقلنا: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودعٍ، فماذا تعهد إلينا؟

فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالة**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٤٤) وعنده: (إنه لم يكن نبي قبلي) بدل (ما بعث الله نبينا)، و(ينذرهم) بدل (ينهاهم عن).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٧٦)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧)] أُنظر لفظ الحديث عنده.

وثبت عنه أنه قال: «**ما تركت من شيءٍ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به**»[(١)].

وقال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ**»[(٢)].

وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، كما ترجم عليه البخاري والبغوي وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين، وكان السلف كمالك وغيره يقولون: السنة كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق. وقال الزهري: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة.

إذا عُرف هذا فمعلوم أنما يهدي الله به الضالين، ويُرشد به الغاوين، ويتوب به على العاصين لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول لا يكفي في ذلك لكان دين الرسول ﷺ ناقصاً محتاجاً تتمة!

(وأما الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهي أربعة أنواع:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ١٦٠) بلفظ: (أيها الناس، إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه...) الحديث.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٧٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠١٧)، [«صحيح الجامع» (٤٣٦٩)].

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمـذنبين والعاصـين، وكـذا مـا ورد من الأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين.

الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بـسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق؛ مثل أحوال آدم ﷺ في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ونحوهـا، فإنـه لم يـرد بهـا القـرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغـرض منهـا الاعتبـار والاستبـصار لـتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟! فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثـر جنـسه عـلى أسـماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الـذنوب وأن كـل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فينبغـي أن يخـوَّف بـه، وفي الخبر: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[1] وقال بعض الـسلف: ليـست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال، إنما اللعنة أن لا تخـرج مـن ذنـب إلا وقعت في مثله، أو شر منه وهو كما قال؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فـإذا لم يوفق للخير ويُسر له الـشر فقـد أبعـد، والحرمـان عـن رزق التوفيـق أعظـم حرمان؛ وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف؛ فيحرم العبد بـه عـن

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٠)، وابـن ماجـه (٤٠٢٢)، والحـاكم (٣/ ٥٤٨)، وابـن حبـان (٨٦٩)، [«ضعيف الترغيب والترهيب» (١٤٧٣)].

رزقه النافع، من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون.

وبالجملة فالأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا، فمن ابتلي بشيء منها كان عقوبة له، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له، ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه.

وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها، وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك)[1].

وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب، والأعمال الفاسدة نهى الله عنها، والعمل إذا اشتمل على مصلحةٍ ومفسدةٍ، فإن الشارع حكيمٌ؛ فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه، بل نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]. ولهذا حرمهما الله تعالى بعد ذلك، وهكذا ما يراه الناس من

(١) موعظة المؤمنين من «إحياء علوم الدين» للقاسمي (١/ ٤١٢).

الأعمال مقرباً إلى الله ولم يشرعه الله ورسوله؛ فإنه لابد أن يكون ضرره أعظم من نفعه، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع، فإنه حكيمٌ لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

إذا تبين هذا؛ فنقول للسائل: إن الشيخ المذكور قصد أن يتوِّب المجتمعين على الكبائر، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي، يدل أن الشيخ جاهلٌ بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة، أو عاجزٌ عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان، بالطرق الشرعية التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية، فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ﷺ ما يتوب به العصاة.

فإنه قد عُلم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية التي ليس فيها ما ذُكر من الاجتماع البدعي؛ بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان -وهم خير أولياء الله المتقين من هذه الأمة- تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية، وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءةٌ ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه، بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية.

فلا يمكن أن يقال: إن العصاة لا يمكنُ توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية؛ بل قد يقال: إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية عاجزاً عنها، ليس عنده

علم بالكتاب والسنة وما يخاطب به الناس ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية، إما مع حسن القصد إن كان له دين، وإما أن يكون غرضه الترؤس عليهم وأخذ أموالهم بالباطل، كما قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهلٍ، أو عجزٍ، أو غرضٍ فاسدٍ، فالسؤال عن مثل هذا أن يقال: هل ما يفعله هؤلاء طريقٌ وقربةٌ وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله، أم لا؟ وهل يثابون على ذلك، أم لا؟ وإذا لم يكن هذا قربةً وطاعةً وعبادةً لله، ففعلوه على أنه قربة وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى؛ هل يحل لهم هذا الاعتقاد وهذا العمل على هذا الوجه؟ وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول ﷺ أن يقول: إن هذا من القرب والطاعات، وأنه من أنواع العبادات، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محموداً ولا حسنة ولا طاعة ولا عبادة باتفاق المسلمين)[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٣٤).

(٣٠)

القاعدة الثلاثون

أنهم يعتقدون أن التعامل مع الحوادث المتغيرة يجب أن يكون مبنياً على فهم أدلة الشريعة ومعرفة سنن الله في خلقه

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة].

قال شيخ الإسلام: (قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا نهياً ولا إذناً، كما في الحديث المشهور في السنن، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ منه**»[(١)]. وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخُشني، مرفوعاً، في تأويلها: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخويصة نفسك**»[(٢)]. وهذا يفسره حديث أبي سعيد في «مسلم»: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(٣)].

فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر؛ بل يؤذون الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب؛ سقط التغيير باللسان في هذه الحال وبقي بالقلب.

ولكن في الآية فوائد عظيمة:

أحدها: ألا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين، فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً.

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٥١١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٦٨)، والبغوي (٤١٥٣)، [«الطحاوية» (٧٧٦)].

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٤)، وأبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨). وابن حبان (٣٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٧٣١)، [«ضعيف ابن ماجه» (٨٠١)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩).

الثاني: ألا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث.

وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل].

الثالث: أن لا يركن إليهم ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر:٨٨]. فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم؛ إما راغباً وإما راهباً.

الرابع: ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بُغضهم أو ذمهم أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضر من ضل إذا اهتديت. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ الآية [المائدة:٨]. وقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله، إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين، والفاسقين والعاصين.

الخامس: أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع: من العلم، والرفق والصبر، وحُسْنِ القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخل في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. وفي قوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر المعروف والنهي عن المنكر.

وفيها المعنى الآخر: وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً، وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[١]. ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه، لاسيما إن كان التكلم لحسدٍ أو رئاسةٍ، وكذلك العمل، فصاحبه إما معتدٍ ظالمٌ وإما سفيهٌ عابثٌ، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان، فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء.

وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة -علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها- وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويلٍ أو بغير تأويلٍ، كما بغت الجهمية على المستنة[٢] في محنة الصفات والقرآن، محنة أحمد وغيره، وكما بغت أهل البدع على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة، وكما قد يبغي بعض المستنة، إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة، بزيادةٍ على ما أمر الله به، وهو الإسراف

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) وأحمد (١/ ٢٠١)، وابن حبان (٢٢٩)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٩)، [«صحيح ابن ماجه» (٣٢٦٦)].

(٢) أي: أهل السنة.

المذكور في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧]. وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أُمروا به من الحق، أو فيما أُمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها، فما أحسن ما قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين، لا يبالي بأيهما ظفر: غلو، أو تقصير.

فالمعين على الإثم والعدوان، بإزائه تارك الإعانة على البر والتقوى، وفاعل المأمور به وزيادة منهي عنها، بإزائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به، والله يهدينا الصراط المستقيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

(٣١)

القاعدة الحادية والثلاثون

وجوب تحذير الأمة من أئمة البدع

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ٦٣﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٦٢﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ [التوبة].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٧٩).

قال شيخ الإسلام: (ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة؛ فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: «إذا صام وصلى واعتكف، فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين؛ هذا أفضل». فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجبٌ على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً.

وأعداء الدين نوعان: الكفار، والمنافقون؛ وقد أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الطائفتين، في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣، والتحريم:٩]. في آيتين من القرآن، فإذا كان أقوام منافقون يبتدعون بدعاً تخالف الكتاب ويلبسونها على الناس، ولم تبين للناس، فسد أمر الكتاب، وبدل الدين، كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بما وقع فيه من التبديل الذي لم يُنكر على أهله، وإذا كان أقوام ليسوا منافقين لكنهم سماعون للمنافقين قد التبس عليهم أمرهم، حتى ظنوا قولهم حقاً، وهو مخالف للكتاب، وصاروا دعاة إلى بدع المنافقين، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧].

فلا بد أيضاً من بيان حال هؤلاء؛ بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم، فإن فيهم إيماناً يوجب موالاتهم، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين، فلا بد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم؛ بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافق لكن قالوها ظانين أنها هدى، وأنها خير، وأنها دين، ولم تكن كذلك لوجب بيان حالها»[١].

(وقال الإمام أحمد رحمه الله، وقد سئل عن رجل استمر على ترك الوتر: «هذا رجل سوء». إياك أن تتبع شيخاً يقتدي بنفسه، ولا يكون له إمام يعزي إليه ما يدعوك إليه، ويتصل ذلك بشيخ إلى شيخ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الله الله! الثقة بالأشخاص ضلالٌ، والركون إلى الآراء ابتداعٌ، اللين والانطباع في الطريقة مع السنة أحب إليّ من الخشونة والانقباض مع البدعة، لا تتقرب إلى الله تعالى بالامتناع مما لم يمنع منه، كما لا تتقرب إليه بعمل ما لم يأذن فيه)[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣١).

(٢) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٣٤٨).

(٣٢)

القاعدة الثانية والثلاثون

أن أهل البدع أقسام

القسم الأول -كما قال ابن القيم-: (الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يُكفر ولا يُفسق ولا ترد شهادته، إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى، وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته ولذته ومعاشه وغير ذلك، فهذا مفرطٌ مستحق للوعيد، آثمٌ بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات؛ فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قُبلت شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويتركه؛ تقليداً وتعصباً، أو بغضاً، أو معاداةً لأصحابه؛ فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً، وتكفيره محل اجتهادٍ وتفصيلٍ، فإن كان معلناً داعيةً ردت شهادته وفتاويه وأحكامه، مع القدرة على ذلك، ولم تقبل له شهادةٌ ولا فتوى ولا حكمٌ إلا عند الضرورة،

كحال غلبة هؤلاء واستيلائهم، وكون القضاة والمفتين والشهود منهم، ففي رد شهادتهم وأحكامهم إذ ذاك فسادٌ كثيرٌ، ولا يمكن ذلك، فتقبل للضرورة.

وقد نص مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ على أن شهادة أهل البدع كالقدرية ونحوهم لا تقبل وإن صلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا)[1].

(وأما أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة فهم إما في الجهل البسيط، وإما في الجهل المركب، كالكفار، فالأولون: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

والآخرون: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

فأهل الجهل والكفر البسيط لا يعرفون الحق ولا ينصرونه، وأهل الجهل والكفر المركب يعتقدون أنهم عرفوا وعلموا، والذي معهم ليس بعلم بل جهل)[2].

---

(١) «الطرق الحُكمية» (١/ ٢٥٥).

(٢) «درء التعارض» (ج٧/ ص٢٨٥).

(٣٣)

القاعدة الثالثة والثلاثون

أن ضرر أهل البدع على المسلمين قد يكون أعظم من ضرر الكفار

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة].

قال شيخ الإسلام: (ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم -يعني: أهل البدع- على ذلك واجبٌ على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً)[1].

وقال: (هذا مع أمر رسول الله ﷺ بقتالهم في الأحاديث الصحيحة، وما روي من أنهم: «**شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه**» في الحديث الذي رواه أبو أمامة، رواه الترمذي وغيره[2]، أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم، فإنهم لم يكن

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣٢).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وعنده: (خير قتلى) بدل (خير قتيل)، [«المشكاة» (٣٥٥٤)]، وقد تقدم تخريجه.

أحد شراً على المسلمين منهم، لا اليهود ولا النصارى، فإنهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم، مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم، مكفرين لهم، وكانوا متدينين بذلك؛ لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة!)(١).

وقال: (ولهذا كثيراً ما يكون أهل البدع مع القدرة يشبهون الكفار في استحلال قتل المؤمنين وتكفيرهم، كما يفعله الخوارج والمعتزلة والجهمية وفروعهم، لكن فيهم من يقاتل بطائفة ممتنعة كالخوارج والزيدية، ومنهم من يسعى في قتل المقدور عليه من مخالفيه، إما بسلطانه، وإما بحيلته، ومع العجز يشبهون المنافقين، يستعملون التقية والنفاق، كحال المنافقين، وذلك لأن البدع مشتقة من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب هم مع القدرة يحاربون المؤمنين، ومع العجز ينافقونهم، والمؤمن مشروع له مع القدرة أن يقيم دين الله بحسب الإمكان، بالمحاربة وغيرها، ومع العجز يمسك عما عجز عنه من الانتصار، ويصبر على ما يصيبه من البلاء، من غير منافقة، بل يُشرع له من المداراة ومن التكلم بما يكره عليه ما جعل الله له فرجاً ومخرجاً.

ولهذا كان أهل السنة مع أهل البدعة بالعكس، إذا قدروا عليهم لا يعتدون عليهم بالتكفير والقتل وغير ذلك؛ بل يستعملون معهم العدل الذي أمر الله به ورسوله، كما فعل عمر بن عبدالعزيز بالحرورية والقدرية، وإذا جاهدوهم فكما جاهد علي رضي الله عنه الحرورية بعد الإعذار وإقامة الحجة، وعامة ما كانوا يستعملون

(١) «منهاج السنة» (٥/ ٢٤٨).

معهم الهجران والمنع من الأمور التي تظهر بسببها بدعتهم، مثل ترك مخاطبتهم ومجالستهم، لأن هذا هو الطريق إلى خمود بدعتهم، وإذا عجزوا عنهم لم ينافقوهم؛ بل يصبرون على الحق الذي بعث الله به نبيه، كما كان سلف المؤمنين يفعلون، وكما أمرهم الله في كتابه حيث أمرهم بالصبر على الحق، وأمرهم بأن لا يحملهم شنآن قوم على أن لا يعدلوا)[1].

(٣٤)

القاعدة الرابعة والثلاثون

وجوب الاعتدال في الحكم على المخالفين

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [المائدة].

قال شيخ الإسلام: (فإن السائرين على طريقة السلف يخطِّئون ولا يكفِّرون إلا من قامت عليه حجة الرسالة، ولهذا قال الشافعي: لأن أتكلم في علم يقال لي فيه: أخطأت. أحب إليّ من أن أتكلم في علمٍ يقال لي فيه: كفرت.

فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفِّرون، وسبب ذلك:

(١) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٠٩).

أن أحدهم قد يظن ما ليس بكفر كفراً، وقد يكون كفراً لأنه تبين له أنه تكذيب للرسول وسب للخالق، والآخر لم يتبين له ذلك، فلا يلزم إذا كان العالم بحاله يكفر إذا قاله أن يكفر من لم يعلم بحاله)[١].

وقال: (وإذا عُرف أصل البدع؛ فأصل قول الخوارج أنهم يكفرون بالذنب ويعتقدون ذنباً ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب، وإن كانت متواترة، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه -لارتداده عندهم- ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، كما قال النبي ﷺ فيهم: «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**»[٢]. ولهذا كفروا عثمان وعلياً وشيعتهما، وكفروا أهل صفين -الطائفتين- في نحو ذلك من المقالات الخبيثة، وأكثرهم يكفر من خالف قولهم، ويسمون أنفسهم المؤمنين ومن خالفهم كفاراً[٣]، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة، أسوأ حالاً من مدائن المشركين والنصارى! ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين، وعلى معاداتهم ومحاربتهم، كما عُرف من موالاتهم الكفار المشركين على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم الإفرنج النصارى على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين)[٤].

(١) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ٢٥١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) ولا يزال حالهم كذلك حتى يومنا هذا!

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٦).

(وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق، يتبعون الرسول ﷺ فلا يبتدعون، ومن اجتهد فأخطأ خطأً يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه، وإنما يذمون من ذمه الله ورسوله؛ وهو المفرط في طلب الحق؛ لتركه الواجب، والمعتدي المتبع لهواه بلا علم؛ لفعله المحرم، فيذمون من ترك الواجب، أو فعل المحرم، ولا يعاقبونه إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء]. لا سيما في مسائل تنازع فيها العلماء وخفي العلم فيها على أكثر الناس)[1].

(ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهلٍ؛ مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه، هو أحق بأن يتقبل الله حسناته ويثيبه على اجتهاداته ولا يؤاخذه بما أخطأ؛ تحقيقاً لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦])[2].

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٢٣٨).

(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٦٥).

(٣٥)

القاعدة الخامسة والثلاثون

أن المخالفين لطريقة السلف واقعون بين الغلو والإرجاء

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة]. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف].

قال شيخ الإسلام: (وصار كثيرٌ من أهل البدع مثل الخوارج والروافض والقدرية والجهمية والممثِّلة يعتقدون اعتقاداً، هو ضلال يرونه هو الحق، ويرون كفر من خالفهم في ذلك، فيصير فيهم شوبٌ قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق، ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفِّر بالمقالة التي لا تُفهم حقيقتها ولا تُعرف حجتها، وبإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس؛ بل يكتمونه، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم؛ بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذماً مطلقاً، لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وما يقوله أهل البدعة والفرقة، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة، كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع؛ وهذه الطريقة قد

تغلب على كثير من المرجئة وبعض المتفقهة والمتصوفة والمتفلسفة، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة)[(١)].

وقال: (ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقه نكص على عقبيه، فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله، ونحو ذلك؛ لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه وينشرح له صدره، وفي الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الفتن**»[(٢)]. وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا وهذا: اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، ولهذا أمرنا الله أن نقول في كل صلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليهود مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون**»[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، واللفظ له، وعنده: (إن مما أخشى) بدل (إن أخوف ما أخاف)، والطبراني في «الصغير» (٥١١)، والبزار «كشف الأستار» (١٣٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢)].

(٣) تقدم تخريجه.

وكان السلف يقولون: (احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون). فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور؟!)[(١)].

وقال: (والبدعة ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات، كأقوال الخوارج والروافض والقدرية والجهمية، وكالذين يتعبدون بالرقص والغناء في المساجد، والذين يتعبدون بحلق اللحى وأكل الحشيشة، وأنواع ذلك من البدع التي يتعبد بها طوائف من المخالفين للكتاب والسنة، والله المستعان)[(٢)].

(٣٦)

القاعدة السادسة والثلاثون

أن أثر البدعة يظهر على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد]. وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٤٦).

هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[1].

قال شيخ الإسلام: (والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه وبهجة وجهه سيما يعرف بها، وكذلك الكاذب الفاجر، وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه، حتى إن الرجل يكون في صغره جميل الوجه، فإذا كان من أهل الفجور، مصراً على ذلك، يظهر عليه في آخر عمره من قبح الوجه ما أثَّره باطنه، وبالعكس، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: (إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمةً في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، وبغضةً في قلوب الخلق).

وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب لكن يعتقد اعتقادات باطلة كاذبة: في الله، أو في رسله، أو في دينه، أو عباده الصالحين، وتكون له زهادة وعبادة واجتهاد في ذلك، فيؤثر ذلك الكذب الذي ظنه صدقاً وتوابعه في باطنه، ويظهر

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

ذلك على وجهه، فيعلوه من القترة والسواد ما يناسب حاله، كما قال بعض السلف: «لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان، إن سواد البدعة لفي وجهه». وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهوراً تاماً، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران])[1].

(٣٧)

القاعدة السابعة والثلاثون
يعتقدون أن سياسة الناس يجب أن تكون
وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح

فلا يبيحون ما حرم الله بحجة التيسير على الناس، أو كسب تعاطفهم،أو للوصول إلى المناصب والسقوط أمام شهوات النفس ووطأة الإعلام الغادر، والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/ ٤٨٩).

وقال عليه السلام: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون**». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [(١)].

(وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله ﷺ وهي سنته لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس، ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق، بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة] ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمون به فروع الدين، وما كان من الحجج صحيحاً ومن الرأي سديداً فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهمه من فهمه وحرمه من حرمه)[(٢)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٢).

قال ابن القيم: (ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً، والله المستعان، وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطانٌ ناطق؟!، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم، فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل، وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بليةٍ تكون، وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل)[1].

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٧٧).

(٣٨)

القاعدة الثامنة والثلاثون

أنهم يرون أن من الوسائل الشرعية في الدعوة إلى الله مخاطبة الناس على قدر أفهامهم ومكانتهم، وأن توحيد الخطاب للناس في غير فروض الأعيان ليس منهجاً ربانياً

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء].

قال الإمام البخاري(١) في كتاب العلم: باب: (من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا)، وقال علي: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله).

حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا معاذ بن هشامٍ قال: حدثني أبي، عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالكٍ: أن النبي ﷺ ومعاذٌ رديفه على الرحل، قال: «**يا معاذ بن جبلٍ**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**يا معاذ**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثاً، قال: «**ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً**

---

(١) باب (٤٩) «البخاري مع الفتح» (١/ ٢٩٧).

رسول الله صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار». قال: يا رسول الله، أفلا أُخبر بها الناس فيستبشروا؟! قال: «**إذاً يتّكلوا**». وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً(١).

(كثيرٌ من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرةً كسكرة الخمر، أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة الخمر بكثير، ومحال أن يُرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل، وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات]. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النازعات].

ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات:١٩]. أكون كالدليل بين يديك، الذي يسير أمامك، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات:١٩]. استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعاً وكبيراً.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

وكذلك قول إبـراهيم الخليـل لأبيـه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم]. فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج الـسؤال، فقـال: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مـريم]. ولم يقل: لا تعبد. ثم قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم:٤٣]. فلم يقل: لـه إنك جاهل لا علم عندك. بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم:٤٣]. ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم]. ومثل هذا قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات:١٩]. ثم قـال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم]. فنـسب الخـوف إلى نفـسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليـه، وقـال: ﴿يَمَسَّكَ﴾. فـذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكَّر العذاب، ثـم ذكـر الـرحمن، ولم يقـل الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا؟!

ونظير هذا الخطاب صاحب (يس) لقومه، حيث قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يـــس]. ونظير ذلك قول نوح لقومـه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٢-٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده ألطـف خطـاب وألينـه، كقولـه تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الآيـات [البقـرة:٢١-٢٤]. وقولـه تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر].

وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف]. من اللطف الذي سلب العقول، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف]. على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم، إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

وتأمل لطف خطاب نذر الجن لقومهم وقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف]) [1].

قال ابن القيم، في موضع آخر وهو يصف كلام نبي الله موسى عليه السلام:

(وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته، مع جلالته وعظمته؛ كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم:١٩]. وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك. وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاءً لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك. وإن كان

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٦٥٢).

أستاذهما معاً، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلّي بينهم وبينهما، ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب، فلم يطلب منه شططاً، ولم يرهقه من أمره عسراً، بل طلب منه غاية النَّصَف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات: **أحدها:** قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

وإما أن يكذب ويتولى، ﴿ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه]. فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة، وبيان ما يستحق السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب»[1].

فإن قيل: فما هو الجواب على قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]؟

قيل: هذا من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، والله أعلم.

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٦٩).

(٣٩)

القاعدة التاسعة والثلاثون

أنهم يحذِّرون من مشابهة الكفار واتباع سبيلهم

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جُحر ضبّ لدخلتموه**». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ .الآية [التوبة:٦٩]. قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: «**فهل الناس إلا هم**»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية أنه قال: (ما أشبه الليلة بالبارحة؛ هؤلاء بنو إسرائيل شُبهنا بهم)[(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً، تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟).

---

(١) إسناده **ضعيف**: أخرجه أبو يعلى (٦٢٨٤)، [«مسند أبي يعلى» (١٢/ ١٨٢)، تحقيق: حسين سليم أسد] وعنده: (فعلت) بدل (صنعت) و (فما الناس) بدل (فهل الناس) وجملة (وأهل الكتاب) ليست موجودة في لفظ الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٤٢).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (المنافقون الذين منكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ). قلنا: وكيف؟ قال: (أولئك كانوا يخفون نفاقهم، وهؤلاء أعلنوه»)[١].

وأما السنة فجاءت بالإخبار بمشابهتهم في الدنيا وذم ذلك والنهي عن ذلك، وكذلك في الدين، فأما الأول الذي هو الاستمتاع بالخلاق[٢]؛ ففي «الصحيحين» عن عمرو بن عوف: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء ابن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين**». فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فأبشروا، وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[٣] اهـ)[٤].

---

(١) أخرجه جعفر بن محمد الفريابي في «صفة المنافق» (٥١).

(٢) يعني المذكور في الآية.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) واللفظ له.

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»(١/ ١٢٥، ١٢٧) ط. العقل.

وأما الخوض[1]، فعن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، أو اثنتين وسبعين فرقةً، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً**»[2].

وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملةً، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين ملةً** -يعني: الأهواء- **كلها في النار إلا واحدةً، وهي الجماعة**»[4].

وقال: «**إنه سيخرج من أمتي أقوامٌ تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب[3] بصاحبه، فلا يبقى منه عرقٌ ولا مفصلٌ إلا دخله**». والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد ﷺ لَغيرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به»[4] اهـ)[5].

فقوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٩]. إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة:٦٩]. إشارة إلى اتباع الشبهات، وهو

---

(١) يعني المذكور في الآية.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، والحاكم (١/ ٢١٧)، وأبو يعلى (٦١١٠)، [«الصحيحة» (٢٠٣)].

(٣) الكَلَب: داء يعرض للإنسان من عض الكَلب الكَلِب -وهو الذي يأكل لحوم البشر- فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحداً إلا كلِب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً. «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ١٩٥).

(٤) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥٢١)، والحاكم (١/ ٢١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٧٦، ٣٧٧)، [«الموسوعة الحديثة»].

(٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٣٦-١٣٧).

داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقل من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو ظاهر في عمله، وقد دلت الآية على أن الذين كانوا من قبل استمتعوا وخاضوا، وهؤلاء فعلوا مثل أولئك)[١].

وقال رحمه الله: (ونهى عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار في مواضع كثيرة، لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة، فإنه إذا أشبه الهديُ الهديَ أشبه القلب القلب، وقد قال ﷺ: «**خالَفَ هديُنا هديَ الكفار**»[٢]. وفي «المسند» مرفوعاً: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[٣] اهـ)[٤].

(٤٠)

القاعدة الأربعون

أنهم يحكمون على الناس بما ظهر من أعمالهم، ويدعون السرائر إلى الله

قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة].

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود في «مراسيله» (ص١٢٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٨٣٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٩)، والبزار «كشف الأستار» (١٤٤)، [«إرواء الغليل» (١٢٦٩)].

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٤).

وفي «**الصحيح**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعةً من النار**»[1]. فهذا قول إمام الحكام وسيد ولد آدم.

وقال النبي ﷺ: «**أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء**». فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «**لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأنٌ**»[2].

عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحُرَقات[3] من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟!**». قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟**». فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البُطين -يعني أسامة- قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣) واللفظ للبخاري وعنده: (فأقضي على نحو) بدل (وإنما أقضي بنحو) وعنده: (من حق أخيه شيئاً).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٤٧)، ومسلم (١٤٩٦).

(٣) الحرقات، نسبة إلى الحرقة، واسمه جُهيش بن عامر بن ثعلبة بن مُودعة بن جهينة، تسمى الحرقة لأنه حرق قوماً بالقتل فبالغ في ذلك. «فتح الباري» (١٢/ ٨٢).

فقال سعدٌ: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنةٌ، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنةٌ»[(١)].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: (إن أُناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيءٌ، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنةٌ»)[(٢)].

(٤١)

القاعدة الحادية والأربعون

أن من مناهجهم التعامل مع الخلق بالصدق والأمانة والنصح

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء].

وقال أناسٌ لابن عمر: إنا ندخل على سلطاننا فنقول له خلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم. قال: (كنا نعدها نفاقاً)[(٣)].

قال شيخ الإسلام: (فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه، وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٤١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٧٨).

ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه، وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أُكره، بحيث أُبيح له النطق بكلمة الكفر، والله تعالى قد فرق بين المنافق والمكره، وأهل البدع حالهم من جنس حال المنافقين، لا من جنس حال المكره الذي أُكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن هذا الإكراه لا يكون عاماً من جمهور بني آدم، بل المسلم يكون أسيراً أو منفرداً في بلاد الكفر، ولا أحد يُكرهه على كلمة الكفر، ولا يقولها، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفار ليظنوه منهم، وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل يكتم ما في قلبه، وفرقٌ بين الكذب وبين الكتمان، فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله في الإظهار، كمؤمن آل فرعون، وأما الذي يتكلم بالكفر فلا يعذره إلا إذا أُكره.

والمنافق الكذاب لا يعذر بحال، ولكن في المعاريض مندوحةٌ عن الكذب.

ثم ذلك المؤمن الذي يكتم إيمانه يكون بين الكفار الذين لا يعلمون دينه، وهو مع هذا مؤمنٌ عندهم يحبونه ويكرمونه، لأن الإيمان الذي في قلبه يوجب أن يعاملهم بالصدق والأمانة والنصح وإرادة الخير بهم، وإن لم يكن موافقاً لهم على دينهم، كما كان يوسف الصديق يسير في أهل مصر، وكانوا كفاراً، وكما كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، ومع هذا كان يعظم موسى ويقول: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].

وأما الرافضي فلا يعاشر أحداً إلا استعمل معه النفاق، فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد يحمله على الكذب والخيانة، وغش الناس، وإرادة السوء بهم، فهو لا يألوهم خبالاً، ولا يترك شراً يقدر عليه إلا فعله بهم، وهو ممقوت عند من لا يعرفه، وإن لم يُعرف أنه رافضي تظهر على وجهه سيما النفاق، وفي لحن القول، ولهذا تجده ينافق ضعفاء الناس ومن لا حاجة به إليه؛ لما في قلبه من النفاق الذي يضعف قلبه)[1].

(٤٢)

القاعدة الثانية والأربعون

ويعتقدون أنه لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال]. وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم].

قال ابن القيم: (ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة

(١) «منهاج السنة» (٦/ ٤٢٥).

والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها -ولا بد- ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل، وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة.

فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها؛ إما أن يُصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يُصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً! وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها

قلوبهم، وطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوا لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر، لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي ﷺ: «**مالي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال[1] في ظل شجرةٍ، ثم راح وتركها**»[2]. وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع**»[3].

وقال خالقها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس]. فأخبر عن خسة الدنيا وزهّد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

---

(١) قال، من القيلولة: وهي الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ١٣٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٤٤١) واللفظ له وعنده: (مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب) بدل (أنا راكب) و(ظل شجرة في يوم صائف)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والحاكم (٤/ ٣٤٥)، والبزار (١٥٣٣)، وأبو يعلى (٥٢٢٩)، [«الموسوعة الحديثية»].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٥٨) وعنده: (إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذهِ) بدل (إلا كما يدخل أحدكم إصبعه).

وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾ [الكهف]. وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ [الحديد]. وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾ [الرعد].

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ [يونس].

وعيّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ [التوبة]. وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي بالزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ [الشعراء]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف]. وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]. وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون]. وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه]. والله المستعان وعليه التكلان)[1].

(٤٣)

القاعدة الثالثة والأربعون

أنهم يدعون إلى ما دعا إليه القرآن من مكارم الأخلاق

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن القيم: (فتدبر ما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق، وأداء حق الله فيهم، والسلامة من شرهم، فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم، فإن العفو ما عُفي من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه، وأما ما يكون منه إليهم: فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به، وأما ما يتقي به أذى جاهلهم: فالإعراض عنه، وترك الانتقام لنفسه، والانتصار لها.

(١) «الفوائد» (ص٩٦-٩٨).

فأي كمال للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟! فلو فكّر الرجل في كل شر يلحقه من العالم، أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله؛ وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث، أو بعضها، وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له، وإن كان شراً في الظاهر، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف، ولا يتولد منه إلا خيراً، وإن ورد في حالة شر وأذى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:١١].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله، أو في حق رسوله، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم، واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإن الله يحب المتوكلين، فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله ﷺ، وقال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[1]. وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء:

---

(١) **صحيح**: [«صحيح الجامع» (٤٨١١)] وقد تقدم تخريجه.

أحدها: أن يكون العود طيباً، فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علماً وإرادةً وعملاً، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد، فإنها مستعدة؛ إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قوية غالبة، قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوى، فإن هذه الأمور تنافي الكمال، فإن لم تقو النفس على قهرها، وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى، وتمت لهم العناية)[1].

(٤٤)

القاعدة الرابعة والأربعون

ويعتقدون أن الله تعالى جعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين

بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

---

(١) «زاد المهاجر إلى ربه» (ص٧٧).

قال شيخ الإسلام: (فإن الدين كله علمٌ بالحق وعمل به، فالعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل: (عليكم بالعلم، فإن طلبه لله عبادةٌ، ومعرفته خشيةٌ، والبحث عنه جهادٌ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ، ومذاكرته تسبيحٌ، به يُعرف الله ويُعبد، وبه يمجَّد ويوحَّد، يرفع الله بالعلم أقواماً فيجعلهم للناس قادةً وأئمةً، يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم)[1].

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص].

فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول هو الضلال، وضد الثاني هو الغي، والضلال: العمل بغير علم، والغي: اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم]. فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر، ولهذا قال علي: (ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد)، ثم رفع صوته فقال: (ألا لا إيمان لمن لا صبر له)[2] اهـ)[3].

وقال ابن القيم: «وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول أصل فتنة الشبهة، والثاني أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٢، ٣٠٣)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٥١) بنحوه.

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٢٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠).

تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين)[1].

واعلم أن الرجل لا يكون إماماً في الدين حتى يكون رأساً في الدعوة إلى التوحيد، والموالاة والمعاداة فيه، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

واعلم أن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع، ولا يكون إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة، ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. أي: لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً. وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:٢٩]. وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف])[2].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٧).

(٢) «روضة المحبين» (١/ ٤٧٥).

(٤٥)

القاعدة الخامسة والأربعون

أن الكفار عندهم ليسوا على درجة واحدة في التعامل معهم

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة].

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾. أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، ﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟﴾. أي: يعاونوا على إخراجكم، كالنساء والضعفة منهم، ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾. أي: تحسنوا إليهم، ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾. أي: تعدلوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «**نعم، صِلي أمك**». أخرجاه[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم(١٠٠٣)، وأحمد (٦/ ٣٤٧) واللفظ له وعنده: (قدمت عليّ أمي) بدل (قدمت أمي)، وقد أخطأ مؤلف الكتاب العبيلان حفظه الله في سند الحديث فإن سنده هو (حدثنا ابن نُمير، قال: حدثنا هشام، عن أبيه، عن أسماء).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم: حدثنا عبدالله بن المبارك: حدثنا مصعب بن ثابت: حدثنا عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: «قدمت قُتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا: ضِباب وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها»(١). وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث مصعب بن ثابت به، وفي رواية لأحمد وابن جرير: «قتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسعد من بني مالك بن حِسل». وزاد ابن أبي حاتم: «في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله ﷺ»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾. جاء في الحديث الصحيح: «**المقسطون على منابر من نورٍ عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا**»(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة:٩]. أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم؛ ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ٤) وعنده: (أبنة أبي بكر) بدل (بنت أبي بكر) و(وتدخلها بيتها) بدل (وأن تدخلها بيتها) [«الموسوعة الحديثية»] وفي هذه الرواية ذُكر نسب قُتيلة أم أسماء رضي الله عنها وليس في رواية أخرى كما يتوهم من صنيع مؤلف الكتاب (العبيلان).

(٢) لم أجده.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٢٨) بلفظ: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولو».

كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾ [المائدة])[1].

وبين النبي ﷺ أن نقض عهودهم غدراً سببٌ لتسليطهم على المسلمين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كيف أنتم إذا لم تجتبوا ديناراً ولا درهماً؟». فقيل له: وكيف ترى ذلك كائناً يا أبا هريرة؟ قال: «إي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق المصدوق». قالوا: عم ذاك؟ قال: «تنتهك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم»[2].

وقال ﷺ: «**ذمة المسلمين واحدةٌ، فمن أخفر مسلماً**[3] **فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ**». أخرجه البخاري عن علي رضي الله عنه[4]. وقال: «**من قتل معاهداً لم يَرَح**[5] **رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**» من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما[6].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٥٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣١٨٠).

(٣) أخفر مسلماً: نقض عهده. «فتح الباري» (٦/ ٢٨٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠).

(٥) لم يرح: أي: لم يشم ريحها. «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٢٧٢).

(٦) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣١٦٦).

٤

الباب الرابع

قواعد في التعامل مع العلماء

قواعد في التعامل مع العلماء[(١)]

• معشر الدعاة إلى الله! هذه قواعد في التعامل مع العلماء فعضوا عليها بالنواجذ فإنّ العلماء هم ورثة الأنبياء.

امتنَّ الله عز وجل على هذه الأمة ببعثة محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران].

فكانت نعمة بعث محمد ﷺ أعظم النعم على الأمة، وأجلّها.

وإن من تمام هذه النعمة: توريث الله عز وجل العلماءَ علوم هذا النبي الكريم ﷺ، فكان العلماء هم ورثته القائمين في أمته بمهمة البلاغ، والتعليم والتوجيه، وبيان حدود الحلال والحرام.

وإذا كان العلماء ورثة علوم الأنبياء، فإنهم أيضاً ورثوا قدراً لائقاً بهم من الاعتبار، والمكانة في الشريعة، فكان واجباً على الأمة من بعدُ طاعتهم في طاعة الله، وموالاتهم، واحترامهم، والسعي إليهم، والأخذ عنهم.

وعلى هذا جرى سلف الأمة، فكان العلماء هم المقدمين، فهم ولاة صدور المجالس، إليهم مرجعُ الأمة في كل حال، ومفزعها حين يحزبها أمرٌ ذو بال.

والناس -في جملتهم- يعرفون لهم أقدارهم، ومنازلهم.

ثم خَلَفَت خُلُوفٌ قلَّ فيها العلم وأهله، ونَدَر فيها الأئمة الجهابذة، وقل اعتبار الناس لتلك البقية الباقية من السلف، فلم ينزلوهم منازلهم؛ بل تفرقوا في ذلك طرائق قِدَداً:

(١) وهذا العنوان وما تحته مأخوذٌ من كتاب «قواعد في التعامل مع العلماء» بشيء من التصرف.

١- فقوم رأوا أن العلماء كسائر الناس، ليس لهم في الشريعة اعتبارٌ يُعْلِي قَدْرهم، فلم يرفعوا بالعلماء رأساً، وفي هؤلاء شبهٌ بالخوارج الذين لم يرعوا لسادات العلماء من صحابة النبي ﷺ حقهم، فكانت عاقبة أمرهم خُسراً فضلُّوا وأَضلُّوا، وفرقوا دينهم شيعاً، كل حزبٍ بما لديهم فرحون.

٢- وقومٌ قدَّسوا العلماء، ورفعوهم فوق أقدارهم، فقلّدوهم في دينهم تقليداً مطلقاً، فليس رائدُ المرءِ الدليل، بل رائده قول الشيخ، وفي هذا الصنف شبه بالروافض الذين جعلوا أئمتهم معصومين، وجعلوا لهم مقاماً لم يبلغه نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مقرب، وتعددت فرقُ هؤلاء بحسب تعدد الشيوخ، وتعصب كل قومٍ لرأي مُقَلَّدِهم من دون قول الله، ورسوله ﷺ.

٣- وقوم رأوا للعلماء منزلةً، ولكنهم لم يعاملوهم باعتبارهم بشراً يقع منهم الخطأ والهوى، بل تعاملوا معهم بغير المقاييس البشرية، فما إن يروا خطأً من عالمٍ حتى يعظِّموا ذلك الخطأ ويكبِّروه ويضخِّموه، ويطيروا به في النَّاس كل مطار.

فهم جمعوا بين متناقضين:

• تعظيم العلماء بجعلهم في منزلة من لا يتصور منه الخطأ ولا يُقبل.

• إهدار مكانة العلماء بالكلام عنهم إن أخطأوا والتشهير بهم وتعييرهم.

هذا إذا لم يختلقوا الخطأ ويفتعلوه، فإن فعلوا فذلك أمرٌ أعظم وأخطر.

وكل هذه الطرائق ظاهرةٌ في الحياة المعاصرة.

ولئن ساءني سوء معاملة معظم المعاصرين لأهل العلم: إما بعدم تقديرهم، وإما بعدم اعتبار أقوالهم، وإما لنقص العدل في الحكم عليهم.

فقد أثار إعجابي حسنُ تعاملِ السلفِ مع علمائهم، وكمالُ تقديرهم لهم وعدلهم في التعامل معهم إن أخطأوا.

فجمعتُ جملاً في هدي أولئك السلف الأخيار؛ لينتفع بها من أراد الله به خيراً من خلفهم.

إذ العلماء جدراء منا بالحرص على حسن التعامل، وكمال الرعاية لحقوقهم فإنَّ لهم منزلة في الدين، ليست لغيرهم من الناس.

القاعدة الأولى: من هم العلماء؟

العلماء هم: العارفون بشرع الله، المتفقهون في دينه، العاملون بعلمهم على هدىً وبصيرة، الذين وهبهم الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

والعلماء هم: الذين جعل الله عز وجل عماد الناس عليهم في الفقه والعلم، وأمور الدين والدنيا[١].

والعلماء هم: (فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام)[٢].

(١) الطبري «جامع البيان» (٣/ ٣٢٧).

(٢) ابن القيم «إعلام الموقعين» (١/ ٧).

والعلماء هم: أئمة الدين، نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصبر، وكمال اليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة:٢٤].

والعلماء هم: ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم، فهم يحملونه في صدورهم، وينطبع -في الجملة- على أعمالهم، ويدعون إليه الناس.

والعلماء هم: الفرقة التي نَفَرَت من هذه الأمة لتتفقه في دين الله، ثم تقوم بواجب الدعوة، ومهمة الإنذار ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة].

والعلماء هم: هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتي أمر الله، فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، يقول الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[1].

قال الإمام النووي رحمه الله: (وأما هذه الطائفة فقال البخاري (هم أهل العلم)، وقال أحمد بن حنبل: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم)، وقال القاضي عياض: (إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث)، قلت -القائل النووي-: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقةٌ بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، فلا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض)(١).

وأياً ما كان القول في هذه الطائفة، فإن من المتفق عليه أن العلماء هم رؤوسها المقدَّمون فيها، وغيرهم من الناس تبع لهم.

إن العلماء وإن غابت شخوصهم فآثارهم موجودة، قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودهم، وآثارهم في القلوب موجودة)(٢).

والعلماء هم: رأس الجماعة التي أُمرنا بلزومها، وحُذِّرنا من مفارقتها: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يحل دمُ امرئٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»(٣)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»(٤).

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ٦٧).

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٢٥٢)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١٧٦)، [«جامع بين العلم وفضله» (٢٨٤)/ تحقيق أبي الأشبال الزهيري].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/ ١٨٠)، والحاكم (١/ ٢٠٣)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٥٧)، والبزار (البحر الزخار) (٤٠٥٨)، والشهاب (٤٤٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٩٢)، [«ظلال الجنة» (٨٩٢)].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفُرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته، وساءته سيئته فذلكم المؤمن)(١).

والمحصَّل من أقوال أهل العلم في معنى الجماعة قولان:

- **القول الأول**: أن الجماعة: جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على الإمام الشرعي.
- **القول الثاني**: أن الجماعة هي: المنهج والطريقة، فمن كان على هدي النبي ﷺ وصحبه والسلف الصالح فهو مع الجماعة.

وعلى القولين فإن رأس كيان هذه الجماعة هم العلماء، فهم الذين يعقدون للإمام البيعة، وطاعته تبع لطاعتهم، وهم الأدلاء على المنهج والطريقة؛ لعلمهم بهدي النبي ﷺ وصحبه، والسلف الصالح، ولذلك يسوق الإمام الآجري في باب لزوم الجماعة جملة من الآيات والأحاديث، ثم يقول: (علامة من أراد الله عز وجل به خيراً سلوك هذا الطريق: كتاب الله عز وجل، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه ﷺ، ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كلِّ بلدٍ إلى آخر ما كان من العلماء، مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم ابن سلام، ومن كان على مثل طريقهم، ومجانبة كل مذهبٍ لا يذهب إليه هؤلاء العلماء)(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٣٨٨)، وأحمد (١/ ٢٦)، وابن حبان (٤٥٥٧)، والحاكم (١/ ١٩٧، ١٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٦٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٥٤٦)].

(٢) «الشريعة» للآجري (١/ ٣٠١).

القاعدة الثانية: كيف يُعرف العلماء؟

إن العلماء يُعْرَفون بعلمهم؛ فالعلم هو: الميزة التي تميزهم عن غيرهم؛ فهم إن جهل الناس نطقوا بالعلم الموروث عن إمام المرسلين ﷺ.

ويُعْرَفُونَ برسوخ أقدامهم في مواطن الشُّبَهِ؛ حيث تَزِيغُ الأفهام فلا يَسْلَمُ إلا من آتاه الله العلم، أو من اتبع أهل العلم.

فالعلماء أطواد ثابتة؛ لأنهم أهل اليقين الراسخ الذي اكتسبوه بالعلم، يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكّاً؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تَسْتَفِزّه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلم وجيشُه مغلولةً مغلوبة)[1].

إن العلماء يُعرفون أيضاً بجهادهم، ودعوتهم إلى الله عز وجل وبذلهم الأوقات، والجهود في سبيل الله.

ويُعْرَفُونَ بنسكهم وخشيتهم لله؛ لأنهم أعرف الناس بالله، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر].

ويُعْرَفُونَ باستعلائهم على الدنيا وحظوظها.

إن العلماء بهذه الصفات وغيرها يعرفهم الناس، فأيما رجلٍ رأيت المعتبرين في الأمة وجمهورها من أهل الحق قد اعتبروه عالماً، ورأوا له ريادته، وعلمه فهو عالم.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن له في الأمة لسانُ صدقٍ عام بحيث يُثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى)[١].

وهذا حقٌّ، فالمسلمون شهداء الله في أرضه:

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: مَروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وجبت»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرّاً، فقال: «وجبت»، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما وجبت؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض»[٢]. وفي رواية: «المؤمنون شهداء الله في الأرض»[٣].

ومما يُعرف به العالم شهادة مشايخه له بالعلم، فقد دأب علماء المسلمين من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان على توريث علومهم لتلامذتهم، الذين يتبوؤون من بعدهم منازلهم وتصبح لهم الريادة، والإمامة في الأمة، ولا يتصدر هؤلاء التلاميذ حتى يروا إقرار مشايخهم لهم بالعلم، وإذنهم لهم بالتصدر، والإفتاء والتدريس.

---

(١) «الفتاوى» (١١/ ٤٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٤٢).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: (لا ينبغي لرجل يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد فأمراني بذلك، ولو نهياني لانتهيت)(١).

وقال: (...ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك)(٢).

ومما يدل على علم العالم وفضله: دروسه وفتاويه، ومؤلفاته.

قال الإمام أبو طاهر السَّلفي عن الإمام الخطابي:

(وأما أبو سليمان الشارح لكتاب أبي داود، فإذا وقف مُنصفٌ على مصنفاته، واطَّلع على بديع تصرفاته في مؤلفاته، تحقق إمامته وديانته فيما يورده وأمانته، وكان قد رحل في الحديث، وقراءة العلوم، وطوَّف، ثم ألَّف في فنونٍ من العلم، وصنف)(٣).

هذه بعض الدلائل الدالة على علم العالم وفضله، أما المناصب ونحوها فهي ليست الدليل على العلم.

---

(١) نقلاً عن ابن حمدان: «صفة الفتوى والمستفتي» (٧).

(٢) نقلاً عن ابن فرحون: «الديباج» (٢١)، وينظر ابن حمدان «صفة الفتوى والمستفتي» (٧).

(٣) نقلاً عن الذهبي: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٥).

إن العلماء لا يحددون ويختارون عن طريق الانتخاب، ولا عن طريق التعيين الوظيفي، فكأيٍّ من عالمٍ في تاريخ الأمة تصدر وعلا ذكره، وأصبح إماماً للأمة كلها، وهو لم يعرف المناصب، وما الإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية إلا مثلان من هذا التاريخ الطويل للأمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (المنصب والولاية لا يجعل من ليس عالماً مجتهداً، عالماً مجتهداً؛ ولو كان الكلام في العلم والدين بالولايات والمنصب لكان الخليفة والسلطان أحق بالكلام في العلم والدين، وبأن يستفتيه الناس ويرجعوا إليه فيما أشكل عليهم في العلم والدين، فإذا كان الخليفة والسلطان لا يدعي ذلك لنفسه، ولا يلزم الرعية حكمه في ذلك بقولٍ دون قول إلا بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن هو دون السلطان في الولاية أولى، بأن لا يتعدى طوره...)[1].

وهذا لا يعني أن كل من عين في منصب علمي ليس بعالم بل المراد: أن المنصب ليس دليلاً على العلم، وإلا فإن الشأن عندما يكون الحاكم خَيِّراً، أن يكون الولاة، والقضاة، والمفتون كذلك؛ بل قد يوجد في عهد ظالمٍ قضاة عادلون ومفتون ثقات.

القاعدة الثالثة: التفريق بين العلماء وبين من قد يشتبه بهم

إنه لكي يتم التصوّر الصحيح لحقيقة العلماء فلا بد من التمييز بينهم، وبين من قد يُعَدُّ منهم وليس منهم ولبيان هذا الأمر:

(١) «الفتاوى» (٢٧/ ٢٩٦-٢٩٧).

أولاً: التفريق بين العلماء والقرّاء:

إن من مميزات هذا العصر تفشي القراءة فيه حتى أصبحت ظاهرة عامة، إذ صار معظم الناس يستطيع أن يقرأ، وصار الجاهل بالقراءة هو المستثنى من عموم الناس.

واقترن بتفشي القراءة كثرة الكتب التي تُخْرجها المطابع.

وانتشرت مؤلفات علماء المسلمين المحتوية على سنة سيد المرسلين ﷺ، وعلى الأحكام الشرعية.

وهذا الأمر مع أنه نعمة من نعم المولى جلّ شأنه إلا أنه قد يكون سبباً للانحراف عن الحق، وذلك إذا تصدّى الناس بسبب انتشار الكتب بينهم للنظر في النصوص دون معرفة بأصول النظر، وقواعد الاستنباط، ودون معرفة بعوارض الأدلة وطرق دفع التعارض، وأساليب الترجيح.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قَدِمَ على عمرَ رجلٌ فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقلت: والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المُسَارعة. قال: فَزَبَرني عمر، ثم قال: مه. فانطلقت إلى منزلي مكتئباً حزيناً، فقلت: قد كنتُ نزلت من هذا بمنزلة، ولا أُراني إلّا قد سقطت من نفسه؛ فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي، وما بي وجع، فبينا أنا على ذلك؛ قيل لي: أَجِبْ أميرَ المؤمنين فخرجت، فإذا هو قائمٌ على الباب ينتظرني، فأخذ بيدي، ثم خلا بي، فقال: ما الذي كرهتَ مما قال الرجل آنفاً؟ قلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله، وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت. قال: لتُخْبِرني. قلت: متى ما يُسَارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُّوا،

ومتى ما يَحْتَقُّوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس حتى جئت بها)[١].

فابن عباس رضي الله عنهما خاف على الناس المسارعة في القراءة دون فقه وفهم، والمسارعة إلى ذلك قد تؤدي إلى انحراف عن الحق.

ولقد كان الخوارج يقرؤون القرآن ولكنهم لم يكونوا أهل فهم وعلم، يقول الرسول ﷺ فيهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله: (المراد: أنهم ليس لهم فيه حظٌّ إلا مروره على لسانهم[٣]، لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم، لأن المطلوب تعقّله وتدبّره بوقوعه في القلب)[٤].

وقد بَيَّن النبي ﷺ أنَّه سيأتي على الناس زمانٌ يكثر فيه القراء، ويقلُّ فيه الفقهاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس زمانٌ يكثر فيه القراء، ويقلُّ فيه الفقهاء، ويقبض العلم، ويكثر الهرج**»[٥].

---

(١) **إسناد صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢١٧)، والفسوي في «التاريخ والمعرفة» (١/ ٥١٦، ٥١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٥)، والذهبي في «السير» (٣/ ٣٤٩)، [«سلسلة الآثار الصحيحة» (٤٩٣)/ جمع وتخريج أبي عبد الله الداني].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) هكذا في الأصل ولعل الصواب «ألسنتهم».

(٤) نقلاً عن ابن حجر «فتح الباري» (١٢/ ٢٩٣) ولم أجد العبارة في «شرح مسلم» للنووي.

(٥) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٧٧) والحاكم (٤/ ٥٠٤)، وعندهما: (سيأتي على أمتي زمان) وفي إسناده أبي السمح واسمه درّاج وقد ضعف الشيخ الألباني حديثه، ثم تراجع عن تضعيف حديثه فيما يرويه عن عبد الرحمن بن حُجيرة، وهذا الحديث منه. انظر: كلام الشيخ الألباني في ذلك [«الصحيحة» (٣٣٥٠)، (٣٤٧٠)، (٣٤٧٩)]، الهرج: القتل.

قال الشيخ حمود التويجري رحمه الله: (وقد ظهر مصداق هذا الحديث في زماننا، فقل الفقهاء العارفون بما جاء عن الله ورسوله ﷺ وكثر القرّاء في الكبار والصغار، والرجال والنساء، بسبب كثرة المدارس، وانتشارها)[1].

وهناك بونٌ شاسع، بين القارئ للعلوم الشرعية والفَقِيهِ فيها:

إن القارئ لديه نتف وجزئيات، أمسك بها من خلال قراءته لبعض الكتب، واطلاعه على أقوال أهل العلم فهو لم يعانِ العلم، ولم يشافه العلماء، ولم يزاحمهم بالركب في الحِلَق، ولذلك فإنه وإن رأيته منطلقاً في موضوع من موضوعات الفقه والشريعة إلا أنه يُغْلَقُ عليه عندما يُسأل في مسألة من مسائل العلم. فهم كما قال الخطيب البغدادي رحمه الله: (قد رأيت خَلْقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويَعُدُّون أنفسهم من أهله، المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدّعون، وأقلهم معرفةً بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عدداً قليلاً من الأجزاء واشتغل بالسماع بُرهَة يسيرة من الدهر أنه صاحبُ حديث على الإطلاق، ولـمّا يجهد نفسه ويتعبها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه.. وهم مع قِلة كتبهم له وعدم معرفتهم به، أعظم الناس كبراً وأشد الخلق تِيهاً وعُجْباً، لا يراعون لشيخٍ حرمة، ولا يوجبون لطالبٍ ذمة، يخرقون بالراوين[2]، ويعنفون على المتعلمين، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه، وضد الواجب مما يلزمهم أن يفعلوه)[3].

(١) «إتحاف الجماعة» (١/ ٤١٨).

(٢) قال محقق «الجامع»: (أي: يجهلون حقيقة الرواة) قال في «القاموس»: (وخَرُق بالشيء ككرم: جهله).

(٣) «الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٧٥-٧٧).

أما العالم الفقيه فليس كأولئك بل هو ذو فهمٍ شمولي عام للإسلام، واطلاع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفاً، بل درس العلوم الشرعية دراسة شمولية عامة، فمر على مسائل العلم، واستطاع تخريجها على أصولها وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة، وأهدافها العامة.

إن علمه لم يأته من قراءة ليلةٍ بل من سهر الليالي ومعاناة الأيام، فشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حدٍّ في التعلّم بل هو دائمو الطلب، دائبو التعلم.

سئل الإمام ابن المبارك رحمه الله إلى كم تكتب الحديث؟ فقال: (لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد)[1].

ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: (حتى يموت)[1].

وقال الإمام أحمد أيضاً: (أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر)[1].

وما رحلات العلماء في طلب الحديث إلا براهين دالةٌ على أنهم عانوا العلم، ولم يقرأوا منه شذرات يتصدَّروا بها المجالس.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: (لم يكن في زمان ابن المبارك أطلبَ للعلم منه، رحل إلى اليمن، وإلى مصر، وإلى الشام، والبصرة والكوفة وكان من رواة العلم وأهلاً لذلك)[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (٦٨).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» (٩١).

قال الرامهرمزي رحمه الله: (ولولا عناية الطالب بضبط الشريعة وجمعها واستنباطها من معادنها لم يتصدر هو وأصحابه إلى السواري، ولا عقد أهل الفتيا مجالسهم في المسائل)[١].

إن العوام قد ينخدعون بالقراء؛ لأن القراء قد أمسكوا بمسائل معينة مما يكثر فيها جدل الناس، فما إن يبدأ النقاش حتى يفيض في ذكر الأقوال والأدلة فيظنّه من لا يفقه التفريق الذي ذكرته عالماً.

ولقد كان أهل العلم يقفون من هؤلاء الذين يوهمون الناس أنهم علماء وليسوا كذلك موقفاً قوياً فيختبرونهم ليكشفوا عوارهم، عن أحمد بن علي الأبار قال: (رأيت بالأهواز رجلاً حَفَّ شاربه، وأظنه قد اشترى كتباً وتعبأ للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئاً، فقلت له: أنت لا تحسن تصلي. قال: أنا؟ قلت: نعم، قلت: أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك؟ فسكت. فقلت: وأيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا وضعت يديك على ركبتيك؟ فَسَكَتَ. فقلت: أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت، فسكت، فقلت: مالك لا تكلم، ألم أقل إنك لا تحسن تصلي، أنت إنما قيل لك تصلي الغداة ركعتين، والظهر أربعاً فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث، فلست بشيءٍ ولا تحسن شيئاً)[٢].

---

(١) «المحديث الفاصل» (٢١٩).

(٢) ذكر القصة الخطيب البغدادي في «الكفاية في علوم الرواية» (ص٤-٥).

قال الخطيب البغدادي -بعد أن ساق القصة-: (فهذا المذكور مثله في الفقهاء كمثل من تقدم ذكرنا له ممن انتسب الى الحديث ولم يعلق به منه غير سماعه وكتبه دون نظره في أنواع علمه.

وأما المحققون فيه، المتخصصون به، فهم الأئمة العلماء والسادة الفهماء؛ أهل الفضل والفضيلة، والمرتبة الرفيعة حفظوا على الأمة أحكام الرسول، وأخبروا عن أنباء التنزيل وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، وميّزوا محكمه ومتشابهه ودوّنوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وضبطوا على اختلاف الأمور أحواله في يقظته ومنامه، وقعوده وقيامه وملبسه ومركبه، ومأكله ومشربه، حتى القُلامَةَ من ظفره ما كان يصنع بها، والنُخاعة من فيه كيف كان يلفظها، وقوله عند كل فعل يحدثه، ولدى كل موقفٍ يشهده، تعظيماً لقدره ﷺ، ومعرفة بشرف ما ذكر عنه وعُزي إليه وحفظوا مناقب صحابته ومآثر عشيرته وجاؤوا بسير الأنبياء ومقامات الأولياء واختلاف الفقهاء. ولولا عناية أصحاب الحديث بضبط السنن وجمعها، واستنباطها من معادنها والنظر في طرقها لبطلت الشريعة وتعطلت أحكامها، إذ كانت مستخرجة في الآثار المحفوظة، ومستفادة من السنن المنقولة، فمن عرف للإسلام حقه وأوجب للدين حرمته، أكبر من أن يحتقر من عظَّم الله)[1].

---

(١) «الكفاية في علوم الرواية» (ص٥).

ثانياً: التفريق بين العلماء و(المفكرين) والمثقفين:

إنه نتيجة لالتقاء الثقافتين: الإسلامية، والغربية، والصراع بينهما، ومع اتساع جبهات الالتقاء، والصراع الفكري، نشأ في المجتمعات المسلمة طائفة من الأخيار الذين يفهمون الإسلام فهماً عاماً؛ فيعرفون التصور الإسلامي للإله، ويعرفون التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مع اطلاع على مجمل القضايا التي تعد مفرق طرق بين الإسلام، والأديان والمذاهب المعاصرة الأخرى، مثل: قضية المادية، وفصل الدين عن الحياة، والملكية الفردية، والنظام الاقتصادي بشكل عام، والنظام الاجتماعي، ومع اطلاع على المذاهب المعاصرة ودراسة لمنهج تفسير التاريخ.

وهم إلى ذلك يحملون همَّ نشر هذا الدين، ويملكون وعياً بالقضايا المستجدة، واطلاعاً على الحضارة الغربية، وأوجه نقدها.

وهؤلاء ليسوا من علماء الشريعة، وإنما هم: (مفكرون) على فرض صحة هذا التعبير، وحكماء يستنار برأيهم، ويستفاد من علمهم في الجوانب التي أجادوا فيها.

ولا يخلط بين تصدرهم باعتبارهم: (مفكرين) وبين العلماء، فهؤلاء (المفكرون) لهم مكانتهم، وبعضهم قد نفع الله عز وجل به نفعاً كبيراً، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شيئاً، إلا في حدود علمهم وقُدراتهم.

كما وجد أيضاً طائفةٌ من المثقفين وهم: فئة من الأخيار الصالحين ذوي تخصصات علمية برزوا فيها سواء في العلوم التجريبية مثل: الطب والهندسة والكيمياء أو في العلوم المسماة بـ(العلوم الإنسانية) مثل: علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع.

فهؤلاء وإن حُمِدَ لهم تخصصهم في مثل هذه العلوم فصاروا مرجعاً فيها فإنهم غير مختصين في العلوم الشرعية، وهم في الاصطلاح العلمي الشرعي من جمهور المسلمين، وعوامهم الذين يجب أن يكونوا وراء العلماء.

ويجب أن يرجعوا للعلماء في أمور الشريعة، ويكونوا عوناً لهم في شرح واقع تخصصاتهم؛ فالطبيب يشرح الأمور الطِّبية، والاقتصادي يشرح الجوانب الاقتصادية العصرية وهكذا..

قال الذهبي -رحمه الله تعالى-: (هكذا كان أئمة السلف لا يرون الدخول في الكلام ولا الجدال، بل يستنفرون وسعهم في الكتاب والسنة والتفقه فيهما ويتَّبعون ولا يتنطعون)[1].

ولو أنك أَجَلْتَ النظرَ في طوائف من هؤلاء المثقفين و(المفكرين) لوجدت فيهم شَبَهاً بأهل الكلام من بعض الوجوه، وإن كان فيهم طوائف يحرصون على النص ويتبعون أهل العلم والأثر.

وقد فُتِنَ بعض الناس بأهل الكلام في القديم وبـ(المفكرين) المعرضين عن الآثار في العصر الحديث، وأولعوا بقدراتهم وأساليبهم، وظنوا أن من كَثُر جدله فإن في ذلك الدليل على علمه.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (وقد فُتن كثير من المتأخرين بهذا، وظنُّوا أن من كثُر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٢٠).

جهلٌ محضٌ، وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر، وعمر وعليٍّ ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابتٍ كيف كانوا؟ كلامهم أقل من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه.

وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم.

وكذلك تابعوا التابعين، كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم.

فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يُقذَف في القلب، يفهم به العبدُ الحقَّ، ويميِّز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد)[١].

ثالثاً: التفريقُ بين العلماء والخطباء والوعاظ:

لقد ظهر منذ الصدر الأول لتاريخ الإسلام طائفة تسمى الوُعَّاظ أو القُصَّاص، وكانوا في البداية من العلماء والفقهاء، ثم تطوَّر الأمر حتى صار يعظ الناس من ليس بعالم ولا فقيه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: (كان الوعاظ من قديم الزمان من العلماء والفقهاء، وقد حضر عبد الله بن عمر مجلس عبيد بن عمير وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص مع العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، حتى إذا خَسَّت هذه الصناعة تعرض لها الجُهَّال فأعرض عن الحضور المميزون من الناس، وتعلَّق بهم العوام والنساء)[٢].

(١) «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٥٧-٥٨).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص١٢٧).

إنه لا يلزم من كون الشخص قاصاً أو واعظاً أو خطيباً أن يكون عالماً، فكم من واعظٍ يَسْلُب قلوب الناس بحسن حديثه، وحلاوة منطقه وليس له من العلم حظٌّ أو نصيب إذ ليس العلم كما أسلفت بالقدرة على الكلام ولا بالقدرة على شدِّ مشاعر الناس.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنَّكم في زمانٍ كثير علماؤه، قليل خطباؤه، وإن بعدكم زماناً كثير خطباؤه، والعلماء فيه قليل)(١).

إن العالم قد يكون عَيِّياً لا يحسن الكلام، أو هو -بطبعه- قليل الكلام غير قادر على الخطابة، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يُقلِّب الألفاظ كيف شاء.

العلماء قلة، والمتكلمون كثير، قال مجاهد رحمه الله: (ذهب العلماء فلم يبق الا المتكلمون، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم)(٢).

ولكن هذا الكلام لا يعني أن كل الخطباء والوعاظ ليسوا بعلماء، إن من الخطباء علماء أفذاذاً، بل قد يكون الواحد منهم من الأئمة الكبار، والعلماء المقتدى بهم.

ومن أشهر الوعاظ في التاريخ الإسلامي: الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، وهو أيضاً من علماء المسلمين الذين ألَّفوا في علومٍ شتى، وشهد لهم المسلمون برسوخ القدم في العلم.

---

(١) **صحيح الإسناد موقوف**: أخرجه أبو خيثمة في كتاب «العلم» (١٠٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٩)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٨)، وعبد الرزاق (٢/ ٣٨٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢/ ٣٠٣)، والحاكم (٤/ ٥٢٤)، [«كتاب العلم» (ص٢٧)].

(٢) أخرجه الحافظ أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي في «كتاب العلم» (٦٩).

القاعدة الرابعة: مكانة العلماء ومنزلتهم

لقد اعتبرت الشريعةُ الإسلامية للعُلَماءِ منزلةً ليست لغيرهم من الناس، وجعلت لهم مقاماً رفيعاً، وأقامتهم أدلاء للناس على أحكام الله عز وجل.

وأدلة هذه المنزلة، وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة غير منحصرة، فمنها:

الدليل الأول: أمر الله عز وجل بطاعتهم:

يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء:٥٩].

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منهم على أقوال:

- فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.
- وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يُعلِّمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر فأوجب الله -سبحانه- طاعتهم على العباد)[1].

قال الجصَّاص رحمه الله، بعد إيراد الآثار المختلفة في المراد بأولي الأمر، وهل هم العلماء أو الأمراء: (ويجوز أن يكونوا جميعاً مرادين بالآية؛ لأن الاسم يتناولهم جميعاً؛ لأن الأمراء يَلُون تدبير الجيوش والسرايا وقتال العدو، والعلماء يلون حفظ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٢١١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٨٥-١٨٦)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٧٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٩٨).

الشريعة، وما يجوز وما لا يجوز، فأمر الناس بطاعتهم والقبول منهم ما عدل الأمراء والحكام، وكان العلماء عدولاً مرضيين موثوقاً بدينهم وأمانتهم فيما يؤدون)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: («أولوا الأمر»: أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة، وأهل العلم، والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس)[٢].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله: (والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء)[٣].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبعٌ لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبعٌ لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي: العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعاً، كان صلاح العَالَمِ بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما)[٤].

الدليل الثاني: أن الله سبحانه أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل:

يقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

---

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١٧٠).

(٢) «الفتاوى» (٢٨/ ١٧٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥١٨).

(٤) «إعلام الموقعين» (١/ ١٠).

(ذلك أن السائل لا يصح أن يسأل من لا يُعتبر في الشريعة جوابه؛ لأنه إسناد للأمر إلى غير أهله، والإجماع على عدم صحة مثل هذا، بل لا يمكن في الواقع؛ لأن السائل يقول من ليس بأهل لما سئل عنه: أخبرني عما لا تدري، وأنا أسند أمري لك فيما نحن بالجهل به على سواء، ومثل هذا لا يدخل في زمرة العقلاء)(١).

إن العلماء بمثابة الأدلاء؛ فبهم يُعرَف حكم الله، ويستعان بفهمهم لفهم مراد الله عز وجل ومراد رسوله ﷺ لا أن طاعتهم مقصودة لذاتها.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه، والاستضاءة بنور علمه؛ فالأول يأخذ قوله من غير نظر منه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يُقلِّده به، ولذلك سمي تقليداً، بخلاف من استعان بفهمهم، واستضاء بنور علمهم في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته من الاستدلال بغيره، فمن استدلَّ بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى)(٢).

فالعلماء إذن هم الوسيلة والطريق لتبين الأحكام، فهذا العلم يتوارثه أهله فيأخذه الخلف عن السلف بالتّلقِّي، وهؤلاء العلماء يبينون أحكام الله عز وجل للناس.

---

(١) الإمام الشاطبي «الموافقات» (٤/ ٢٦٢).

(٢) «كتاب الروح» (ص٣٥٦).

الدليل الثالث: أن الله سبحانه عَظَّم قدرهم فأشهدهم دون غيرهم على أعظم مشهود:

يقول الله سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم)[1].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: (في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء)[2].

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (وفي هذه الآية: فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر. وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده، ودينه، وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة. وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبعٌ لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره)[3].

الدليل الرابع: أن الله عز وجل نفى التسوية بين العلماء وغيرهم:

يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزُّمَر:٩].

---

(١) «التفسير القيم» (ص١٩٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦٥).

وفي هذا الدلالة على أن للعلماء من الاعتبار في الشرع، والمنزلة بين الخلق ما ليس لغيرهم من البشر، فالعلماء رفعهم الله على من سواهم من المؤمنين، والمؤمنون رفعهم الله على من سواهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١].

قال الطبري رحمه الله في معنى هذه الآية: (ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم، بفضل علمهم درجاتٍ إذا عملوا بما أُمروا به)[١].

الدليل الخامس: أنهم أهل الفهم عن الله عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت].

فخواصّ الأدلة وهي الأمثال تضرب للناس كلهم، ولكن تعقّلها وفهمها خاص بأهل العلم، فالله سبحانه: (حصر تعقّلها في العالِمين، وهو قصد الشارع من ضرب الأمثال)[٢].

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى-: (وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه)[٣].

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى-: (﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب. ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

---

(١) «جامع البيان» (٢٨/ ١٩).

(٢) الشاطبي «الموافقات» (١/ ٧١).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» (٣/ ٤١٤).

وهذا مدحٌ للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدحٌ لمن يعقلها، وأنه عنوانٌ على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالِمين)[١].

الدليل السادس: أنهم أهل الخشية:

يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨].

(وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ (٨)﴾[البيِّنة] وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين)[٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر)[٣].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أن العلم النافع طريق خشية المولى جل جلاله.

(وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته، ومهابته، ومحبته، ورجاءه، والتوكل عليه والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٦/ ٨٩).

(٢) ابن القيم: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١)، وينظر ابن جماعة: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٦).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٥٣).

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة، والباطنة والأقوال.

فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه. فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع)[1].

وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد خشية.

يقول العلامة السعدي رحمه الله: (فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داعٍ إلى خشية الله)[2].

الدليل السابع: أن أهل العلم أبصر الناس بالشر ومداخل الشر:

قال الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٧﴾[النحل].

قال الشيخ العلامة ابن سعدي رحمه الله: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: العلماء الربانيون، ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: سوء العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه)[3].

ويقول -سبحانه- في سياق قصة قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[القصص:٨٠].

---

(١) «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٦٠، ٦١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٦/ ٣١٧).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٩٦).

فأهل العلم هنا كانوا متميزين عن غيرهم، فهم بُصراء بالشر وعلماء بالخير، فلما رأوا الناس يتمنون مثل ما أوتي قارون، حذَّروهم من الشر، وبيَّنوا لهم الخير، وأن الدار الآخرة خيرٌ لمن آمن، وعمل صالحاً.

ولم يعرف هؤلاء الذين تمنّوا حظوظ الدنيا أن العلماء على الحق إلا حينما حلت عقوبة الله بقارون عندها: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾ [القصص].

ولـمّا كان العلماء هم العارفين بالشر صاروا هم الذين ينهون الناس عن الوقوع فيه، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ [المائدة].

أي: هلا نهاهم العلماءُ المتصدّون لنفع الناس عن هذه الشرور العظيمة، وهم -أي: العلماء- العارفون بالشر ومداخل الشر، فكان لزاماً أن يبيِّنوا للناس.

والناس عليهم لزوم طاعة العلماء والاستجابة لتحذيرهم من الشر ونهيهم عن المعاصي.

الدليل الثامن: أن العلماء ورثة الأنبياء، وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»[١].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وابن حبان (٨٨)، [«صحيح الجامع» (٦٢٩٧)].

قال الإمام ابن رجب رحمه الله: (يعني: أنهم وَرِثُوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خَلَفُوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله)(١).

الدليل التاسع: أن العلماء هم المبلِّغون عن الأنبياء:

قال الرسول ﷺ: «**تسمعون ويُسمع منكم، ويُسْمَعُ ممن يسمع منكم**»(٢).

فبيَّن عليه الصلاة والسلام أن هذا العلم يؤخذ بالتلقِّي وكل جيلٍ من أهل العلم يُبَلِّغُهُ لمن بعده.

وهؤلاء المبلغون هم المستحقون لدعوة النبي ﷺ: «**نضَّر اللهُ عبداً سمع مقالتي، فحفظها ووعاها، وأداها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه**»(٣).

ولقد جَمَعَ العلماء بين نقل أقوال الرسول ﷺ إلى من بعدهم، وفقه تلك الأقوال وفهمها، فالعالم حاملُ فقهٍ وفقيه.

بل إن العلماء مُشرِّعون من وجه؛ وذلك حين يستنبطون من نصوص الوحيين حكماً لواقعةٍ أو نازلة.

---

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص٤٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٣٢١)، وأبو داود (٣٦٥٩)، وابن حبان (٦٢)، والحاكم (١/ ١٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٧١)، وفي الأوسط» (٥٦٦٨)، [«صحيح الجامع» (٢٩٤٧)].

(٣) **صحيح**: أخرجه الشافعي (ص٢٤٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١١٢)، والحميدي (٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٥)، وابن ماجه (٢٣٦)، والدارمي (٢٣٤)، والحاكم (١/ ١٦٢) [«المشكاة» (٢٢٨)].

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (إنَّ العالم شارع، من وجه؛ لأن ما يبلِّغه من الشريعة؛ إما منقولٌ عن صاحبها، وإما مستنبط من المنقول؛ فالأول: يكون فيه مبلِّغاً، والثاني: يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام، وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع، فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده، فهو من هذا الوجه شارعٌ، واجبٌ اتباعه والعملُ على وفق ما قاله، وهذه هي الخلافة على التحقيق)[١].

الدليل العاشر: أن الله سبحانه أراد بهم الخير:

عن ابن عباس، ومعاوية رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٢].

قال الإمام الآجري رحمه الله: (فلما أراد الله تعالى بهم خيراً فقههم في الدين، وعلمهم الكتاب والحكمة، وصاروا سراجاً للعباد ومناراً للبلاد)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (وكل أمة -قبل مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم- فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءها خيارهم)[٤].

الدليل الحادي عشر: أن نجاة الناس منوطة بوجود العلماء، فإن يُقبض العلماء يهلكوا:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهَّالاً فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا وأضلُّوا**»[٥].

(١) «الموافقات» (٤/ ٢٤٥).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).
(٣) «أخلاق العلماء» (٩٤).
(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام» (ص١١).
(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

وليس يغني عن العلماء وجود الكتب حتى لو كانت الكتب السماوية، إذ لو أغنت تلك الكتب عن قوم لأغنت عن بني إسرائيل.

عن أبي أمامة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خذوا العلم قبل أن يذهب**»، قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله! وفينا كتاب الله؟ قال: فغضب -لا يغضبه الله- ثم قال: «**ثكلتكم أمهاتكم، أولم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئاً؟ إن ذهاب العلم أن يذهب حملته، إنّ ذهاب العلم أن يذهب حملته**»[1].

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «**هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يَقدروا منه على شيء**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا.

فقال -رسول الله ﷺ-: «**ثكلتك أمك يا زيادُ، إن كنت لأعدُّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟**»[2].

فذهاب العلم إذن إنما هو بذهاب العلماء.

---

(١) **حسن**: أخرجه الدارمي (٢٤٦)، وأحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٥)، والروياني (١١٩٠)، [«مسند الدارمي» (١/ ٣٠٩)/ تحقيق: حسين أسد الداراني].

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، والدارمي (٢٩٣)، والحاكم (١/ ١٧٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٠٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠٢٢)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠)، [«صحيح الترمذي» (٢١٣٧)].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (هل تدرون ما ذهاب العلم)، قلنا: لا، قال: (ذهاب العلماء)[١].

وذهاب العلماء معناه: هلاك الناس، عن أبي جناب رحمه الله قال: سألت سعيد بن جبير، قلت: يا أبا عبد الله: ما علامة هلاك الناس؟ قال: (إذا هلك علماؤهم) [٢].

وأيما رجلٍ سوَّده قومه على غير فقهٍ وعلم فإن في ذلك هلاكهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ألا فمن سوَّده قومه على فقهٍ كان ذلك خيراً له، ومن سوده قومه على غير فقهٍ كان ذلك هلاكاً له ولمن اتبعه)[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يزال عالم، يموت، وأثر للحق يَدْرس، حتى يكثر أهل الجهل، ويذهب أهل العلم فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل)[٤].

الدليل الثاني عشر: أن البشر محتاجون إلى العلماء حاجة عظيمة:

يقول الإمام أحمد رحمه الله: (الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثاً، والعلم يحتاج إليه في كل وقت)[٥].

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٤٩)، وأحمد (١/ ٢٢٣)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٩، ٢٠).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي (٢٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦٢)، وأبو نعيم (٤/ ٣٠٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٢٣)، [«مسند الدارمي» (١/ ٣٠٩)/ تحقيق: حسين سليم أسد].

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٣٢٦)، والدارمي (٢٥٧)، [«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٦٣)/ تحقيق: أبو الأشبال الزهيري].

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٣٩).

(٥) ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٦).

وقال الإمام الآجري رحمه الله: (فما ظنكم رحمكم الله بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلةٍ ظلماء، فإن لم يكن فيه ضياءٌ وإلا تحيروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس، لابد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة فما ظنكم بهم؟

هكذا العلماء في الناس، لا يَعْلَمُ كثيرٌ من الناس كيف أداءُ الفرائض ولا كيف اجتناب المحارم، ولا كيف يُعْبَدُ الله في جميع ما يعبده به خلقه إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيَّر الناس ودَرَسَ العلم بموتهم وظهر الجهل)[١].

ولولا العلم لفسد عمل الناس.

قال الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (من عَمِل في غير علمٍ كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح)[٢].

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل للعلماء بالنجوم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطَمست النجوم أوشك أن تضلَّ الهداة**»[٣].

(١) «أخلاق العلماء» (٩٦).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٣٢).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ١٥٧)، [«ضعيف الجامع» (١٩٧٣)].

فقد شَبَّه العلماء بالنجوم، والنجوم لها فوائد. ذكر الله عز وجل منها في القرآن ثلاثاً هي:

- **الفائدة الأولى**: أنها علامات للناس يهتدون بها في الظلمات، يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[النحل].

- **الفائدة الثانية**: أنها زينة السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[الملك:٥].

- **الفائدة الثالثة**: أنها رجوم للشياطين الذين يسترقون السمع، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[الملك:٥].

والعلماء تجتمع فيهم هذه الأوصاف، فهم:

• الهداة الذين يَهْتدي بهم الناس في الظلمات حيث يشتبه الحق بالباطل.

• وهم زينة هذه الأرض.

• وهم رجومٌ للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويُدخلون في الدين ما ليس فيه من أهل البدع والأهواء والضلالات[1].

القاعدة الخامسة: موالاة العلماء ومحبتهم

إن الولاء والبراء: أصلٌ من أصول الإسلام، وهو من لوازم شهادة أن لا إله إلا الله، ولقد تكاثرت النصوص الدالة على هذا الأصل العظيم حتى قال الشيخ حمد بن عتيق رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم، فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم -يعني: الولاء والبراء- بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده)[2].

(١) ينظر ابن رجب الحنبلي: شرح حديث أبي الدرداء في «طلب العلم» (ص١٦).

(٢) «سبيل النجاة والفكاك» (ص٣١).

وإن أولى الناس بالموالاة، وأحقهم بالمحبة في الله بعد الأنبياء: العلماء.

(فيجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى، ورسوله ﷺ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم)[1].

وليس معنى موالاة العلماء أن يجعل العالِمُ مناط الموالاة والمعاداة فينتصر الطالب لشيخه، ويتعصب لأقواله وآرائه، ويجعلها هي الحق فيوالي على أساسها، ويعادي من عاداها، فإن هذا لا يكون لأحدٍ بعد الرسول ﷺ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (ومن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾[الروم:٣٢]، وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل أتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم، فينبغي للإنسان أن يُعَوِّد نفسه التفقه الباطن في قلبه، والعمل به فهذا زاجر.

وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالةٍ أو يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله)[2].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص١١).

(٢) «الفتاوى» (٢٠/ ٨-٩).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وليس لأحدٍ أن ينتسب إلى شيخٍ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحداً بمزيد موالاةٍ إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قَدَّم الله ورسوله عليه، ويفضل من فَضَّله الله ورسوله)[1].

إن التعصب للشيوخ سببٌ من أسباب فرقة المسلمين، إذ لو ساغ لكل طائفةٍ أو أهل بلدٍ ذلك التعصب لتفرق المسلمون في دينهم شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون، وما وقوع أهل البدع في بدعهم وضلالاتهم إلا نتاج جملة من الأسباب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وليس لأحدٍ أن يُنَصِّبَ للعامة شخصاً يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون)[2].

والحبُّ الذي يقع من بعض أهل الخير لبعض الشيوخ وأهل العلم قد يصل إلى درجة الغلو وذلك عندما يغلو الإنسان في الحب، ويتجاوز في المدح حتى يثني على شيخه بما ليس فيه وتعود مساوؤه عنده محاسن، ولا يتقبل فيه قدحاً بحال ولو كان ذلك الحب خالياً من الهوى لم تقع فيه تلك الظواهر، ولم يكن الحب للشخص غالباً على حب المنهج، ومسالك الهوى في هذا دقيقة، والمعصوم من عصمه الله[3].

(١) «الفتاوى» (١١/ ٥١٢).

(٢) «الفتاوى» (٢٠/ ١٦٤).

(٣) ينظر سليمان الغصن «اتباع الهوى» (ص٤٠-٤٣).

ولما كان أهل البدع يُحبون العلماء والشيوخ من أجل أهوائهم لا في الله -عز وجل- صاروا ينقلبون عليهم فيعود المحبوب مكروهاً؛ لأنه لم يرض المبتدعة وإنما أرضى الله عز وجل.

لما أراد عبد الله بن سلام أن يُسْلِم قال للنبي ﷺ: (إن اليهود قومُ بهتٍ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني فأرسل إليهم فسلهم عني، فأرسل إليهم فقال: «أيُّ رجلٍ فيكم عبدُ الله بن سلام؟» قالوا: حَبْرُنا وابنُ حَبْرنا، وعالمنا وابن عالمنا. قال: «أرأيتم إن أَسْلَم، تُسلمون» قالوا: أعاذه الله من ذلك. قال: فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرُّنا وابن شَرِّنا؛ وجاهلنا وابنُ جاهلنا. فقال: يا رسول الله! ألم أخبرك أنَّهم قوم بهت؟[1].

فاليهود قاتلهم الله انقلبوا انقلاباً عجيباً على عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وتحول الحبر إلى جاهل، وهذا شأن أفراخ اليهود من المبتدعة، قال الزعفراني: حج بشرٌ المريسي، فلما قَدِمَ، قال: رأيت بالحجاز رجلاً، ما رأيت مثله سائلاً ولا مجيباً - يعني الشافعي- قال: فقدم علينا، فاجتمع إليه الناس، وَخَفُّوا عن بِشر، فجئت إلى بشرٍ، فقلت: هذا الشافعيُ الذي كنتَ تَزعم قد قدم قال: إنه قد تَغَيَّرَ عما كان عليه، قال: فما كان مَثَلُ بشرٍ إلا مَثَلَ اليهود في شأن عبد الله بن سلام[2].

(١) **صحيح**: أخرجه بهذا اللفظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤١٥)، وأصله في «صحيح البخاري» (٣٣٢٩) بنحوه.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٣٣٨)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ٦٥)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٤٤).

القاعدة السادسة: احترام العلماء وتقديرهم

يقول الرسول ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر ويعرف لعالمنا حقه**»[١].

قال طاووس بن كيسان رحمه الله: (من السنة أن يوقَّر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد)[٢].

بل إجلال العالم لعلمه، ولما يحفظه من القرآن إجلالٌ لله عز وجل ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن من إجلالِ الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»[٣].

لقد كان سلف هذه الأمة يحترمون علماءهم احتراماً كبيراً ويتأدبون معهم، فلقد أخذ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع جلالته وعلو مرتبته بركاب زيد بن ثابت الأنصاري وقال: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا»[٤].

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، والترمذي (١٩١٩)، والحاكم (١/ ٢١١)، والبزار (البحر الزخار) (٢٧١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٨)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٥٥)، وغيرهم، وحسن الشيخ الألباني -رحمه الله- الحديث كما في [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٠١) بلفظ: «**ليس من أمتي من لم يُجل كبيرنا ويرحم صغيرها، ويعرف لعالمنا**»].

(٢) ذكره البغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٤٣).

(٣) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٨٥)، وفي «السنن» (٨/ ١٦٣)، ابن أبي شيبة (١١/ ٢٩١- طبعة عوامه)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٩٨)].

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٣٢٥).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (أقبلت على المسألة وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كنت لآتي الرجلَ في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلاً[1] فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح على وجهي حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا بن عم رسول الله ﷺ مالك؟ فأقول: بحديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك، قال: فيقول: فهلا بعثت إليَّ حتى آتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك)[2].

وقال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- لخلف الأحمر: (لا أقعد إلا بين يديك، أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه)[3].

ولما جاء الإمام مسلمُ بن الحجاج رحمه الله إلى الإمام البخاري وقَبَّل بين عينيه، وقال: (دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله...)[4].

ولقد كان من تمام احترام السلف لعلمائهم أنهم كانوا يهابونهم:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حديثٍ ما منعني منه إلا هيبته)[5].

---

(١) قائلاً: مستريحاً وقت القيلولة.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٠٧)، والدارمي (٥٩٠)، والحاكم (١/ ١٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٤٤)، [«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٦٥)/ تحقيق: أبوالأشبال الزهيري].

(٣) ينظر ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم» (٨٨).

(٤) رواه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/ ٣٤٠).

(٥) **صحيح**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٧١٦)، [«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٦٥)/ تحقيق: أبو الأشبال الزهيري].

ولقد أكثر أهل العلم من الكلام عن أسلوب التعامل مع العالم في مجلسه، وأسلوب الحديث معه مما هو مذكور بتوسع في كتب آداب العالم والمتعلم، ومن أجمع ما رُوي في ذلك ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من حق العالم أَلَّا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته بالجواب، وأن لا تُلِحَّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشينَّ له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته وإن زلَّ قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته)(١).

وقال: (من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلِّم عليه خاصة، وعلى القوم عامة، وتجلس قدامه، ولا تشر بيديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل قال فلانٌ خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال؛ فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء)(٢).

القاعدة السابعة: الأخذ عن العلماء والسعي إليهم

إن العلماء هم ورثة الأنبياء، فمن أراد أن ينال شيئاً من إرث النبوة فعليه بمجالسة العلماء، والأخذ عنهم، والآخذ عن العلماء السالك في طريق العلم، يسهل الله له طريقاً إلى الجنة.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٨٤١)، الخطيب البغدادي في «الفقه والتفقه» (٨٥٦)، [«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥١٩)].

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٩٩٢)، الخطيب البغدادي في «الفقه والتفقه» (٨٥٦)، [«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٨٠)].

فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»[١].

وفي رواية: «**من سلك طريقَ علمٍ سهَّل الله له طريقاً من طرق الجنة**»[٢].

إن الأخذ عن العلماء هو طريق العلم وهو طريق صُنْعِ العلماء.

قال سلمان الفارسي ﵁: (لا يزال الناس بخيرٍ ما بقي الأول حتى يتعلم أو يُعلم الآخر، فإن هلك الأول قبل أن يُعلم أو يتعلم الآخر هلك الناس)[٣].

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: (ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟! فتعلموا قبل أن يرفع العلم، فإن رفع العلم ذهاب العلماء)[٤].

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: (إنَّ أحداً لا يولد عالماً والعلم بالتعلم)[٥].

ولما فقه السلف هذا، كان حرصهم كبيراً على التلقي من أهل العلم.

قال عبد الرحمن بن مهدي ﵀: (كان الرجلُ من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمته، سأله وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم عَلَّمه وتواضع له، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذاكره ودارسه)[٦].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٣٠)، واللفظ له، والترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، [«صحيح الترمذي» (٢١٥٩)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٢٩) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٤١)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، والدارمي (٣٥٤)، وابن حبان (٨٨)، [«صحيح أبو داود» (٣٠٩٦)].

(٣) أخرجه الدارمي (٢٤٨)، وأحمد في «الزهد» (٨٢١)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٤٢).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٥١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٦)، وابن أبي شيبة (١٩/ ١٨٣).

(٥) رواه الحافظ أبو خيثمة في «كتاب العلم» (١١٥).

(٦) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢٠٦).

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: (العلماء هم ضالتي في كل بلد، وهم بغيتي إذا لم أجدهم، وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء)[١].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم وتابعوهم يحضّون على مجالسة العلماء وملازمتهم.

قال أبو جحيفة رضي الله عنه: (جالس الكبراء وخالل العلماء، وخالط الحكماء)[٢].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم)[٣].

وقال لقمان لابنه: (اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم، ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم، واقتبس من علمهم في رفق)[٤].

ولقد ضرب السلف أبلغ المثل في الحرص على الطلب، والسعي في الأخذ عن أهل العلم، تشهد لذلك قصصهم التي ساقها الخطيب البغدادي وغيره في الكلام عن الرحلة في طلب الحديث فقد كان منهم من يرحل وبغيته سماع حديث واحدٍ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الواحد لا يعلم أحداً أعلم منه، إلا سعى للأخذ عنه والرحيل إليه، ولقد كان من علماء الصحابة رضوان الله عليهم من يقول: (لو أعلم أحداً أعلمَ مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[٥].

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٩).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٨١٤).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٨٢١).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٦٨٢).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، مسلم (٢٤٦٣).

إن العلم الشرعي علمٌ يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ عن الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، وكذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذٍ عن شيخ.

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الشأن: (من تفقّه من بطون الكتب ضيع الأحكام)[١].

وكان بعض السلف يقولون: (من أعظم البلية تشيُّخ الصحيفة)[٢].

أي: الأخذ والتعلم من الصحف، أي: الأوراق.

وقيل لأبي حنيفة: في مسجد كذا حلقة يتناظرون في الفقه، قال: ألهم رأس؟ قالوا: لا، قال: لا يفقهون أبداً)[٣].

إن من المهم أن يفقه الناس أنَّ عليهم واجب السعي إلى أهل العلم، فليس العالم الذي يقف للناس، ويقول: أنا عالم فاتبعوني، وإنَّما الناس هم الذين يجب عليهم إذا رأوا العالم يُصَدِّرُوه ويأخذوا عنه، إذ من سنة علماء المسلمين على مر التاريخ تدافعهم للفتوى، ورغبتهم في عدم التصدر، إذا كفوا مؤونة هذا الأمر، فهم لا يرفعون فوق رؤوسهم الرايات، ولا يدعون إلى شعارات، ولا يُطالبون الناس بالانتماء إليهم، إنما يطلبون الانتماء إلى سنة سيد المرسلين ﷺ[٤].

---

(١) ينظر ابن جماعة «تذكرة السامع» (٨٧).

(٢) ينظر ابن جماعة «تذكرة السامع» (٨٧).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٩٢٦).

(٤) ينظر: ناصر بن عبد الكريم العقل «العلماء هم الدعاة» (ص١٢).

قال ابن أبي ليلى رحمه الله: (أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة فيَرُدُّها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول)[1]، وفي رواية: (ما منهم من أحدٍ يحدث حديثاً أو يُسأل عنه، وفي رواية عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى في شيء إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا)[2].

وعن الأعمش قال: (جهدنا بإبراهيم حتى أن نجلسه إلى ساريةٍ فأبى)[3].

بل إن من صفات علماء السلف وأتباعهم قلة الكلام، فإن رأيت عالماً يجلس مجلساً وهو لا يتحدث ولا يتكلم فاستنبط منه الكلام تفلح، ولا تجعل الكلام للجهال وأشباههم فيَضلون ويُضلون.

قال الحسن البصري رحمه الله: (إن كان الرجل ليجلس مع القوم فيرون أن به عَيّاً، وما به من عي إنه لفقيه مسلم)[4].

إنه بهذا يتبين أن على الناس أن يسعوا إلى أهل العلم ويصدروهم، ويستمعوا إليهم ويأخذوا عنهم، ومن المهم هنا بيان وجوب الحرص على الأخذ من الموثوق في دينه وعلمه (إن هذا العلم دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم)[5].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٦٤٠)، وأبو عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ٨٧) بنحوه.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي (١٣٧)، وأبو خيثمة في كتاب «العلم» (٢١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ٨٦)، و«الزهد» لابن المبارك (٤٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢١٩٩)، [«جامع بيان العلم» (٢/ ١١٢٠)] بنحوه.

(٣) أخرجه الدارمي (٥٣٥)، وإبراهيم هنا هو التابعي (إبراهيم بن يزيد النخعي).

(٤) رواه الحافظ أبو خيثمة في «كتاب العلم» (٢٠).

(٥) «مقدمة صحيح مسلم» (٢٦).

القاعدة الثامنة: الحذر من القدح في العلماء

إن القدح في العلماء، والطعن فيهم سبيلٌ من سبلِ أهل الزيغ والضلال، ذلك أن الطعن في العلماء ليس طعناً في ذواتهم، وإنما هو طعنٌ في الدين والدعوة التي يحملونها، والملة التي ينتسبون إليها، والطعن في العلماء محرم، لأنهم من المسلمين والرسول ﷺ يقول: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»[1].

ويكتسب مزيد حرمة؛ لأنه وسيلة للطعن في الدين، وهذا مراد أهل البدع الطاعنين في سلف الأمة وعلمائها التابعين لهم بإحسان.

ولما فقه السلف هذا جعلوا منتقِص الصحابة زنديقاً، لما يفضي إليه هذا القول من الطعن في الدين، وتنقُّص سنة سيد المرسلين ﷺ.

عن مصعب بن عبد الله قال: (حدثني أبي عبدُ الله بن مصعب الزبيري قال: قال لي أمير المؤمنين المهدي، يا أبا أبكر، ما تقول فيمن تنقّص أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت: زنادقة. قال: ما سمعت أحداً قال هذا قبلك!

قال: قلت: هم قوم أرادوا رسول الله ﷺ بنقص فلم يجدوا أحداً من الأمة يتابعهم على ذلك. فتنقّصوا هؤلاء عند أبناء هؤلاء، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء، فكأنهم قالوا: رسولُ الله ﷺ يصحبه صحابةُ السوء، وما أقبح بالرجل أن يصحبه صحابة السُّوء! فقال: ما أُراه إلا كما قلتَ)[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه الخطيب البغدادي «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٧٤).

وقال أبو زرعة - رحمه الله تعالى-: (إذا رأيت الرجل يتنقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وما جاء به حق، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقة)[١].

وكذلك قال السلف فيمن طعن في العلماء من التابعين فمن بعدهم:

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: (إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام؛ فإنه كان شديداً على المبتدعة)[٢].

وقال يحيى بن معين -رحمه الله تعالى-: (إذا رأيت الرجل يتكلم في حماد بن سلمة وعكرمة مولى ابن عباسٍ فاتهمه على الإسلام)[٣].

وهذا محمول على الكلام في العالم بظلم وهوى، أما إذا كان المتكلم في العالم عالمٌ مثله منصف فنعم.

قال الإمام الذهبي -رحمه الله تعالى-: (هذا محمول على الوقوع فيهما -يعني: حماد بن سلمة، وعكرمة- بهوى وحيف في وزنهما، أمَّا مَنْ نقل ما قيل في جرحهما، وتعديلهما على الإنصافِ، فقد أصاب)[٤].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي «الكفاية في علم الرواية» (٤٩)، والحافظ ابن حجر «الإصابة» (١/ ١٠).

(٢) رواه الذهبي «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٠).

(٣) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥١٤)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٤٧)، و(٥/ ٣١).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣١).

إن السلف رضوان الله عليهم لم يقتصروا على النهي عن الطعن في العلماء؛ بل نهوا أيضاً عن الاستخفاف بهم:

قال الإمام ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حق على العاقل أن لا يستخف بثلاثة: العلماء، والسلاطين، والإخوان؛ فإنه من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته)(١).

والقدح في العلماء إيذاءٌ لهم، والإيذاء للعلماء إيذاء لأولياء الله الصالحين، فإن العلماء العاملين يدخلون دخولاً أولياً في وصف الأولياء.

وهذا معنى أن إيذاء العلماء أمرٌ خطير؛ لأن من عادى ولياً لله فقد آذنه الله بالحرب، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»(٢).

واحْذَرْ من الاستهزاء بالعلماء، والطعن فيهم، واحْذَرْ من غيبتهم، فإن الله عز وجل حرم الغيبة، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أتدرون ما الغيبة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه**»(٣).

وغيبة العلماء أعظم من غيبة غيرهم من الناس.

---

(١) رواه الذهبي في «السير» (١٧/ ٢٥١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

قال الإمام الحافظ ابن عساكر الدمشقي:

(واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أن لحوم العلماء -رحمة الله عليهم- مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنشر العلم خلق ذميم)[١].

ولا تُجَرِّيء الرعاع على الطعن في العلماء، فإن بعض طلبة العلم يجرئ الناس على القدح في أولي العلم بما يقذفه من أقوال لا يظنها تبلغ ما تبلغ، فيقول: فلان لا يُعتدُّ بتصحيحه، وفلانٌ لا يقبل رأيه، وقد يكون قول هذا المعترض حقاً ولكنه يجب ألَّا يقوله عند العامة، وصغار طلبة العلم الذين لا يَزِنُونَ الأقوال، ولا يحسبون لها حساباً؛ بل يأخذون تلك الكلمة فيجترئون -تحت ظل نحن رجالٌ وهم رجال- على العلماء ثم على الأئمة وهكذا فالشر مبدأه شرارة.

القاعدة التاسعة: الحذر من تخطئة العلماء بغير علم

إن العلماء بشر يخطئون، ولكن اتهامهم بالخطأ يعرض فيه مزلقان خطيران:

الأول: أن يكون اتهامهم بالخطأ غير صحيح، فيخطِّئهم المخطئ فيما هم فيه مصيبون، أو يتهمهم بما ليس فيهم.

ومن الناس من يكون إنكاره على عالمٍ بسبب جهله بحال ذلك العالم، فيسمع منه شيئاً محتملاً أو مجملاً، ويجهل أشياء مبينة لتلك المجملات المحتملات، أو لا يرجع إلى العالم فيها، فيطير بالأمر الذي سمعه كل مطار على أنه خطأ شنيع وجرم فظيع.

(١) «تبيين كذب المفتري» (٢٨).

ذكر الإمام الذهبي رحمه الله أن أبا كامل البصري قال: سمعت بعض مشايخي يقول: (كنا في مجلس أبي خَنْبٍ فأملى في فضائل عليٍّ رضي الله عنه بعد أن كان أملى فضائل الثلاثة، إذ قام أبو الفضل السُّليماني، وصاح، أيها الناس، هذا دجالٌ، فلا تكتبوا، وخرج من المجلس؛ لأنه ما سمع بفضائل الثلاثة)[١].

قال الإمام الذهبي -تعليقاً على هذه القصة-: (وهذا يدل على زعارة السليماني وغلظته -والله يسامحه-)[٢].

وإن من الناس اليوم من يُخَطِّئُ العلماء؛ لجهلهم -كما يقول- بالواقع، وهذه دعوى لا يصح إطلاقها على العلماء، فهي دعوى غير صحيحة، إذ العلماء في مجملهم أعرفُ الناس بالواقع، فأكثر من يستمع إلى المشكلات والأمور التي تعرض للناس في الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هم العلماء.

قال سماحة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز -في الكلام عن اتهام العلماء بالجهل بالواقع-:

(فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه عما لا ينبغي، وألَّا يتكلم إلا عن بصيرة. فالقول بأن فلاناً لم يفقه الواقع هذا يحتاج إلى علمٍ، ولا يقوله إلا من عنده علم حتى يستطيع الحكم بأن فلاناً لم يفقه الواقع. أما أن يقول هذا جزافاً، ويحكم برأيه على غير دليلٍ فهذا منكرٌ عظيم لا يجوز.

(١) نقله الذهبي في «السير» (١٥/ ٥٢٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٢٤).

والعلم بأن صاحب الفتوى لم يفقه الواقع يحتاج إلى دليل ولا يتسنى ذلك إلا للعلماء)[١].

وبعض الناس قد يتهم عالماً من أَتْبَاعِ السَّلَف ببدعة، وليس معه على هذا الاتهام دليل، ولا برهان، والعبرة في مثل هذه الأمور إنما هي برأي المعتبرين من أهل السنة والجماعة: أتباع السلف، لا إلى رأي آحاد الناس، والنظر فيها إلى الأدلة والبراهين على ذلك الاتهام واجب.

قيل للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه -يعني الشافعي يشير إلى التشيع وأنهما نسباه إلى ذلك- فقال أحمد بن حنبل: (ما ندري ما يقولان والله ما رأينا منه إلا خيراً)[٢].

ثم قال أحمد لمن حوله: (اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرِمَهُ قرناؤه وأشكاله حسدوه، فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم)[٣].

قال الإمام الذهبي رحمه الله: (ومن زعم أن الشافعي يتشيع فهو مفتر ولا يدري ما يقول)[٤].

---

(١) «مجلة رابطة العالم الإسلامي» في عدد (٣١٣).

(٢) رواه البيهقي في «المناقب» (٢/ ٢٥٩)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٥٨).

(٣) رواه البيهقي في «المناقب» (٢/ ٢٥٩)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٥٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٨-٥٩).

المزلق الثاني: أن يحكم بالخطأ على العالم غير العالم، فيبني الشخص تخطئته للعالم على جهلٍ، فيقول على الله عز وجل وخلقه بلا علم، ومردُّ الحكم على زلات العلماء ليس إلى العوام وأنصاف المتعلمين، إنما هو إلى العلماء.

فإن قلت: فهل لغير المجتهدين من طلبة العلم ضابطٌ يعتمده في معرفة أن هذا من زلات العلماء وأخطائهم، فأقول هنا ما قاله الإمام الشاطبي في الجواب على هذا السؤال: (الجواب أن له ضابطاً تقريبياً، وهو أنه ما كان معدوداً في الأقوال غلطاً وزللاً قليلٌ جداً في الشريعة، وغالب الأمر أن أصحابها منفردون بها قلما يساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحبُ قولٍ عن عامة الأمة فليكن اعتقادك أن الحق مع السواد الأعظم من المجتهدين لا من المقلِّدين)[1].

وهذا الضابط ضابطٌ أغلبي وليس ضابطاً كلياً.

فصار مردُّ الأمر بكل حالٍ في تخطئة العلماء إلى المجتهدين.

إن بعض الناس قالوا: إنهم اشتكوا إلى بعض أهل العلم في بلدهم ما يجدون من انحرافات فنصحهم العالم ودعاهم إلى الصبر، وقال: إنه ليس زمانٌ إلا والذي بعده شرٌ منه وأمرهم بالحرص على الدعوة، والإصلاح بالوسائل الشرعية الممكنة.

فغضب هؤلاء وخطَّؤوا العالم إذ أمرهم بالصبر وقال لهم بتتابع الشرور.

وهذا الأمر الذي خطّأ فيه هؤلاء الناسُ العالم، ليس بخطأ، إذ وقع مثل ذلك الموقف الذي وقعوا فيه مع العالم لقومٍ مع عالمٍ من سادات علماء الصحابة.

---

(١) «الموافقات» (٤/ ١٧٣).

قال الزبير بن عدي رحمه الله: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: (اصبروا، فإنَّه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ)[١].

القاعدة العاشرة: التماس العذر للعلماء

إن العلماء هم خيرُ أمة محمد ﷺ، وإذا كان هذا هو الأصل فيهم، فإن من الواجب التماس العذر وإحسان الظن بهم، إذ من الواجب على المؤمن أن يظن بأهل الإيمان والخير والدين والصلاح الخير، حينما يسمع عنهم تهمة من التهم يقول الله عز وجل في قصة الإفك: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝١٢﴾[النور].

فإحسان الظن والتماس العذر للمؤمنين خلق نبيل، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً)[٢].

وقال محمد بن سيرين رحمه الله: (إذا بلغك عن أخيك شيءٌ فالتمس له عذراً، فإن لم تجد فقل: لعلَّ له عُذراً)[٣].

وقال أبو قلابة رحمه الله: (إذا بلغك من أخيك شيءٌ تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك لعلَّ لأخي عذراً لا أعلمه)[٤].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٦٨).
(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٣).
(٣) رواه أبو الشيخ الإصبهاني (٩٧).
(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٣).

وهذا الكلام في العلاقـات الأخويـة فـما بالـك بعلاقـة التلميـذ مـع شـيخه، وعلاقات الأمة مع العلماء، إن الأمر حينذاك آكد.

يقول السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإذا كان الرجل ثقةً مشهوداً له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يُحمل كلامه، وألفاظ كتابته على غير ما تُعُوِّد منه، ومن أمثاله، بل ينبغـي التَّأْويل الصالح وحُسنُ الظن الواجب به وبأمثاله)[1].

القاعدة الحادية عشرة: الرجوع إلى العلماء والصدور عن رأيهم خصوصاً في الفتن

إنَّ من شـأن الفـتن أن تـشتبه الأمـور فيهـا، ويكثـر الخلـط وتزيـغ الأفهـام والعقول، والعصمة حينذاك إنما هي للجماعة التي يمثل العلماء رأسها، فالواجـب على الناس: الراعي والرعية الأخذ برأي العلماء، والصدور عن قولهم.

لأن اشتغال عموم الناس بالفتن، وإبداء الرأي فيها ينتج عنه مزيدُ فتنة وتفـرق للأمة، فالأمور العامة: من الأمن أو الخوف مردها إلى أهل العلم والرأي. يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾[النساء].

قال الشيخ العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا تأديبٌ من الله لعبـاده عـن فعلهـم هذا غير اللائق، وأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمة والمصالح العامـة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مـصيبة علـيهم أن يتثبتـوا

---

(١) «قاعدة الجرح والتعديل» (٩٣)، وينظر في هذه النصوص أحمد الصويان: «نحو مـنهجٍ شرعـي في تلقـي الأخبار وروايتها» (ص٩٢-٩٧).

ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر. بـل يردونـه إلى الرسـول ﷺ وإلى أولي الأمـر منهم أهل الـرأي والعلـم والنـصح والعقـل والرزانـة الـذين يعرفـون الأمـور، ويعرفـون المـصالح وضـدها، فـإن رأوا في إذاعتـه مـصلحة ونـشاطاً للمـؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلـك وإن رأوا مـا فيـه مـصلحة، أو فيـه مصلحة، ولكن مـضرته تزيـد عـلى مـصلحته لم يـذيعوه. ولهـذا قـال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليلٌ لقاعدة مهمة وهي: أنه إذا حَـصَلَ بحـثٌ في أمـرٍ مـن الأمـور، ينبغي أن يوكل إلى من هو أهلٌ لذلك، ويُجْعَلَ إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم فإنـه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النَّهيُ عن العجلة والتسرع لنـشر الأمـور مـن حـين سـماعها، والأمـر بالتأمل قبل الكلام، والنظـر فيـه هـل هـو مـصلحة، فَيُقـدم عليـه الإنـسانُ أم لا فيُحجم عنه)[1].

ويمكن أن تتبين هذا من خلال المدارك الآتية:

المدرك الأول:

أن الناس في الفتن يحتاجون إلى فقه المصالح والمفاسد، والعلم بمراتبهـا فـوق حاجتهم إلى العلم بآحاد النصوص الحاكمة في القضايا المعينة. إذ ليست المنكرات العامة المتعلقـة بالـسياسة الـشرعية -وهـي في الغالـب سـبب الفـتن- كمـسائل

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٥٤-٥٥).

الطهارة والصلاة والحج والأحوال الشخصية يقوم فهم الحق فيها غالباً على الأدلة التفصيلية بل قيام العلم في ذلك هو على أمور منها:

١- الأدلة الشرعية العامة والقواعد التي يدخل تحتها أمور كثيرة.

٢- مقاصد الشريعة.

٣- الموازنة بين المصالح والمفاسد.

٤- الأدلة التفصيلية.

ولا يمكن للعوام؛ بل وصغار طلبة العلم فهم القضايا الكلية العامة، وإن كان يمكنهم فهم النصوص الجزئية. وكذلك فإن فهم مقاصد الشريعة لا يكون إلا باستقراء مجمل النصوص، وتصرفات الشارع، ففقه المقاصد فقه عزيز، لا يناله كل أحد، بل لا يَصِلُ إليه إلا من ارتقى في مدارج العلم، واطلع على واقع الحال، وقلَّب النظر في الاحتمالات التي يُظنُّ حدوثها.

والموازنة بين المصالح والمفاسد تحتاج إلى فهم للشريعة ومقاصدها، وفهم للواقع، ومراتب المصالح والمفاسد، وهذا كله لا يكون إلا للعلماء، ولذلك فإن الخضر كان يعلم من المصالح في الأفعال التي قام بها ما لم يعلمه موسى ﷺ.

قال العلامة ابن سعدي في بيان فوائد قصة موسى مع الخضر:

(ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يُدْفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويُراعَى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما. فإنَّ قتل الغُلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرّاً منه.

وبقاءُ الغُلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يُظنُّ أنه خير؛ فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر.

وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يَدْخل تحت الحصر.

فتزاحمُ المصالح والمفاسد كلها داخلٌ في هذا)[١].

وإذا كان الأمر كذلك فإن الإصلاح لا يكون إلا لمن كان عالماً بالمنكر وسبل إصلاحه، وفي الأمور العامة هم العلماء فقط.

قال الإمام النووي رحمه الله: (ثم إنَّه إنَّما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر وينهى عنه، وذلك يختلفُ باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء)[٢].

المدرك الثاني:

أن معظم المنكرات العامة المتعلقة بالسياسة الشرعية يكون الْمُنْكَرُ عليه فيه الحكام، والناس ليس لهم قدرة على التأثير عليهم، والأحكام الشرعية متعلقة بالقدرة، وإنما القادرُ على التأثير فيهم هم: العلماء وسراة الناس ووجهاؤهم، والعامة عليهم أن يكونوا رِدءاً لأولئك. بل إن تصدى العوام لتغيير تلك المنكرات العامة ربما أدى إلى فساد عريض.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٧٠-٧١).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٢٣).

المدرك الثالث:

أن صيرورة الأمر إلى العامة في مثل هذه الأمور يُشتت المسلمين ويفرق وحدتهم؛ لأن العوام لا يتصور اتفاقُهم على أمر إذا لم يكن لهم سراةٌ يصدرون عن رأيهم، ولذلك كان الرد إلى أهل الحل والعقد.

يقول الشيخ العلامة: صالح الفوزان حفظه الله: (فالواجب علينا التثبت وعدم التسرع، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالتثبت فيما يختص بالعامة من الأمة، وجَعَلَ أمور السلم والحرب والأمور العامة، جعل المرجع فيها إلى ولاة الأمور وإلى العلماءِ خاصة، ولا يجوز لأفراد الناس أن يتدخلوا فيها؛ لأن هذا يشتت الأمر ويفرق الوحدة، ويتيح الفرصة لأصحاب الأغراض الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر)[1].

المدرك الرابع:

إن قيام مسألة الإنكار في الأمور العامة هو على فهم مسألة عظيمة هي:

الإمكان وعدم الإمكان:

هل يمكن تغيير المنكر بهذه الوسيلة أم لا؟

هل يمكن تغيير المنكر دون إحداث منكرٍ أعظم أم لا؟

وعند عدم الإمكان هل يكون المسلمُ في حلٍّ من عدم اتخاذ هذه الوسيلة، أو من التغيير بشكل عامٍ ما دام الظرف قائماً.

---

(١) «وجوب التثبت في الأخبار وبيان مكانة العلماء» (٢١).

وتحديد الإمكان وعدمه ليس إلى جمهور الناس وعوامهم، بل هو إلى العلماء بشرع الله، البُصراء بواقع الناس.

المدرك الخامس:

أن العوام لا يمكن فهم رأيهم بل لا يمكن معرفته إلا بأن يرد الأمر إلى عرفائهم وكبرائهم، ففي غزوة حنين جاءت هوازن بعد قسمة الغنائم تطلب ردّ الأموال والسبي، فخيرهم الرسول ﷺ بينهما، فاختاروا السبي، فخطب الرسول ﷺ أصحابه فقال: «**فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإنّي رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحبَّ منكم أن يُطيّب بذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حَظِّه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل**»، فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك لرسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم**»، فرجَعَ الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا [1].

فقد جعل الرسول ﷺ مردَّ معرفة آراء العوام إلى العُرفاء ورؤوس الناس.

القاعدة الثانية عشرة: ليسَ أحدٌ إلا وتُكلِّم فيه، فتثبَّت

إن الناظر في تراجم العلماء وسِيَرهم، بل وفي تاريخ البشرية كلها لا يجدُ أحداً بَرز ولم يُخْتَلَفْ فيه، فما أَن يبرز شخصٌ في هذه الأمة إلا ويُتكلم فيه، فطائفة تعظمه وتصوبه، وطائفةٌ تُحَقِّرُه وتخطئه وتؤثمه.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٣٠٨).

وقد ذكر الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاماً طويلاً نفيساً في ذلك عندما ترجم للحسين بن منصور الحلاج -جازاه الله بما هو أهله- وأن من الناس من اعتقد فيه الولاية مع أنه من دعاة الإلحاد والزندقة فأذكر كلامه بطوله لأهميته قال: (فما ينبغي لك يا فقيهُ أن تبادر إلى تكفير المسلم إلا ببرهانٍ قطعي، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العِرْفان والولاية فيمن قد تبرهن زَغَلُه، وانهتك باطنُهُ وزندقته، فلا هذا ولا هذا، بل العدل أنَّ من رآه المسلمونَ صالحاً محسناً فهو كذلك؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمَّة لا تجتمع على ضلالة، وأنَّ من رآه المسلمون فاجراً أو مُنافقاً أو مُبْطِلاً، فهو كذلك.

وأن من كان طائفةٌ من الأمَّة تُضَلِّلُه، وطائفةٌ من الأمة تُثْني عيه وتُبَجِّلُهُ، وطائفة ثالثةٌ تَقِفُ منه وتتورَّع من الحطِّ عليه، فهو ممن ينبغي أن يُعْرَض عنه، وأن يُفَوَّض أمره إلى الله، وأن يُسْتَغْفَرَ له في الجملة؛ لأن إسلامَهُ أصليٌّ بيقين، وضلاله مشكوكٌ فيه، فبهذا تَسْتَريح ويصفو قلبك من الغِلِّ للمؤمنين.

ثم اعلم أن أهل القِبْلَةِ كلهم، مؤمنهم وفاسقهم، وسُنيهم ومبتدعهم -سوى الصَّحابة- لم يُجْمعوا على مسلم بأنه سعيدٌ ناجٍ، ولم يُجمعوا على مسلمٍ بأنه شقيٌّ هالك: فهذا الصِّديق فردُ الأمة، قد علمتَ تفرُّقهم فيه، وكذلك عُمَر، وكذلك عُثمان، وكذلك عليّ، وكذلك ابن الزبير، وكذلك الحجاج، وكذلك المأمون، وكذلك بشر المريسي، وكذلك أحمد بن حنبل، والشافعي، والبخاري، والنَّسائي، وهلمَّ جرا من الأعيان من الخير والشَّر إلى يومك هذا، فما من إمامٍ كاملٍ في الخير

إلا وثمَّ أناس من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمونه ويحطون عليه، وما من رأس في التجهم والرَّفضِ إلا وله أناسٌ ينتصرون له ويَذُبّون عنه، ويدينون بقوله بهوى وجهل، وإنَّما العبرة بقول الجمهور الخالين من الهوى والجهل المتصفين بالورع والعلم، فَتَدبر -يا عبد الله- نحْلَة الحلاج الذي هو من رؤوس القرامطة، ودعاة الزَّنْدَقة، وأنصف وتورع، واتَّق ذلك، وحاسِبْ نفسك، فإن تَبَرْهن لك أن شمائل هذا المرءِ شمائل عدوٍّ للإسلام، محبٍّ للرئاسة حريص على الظهور بباطل وبحق، فتبرَّأ من نحلته، وإن تبرهن لك والعياذُ بالله، أنَه كان -والحالة هذه- محقاً هادياً مهدياً فجدِّدْ إسلامك، واستغث بربك أن يوفِّقَكَ للحقِّ وأن يثبت قلبك على دينه، فإنَّما الهُدى نورٌ يَقذفه الله في قلب عبده المسلم، ولا قوة إلا بالله، وإن شككت ولم تعرف حقيقته، وتبرأت مما رُمي به، أرحت نفسك ولم يسألك الله عنه أصلاً)[1].

إنَّ الموقفَ الرشيد من الأقوال المتضاربة في الشخص الواحد هو: «التثبت».

فأخطاء العلماء والمبرزين تُتناقل بين الناس فيسمعها القاصي والداني دون تثبت، والواجب في ذلك أن يتثبت المرء؛ إذ من الخلق الإسلامي الذي جاء به الكتاب العزيز والسنة المطهرة خلق: «التثبت»، وذلك بتمحيص الخبر والتحقيق من صدقه قبل إفشائه وإذاعته، وهذا التثبت وإن كان سنةً جارية في كل حالٍ إلا أنه يتأكد في حالين:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٤٣-٣٤٥).

الأولى: وجود قرينة تشكك في الخبر، مثل: فسق القائل أو غرابة القول، أو كونه ناقضاً لأصل تأكد وثبت بدليل قاطع.

ولا يخلو الكلام في العلماء من إحدى هذه القرائن، إذ قد ثبتت عدالة العلماء وفضلهم بشهادة الأمة لهم:

يقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجُرات].

يقول الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: (أمهلوا حتى تعرفوا صحته، ولا تعجلوا بقبوله.. لئلا تصيبوا قوماً براءٌ مما قُذِفوا به بجنايةٍ بجهالةٍ منكم ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ يقول: فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها)[1].

الحال الثانية: وقوع الفتن والشرور واضطراب الأحوال وتبلبل الأذهان، فإنَّ ذلك إذا وقع في زمانٍ ما، أوجب التثبت والتبين لما يستدعيه زمنُ الفتن والشرور من كثرة الكذب والافتراء.

وفي حال الفتن يكثر الطعن في الذوات والأشخاص بل إن من مقدمات الفتن: الطعن في مقدَّمي الأمة وعلمائها وسادتها، واعتبر ذلك في الفتن التي وقعت بين الصحابة، فقد كان مبدؤها الطعن في بعضهم رضوان الله عليهم جميعاً.

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ١٢٣-١٢٥).

وعلى العاقل أن لا يغتر بالكلام المتناقل بين جماهير الناس، ولا يجعل التناقل دليلاً على صدق الأمر.

قال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: (والجماهير دائماً أسرع إلى إساءة الظن من إحسانه.. فلا تُصَدِّق كل ما يقال، ولو سمعته من ألف فم، حتى تسمعه ممن شاهده بعينه، ولا تصدق من شاهد الأمر بعينه حتى تتأكد من تثبته فيما يشاهد، ولا تُصدِّق من تثبت فيما يشاهد حتى تتأكد من براءته وخلوه عن الغرض والهوى، ولذلك نهانا الله عن الظن واعتبره إثماً لا يغني من الحق شيئاً)[1].

ولو التزم الناس التثبت في الأخبار المتناقلة لسلموا من غوائل الطعن في الناس وبهتهم بما ليس فيهم.

القاعدة الثالثة عشرة: ترك المبادرة إلى الاعتراض على العلماء

إن ترك الاعتراض على العلماء المعروفين في الأمة بالعلم والعدل أمر محمود، إذ على طالب العلم أن يتهم رأيه عند رأي الأجلة من أهل العلم، ولا يبادر بالاعتراض قبل التوثق.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (إن العالم المعلومَ بالأمانة والصدقِ والجري على سنن أهل الفضل والدين والورع إذا سُئل عن نازلةٍ فأجاب، أو عرضت له حالةٌ يَبْعُدُ العهد بمثلها، أو لا تقع من فهم السامع موقعها أن لا يواجه بالاعتراض والنقد.

(١) «أخلاقنا الاجتماعية» (ص٦٠).

فإن عَرَضَ إشكالٌ فالتوقفُ أولى بالنجاح وأحرى بإدراك البُغْيَـة إن شـاء الله تعالى)[١].

وترك المبادة إلى الاعتراض على العالم الموثوق المظنون فيه التزام الحـق والخـير من الصبر المحمود إذ (أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم وحُسن الثبات على ذلك أنَّه ليس بأهلٍ لتلقي العلم.

فمن لا صبر له لا يُدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازَمَهُ أدرك به كل أمـر سعى إليه)[٢].

وأنت واجدٌ في قصة موسى مع الخضر اشتراط الخَضِرِ على موسـى الـصبر في أمور عَلِمَها الخَضِرُ ولم يعلمها موسى يقول الله عز وجل في حكايـة ذلـك: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف].

والأحكام قد تكون في الأصل على الوجه الذي أراده المعـترض عـلى العـالم، ولكن العالم يعرفُ عارضاً صرف الحكم عن حالته العامة.

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيـان فوائـد قـصة موسـى عليـه الـسلام مـع الخضر: (ومنها: أن الأمور تُجْرَى أحكامهـا عـلى ظاهرهـا، وتعلـق بهـا الأحكـام

---

(١) «الموافقات» (/ ٣٢٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٦٨).

الدنيوية في الأموال والدماءِ وغيرها. فإن موسى عليه السلام، أنكر على الخضر خرقه للسفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر.

وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحالِ التي صحب عليها الخضر.

فاستعجل عليه السلامُ وبادر إلى الحكم في حالتها العامة ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار)[1].

ومن أعظم الشواهد على هذا الأصل العظيم وهو: عدم المبادرة إلى الاعتراض على العلماء قبل التثبت قصة أصحاب النبي ﷺ معه يوم الحديبية بعد كتابة وثيقة الصلح مع قريش.

وكان ملخص بنود ذلك الصلح كما يأتي:

١- وضع الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنين.

٢- أن يرجع المسلمون بغير عمرة، ولهم العودة إلى مكة بعد عام للعمرة ويقيمون فيها ثلاثة أيام فقط.

٣- أن للمسلمين وقريش محالفة من شاء محالفتهم من القبائل.

٤- أن المسلمين يردون من جاءهم من قريش مسلماً بغير إذن وليه، وأن من أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٦٩-٧٠).

وقد تذمر صحابة النبي ﷺ من هذا الصلح واعترضوا على النبي ﷺ وسارع بعضهم إلى الاعتراض حين الكتابة فقالوا: (يا رسول الله! أنكتبُ هذا؟ قال: «**نعم، إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً**»[(١)].

وكان أشد الصحابة اعتراضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال رضي الله عنه: (فأتيتُ نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبيَّ الله حقاً؟ قال: «**بلى**». قلت: ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**». قلت: فلم نعطي الدَنيَّة في ديننا إذاً؟ قال: «**إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري**» قلت: أوليس كنتَ تُحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتُكَ أنَّا نأتيه العامَ؟**» قال: قلتُ: لا. قال: «**فإنَّك آتِيه ومُطَوِّفٌ به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلم نعطي الدَّنيَّة في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجُلُ، إنه لرسولُ الله ﷺ وليس يعصي ربَّه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلتُ: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوفُ به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطوِّفٌ به)[(٢)].

فهنا اعترض عمر وبعض الصحابة على رسول الله ﷺ على أمرٍ ظنوه خطأ وشراً وهو صواب وخيرٌ كله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٨٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

قال الإمام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي الحديث... جواز بعض المسامحة في أمر الدين، واحتمال الضيم فيه ما لم يكن قادحاً في أصله، إذا تعيَّن ذلك طريقاً للسلامة في الحال والصلاح في المآل، سواءٌ كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم، وأن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال، بل عليه التسليمُ؛ لأن المتبوع أعرف بمآل الأمور غالباً بكثرة التجربة، ولا سيما مع من هو مؤيدٌ بالوحي)[1].

ولقد تبين بعدُ أن صلح الحديبية الذي كرهه بعض الصحابة كان خيراً وفتحاً ومصالح عظيمة للمسلمين.

قال الإمام الزُّهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنَّما كان القتال حيثُ التقى الناس؛ فلما كانت الهدنة ووضعت الحربُ وأمِن الناسُ بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمُنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يَعقل شيئاً إلا دخل فيه.

ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[2].

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والدليل على قولِ الزُّهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)[3].

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٥٢).

(٢) نقلاً عن ابن هشام «سيرة النبي ﷺ» (٣/ ٤٢٥).

(٣) «سيرة النبي ﷺ» (٣/ ٤٢٦).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجاً، وكانت الهدنة مفتاحاً لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحاً..

وكان من أسباب فتحه صدُّ المسلمين عن البيت، وكان في الصورة ضيماً للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عِزاً لهم؛ فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعضٍ من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرةً آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خُفية، وظهر من كان يُخفي إسلامه، فَذَلَّ المشركون من حيث أرادوا العزة، وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة)[١].

ولقد تبين للصحابة المعترضين هذه المصالح، فتابوا عن اعتراضهم، فقد علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطأ نفسه فكان يعملُ أعمالاً صالحةً رجاء أن يكفر الله بها من خطاياه:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ -يعني يوم الحديبية- حتى رجوت أن يكون خيراً)[٢].

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٤٨).

(٢) **إسناده حسن**: وهو جزء من حديث طويل، أخرجه أحمد (٤/ ٣٢٥)، [«الموسوعة الحديثية»].

وسهل بن حنيف رضي الله عنه كان يُحَذِّرُ من الاعتراض على علماء الصحابة - رضوان الله عليهم- ويأمر باتهام رأي المرء نفسه في مقال آراء الأجلة، ويُذكر الناس بموقف الصحابة بل موقف سهلٍ نفسه يومَ الحديبية فكان يقول: (أيها الناس اتهموا آراءكم، والله! لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أني أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته)[١].

ولقد تبينت حينذاك منازل الصحابة، وكمال علم أبي بكر رضي الله عنه، وارتفاع منزلته عن عمر رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما أجابه به النبي صلى الله عليه وسلم سواء، دلالة على أنه كان أكمل الصحابة، وأعرفهم بأحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلمهم بأمور الدين، وأشدَّهم موافقة لأمر الله تعالى)[٢].

ويعظم خطر الاعتراض على العلماء إذا كان المعترضُ يقصد الوضع منهم وانتقاصهم، خطب زيادٌ ذات يومٍ على منبر الكوفة فقال: (أيها الناس إني بتُّ ليلتي هذه مهتماً بخلالٍ ثلاث: بذي العلم، وبذي الشرف، وبذي السن، رأيت أن أتقدم إليكم فيهن بالنصيحة، رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال ذوي العلم، وتوقير ذوي الأسنان، والله لا أوتى برجلٍ رد على ذي علم ليضع بذلك منه إلا عاقبته، ولا أوتى برجلٍ رد على ذي شرف ليضع بذلك منه شرفه إلا عاقبته، ولا

(١) **صحيح**: «أخرجه البخاري (٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥)، واللفظ له.

(٢) «فتح الباري» (٥/ ٣٤٦).

أوتى برجلٍ ردّ على ذي شيبة ليضعه بذلك إلا عاقبته، إنَّما الناسُ بأعلامهم وعلمائهم، وذوي أسنانهم)[١].

وكان الحكماء ينهون عن مجادلة أهل العلم، قال لقمان لابنه: (لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك)[٢].

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: (لا تمارِ عالماً ولا جاهلاً فإنك إذا ماريت عالماً خزن عنك علمه، وإن ماريت جاهلاً خشن صدرك)[٣].

وطالب العلم يجب أن يكون حريصاً على السماع من العالم أكثر من حرصه على الكلام بين يديه، قال الحكماء: (إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرصَ منك على أن تقول)[٤].

وقال الحسين بن علي رضي الله عنهما لابنه: (يا بني إذا جالست العُلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت)[٥].

وليس المراد بترك الاعتراض على العلماء ترك الاعتراض بالكلية، بل المراد ترك الاعتراض في موضع الاحتمال والاجتهاد، وترك الاعتراض المقصود لذاته، وترك المبادرة إلى الاعتراض دون تثبت وتبين.

---

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٦٠).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦٨٢).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٨٣٥).

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٨٤٥).

(٥) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٨٤٦).

فإن قوماً يعترضون على العلماء، ولا هَمَّ لهم في ذلك إلا إثبات الذوات فهم أهل اعتراض لا أهل اقتداء.

وأما ترك الاعتراض بالكلية فلا يكون إلا للمعصوم، وقد تقرر أن العلماءَ غيرُ معصومين.

نقل الإمام الذهبي رحمه الله عن أبي عبد الرحمن السُّلمي قوله: (من قال لأستاذه: لِمَ، لا يفلح أبداً).

ثم قال: (قلتُ: ينبغي للمُريد أن لا يقولَ لأستاذه: لِمَ إذا علمه معصوماً لا يجوز عليه الخطأ، أما إذا كان الشيخ غير معصوم وكره قولَ: لِمَ؟ فإنَّه لا يفلح أبداً، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر:٣]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد].

بلى هنا مُريدون أثقالٌ أنكاد، يعترضونَ ولا يقتدونَ، ويقولون ولا يعملون، فهؤلاء لا يفلحون)[1].

القاعدة الرابعة عشرة: وضع الثقة في العلماء

إن من الناس من يطالب العلماء بعمل من الأعمال هم عنه ممتنعون، وما امتناعهم عنه إلا لنظرهم في مآلات الأمور وعواقبها.

إذ بعض المصالح قد يمتنع عنه لما يؤدي إليه في المآل من المفاسد العظمى، والدين الإسلامي دين مصالح، فلا يقر اعتبار مصلحة دنيا على حساب وقوع مفسدة عظمى.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٥١).

ألا ترى أن قتل المنافق الثابت نفاقه، المعروف باستهزائه بآيات الله، وبرسوله ﷺ، وبالمؤمنين أمر مشروع بل موجب للقتل، وهو الردة ومفارقة الدين؟

فقد امتنع عنه النبي ﷺ لما يفضي إليه هذا القتل من المفاسد.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: (كُنَّا في غزاةٍ، فَكَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المُهاجِريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دَعْوى الجاهِلِيّة؟**».

قالوا: يا رسول الله! كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رَجُلاً من الأنصار. فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» فسمع بذلك عبدُ الله بنُ أُبيٍّ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «**دَعْهُ، لا يتحدث الناسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصحابه**»[1].

فظاهر من هذا أن النبي ﷺ امتنع عن قتل المنافق خشية أن يتحدث الناس أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه في وقت كانت الدعوة فيه في طور الانتشار، مما قد يُنَفِّر الناس عن الإيمان برسالةِ محمد ﷺ وهذا المحظور أعظم في الفساد من المصلحة المتحققة بقتل هذا المنافق.

وقال ابن إسحاق رحمه الله: (حدثني عاصِمُ بن عُمَرَ بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أُبي أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! إنَّه بَلَغَنِي أنَّك تُريد قتل

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

عبدالله بن أبي فيما بَلغك عنه، فإن كُنْت لابد فاعلاً فمُرني به أنا أحملُ إليك رأسه، فوالله لقد عَلِمَت الخزرجُ ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأَقْتُلَه فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: «بل نَتَرَفَّق به، ونُحْسِن صحبته ما بقي معنا».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويُعنِّفُونه -يعني عبد الله بن أُبي- فقال رسول الله ﷺ لعُمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عُمر؟ أما والله لو قتلته يوم قُلتَ لي اقتله لأُرْعِدت له أنوفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

قال فقال عمر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رسولِ الله ﷺ أعظمُ بركةً من أمري)[1].

فالرسول ﷺ لـمّا علم منزلة الرجل في قومه، وأن الأوس والخزرج كادتا أن تقتتلا، وأن المهاجرين والأنصار كادوا أن يقتتلوا بسبب غلامين، علم أن قتل عبد الله بن أُبي، سيجر من المفاسد واقتتال الناس وتفرقهم عليه ﷺ، ما هو أعظم بكثير من مصلحة قتله، وإراحة المسلمين منه، والنبي ﷺ في ذلك كله لم ينف الحكم الشرعي، ولم يقل بعصمة دم هذا المنافق، وإنما علل الأمر برعاية المصالح والمفاسد.

---

(١) نقلاً عن «سيرة ابن هشام» (٣/ ٣٧٤)، وعنه رواه الطبري (٢٨/ ١١٦)، «جامع البيان» (٢/ ٦٠٨)، و«تاريخ الأمم الملوك»، وانظر: ابن كثير «البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨).

ومثال آخر: ألّا ترى أن بناء البيت على قواعد إبراهيم عليه السلام التي قام عليها أول ما قام أولى؟

فانظر إلى النبي ﷺ قد امتنع عن ذلك، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي ﷺ عن الجَدْر[1] أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فما لهم لم يُدْخِلوهُ في البيت؟ قال: «**إنَّ قوْمَكِ قَصَّرت بهمُ النفقةُ**». قلتُ: فما شأنُ بابه مرتفعاً؟ قال: «**فعلَ ذلك قومُك ليُدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخافُ أن تنكر قلوبهم أن أُدخِلَ الجدر في البيتِ، وأن أُلْصِقَ بابه بالأرض**»[2].

فهنا امتنع عليه الصلاة والسلام عن بناء البيت على قواعد إبراهيم عليه السلام خشية أن يكون فعله ذلك فتنة لقومه الذين أسلموا حديثاً.

فانظر أيها الأخ المبارك في هذا، وضع ثقتك في أهل العلم الأمناء على شرع الله، واعرف أنهم لن يمتنعوا عن فعل خيرٍ إلا رجاء خيرٍ أعظمَ، أو خشيةً من وقوعِ شرٍّ أعظم.

إن من الناس من يطالب العلماء -مثلاً- أن يبينوا كل شيءٍ، فيبينوا حيثيات ما يصدرون من قرارات أو آراء أو فتاوى تتعلق بأمور الأمة العامة.

وهذه مطالبة فيها مخالفة للشرع والعقل، فليس كل أمر يصلح إخبار الناس به.

(١) الجَدْر أي: الحجر.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣).

عن علي بن أبي طالبٍ ﷺ قال: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟)[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة)[٢].

فالتحديث بأمر والأخبار به، يمتنع عنه العلماء العقلاء إذا كان مآل التحديث مفسدة أعظم.

وليس هذا من كتمان العلم المنهي عنه، فإن الكتمان المنهي عنه هو ما لم يكن لمصلحة شرعية، أما إذا كان لمصلحة شرعية فهو مشروع.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (وليُعلم أنَّه ليس كلُّ ما يُعْلَمُ مما هو حقٌّ يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة ومما يُفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما مطلوبُ النشر، وهو غالبُ علم الشريعة، ومنه ما لا يُطلب نشره بإطلاق، أو لا يُطلب نشره بالنسبة إلى حالٍ أو وقتٍ أو شخص)[٣].

وضابط ذلك كما يقول الإمام الشاطبيُّ رحمه الله: (أنَّك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فأعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٧).

(٢) «مقدمة صحيح مسلم» (١٤).

(٣) «الموافقات» (٤/ ١٨٩).

تتكلم فيها؛ إما على العموم إن كانت مما تقبله العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم.

وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنه هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية)[1].

وضع ثقتك في أهل العلم، واعلم أن امتناعهم عن إخبار العوام ببعض الأمور إنما هو رجاء تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

ومن وضع الثقة في العلماء: العلمُ بأنهم أعرفُ بما يصلح للمتعلم من العلم، فهم الربانيون الذين يعلمون الناس ويربونهم على صغار مسائل قبل كبارها، ويبدأون بالأهم قبل المهم.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قول الله عز وجل: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]: (حلماء فقهاء)[2].

قال البخاري رحمه الله: (ويقال: الرباني الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره)[3].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح ذلك: (والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره، ما دق منها. وقيل يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده)[4].

---

(١) «الموافقات» (٤/ ١٩١).

(٢) «البخاري مع الفتح» باب: العلم قبل القول والعمل، (١/ ٢١٠، ٢١١).

(٣) ما سبق.

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٦٢).

ذكر ابن غياث رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لما ذهب إلى الأعمش، وطلب منه أن يُحدثه سأله: (أتحفظ القرآن؟) قال: لا. فقال الأعمش: (اذهب فاحفظ القرآن، ثم هلمَّ أحدثك) قال ابن غياث: (فذهبتُ فحفظت القرآن ثم جئته فاستقرأني فقرأته فحدثني)[1].

وقد حدثني غير واحدٍ من مشايخنا الذين درسوا على سماحة الشيخ العلامة: محمد بن إبراهيم آل الشيخ -أسبغ الله عليه شآبيب رحمته-، أنه كان أول ما يسأل القادم إليه للطلب عن حفظ القرآن، فإن كان حافظاً أقرأه المتون اليسيرة، ثم لا يزال يترقى عنده حتى يتأهلَ للقضاء، فكانت دروس الشيخ مدرجةً حتى المراحل العليا.

وإن لم يكن القادم إليه حافظاً للقرآن أمره بأن يحفظ، فإذا حفظ قدِمَ عليه للتعلم.

---

(١) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص٢٠٣).

الباب الخامس

٥

قواعد في شخصية الداعي إلى الله ﷻ من السنة النبوية

قواعد في شخصية الداعي إلى الله من السنة النبوية[(١)]

• معشر الدعاة إلى الله! وهذه قواعد في شخصية الداعي إلى الله من السنة النبوية عضوا عليها بالنواجذ، فإنّ الدعوة إلى الله تكون بالقدوة الحسنة قبل الكلام.

القاعد الأولى: الإخلاص.

عن عُمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إنّما الأعمالُ بالنِّيَّة، وإِنَّما لِامرئٍ ما نوى، فَمَن كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِه، فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِه، ومَن كانت هجرتُهُ لدُنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يتزوجها، فَهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إليه**»[(٢)]

فعمدةُ العَمَلِ الإِخلاصُ، وبالإخلاصِ تستقيمُ القلوبُ، وتستقرُّ الأفئدةُ، وبه يعرفُ المرءُ طريقَ دينهِ صحيحاً، فيأتي البيوتَ مِن أَبوابِها.

وبالإخلاصِ وحدَه يعرفُ ما عليهِ مِن واجباتٍ، وما يتعيّن عليه مِن حقوق.

وبهِ يَرُدُّ الأُمورَ إلى نِصابِها، يُؤَدِّيها ما تستحقُّ دونَ إفراطٍ ولا تفريط.

وهذا الحديثُ أحدُ الأحاديث التي هي أركانُ فَهم ديننا الحنيف[(١)]. فإذا عَرَفَ هذا العبدُ المسلمُ، وجب عليه دونَ تَرَدُّدٍ أو تَلَجلُجٍ أَن يُحيطَ إِخلاصَه بسياج الشخصيَّة الإِسلاميّة، وهو:

---

(١) هذا العنوان وما تحته مأخوذ من كتاب «الأربعون حديثا في الشخصية الإسلامية» لأخينا الفاضل فضيلة الشيخ/ علي الحلبي – حفظه الله–.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) واللفظ له.

القاعدة الثانية: التميز.

عن ابن عُمـر ﵄ قـال: قـال رسـولُ الله ﷺ: «**بُعِثـتُ بـين يَـدَي الـسَّاعَةِ بالسيفِ حتى يُعبَدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وجُعِلَ رزقي تحت ظِلِّ رُمحِي، وَجُعِـلَ الذِّلَّةُ والصَّغَارُ على مَن خَالَفَ أَمري، ومَن تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم**»(٢)

فالمسلم ذو شخصيَّة متميِّزةٍ، لها كيانُها الخاصُّ، ومنهاجُها الخـاصُّ، وطريقُهـا الخاصُّ، مُتَميِّزٌ في كُلِّ شُؤونِه.

وبهذا التَّمَيُّز نُحافِظُ على إِسلامِنا ودعوتِنا نَقِيَّةً صَفِيَّةً، لا غَبَش فيها، ولا خَطَأَ يَعتَرِيها.

والمسلمُ في تميُّزِهِ لا يخرجُ عن:

القاعدة الثالثة: العدل والوسطية.

عن أبي هُرَيرة ﵁ قال: قـال رسـولُ الله ﷺ: «**أَحبِـب حبيبَـكَ هَونـاً مـا، عسى أن يكونَ بغيضَكَ يوماً مـا، وأَبغِـض بغيـضكَ هَونـاً مـا، عـسى أن يكـون حبيبك يوماً ما**»(٣)

---

(١) «التقييد» (٢/ ٦-٧) لابن نقطة.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣١)، وسعيد بن منصور في «سـننه» (٢٣٧٠)، ابن أبي شيبة (٧/ ٢٩)، والبيهقـي في «الـشعب» (١١٩٩)، والطـبراني في «مـسند الـشاميين» (٢١٦)، [«إرواء الغليل» (١٢٦٩)].

(٣) **صـحيح**: أخرجـه الترمـذي (١٩٩٧)، والطـبراني في «الأوسـط» (٣٣٩٥)، والقـضاعي في «مـسند الشهاب» (٧٣٩)، والضياء في «المختارة» (٤٣٤)، [«صحيح الجامع» (١٧٨)].

فالمسلمُ يَعدِلُ في حُبِّه وفي بُغضِه، يَعدِلُ في أَخـذِه وفي عطائِـه، فهـو وَسَـطٌ في ذلك كُلِّه.

والمسلمُ في وَسَطِيَّتِه ليس مُستَمِدًّاً ذلـك مِـن عقلِـه وهـواه، ولا مِـن رَأيِـهِ أو سِواه، إنَّما هو آخِذٌ ذلك مِن كتاب الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]

وليستِ الوَسَطِيَّةُ أَمراً سَهلاً يَسيراً، فالكثيرُ مِمَّن يُنادي بالوسَطِيَّة إِنَّما هو يُريـدُ المُيوعَةَ، فَأَنْ يكونَ المرءُ على الوَسَطِيَّةِ التي أَمَرَ اللهُ بها ليس -كما قُلتُ- سهلاً، إنَّـما بحاجة إلى:

القاعدة الرابعة: جهاد النفس.

عن العَلَاءِ بن زِيَادٍ قال: سأَلَ رجلٌ عبدَ الله بنَ عمْرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: أيّ المؤمنين أفضل إسلاماً؟ قال: «مَن سَلِمَ المُسلِمُون من لسانه ويَـدِهِ» قـال: فـأي الجهاد أفضلُ؟ قال: «مَن جاهد نفسه في ذاتِ الله» قال: فـأيُّ المهـاجِرينَ أفـضلُ؟ قال: «مَن جاهَدَ لِنَفْسِهِ وهواه في ذات الله» قال: أنتَ قُلْتَهُ يا عبدَ الله بـن عَمْـرٍو أو رسولُ الله ﷺ؟! قال: «بل رسولُ الله ﷺ قاله»[1].

ومُجاهدةُ النّفس مِن أَرفع وأَعلى ما يزيدُ الإيمان، وَيُقَرِّبُ العبدَ إلى ربِّهِ سبحانه.

وفي ذلك يقولُ تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٣٩)، وأبو نعـيم في «الحليـة» (٢/ ٢٨٢) طرف منه، [«الصحيحة» (١٤٩١)].

وَبِمُجَاهَدَةِ نَفْسه وهواه تَسْمو الأرواحُ، ويَعْلو الإيمانُ، وتَزْكو النّفوسُ.

وهذه المجاهدة تُتَوِّجُ المسلمَ تاجاً عظيماً في حياته، وهو:

القاعدة الخامسة: الرفق.

عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قـال رسـولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ رفيـقٌ يُحِـبُ الرِّفْـقَ، وَيُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ**»[1].

فبالرِّفْقِ تتواصلُ القلوبُ، وتتحابُّ الأفئدة، ويعمُّ الخير، وبِضِدِّهِ تَعُمُّ النُّكرة، ويكثُرُ الهَجْر.

ومَعَ الرِّفقِ يَسْهُلُ:

القاعدة السادسة: الرجوع إلى الحق.

عن ابن عَبّاسٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما مِـنْ عبـدٍ مُـؤْمِنٍ إلَّا ولـه ذَنْبٌ يعتادُهُ الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَةِ، أو ذَنْبٌ هو مقيمٌ عليه لا يُفارِقُهُ حتى يُفـارِقَ الـدُّنْيَا، إنّ المُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّناً تَوَّاباً نَسِيَّاً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ**»[2].

الرّجوع إلى الحقِّ فضيلةٌ، والتَّمادي في الباطلِ رذيلةٌ.

فالرّجوعُ إلى الحَقِّ يُعلي الإنسانَ، ويرفعُ درجَتَه، عندَ الله وعندَ النّاس.

---

(١) حسن **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٥٥٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة ﷺ، [«التعليقات الحسان» (٢/ ٤١)].

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٤١)، وفي «الأوسط» (٥٨٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٢٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٠٩)، وعبد بن حميد (٦٧٤) [«صحيح الجامع» (٥٧٣٥)].

وإنَّ الشّيطانَ لَيُزَيِّنُ للنَّاسِ أنّ الرّجوعَ إلى الحقِّ منقصةٌ وشَيْنٌ، وهذا مِن غُرورِ إبليس وتلبيسِه.

وهذا الرّجوع يجعلُهُ في المحلِّ الأعلى من تقْدير:

القاعدة السابعة: المسؤولية.

عن ابن عمَرَ ﵄ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، ومَسْئولٌ عن رَعِيَّتِه، فالإمامُ راعٍ، ومَسْئولٌ عن رعيتِه، والرجلُ في أهلِه راعٍ ، وهو مَسْئولٌ عن رَعِيَّتِه، والمرأةُ في بيتِ زوجها راعيةٌ ، وهي مسئولةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادمُ في مالِ سَيِّدِهِ راعٍ ، وهو مسئول عن رَعيَّته، والرجلُ في مالِ أبيه راعٍ ، ومسئولٌ عن رَعِيَّته، فَكُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئول عن رَعيَّتِه**»[1]

فلو أنَّ كلَّ واحدٍ من هذه الأُمَّة عَرَفَ قَدْر نفسه، وما تتحمّله مِن مسؤوليات، ولم يتعدَّها إلى مسؤوليات غيرِهِ، فأَحْسَنَ تطبيق الواجبِ المُلْقَى عليه من المسؤولية: لكان ذلك خيراً عميماً، وكنزاً عظيماً، به ينتشرُ الأمان، وفيه يكون الاطمئنان.

• ومِن الأمورِ التي هي ملامح أساسية للشخصيّة الإسلاميّة، أنّ:

القاعدة الثامنة: المسلم عذَّار.

عن سَعْد بن عبادة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... **ولا أَحَدَ أَحَبُّ إليهِ العُذْرُ مِن اللهِ، ومِن أجلِ ذلك بعث المُبَشِّرين والمُنذِرين...**»[2].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥٥٨)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

فَبِعُذْرِ المسلمِ إخوانَه وأحبابه ينتشر الوئام لا الخِصام، ويَحِلُّ الوَصْلُ بَدَلَ الهَجْرِ.

إذ اللهُ سبحانه يعذُرُ وهو الخالقُ العظيم، فكيف أنت لا تعذر يا عبدَ اللهِ وأنتَ المخلوقُ الضَّعيفُ؟.

وعُذرُ المسلم إخوانه يُؤَكِّدُ أَنَّ:

القاعدة التاسعة: المسلم لا يحسد.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا حَسَدَ إلّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاه اللهُ مالاً، فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، وَرَجُلٌ آتاه اللهُ حِكْمَةً، فهو يَقْضي بها، ويُعَلِّمها**»[1]

فلو كان يحسُدُ النّاس لتمنّى عثراتهم إشباعاً لِكِبْر نفسِهِ، وغُرورِ ذاتِه، وتيهِ عقلِه.

فهوَ يعلمُ أنَّ الحَسَد داءٌ خطيرٌ، وشَرٌّ وبيل، وهو عنه بمعزلٍ.

أمّا الحسَدُ المستثنى من الإثم: فهو الحَسَد الذي لا يُساوِرُ الحاسِدَ فيهِ مَرَضٌ بِتَمَنِّي زوال النّعمة عن المَحْسودِ، بل هو يدعو ربَّه سبحانه لأخيه بالحِفْظِ، ولنفسه بأن يكون مِثْلَه.

وسوى هذا فهو مذمومٌ مذمومٌ[2].

وهذا يُؤكّد أنّ المسلمَ:

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).

(٢) انظر رسالة «ذمّ الحسد وأهله» لابن القيم تحقيق: علي الحلبي/ طبع دار عمّار.

القاعدة العاشرة: رباني.

عن أمّ الدّرداءِ رضي الله عنها قالت: قلتُ لأبي الدرداءِ رضي الله عنه: أَلا تَبْتَغي لأَضْيَافِكَ ما يبتغي الرجالُ لأَضيافِهِم؟ فقالَ: إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنّ أمامَكم عَقَبةً كؤوداً لا يجوزُها المُثْقِلُون**» فَأُحِبُّ أنْ أَتَخَفَّفَ لتلك العَقَبة![1].

فالمسلمُ رَبَّانيٌّ في شؤونِه كُلِّها، فالدُّنيا عِنْدَه مَمَرٌّ الآخِرَة، ليس له بها مُتَعَلَّقٌ إلّا مِمَّا لا بُدَّ منه لِيُقِيم أَوَدَهُ، ويَحْفَظَ نفسَه.

أَمّا أنْ تكون الدُّنيا جُلَّ اهتمامِه، ومبلغَ غايتِه، وهو يَظُنُّ أنّهُ يُحْسِنُ صُنْعَاً، فهذا ليس مِن سِيما المسلم وسِمَتِه.

وعَجَباً مِن أُناسٍ يُضَيِّعُونَ زهرةَ أعمارهم، ويفنونَ ثمرة شبابهم في الانغماسِ بِعَمَل الدّنيا، وهم يحسبون أنّهم على خيرٍ، وإن هذا إلاّ من عمل الشّيطان وتزيينِه.

فكيف يتمكّنُ أُولاءِ مِن ذلك، مع أَنَّ:

القاعدة الحادية عشرة: المسلم لا فراغ عنده.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**نِعْمتانِ مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**»[2].

فكيف يشتغلُ بالدنيا مَن لا فراغَ عنده؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم (٤/ ٦١٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٠٨)، وأبو نعيم (١/ ٢٨٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٢٥)، [«وصحيح الجامع» (٢٠٠١)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤١٢).

وكيف يعرف الفراغَ مَن كان وقتُهُ مليئاً مليئاً؟

• ومن الأمور التي تنبني عليها شخصيَّةُ المسلم:

القاعدة الثانية عشرة: ورع المسلم ووقوفه.

عن النُّعمان بن بَشير رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ، وبَيْنَهما مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ من النّاس، فَمَن اتَّقَى الشُّبُهات اسْتَبْرَأَ لدينه وعرْضِهِ، ومَن وَقَعَ في الشُّبهاتِ وَقَعَ في الحرامِ، كالرَّاعي يَرْعى حولَ الحِمى، يوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيهِ، أَلا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وإنَّ حِمَى الله محارِمُهُ، أَلاَ وَإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلَّهُ، أَلاَ وهي القلبُ**»[1]

والمسلمُ بِجَنْبِ ما يَعْرِضُ له في شؤونِ حياتِهِ كُلِّها أمامَ ثلاثة مواقف:

أ- الامتناع المطلق: وذلك للحرامِ الواضح الصريح.

ب - الأخذ المُطْلَق: وذلك للحلال الجليّ الظّاهر.

ج - التّوقُّف: وذلك لِمَا لم تظهر صورتُهُ أحلالٌ أم حرامٌ.

وهذا الأخيرُ، إنْ دَلَّ: فإنَّما يَدُلُّ على وَرَعِ المسلمِ وخَوفِه من مُواقعةِ الحرام ومداخلةِ المنكر.

فهو يقف عنده، ويبتعد عنه إرضاءً لله، وامتثالاً لأَمره، فليس كلُّ ما هو غير حرامٍ يجوزُ فِعلُهُ، فما كان من الشّبهات فهو إلى الحرام أقربُ، كما في الحديث نفسه: «**ومَن وقع في الشّبهات وقع في الحرام...**»!

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له.

وهذا الخوفُ والورع مِمّا يُثبت أَنّ:

القاعدة الثالثة عشرة: المسلم صادق في شؤونه كلها.

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**آية المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذا ائتُمِنَ خان**»[1]

فهو صادقٌ في حديثه، وصادقٌ في وَعْدِهِ، وصادقٌ في أَداءِ ما ائتمُنَ عليهِ.

لا يعرفُ الغِشَّ ولا الخداعَ، لا يعرفُ الكذبَ ولا النّفاق، فالصّدقُ من رؤوس المحاسنِ، والكذبُ رَأْسُ المفاسدِ والشّرور.

وصدقهُ لهذا: يجعلُهُ بعيداً عن الخبائثِ وأَدواءِ القلوبِ، فهو يعملُ كلَّ ما يعملُهُ للهِ سبحانه، لا لنيل جاهٍ دنيويٍّ، أو شهرةٍ أو سُمعةٍ، فشعارُهُ:

القاعدة الرابعة عشرة: العلم للعلم.

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تَعَلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهوا به العُلَماءَ، أَو تُمَاروا بِهِ السُّفَهاءَ، ولا لِتَجتَرّئوا به المجالِسَ، فمن فَعَلَ ذلك، فالنَّارُ النَّارُ**»[2].

لا يطلُبُ العلمَ لِتَصدُّرِ مجلسٍ، أو مُقارَعةِ سفيهٍ، أَو مُناكدةِ عالمٍ! إنّما طَلَبُهُ العِلْمَ للهِ لا شريك له، ليس لنفسه منه نصيبٌ، وليس لغيرِهِ منه نصيبٌ!

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٧٧)، والحاكم (١/ ١٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٧١)، [«صحيح الجامع» (٧٣٧٠)].

وانظر -رحمكَ اللهُ- إلى ما قَصَّه ابنُ أَبي حاتمٍ الرازيُّ عظةً وعبرةً، قال[١]:

(دخلتُ دمشقَ على كَتَبةِ الحديثِ، فمررتُ بحلقةِ قاسمٍ الجُوعيِّ، فرأيتُ نَفَراً جُلوساً حولَه، وهو يتكلّم عليهم، فهالَني منظرُهُم، فسمعتُهُ يقولُ:

اغتنِموا من أهل زمانِكم خمساً: إنْ حَضَرتُم لم تُعرفوا، وإنْ غبتُم لم تُفْتَقَدوا، وإنْ شَهِدتم لم تُشاوَروا، وإنْ قلتُم شيئاً لم يُقبل قولُكم، وإنْ عملتُم شيئاً لم تُعْطَوْا به، أُوصيكم بخمسٍ أيضاً: إنْ ظُلِمْتم لم تَظْلِموا، وإنْ مُدِحْتُم لم تفرحوا، وإنْ ذُمِمتْم لم تجزعوا، وإنْ كُذِّبْتُم لم تَغْضبوا، وإن خانوكم فلا تَخونوا.

قال ابنُ أبي حاتمٍ: فجعلتُ هذا فائدتي مِن دمشقَ).

فانظر - وقانا اللهُ وإياك شرورَ النّفسِ - كيف جَعَلَه حِرصُهُ على العلمِ والفائِدة يُصْغي لِمن هو دونَه - بيقينٍ - في العلمِ لِيَنْهَلَ فهماً، ويأْخُذَ علماً.

• ومن الأُمور التي يجبُ التّنبيهُ عليها في هذا المقامِ أَنَّ:

القاعدة الخامسة عشرة: المؤمن مرآة أخيه.

عن أَبي هُرَيرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**المُؤْمِنُ مِرآةُ المُؤمِن، والمُؤْمِنُ أخو المُؤْمِنِ، يَكُفُّ عليهِ ضَيْعَتَهَ، ويحوطُه مِن ورائهِ**»[٢].

(١) كما في «التّقييد» (٢/ ٨١) لابن نقطة.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٤٥) وفي «السنن» (٨/ ١٦٧)، [«والصحيحة» (٩٢٦)].

والوصفُ «بالمِرآة» وصفٌ دقيقٌ رقيقٌ، يُمَثِّل الـذّروةَ مـن الإخـاءِ والتَّكافُـلِ، فأخوك -يا عبدَ الله- صورةٌ عنك، فإذا أساءَ فكأنّما أنت المسيء، وإذا أخطأ فكأنّما أنت المخطئ، فهو لك «مِرآة» وعنك «صورة»! فلا تعامِلْـهُ إلاّ بـاللِّين، ولا تأخـذه إلّا بالرِّفق.

فإنْ لم تفعل مع أخيك ذلك، فإنّ هذا مِمّا يُضاعفُ مِن:

القاعدة السادسة عشرة: صراع المسلم وشيطانه.

عن عِياض بن حمَـار المُجاشِـعيّ ﵁ أن رسـولَ الله ﷺ قـال ذات يـومٍ في خُطْبَتِهِ: «**أَلاَ إنّ ربّي أمَرني أن أُعَلِّمكُم ما جهلتم، مِمَّا علَّمني يَومي هـذا، كـلُّ مـالٍ نَحَلْتُهُ عبداً حلالٌ، وإنّي خلَقـتُ عبـادي حُنَفـاءَ كُلَّهـم، وإنّهـمْ أَتَـتْهمُ الـشياطينُ فاجْتَالَتهُمْ عن دينِهم، وحرَّمتْ علَيهم ما أحللتُ لهمْ، وأمَرَتْهُم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِلْ به سُلطاناً، وإنّ اللهَ نظرَ إلى أهل الأرضِ فَمَقَتَهُم، عَرَبهمْ وعَجَمهم، إلّا بقايَـا منْ أهلِ الكِتابِ، وقال: إنّما بَعثْتُكَ لأبتَليكَ وأبتلي بك، وأنزلـتُ عليـكَ كِتابـاً لا يَغسِلهُ الماءُ، تقرؤُهُ نائماً ويَقظان، وإنّ اللهَ أمَرني أن أُحرِّقَ قُريـشاً، فقلـتُ: ربِّ! إذاً يَثْلَغُوا رأسي، فيَدَعوهُ خُبْزَةً، فقال: اسْتَخرِجْهُمْ كما استخرجُوك، واغزُهُم نُغْـزِكَ، وأَنفقْ فَسَيُنْفَقُ عليكَ، وابعثْ جيشاً نَبعث خَمسةً مثلَهُ، وقاتِـلْ بمـن أطاعـكَ مَـن عصاك، قال: وأهلُ الجنةِ ثلاثةٌ: ذو سُلطانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، ورجُـلٌ رحـيم رقيقُ القلبِ لكلِّ ذي قُربى ومسلمٍ، وعفيفٌ ومُتعفِّفٌ ذو عِيال.قال: وأهـلُ النـارِ خمسةٌ: الضّعيفُ الذي لا زَبْرَ له، الذينَ هم فيكم تَبَعـاً لا يَتْبَعُـونَ أهـلاً ولا مـالاً،**

والخائنُ الذي لا يَخفى له طمعٌ وإن دقَّ إلّا خانهُ، ورجُـلٌ لا يُـصبِحُ ولا يُمـسي إلّا وهو يخادِعُكَ عن أهلِكَ ومالِكَ. وذكَرَ البُخلَ أو الكذبَ والشِّنظيرَ الفحَّاشَ»[1]

وهو صراعٌ قديمٌ جداً، قديمٌ قِدَمَ خَلْـقِ الله سـبحانه آدَمَ عليه السلام، وقـصتُهُ مـع الشّيطان معروفةٌ.

وهذا الصِّراعُ إنّما يزدادُ أو يَقِلُّ بِقُرْبِ الإنسانِ من ربِّه أو بُعْدِهِ.

وانظُر لقولِهِ عليه السلام: «**إنّ الشّيطان قد أيِسَ أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التّحريش بينهم**»[2]

فليكن هذا لنا نذيراً، وضِدُّه بشيراً! فلا نَدَعَنَّ للشّيطان على قلوبنا -بأفعالنا- سبيلاً، لا كثيراً ولا قليلاً!! فإنّ تلبيساتهِ كثيرة، ومصايدُهُ وفيرة.

فكن منها -يا عبدَ الله- على حَذَرٍ، لا يصُدَّنك الشّيطانُ بأحابيلِهِ وألاعيبِهِ.

وحِصْنُكَ الحصينُ في بُعْدك عنه هو:

القاعدة السابعة عشر: ذكر الله.

عن النُّعْمان بن بَشير رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**الدُّعاءُ هـو العِبـادة. ثـم قــــرأ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر]»[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨١٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٧١)، وابن حبان (٨٨٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤) [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧)].

والدُّعاءُ رَأْسُ الذِّكر.

فَـذِكْرُ المـسلمِ رَبَّـه سـبحانه يجعلُـهُ في وقايـةٍ وأَمـانٍ، لا قِبَـلَ للـشّيطان بـه بَعْدَهما، فيمنعُهُ من خطايا عِدّة، وسـلبيّات متكـاثرة، مِنها مـا هـو في اللـسان أو الجوارح أو الجَنَان.

وعلى هذا فإنّ:

القاعدة الثامنة عشرة: المسلم لا غيبة عنده.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن حالَـتْ شـفاعَتُهُ دون حَـدٍّ من حُدُودِ الله؛ فقد ضَـادَّ اللهَ في أَمْـرِهِ، ومَـن مـاتَ وعليـه دَيْـنٌ؛ فَلَـيْسَ بالـدِّينار والدِّرْهَمِ، ولكن بالحَسَناتُ والسَّيِّئَاتُ، ومَن خاصَمَ في باطِلٍ -وهو يَعْلَمُهُ- لم يَزَلْ في سَخَطِ الله حتى يَنْزِعَ، ومَن قال في مُؤمِنٍ ما ليس فيـه أسْـكَنَهُ اللهُ رَدْغَـةَ الخَبَـالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمّا قالَ، وَلَيْسَ بِخارِجٍ**»[1]

فهـذا الوبـاءُ القَتَّـال: «الغيبـة»، حـالِقٌ للحـسنات، حـالق للأُخـوّة، حـالِقٌ لِلأجر والثّوابِ.

فالمسلمُ الحقُّ: لا يَغْتابُ، ولا يُغتَابُ عنده.

فليتّقِ اللهَ أُناسٌ لا تَنْبُتُ أجسامُهُم، ولا تتغذّى أرواحُهُم إلّا على التّقوُّلِ عـلى عبادِ الله، والافتراءِ عليهم، بِزَعْم أنّ في ذلك «مصلحة للدّعوة»!!

(١) صـحيح: أخرجـه أحمـد (٢/ ٧٠)، والحـاكم (٢/ ٣٢، ٣٣)، والبيهقـي في «الـشعب» (٦٧٣٥)، وفي «السنن» (٦/ ٨٢)، وأبو داود (٣٥٩٧)، [«صحيح الجامع» (٦١٩٦)].

عَجَباً! وأَيُّ مصلحةٍ للدّعوةِ تُجْتَنَى مِنَ البُهْتِ والغيبةِ، وذِكْرِ مساوىءِ الخَلْقِ؟

أَتَظُنُّ يا مَنْ تستغيبُ النّاسَ أنّك عن النَّقْصِ بعيدٌ؟

أَتَظُنُّ يا مَنْ ترى غيرك بعين النّقيصةِ أَنّك عن الزَّلَل بمعزلٍ؟

«... فَكُلُّكَ عوراتٌ ولِلنَّاسِ أَلْسُنُ»!

ومن الأُمور التي يجبُ أن تُعْرَف أنَّ:

القاعدة التاسعة عشرة: المسلم غير فضولي.

عن أَبِي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسلامِ المَرْءِ: تَرْكُـهُ ما لا يَعْنيهِ**»[1].

فهو يقفُ عند حدودهِ، لا يتعدّاها، ولا يتجاوزها، ويعلمُ أنّ فضولَه وسؤالَه عمّا لا ينبغي له: منهيٌّ عنه، غيرُ مرغوبٍ فيه، فهو يأتمرُ بأمر الله، وينتهي بنهيهِ، إذ:

القاعدة العشرون: أعماله كلها لله ومن أجله.

عن أَبِي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسـولُ الله ﷺ: «**مَـنْ أحـب للهِ، وأَبْغَـضَ للهِ، وأَعطى للهِ، ومَنَع للهِ، فقد استكمل الإيمان**»[2]

---

(١) **صـحيح**: أخرجـه الترمـذي (٢٣١٧)، وابـن ماجـه (٣٩٧٦)، وابـن حبـان (٢٢٩)، والطـبراني في «الأوسـط» (٣٥٩)، والبيهقـي في «الـشعب» (٤٩٨٧)، والقـضاعي في «مـسند الـشهاب» (١٩٢)، [«صحيح الجامع» (٥٩١١)].

(٢) **صـحيح**: أخرجـه أبـو داود (٤٦٨١)، والطـبراني في «الكبـير» (٨/ ١٣٤، ١٣٥)، وفي «الأوسـط» (٩٠٨٣)، وفي «مسند الشاميين» (١٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٦٩)، [«الصحيحة» (٣٨٠)].

وهذا الحديثُ: يُبَيِّنُ صورةَ المؤمن في تعامُلاتِه كُلِّها، وشؤونه كافّة، فهي كُلُّها لله، لا يجعل لغيره سبحانه نصيباً فيها.

وهو في هذا كُلِّه: بعيدٌ عن مصالحِهِ الشّخصيّة، وملاذِّه النّفسيّة، لا يبتغي مِن حُبِّهِ، وبُغْضِهِ، وعطائِهِ، ومَنْعِهِ، إلاّ رضا الله وجَنَّتَهُ، دون مناصب الدّنيا، وزخارف المال، وبهارج السُّمْعة!

وإن وَقَع مرةً في مثل ذلك، تاب وأناب، فـ:

القاعدة الحادية والعشرون: المسلم يتوب ويؤوب.

عن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ ومَثَلُ الإيمانِ كَمَثَلِ الفَرَسِ في آخِيَّتِه، يجولُ ثم يرجعُ إلى آخِيَّتِه، وإنّ المُؤْمِنَ يَسهو ثُمَّ يرجعُ إلى الإيمانِ، فأطعِموا طعامَكُمُ الأَتقياءَ، وولُّوا معروفَكم المُؤْمنين**»[1].

فلا يُصِرُّ على مَعصيّة، ولا يتهاون بإثْمٍ، بل هو - كسائر بني آدَمَ - خَطّاءٌ خَطّاءٌ! لكنّه رجّاعٌ إلى ربِّه بالتّوبةِ، عائدٌ إلى خالقهِ بالإنابة.

إذا عَرَ الكِبْرَ - وهذا عن الشّخصيّة الإسلاميّة غريبٌ - فلا يعرفُهُ على رَبِّه، وهو: العبدُ الضّعيفُ، وربُّه: قَيُّوم السماواتِ والأرضِ.

وما تقدّم يكشِفُ لنا بوضوحٍ عن:

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٥٥)، وابن حبان (٦١٥)، وأبو يعلى (١١٠٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٨٥)، وأبو نعيم (٨/ ١٩١)، [«الضعيفة» (٦٦٣٧)]. وقد حسّن الحديث الشيخ علي الحلبي في كتابه الأصل (أربعون حديثاً في الشخصية الإسلامية).

القاعدة الثانية والعشرون:مقومات شخصيته

عن أبي هُرَيرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خَصْلَتانِ لا تَجْتمعانِ في مُنافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، ولا فِقْهٌ في دينٍ**»[(١)].

فَسَمْتُهُ سَمْتُ الصّالحين، وَهَدْيُهُ هديُ عِبَادِ رَبِّ العالَمين، يَتَشَبَّهُ بالأتقياءِ، ويتمثَّلُ خُطى الأَصفياءِ.

قَلْبُهُ وقالَبُهُ سواء، ليس كبعض الضعفاء، يهتمُّ بمظهرِهِ! أَمَّا قَلْبُهُ فَخَواء!

وفِقْهُهُ فِقْهٌ عميق، نابعٌ مِن قَلْبٍ رقيق، ووعيٍ دقيق.

وَسَمْتُهُ ذاك، وَفِقْهُهُ هذا: لا يمنعانهِ مِن:

القاعدة الثالثة والعشرون: مداعبة جادة.

عن أبي هُرَيرة ﵁ قال: قالوا: يا رسولَ الله! إنَّك تُداعِبُنَا؟ قال: «**نَعَمْ، غيرَ أنّي لا أَقُولُ إلَّا حَقّاً**»[(٢)].

فليس للكذبِ نصيبٌ منها، وليس للبَهْتِ طريقٌ عليهِ، فَمُداعبتُهُ حَقٌّ، ومِزاحُهُ صِدْقٌ.

ولا يعني هذا الأمرُ أن يَقْضِيَ أوقاته كُلَّها في تلك المداعبةِ، وذاك المِزاح، لا، ولكنّه – في هذا وغيره – سائرٌ على خُطى الصّحابة –رضوانُ الله عليهم– فقد كان سبيلُهم في مِثل هذا:

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠١٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٧٣)، [«هداية الرواة» (٢١٦)].

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٦)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٤٨)، والبغوي (٣٦٠٢)، [«مختصر الشمائل» (٢٠٢)].

القاعدة الرابعة والعشرون: ساعة وساعة.

عن حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنه قال: لَقِيَنِي أبو بكرٍ فقال: كيف أنتَ يا حَنْظَلَةُ؟ قال: قلتُ: نَافَقَ حَنْظَلة! قال: سُبحان الله! ما تقولُ؟ قال: قلتُ: نكونُ عند رسولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالنَّارِ والجَنَّةِ حتى كأنَّا رَأيُ عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا مِن عِنْدِ رسولِ الله ﷺ عافَسْنَا الأَزواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ، نَسِينا كثيراً. قال أبو بكرٍ: فَوَالله إنَّا نَلْقى مِثلَ هذا.

فانْطَلَقْتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دَخَلْنَا على رسولِ الله ﷺ، قلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «**وما ذاك؟**» قلتُ: يا رسول الله! نكونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بالجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى كأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا مِن عِنْدِكَ، عافَسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ، نَسِينا كثيراً. فقال رسولُ الله ﷺ: «**والذي نَفْسِي بيدِهِ! إنْ لو تَدُومونَ على ما تَكونونَ عندي، وفي الذِّكْرِ. لَصَافَحَتْكُمُ الملائكَةُ على فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، ولكِنْ يا حَنْظَلَةُ!: ساعةً وساعةً**» ثلاث مرار [1].

وكلتا الساعتين مُنْضبطتانِ بِأَمرِ الله -كما قَدَّمتُ-: فَجَدُّهُ منوطٌ بالسُّنَّةِ والكتابِ، ومُداعبتُهُ مَصُونَةٌ مِن النَّهيِ، مَحْفُوفَةٌ بما لا يُخالِفُ شَرْعَ الله.

فلا يجعلُ مِن مُداعبتِهِ -متساهلاً- سبيلاً للإثمِ !

كيف يفعلُ ذلك وهو:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

القاعدة الخامسة والعشرون: لا يتهاون بالمعصية.

عن سَهْل بن سَعْد ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إيّاكم ومُحقَّراتِ الذُّنوبِ، فإنما مثل محَقَّراتِ الذنوب كمثل قومٍ نَزَلُوا بَطْنَ وادٍ، فجاءَ ذا بِعُودٍ، وجاءَ ذا بِعُودٍ، حتّى حملوا ما أَنضَجوا به خُبْزَهم، وإنَّ مُحَقِّرات الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذُ بها صاحِبُها تهْلِكُهُ**»[1]

كما قال الصّحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بن مسعودٍ ﷺ: (إنّ المؤمنَ يرى ذُنوبَه كأنّه قاعِدٌ تحتَ جَبَلٍ يخافُ أنْ يَقَعَ عليهِ، وإنّ الفاجرَ يرى ذنوبَه كَذُبَابٍ مَرَّ على أنفهِ، فقال به هكذا).

قال أحدُ الرواة: بيدِهِ فوق أَنفهِ[2].

فالمراد: أنّ المسلمَ يعرف عظمةَ رَبِّه سبحانَه، وجَبَروتَه، وقهرَه، فلا يَنْظُرُ إلى الذّنبِ مِن جهةِ صِغَره وكِبَرِه!! لا، إنّما ينظُرُ إلى الذّنبِ مِن جهةِ مَن يَعْصيهِ سبحانه!

فالذّنوبُ التي لا يَلتَفِتُ إليها ضعافُ القلوبِ، هي التي قَتَلَتْهُم بِذَهاب الإيمان مِن قلوبِهِم، والتّقوى مِن صُدورِهم!

فإذا تقالَّ العبدُ الذنبَ والمعصيةَ كان ظالماً لنفسِهِ، وهذا ينبغي أن لا يكونَ، إذ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٥، ١٦٦)، وفي «الأوسط» (٧٣٢٣)، و «الصغير» (٩٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٦٧)، [«صحيح الجامع» (٢٦٨٦)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

القاعدة السادسة والعشرون: المسلم لا يظلم

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإِنَّ الظَّلْمَ ظُلُمَاتٌ يومَ القِيَامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَن كان قَبْلَكم، حملَهم على أَنْ سَفَكوا دماءَهم، واسْتَحَلُّوا محارِمهم**»(١).

والظُّلم ظُلمان: ظُلم العَبْدِ نفسه، وظُلم العَبْدِ غيْرَهُ.

وكلاهما حَرَامٌ في شَرْعِ الله سبحانه، فَظُلْمُ العبدِ نفسه يجعله في إِلفٍ قويٍّ مع المعاصي بمقارفتها، ومع الطاعاتِ بانتهاكها.

وأمّا ظُلْمُهُ لغيره: فَبِتَعَدِّيهِ على حُقوقهِ، وَبِجَورهِ عن القَصْدِ في تعامُلِهِ معه، وبتنقيص قَدْرِه ليرفَعَ نفسه!

وأيُّ ظُلمٍ أعظمُ من هذا إلاّ الشّرك، عياذاً بالله؟

والظُّلْمُ مِفْتاح المعاصي، فإنْ لم يَظْلِم رقَّ قَلْبُهُ، وعَظُمَ يَقينُه، وإلّا فالمعاصي ستنوشُهُ، والآثامُ سَتَدْهَمُهُ.

وسيكون لسانُهُ ثعباناً لاسِعاً فيه السُّمُّ والأذى، فيه البهيتةُ والافتراءُ، فيه الحِقْدُ والحَسَدُ.

والمسلم الحَقُّ: بعيدٌ عن كلِّ هذا، وبالتالي فهو:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

القاعدة السابعة والعشرون: لا نميمة عنده.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أَتدرون ما العَضْهُ؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ قال: «**نقلُ الحديثِ من بَعْضِ النّاس إلى بَعضٍ لِيُفْسِدُوا بيْنَهم**»[(١)].

إذِ النّميمةُ مَرَضٌ خبيثٌ، إذا دَاخَلَ القَلْبَ أَفْسَده، وإذا فَسَدَ القَلبُ فَسَدتِ الجَوَارِحُ وبَطُلَتِ الأَعمالُ.

وكمِ مِن النَّاسِ -اليوم- يُزَيِّنُ له شيطانُهُ سوءَ عملِهِ، فيراه حسناً لا شِيَةَ فيه!؟

وكم من أَحَدٍ -اليومَ- يظنُّ النّميمةَ خيراً يُسْدِيه!؟ وعملاً صالحاً يُؤَدِّيه!؟

إِنَّ هؤلاءِ النَّفَر الّذين يَمْشُونَ بين عِبَادِ الله سبحانه بالدَّسِّ والتَّزْويرِ، وإغواءِ القلوبِ: ينبغي على الصادقين من المسلمين ألاّ يجعلوا لهم بينهم موضعاً، فيُعْرِضُوا عنهم! ويبتعدوا منهم! وهذا أَقَلُّ جزاءٍ يُمكن أن يجازى به هؤلاء!

وَمَرَضُ النّميمةِ هذا لا يسري إلاّ في قلوبٍ أُشْرِبَ حبُّ الدّنيا فيها، فركبوا الدّينَ مَطِيّةً للدَّنِيَّةِ، عِياذاً بالله!

أمَّا المسلمُ الرَّبَّانيُّ الصّادقُ فـ:

القاعدة الثامنة والعشرون: لا تعلّق بالدّنيا عنده.

عَن سَهْل بن سَعْد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أَتاني جبريلُ فقالَ: يا مُحَمَّدُ! عِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفارِقُهُ، واعْمَلْ ما شِئتَ فَإِنَكَ مَجْزِيٌ به، واعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤمِنِ قِيَامُهُ باللَّيْلِ، وعِزَّهُ استغناؤُه عن النَّاس**»[(٢)].

---

(١) **حسن**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٢٥)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٤٦، ٢٤٧)، وفي «الشعب» (١١١٠٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣٩٣)، [«الصحيحة» (٨٤٥)].

(٢) **حسن**: أخرجه الحاكم (٤/ ٣٦٠، ٣٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨)، وأبو نعيم (٣/ ٢٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٦)، [«الصحيحة» (٨٣١)].

فالمُتعلِّقُ بالدنيا: خفيفُ الدّينِ، رقيقُ العَقْلِ، لا يعرف أَنَّ الدُّنيا عند مَن لا دين عنده: سبيلُ الدَّنِيَّة! وطريقُ الرذيلة ومفتاح المنكرات.

والمسلم في صدقِهِ مع ربِّهِ ومع نفسهِ ومع إخوانه: يؤدِّي المثل الأعظم لمن يلهثُ وراءَ الدُّنيا لدراهم يجْنِيها، أو دنانيرَ يَقْتنيها، يُعَلِّمُهُ أَنْ ليس مِن وَراءِ ذلك خَيْرٌ، وإنَّما الخيْرُ في جَعْلِ الدّنيا وسيلةً لِرفعَةِ الدّينِ، وإخلاص القلوب.

ولا يكون هذا وذاك إلا بـ:

القاعدة التاسعة والعشرون: الزهد.

عَن أبي أُمامةَ إياس بن ثَعْلَبَة رضي الله عنه قال: ذَكَرَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ يوماً عنده الدُّنيا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ألا تَسْمَعُونَ، ألا تَسْمَعُونَ!! إِنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإيمان، إِنَّ البَذَاذة من الإيمان**»[1].

وهو -أي الزّهدُ- التّقلُّل من الدّنيا، وإظهارُ الفقر لله، وخَفضُ الجناح للمؤمنين عباد الله، وعدمُ التّوسُّع في الملبوسِ والمأكولِ والمشروبِ، والبُعْدُ عن الشُّهرة.

وليس يعني الزّهدُ جحْدَ النِّعم التي يعطيها الله سبحانه لبعض عباده، وإنّما هو -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]- «البُعْدُ عَمَّا لا ينفعُ، إمّا لانتفاءِ نَفْعِه، أو لكونه مَرْجُوحَاً، لأنه مُفَوِّتٌ لِمَا هو أنفع منه، أو مُحَصِّلٌ لما يَرْبُو ضَرَرُهُ على نَفْعِهِ، وأمّا المنافعُ الخالصةُ أو الرّاجحة، فالزُّهْدُ فيها حمقٌ».

(١) حسن لغيره: أخرجه أبو داود (٤١٦١)، والبهيقي في «الشعب» (٦٤٧٠)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠٧٤)].

(٢) في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٥).

فحينئذٍ لا زُهْدَ في:

القاعدة الثلاثون: أعمال الخير.

عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كُلُّ سُلامى مِن النَّاسِ عليهِ صَدَقةٌ، كُلُّ يومٍ تَطْلُعُ فيه الشمسُ: يعدلُ بين الاثنين صَدَقةٌ، ويُعينُ الرّجلَ على دابَّتهِ فيَحْمل عليها أو يرفعُ عليها متَاعَهُ صَدَقةٌ، والكلمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقةُ، وكُلُّ خُطوةٍ يخطوها إلى الصلاةِ صَدَقةٌ، ويميطُ الأذى عن الطّريق صَدَقةٌ**»[1]

فإذا استطاعَ العبدُ أن يجعل. أيامه كُلَّها، ولياليه جميعاً في طاعةِ اللهِ ورضوانِه: فَلْيَفْعَل!

ولا يُزَيِّنَنَّ له الشّيطانُ بجَعْلِهِ زاهداً في أَعْمالِ الخيرِ!! لا، فهذا ليس زُهْداً – كما قال شيخ الإسلام – إنّما هو تلبيسٌ شيطانيٌّ لا يَلِجُ به الشَّيطانُ إلاّ على من ضَعُفَ دينُهُ، وهَبَطَ يقينُهُ، فتجدُهُ جاثماً على قلبِهِ، ناصباً عرشَهُ عليهِ!

فَكُلَّمَا أَكثر الإنسان المسلمُ من أعمالِ الخيرِ: كُلَّما ازداد من الله سبحانه قُرْباً، وبه مَحَبَّةً.

وإنْ كان الزُّهْدُ ينبغي أن يكون في الأغنياءِ أكثر لِيُسْرِ يَدِهم، وسَعَةِ مالهم – بعكس الفقير – لكنَّ هذا لا يمنعُ المسلمَ غنيّاً كان أو فقيراً، من عِفَّةِ النَّفسِ وغناها، فإنّ:

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

القاعدة الحادية والثلاثون: المسلم قانع عفيف.

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١)

فأعظم غِنىً لك يا عبدَ الله: هو غِنى نفسك، وقناعةُ قلبك، ولا يتمُّ لك هذا إلاّ بالتّضرعِ إلى اللهِ سبحانه، ودُعائه والتّوكُّلِ عليه.

فمن كانت نفسُهُ قانِعَةً غَنِيَّةً ازدادَ:

القاعدة الثانية والثلاثون: حرصه على دينه.

عن كعب بن مالك الأنصاريّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما ذئبانِ جائِعَانِ أُرسِلا في غَنَمٍ بأفْسَدَ لها مِنْ حِرْصِ المَرْءِ على المالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(٢)

«فهذا مثلٌ عظيمٌ جداً، ضَرَبه النّبيُّ ﷺ لفساد دين المسلم، بالحرص على المالِ والشَّرف في الدنيا، وأنّ فساد الدنيا بذلك ليس بدون فساد الغَنَم بِذِئْبَيْنِ ضارِيَيْنِ باتا في الغنم، قد غاب عنها رِعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

ومعلومٌ أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين -والحالةُ هذه- إلاّ قليلٌ، فأخبر النّبيُّ ﷺ أنّ حِرْصَ المرءِ على المالِ والشَّرَفِ إفسادٌ لدينِهِ، ليس بأقلَّ مِن إفساد الذئبينِ لهذه الغنم، بل إمّا أن يكون مساوياً وإمّا أكثر، يُشيرُ إلى أنّه

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (٣/ ٤٥٦)، والدارمي (٢٧٣٢)، وابن حبان (٣٢١٨)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٧١٠)].

لا يَسْلَمُ مِن دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنّه لا يَسْلَمُ مِن الغنم مع إفسادِ الذئبينِ المذكورين فيها إلاّ القليلُ»[١].

فمن أراد النجاةَ فليكن حِرْصُهُ على دينه هو الأساس، فحينئذٍ يحفظُهُ اللهُ، ويحفظُ عليه دينه.

• ومن الأمورِ الكُلِّيَةِ التي ينبغي معرفتها:

القاعدة الثالثة والثلاثون:طريقة المسلم في التعامل.

عن عائشةَ رضي الله عنها: أَنّ رجلاً اسْتأْذَنَ على النّبيِّ ﷺ فقال: «**ائذَنوا له، فَلَبِئْسَ ابنُ العَشِيرة، أو بِئْسَ رجُلُ العَشِيرة**» فَلَمَّا دَخَلَ عليه أَلَانَ له القول، قالتْ عائشةُ: فقلتُ: يا رسولَ الله! قُلْتَ له الذي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ له القولَ؟ قال ﷺ: «**يا عائشةُ! إِنَّ شَرَّ النَّاسَ منزلةً عند الله يومَ القيامةِ من وَدَعَهُ -أو تَرَكَهُ- النَّاسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ**»[٢]

فَيُعامِلُ الصّديق الحميمَ معاملةَ الحبيبِ الودودِ..

ويُعامِلُ العَدُوَّ الظَّاهر معاملة المحترس المتيقظ..

ويُعاملُ شَرَّ النّاسِ معاملةً لا تظهر مكنون قلبه عليه..

وهكذا: كلٌّ بحسبِه، وهذا من فِقْهِ الدّعوةِ، وتدابير معاملة النّاس على اختلافِ مشاربهم، وتَنَوُّعِ أخلاقهم!

(١) ما بين القوسين من «شرح ابن رجب لهذا الحديث» (ص١٠-١١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١) واللفظ له.

وليس بخافٍ أَنَّ من أفضل ما تُوثَّقُ به العلائق، وتُحَسَّنُ به الصلاتُ هو:

القاعدة الرابعة والثلاثون: زيارة الإخوان.

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أَنَّ رجُلاً زَارَ أَخَاً له في قَرْيَةٍ أخرى، فَأَرْصَدَ اللهُ له على مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً، فَلَمَّا أَتى عليه قال: أين تُريدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخَاً لي في هذهِ القَرْيَةِ، قال: هَلْ لك عليه مِن نعمةٍ تَرُبُّها؟ قال: لَا،غير أَنِّي أَحببتُهُ في الله عزوجل، قال: فإِنِّي رسولُ الله إليكَ: بأَنَّ اللهَ قد أَحَبَّكَ كما أَحْبَبْتَهُ فيه**»[1].

فالأمرُ كما قِيلَ: (البُعْدُ جَفَاءٌ)، فبالزّيارةِ تنجلي القلوبُ، وتتقاربُ الأَفئدة، وبها يُحِبُّ اللهُ سبحانه عبادَه، فَيَعُمُّ الخَيْرُ عبادَ الله، فتشملُهُم رحمتُهُ، ويُدْخِلُهُم جَنَّتَه.

وليس هذا بِمُمْكِنٍ حصولُه إلّا إذا كانَ الدافعُ إليهِ:

القاعدة الخامسة والثلاثون: خلق المسلم

عن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أثقلُ في الميزانِ مِن حُسْنِ الخُلُقِ**»[2].

فالمسلمُ بِخُلُقِهِ: يَقْلِبُ العدوَّ صديقاً، والمخالفُ رفيقاً، والشّديدَ رقيقاً.

وحُسْنُ الخُلُقِ سِلْعَةٌ شِبْهُ نادِرَةٍ في دنيا النّاسِ -اليومَ- إلّا في أسواق المُوَحِّدين المُخْلصين، الصّادقين في عبادتهم ربَّ العالَمين.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي(٢٠٠٢)، وأحمد (٦/ ٤٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٠٣)، وعبد بن حُميد (٢٠٤)، [«صحيح أبي داود» (٤٠١٤)].

وهذا الخُلُق الحَسَن يُهَذِّبُ النَّفْسَ فيجعل:

القاعدة السادسة والثلاثون: المسلم يعرف قدر نفسه.

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**سَيَأْتي على النَّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصَّادِقُ، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأَمين، ويَنطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ» قيلَ: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: «الرَّجل التَّافِهُ يتكلَّمُ في أمرِ العامّة**»[1].

فَبِمَعْرِفَتِهِ قَدْرَ نفسهِ تُوضَعُ الأُمورُ في نِصابِهَا، ولا يَفْتَئِتُ أحدٌ على أحدٍ.

وكما قال ابنُ حزم رحمه الله: (لا آفةَ على العلومِ وأهلِها أَضَرُّ مِن الدُّخَلاءِ فيها، وهم مِن غيرِ أهلها، فَإِنّهم يجهلون، ويظنُّونَ أنّهم يعلمون، ويُفْسِدونَ، ويُقَدِّرون أنّهم يُصلحون)[2].

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قال:

تصدّر للتدريس كُلُّ مَهوَّس	بليدٍ ويُدْعى بالفقيه المُدَرِّسِ
فَحُقَّ لأهلِ العلمِ أن يتمثَّلوا	ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كُلِّ مَجْلِسِ
لقد هَزُلَتْ حتّى بَدا من هُزالها	كُلاها، وحتّى سامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

فنعوذُ باللهِ مِن نفسٍ شامخةٍ شموخَ الجبالِ، وهي عندَ الله لا تَسْوى بِذْرَةً! وعند أهلِ العلمِ وطلبتِهِ ضعيفةٌ هابطةٌ.

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، والحاكم (٤/ ٥١٢)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٦٧)، والبزار «كشف الأستار» (٣٣٧٣)، [«الصحيحة» (١٨٨٧)].

(٢) ذكره العلّامة الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في كتابه الفريد «التعالم وأثره على الفكر والكتاب» (ص٧).

وكما قِيلَ: «لو سَكَتَ مَن لا يعلمُ لَسَقَطَ الخلاف».

ومِفتاحُ هذا كُلِّه: معرفةُ أَقدارِ النُّفوسِ، وعدمُ التَّعَدِّي عليها بالتَّعَدِّي عليها(!) وبالله التوفيق.

فإذا عَرَفَ العبدُ الطّائعُ ذلك، وَجَبَ عليه أن:

القاعدة السابعة والثلاثون:يرجو ربه لنفسه ولإخوانه.

عن جُنْدَب ﷺ أن رسولَ الله ﷺ حدَّثَ: «**أَنَّ رَجلاً قال: والله لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، وإِنَّ اللهَ تعالى قال: مَن ذا الّذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قد غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[1].

وهذا الأَمْرُ أيضاً دافِعُهُ معرفةُ أقدارِ النُّفوسِ، فإِنَّ مسألة الكفر والإيمان، والثّواب والعقاب هي من الأُمورِ التي اختصَّ اللهُ سبحانه بها نفسَه.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في «عقيدته»:

(ولا نشهدُ عليهم بكفرٍ ولا بِشِرْكٍ ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيءٌ مِنْ ذلك، ونَذَرُ سرائرَهم إلى الله تعالى).

فقال الشارحُ:[2] (لِأَنّا قد أُمِرْنَا بالحُكْمِ بالظّاهرِ، ونُهينا عَن الظَّنِّ واتِّباعِ ما ليس لنا به عِلْمٌ... قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٧٩).

فالمسلمُ الصّادقُ: يرجو ربَّه لِنَفْسِهِ، ويستغفرُهُ سبحانه لإِخوانه، كما قال الطحاويُّ[١] أيضاً: (ونرجو للمحسنينَ مِنَ المؤمنينَ أن يَعْفُوَ عنهم ويُدخِلَهم الجَنَّةَ، برحمتِهِ، ولا نَأْمَنُ عليهم، ولا نَشهدُ لهم بالجَنَّةِ، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نُقَنِّطُهُم).

ولا يَمْنَعَنَّ هذا الخوفُ وذلك الرَّجاءُ المسلِمَ - مَعَ إِخوانِهِ - مِنْ القِيَامِ بما أمرَهُ اللهُ به مِنْ:

القاعدة الثامنة والثلاثون:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عن أبي سعيدِ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً، فكان من خُطْبَتِهِ أَنْ قال: «**أَلَا إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبُ، فَيَلِيَكُمْ عُمَّالٌ مِن بعدي، يقولونَ ما يَعْمَلُونَ، ويَعْمَلُونَ بما يَعرِفُونَ، وطاعَةُ أولئك طاعةٌ، فتلبثونَ كذلك دَهراً، ثُمَّ يَلِيكُم عُمَّالٌ مِن بَعْدِهم يقولون ما لا يَعْلَمُونَ، ويَعْمَلُونَ ما لا يَعْرِفُونَ، فَمَن ناصَحَهُمْ ووازَرَهُمْ أو شَدَّ على أَعْضَادِهِمْ، فَأُولئكَ قد هَلَكُوا وأَهْلَكُوا، خالِطوهم بأجسادِكم، وزايِلوهُمْ بأَعمالِكُمْ، واشْهَدُوا على المُحْسِنِ بأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وعلى المُسِيءِ بأَنَّهُ مُسِيءٌ**»[٢].

وهو عامٌّ في النّاسِ جميعاً: حُكَّاماً ومحكومين، أَحباباً وأَعداءً، فلا تمنعُهُ مِنْهُ هَيْبَةٌ، ولا تَحجبُهُ عَنْهُ رِفْقَةٌ، بل يُؤدِّي هذا الواجب دونما خوفٍ أو وَجَلٍ إِلّا مِنَ اللهَ سبحانه.

---

(١) (ص ٣٢٥- مع الشرح).

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٨٨)، [«الصحيحة» (٤٥٧)].

ولقد قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**ما مِنْ قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي هم أكثر وأَعَزُّ مِمَّنْ يعملُ بها، ثُمَّ لا يَغيِّرُونَه، إلّا يوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابٍ**»[1].

وتأمَّلْ -رحمك اللهُ- قولَه ﷺ في هذا الحديثِ: «**هم أعزُّ مِمَّن يعملُها**» ففيه لفتةٌ غاليةٌ إلى قضيَّةِ الاستطاعةِ في إنكار المنكر، وأنَّهُ مَنوطٌ بها، لكنْ: على درجاتٍ، لا درجةٍ واحدةٍ.

والمسلمُ في تذكيره لإخوانه، وأمره لهم بالمعروف، ونهيه إيّاهم عن المنكر:

القاعدة التاسعة والثلاثون: حَذِرٌ من الخلاف.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ الشّيطانَ قد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلَّون في جزيرةِ العَرَبِ، ولكنْ في التَّحريشِ بينَهم**»[2].

فَرُبَّ كلمةٍ يُطْلِقُها مَن لا يدري. يُفْلِتُ فيها لسانَه على عبدٍ من عبادِ الله تُشْعِلُ ناراً مُتَأَجِّجَةَ في قلوبِ الإخوةِ، فَتُفْسِدُ المَحَبَّةَ، وتُذْهِبُ المَوَدَّةَ.

وهذا هو أعزُّ ما يُريده الشّيطان، فَبِهِ يُسَرُّ، وإليه يفرحُ!

وهذا الذي أشرتُ إليه واقعٌ لا رَيْبَ، حاصِلٌ لا مَحالةَ، وهو يؤدّي إلى شَرٍّ مُستطيرٍ، وخَطَرٍ جَسيمٍ!

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٩)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، وابن حبان (٣٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٣٢)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٩١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٧٤)، [«الصحيحة» (٣٣٥٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨١٢).

وإذَ الأمرُ كذلك، فما هو:

القاعدة الأربعون: المخرج من فتن الناس.

عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كيف أنتمُ إذا لبستكم فِتْنَةٌ، يهرم فيها الكبيرُ ويربو فيها الصّغير، إذا تُرِكَ منها شيءٌ قِيلَ: تُرِكَتِ السُّنَّةُ) قالوا: ومتى ذاك؟ قال: (إذا ذَهَبَتْ عُلماؤكم، وكَثُرَتْ جُهلاؤكم، وكَثُرت قُرَّاؤُكم، وقَلَّتْ فُقَهاؤُكم، وكَثُرَت أُمَراؤُكم، وقَلَّتْ أُمَنَاؤُكم، والْتُمِسَتِ الدّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وتُفُقِّهَ لغير الدّين)[1].

إنَّ المَخْرَجَ هو القُدْوة! نعم، إنَّ الإقتداءَ برسولِ الله ﷺ لهوَ أَعظمُ مخرجٍ مِنَ الفِتَنِ المُحيطَةِ بنا، وأعظَمُ مِشْعَلٍ يَهْدينا في ظُلماتِ الجَهْلِ المُدْلَهِمَّة.

فبمعرفةِ سُنَّتِهِ ﷺ: يَنكشفُ البُهرجُ، ويَنفضحُ الزَّغَلُ، وترجعُ الأمورُ إلى مواضِعِها، وتَتَّضِحُ المعالمُ المخفيَّة.

فلا مجالَ لمتعالمٍ، ولا موضعَ لحسودٍ، ولا محلَّ لجَريءٍ، ولا كلامَ لمُتَشَدِّقٍ.

فَالسُّنَّةُ نورٌ يهدي، فمن عَلِمَها: فقد حَصَّلَ خيراً كثيراً، ومِنْ جَهِلَهَا: أدرك شَرَّاً وفيراً.

فاللهَ اللهَ -عبادَ الله-، تَعلَّمُوا، واعمُلوا، واتَّقُوا اللهَ لعلَّكم تُرحَمُون.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي (١٩٢) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٥٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦٩٥١)، وعبد الرزاق (١١/ ٣٥٩، ٣٦٠)، واللالكائي (١٢٣)، [«تحريم آلات الطرب» (ص١٦)] وقال عنه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى هو موقوف في حكم المرفوع.

٦

الباب السادس

فقه الدعوة إلى الله

فقه الدعوة إلى الله[١]

• معشر الدعاة إلى الله! كلامنا في فقه الدعوة إلى الله سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأولى: الدعوة لغةً واصطلاحاً.

العنصر الثاني: فضلُ الدعوة إلى الله.

العنصر الثالث: حكمُ الدعوة إلى الله.

العنصر الأول: الدعوةُ لغةً واصطلاحاً:

الدعوةُ لغةً: مأخوذةٌ من الدُّعاءِ، وهو النداءُ لجمع الناس على أمرٍ ما، وحثِّهم على العمل له، فإذا كانت الدعوةُ إلى التوحيد والسنةِ والجنةِ فهي دعوة إلى هدى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة]، والنبي ﷺ دعا الأمة إلى توحيد الله وطاعته. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب]، وإذا كانت إلى الشرك والبدعة والنار فهي دعوة إلى ضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر].

---

(١) عشر محاضرات ألقيتها في دورة مركز الإمام الألباني. الأردن/ عمان/ مسجد إبراهيم الحاج حسن (٦) من ربيع الثاني ١٤٢٩هـ الموافق ١٢/ ٤/ ٢٠٠٨م ولمدة أسبوعين، جمعتها متتالية لأهمية مضمونها ومسيس الحاجة إليه.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص].

وقال ﷺ في حديث حذيفة ﵁: «**دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»[(١)].

وقال ﷺ: «**من دعا إلى هُدىً، كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقصُ ذلك من أجُورِهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعهُ، لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئاً**»[(٢)].

والدعوة اصطلاحاً هي: دعوةُ الناسِ إلى الإسلام بالقولِ والعملِ[(٣)].

وقالوا: هي جمعُ الناس على الخير ودلالتُهم على الرشدِ، بأمرهم بالمعروفِ ونهيهم عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

فالدعوةُ في اللغة تكونُ إلى هدى أو ضلال، أما في الشرع فلا تكونُ إلا إلى هدى.

العنصر الثاني: فضل الدعوة إلى الله:

الدعوةُ إلى الله تعالى على بصيرةٍ أجرُها عظيم، وفضلُها كبير، وهي سببٌ للسعادة في الدنيا والآخرة. وانطلاقاً من قوله ﷺ: «**الدّالُ على الخير كفاعله**»[(٤)]،

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١١/ ٥٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه البزار «البحر الزخار» (١٧٤٢)، وفي «كشف الأستار» (١٥٤)، والترمذي (٢٦٧٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٥٤٥)، وأبو عوانة (٥٩٦٢)، [«صحيح الجامع» (٣٣٩٩)].

فها أنا أُذكرُ نفسي وإخواني بفضل الدعوة إلى الله تعالى، سائلاً المولى في علاه أن يجعلني وإياكم من الدعاة إلى الله على بصيرة.

فضائلُ الدعوةِ إلى الله على بصيرة كثيرةٌ جداً منها:

أولاً: أنها من أحسن الأقوال والأعمال، ومن أجل القُربات إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. أي: لا أحد أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله.

ومعنى ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: وهو في نفسه مهتدٍ بما يقوله، فنفعُه لنفسه ولغيره لازمٌ ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشرّ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير[1].

فعن الحسن البصري رحمه الله أنه تلا هذه الآية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خيرةُ الله، هذا أحبُّ أهلِ الأرضِ إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٠١).

ثانياً: الدعوةُ إلى الله عملُ الأنبياء والمرسلين، فمن قام بها من بعدهم كان متأسياً بهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

فهذا نوحٌ عليه السلام دعا قومهُ ألف سنة إلا خمسين عاماً قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت].

وانظروا إلى نوح عليه السلام وهو يخبرنا عن دعوته لقومه كما أخبرنا ربنا جل وعلا بها في كتابه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾[نوح].

وهذا شعيبٌ عليه السلام يدعو قومه.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود].

وهذا رسولنا ﷺ الذي قال الله عز وجل له: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[الأحزاب]. وقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٦٧].

إذن فالدعوةُ إلى الله على بصيرة وظيفةُ المصْطَفَيْنَ الأخيار من النبيين وأتباعهم من المؤمنين.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق الحديث عن قوله تعالى ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾: (إن الله سبحانه أمر رسولَهُ أن يُخبرَ أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ وهو على بصيرةٍ، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه، فالدعوةُ إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاءُ الرسلِ في أُممهم، والناسُ تبعٌ لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغَ ما أُنزل إليه من ربه، وضمن له حفظهُ وعصمتهُ من الناس، وهؤلاء المبلغون عنه من أمته، لهم من حفظِ الله وعصمته إياهم، بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أَمرَ النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آيةً، ودعا لمن بلغ عنهُ ولو حديثاً، وتبليغ سُنتهِ إلى الأمةِ أفضلُ من تبليغ السهامِ إلى نحور العدو؛ لأن تبليغ السهامِ يفعلهُ كثيرٌ من الناس، وأما تبليغ السُنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أُممهم، جعلنا الله منهم بمنهِ وكرمه)[1].

(١) «التفسير القيم لابن القيم» (٤٣١).

ثالثاً: الدعوةُ إلى الله على بصيرةٍ من أَجَلِّ صفات المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة].

فالمؤمنون الصادقون يتنافسون في الدعوة إلى الله على بصيرة؛ لأن فيها فلاحَ الدنيا والآخرة، وفيها الأجرُ العظيم من رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال ﷺ: «**من دلَّ على خير فلهُ مِثلُ أجرِ فاعلِهِ**»(١). وقال ﷺ: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مِثلُ أُجورِ من تبعه، لا ينقصُ ذلك من أُجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مِثلُ آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(٢).

ويوم خيبر أعطى النبي ﷺ الراية لعليٍّ وقال له: «**انفُذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرُ النّعَم**»(٣).

فتصور أيها المسلم عظم الأجر الذي ستناله إذا كنت داعياً إلى الله تعالى، تخيل إذا هدى الله على يديك مائة أو ألفاً كم يأتيك من الأجر؟ وكيف لو هدى الله على

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٩٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

يديك ملايين؟ فهنيئاً لك أيها الداعي! هذا الخيرُ العظيم، والعجيب أن تنشغل أيها المسلم عن الدعوة إلى الله وتترك هذا الخير العظيم؟! أما علمت أنك حين تقوم بالدعوة إلى الله تنام ويأتيك الأجر، وتموت ويأتيك الأجر؟! أفلا يحملك هذا الفضلُ العظيم على ألا تدخر وسعاً ولا تألو جهداً إلا بذلته في الدعوة؟ ألا يحملك هذا الفضل العظيم أن تدعو الناس سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، طمعاً في هذا الأجر العظيم الذي هو خيرٌ لك من الدنيا وما فيها؟ أنسيت قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس] -وأي: فضل عليك أعظم من أن يصطفيكَ الله، ويجتبيك للعمل في الدعوة إليه؟!

أما تعلم أن هذا العمل عملُ المرسلين الذين اصطفاهم الله من خلقه، وعملُ المصطفين من أتباعهم؟ فكما اصطفى الله الأنبياء من جملة الخلق للقيام بواجب الدعوة إليه، اصطفى سبحانه من جملة الأتباع من يقوم بهذا الواجب أيضاً.

إنك والله لو عقِلْتَ ذلك لبكيتَ على عدم كونك من الدعاة، لأنك لست من المصطفين، وتذكر أن النبي ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[1]، يُفهم من هذا أن من لم يتفقه في الدين، لم يرد الله به خيراً، فكيف بمن تفقه في الدين وفقه الناس فيه؟ كيف بمن تعلم وعلّم؟ ذلك والله هو المغبوط حقاً، كما قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسُلِّطَ على هلكتهِ في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها**»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)، وانظر: «محاضرات في الدعوة والدعاة» (ص٦، ٧)، لشيخي عبد العظيم بدوي حفظه الله.

ونضعُ بين أيديكم فيما يلي أمثلةً في الدعوة إلى الله على بصيرة لأفضل الدعاة بعد الأنبياء، ألا وهم الصحابة ﷺ.

١- أبو هريرة ﷺ.

عن أبي هريرة ﷺ قال: (كُنتُ أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركةٌ، فدعوتُها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسول الله! إني كنتُ أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتُها اليومَ فأسمعتني فيكَ ما أكرهُ، فادعُ الله أن يهديَ أُمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم! اهدِ أُمَّ أبي هريرة**» فخرجت مستبشراً بدعوةِ نبي الله ﷺ، فلما جئتُ فصِرتُ إلى الباب، فإذا هو مُجافٍ، فسَمِعَتْ أُمي خشِفَ قدمَيَّ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة! وسَمِعْتُ خضخضة الماء، قال: فاغتسلتْ ولبستْ دِرعها، وعجِلتْ عن خِمارِها، ففتحتِ الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسولهُ، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأتيتهُ وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله! أبشر! قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال خيراً.

قال: قلت: يا رسول الله! ادعُ الله أن يُحببني أنا وأُمي إلى عبادهِ المؤمنين، ويُحببَهُم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم! حبب عُبيدَك هذا**-يعني أبا هريرة- **وأُمَّهُ إلى عِبادكَ المؤمنين، وحببْ إليهم المؤمنين**» فما خُلِقَ مؤمنٌ يسمعُ بي، ولا يراني إلا أحبني)[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٤٩١).

٢-مصعب بن عمير رضي الله عنه .

عن ابن شهاب قال: (لما بايع أهلُ العقبة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثهُ الله به، وتلا عليهمُ القرآن، بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ ابن عفراء، ورافعَ بن مالكٍ، أن ابعث إلينا رجلاً من قِبَلِكَ فليَدْعُ الناسَ بكتاب الله؛ فإنه قَمِنٌ -أي: حقيقٌ- أن يُتّبعَ. فبعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعبَ بن عُمير أخا بني عبدالدار، فلم يزل عِندهم يدعو آمناً، ويهديهم الله على يديه، حتى قلّ دارٌ من دُورِ الأنصار إلا وقد أسلم أشرافُهُم، وأسلم عمرو بنُ الجموحِ، وكُسِّرَتْ أصنامُهُم، وكان المسلمون أعزّ أهل المدينة)[1].

٣- أم سُلَيم رضي الله عنها .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (خطب أبو طلحة أُمَّ سُلَيْم، فقالت: والله ما مِثلُكَ يا أبا طلحة يُرَدُّ، ولكنكَ رجلٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يحلُّ لي أن أتزوجكَ، فإن تُسلم فذاك مهري وما أسألُكَ غيره. فأسلم فكان ذلك مهرها)[2].

رابعاً: الدعوةُ إلى الله سببٌ للنصر والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

خامساً: الدعوة إلى الله سببٌ لنزول الرحمة من الله على العباد.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٣٤١)، وابن حبان (٧١٤٣)، [«صحيح النسائي» (٣١٣٣)].

سادساً: الدعوةُ إلى الله تنجي الأمة من لعنة الله.

كما لعن الله بني إسرائيل، وَطردهم من رحمتِهِ، وغضب عليهم عندما تركوا الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة].

سابعاً: الدعوةُ إلى الله تنجي من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر؛ أو ليُوشكن الله أن يبعث عليكم عِقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم**»(١).

وقال ﷺ: «**إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه؛ عمّهم الله بعقاب**»(٢).

ثامناً: الدعوة إلى الله تنجي الأمة من الهلاك.

قال ﷺ: «**مثلُ القائمُ في حدود الله والواقعِ فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا**

(١) حسن لغيره: أخرجه الترمذي (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٥٨)، وفي «السنن» (١٠/ ٩٣)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣١٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٣٨)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣١٧)].

استقوا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نُـؤذِ من فوقنا، فإن تركُوهُم وما أردوا هلكـوا جميعـاً، وإن أخـذوا عـلى أيـديهم نجـوا ونجوا جميعاً»[1].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليـوم مـن ردم يـأجوج ومـأجوج مِثلُ هذه**» وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أفنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم؛ إذا كَثُرَ الخبثُ**»[2].

وقال ﷺ: «**إن مثلي ومثل ما بعثني الله عز وجل به كمثـل رجـل أتـى قومـهُ، فقال: يا قوم! إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُريـان، فالنجـاء، فأطاعـه طائفةٌ من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مُهلتِهم** -أي: على مهلهم-، **وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانَهُم، فصبَّحهم الجيشُ فأهلكهمُ واجتاحَهُم. فـذلك مثـلُ مـن أطاعني واتبع ما جئتُ به، ومثلُ من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق**»[3].

تاسعاً: الدعوة إلى الله تنجي من الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]، والتواصي بالحق هو: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١٣٥)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣) واللفظ له.

فالله عز وجل يخبرنا بأن البشرية كلها في دائرة الخسران، ولا يخرج منها إلا من اتصف بأربع صفات، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: (فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسرٍ، أي: في خسارة وهلاك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان من الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات وترك المحرمات ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ أي: على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر)[١].

عاشراً: من فضائل الدعوة إلى الله استمرار ثواب الداعي بعد موته.

ومما يبين لنا عظم منزلة الدعوة إلى الله تعالى أن ثوابها لا ينقطع بموت الداعي، بل يستمر حتى بعد موته ما وُجِد من يعمل بدعوته. وقد وردت عدة نصوص في الكتاب والسنة تدل على هذا وفيما يلي بعض منها:

أولاً: قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة] والمعنى: بما قدم من عمل صالح أو سيئ، وبما أخر من سُنةٍ عُمِل بها من بعده من خير أو شر.

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في «تفسيره»: (قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: بما قدم قبل الموت من عمل صالح وسيء، وما أخر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها)[٢].

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٨٢).

(٢) «تفسير البغوي» (٤/ ٤٢٢).

ثانياً: وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار] والمعنى: ما قدمت من عمل خير أو شر، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة، لأن لها أجرَ ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها، وعليها وزرُ ما سنته من السنن السيئة، ووزر من عمل بها[1].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير الآية: (ما قدّمت من خير، وما أخرت من سنة استن بها بعده، فله مثل أجر من اتبعه، أو سيئة فعليه مثل وزر من عمل بها)[2].

وقال ابن عباس والقرظي محمد بن كعب رضي الله عنهم في تفسير الآية: (ما قدَّمت في حياتها، وما أخرت مما سنته فعُمِلَ به بعد موتها)[3].

ثالثاً: وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سنّ في الإسلام سنّة حسنة، فعُمِلَ بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجرهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنّة سيِّئة، فعُمِلَ بها بعده، كُتِب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء**»[4].

---

(١) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٥٨).

(٢) انظر: «شرح السنة» (١/ ٢٣٢).

(٣) «المحرر الوجيز» (٢٤٦).

(٤) **صحيح**: حديث رقم (١٠١٧).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: (قوله ﷺ: «**من سنّ ...**» الحديث، وفي الحديث الآخر: «**من دعا إلى هدى ... ومن دعا إلى ضلالة**» هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سنِّ الأمور الحسنة، وتحريم سنَّ الأمور السيئة، وأن من سنَّ سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه مثل وزرِ كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه، أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواءٌ كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقاً إليه، وسواءٌ كان ذلك تعليم علم، أو عبادة، أو أدب، أو غير ذلك)[١].

رابعاً: وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى مبيناً معنى الحديث: (قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدّد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف)[٣].

---

(١) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) **صحيح**: حديث رقم (١٦٣١).

(٣) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١١/ ٨٥).

خامساً: وروى الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خيرُ ما يخلُف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يُعمَل به من بعده**»[1].

سادساً: وروى الأئمة أحمد والبزار والطبراني رحمهم الله تعالى عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**أربعة تُجرى عليهم أجورهم بعد الموت: رجل مات مرابطاً في سبيل الله، ورجل علّم علماً، فأجره يجري عليه ما عُمِل به، ورجل أجرى صدقة، فأجرها له ما جرت، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له**»[2].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (إن العالِم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره، وبقي له ذكره، وهو عمر ثان، وحياة أخرى، وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون، ورغب فيه الراغبون)[3].

الحادي عشر: من فضل الدعوة إلى الله: أن الله وملائكتهُ وأهلَ السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير.

ومما يدلُ على سمو قدر الدعوة إلى الله تعالى ما أخبر به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الناطق بالوحي المبين، من أن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين يصلون على معلِّم الناس الخير.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٤١)، وابن حبان (٩٣)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٩)].

(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠٥، ٢٠٦)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (١١٤)].

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٨)، وكتاب «فضل الدعوة إلى الله» (ص٧٨).

فقد روى الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: ذُكِرَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض -حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت- ليصلون على مُعلّمي الناس الخير**»[1].

الثاني عشر: الدعوةُ إلى الله تعالى جهادٌ في سبيل الله.

ومما يدل على عظم منزلة الدعوة إلى الله تعالى أن العليم الحكيم عز وجل سمّاها ﴿جِهَادًا﴾ في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

• قال عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].

ففي هذه الآية الكريمة التي هي من سورة الفرقان المكية أمر الله عز وجل نبيه الكريم بمجاهدة الكافرين مجاهدة تامة شديدة، ولم يكن الجهاد بالسيف قد شرع بعد آنذاك، فالمراد بالجهاد في هذه الآية الكريمة -والله تعالى أعلم- جهاد الكفار بالقرآن، وذلك بتلاوة ما فيه من القوارع والزواجر والمواعظ والأوامر والنواهي. وقد بيّن ذلك علماء الأمة رحمهم الله تعالى. وفيما يلي أقوال بعضهم:

أ- قال ترجمان القرآن وحبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: (﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن)[2].

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٣٣، ٢٣٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٨١)].

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٧٠).

ب- وقال الإمام البغوي في «تفسيره»: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ -أي: بالقرآن- ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ -أي: شديداً-.

• قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾[التحريم].

أمر الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين، وأما جهاد الكفار فبالسيف والسنان، وأما جهاد المنافقين فبالحجة والبرهان، وقد بيّن ذلك كثير من علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين رحمهم الله تعالى، وفيما يلي أقوال بعضهم:

أ- روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير الآية: (فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم)[1].

ب- وقال العلامة الشوكاني: (وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه، ويؤمنوا بالله).

سؤال: هل الجهاد بالحجة والبرهان أفضل من الجهاد بالسيف والسنان؟

لقد صرّح بعض العلماء رحمهم الله تعالى أن الجهاد بالحجة والبرهان أجلُّ وأكبر من الجهاد بالسيف والسنان، وممن تحدّث عن هذا الموضوع بتفصيل: الإمام ابن القيم، ومما قاله في هذا الصدد ما يلي:

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٥٩).

(كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه [من الجهاد] واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب، والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان] فهذه سورة مكية أُمِرَ فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[التحريم].

ثم قال رحمه الله تعالى: (فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً).

وقال رحمه الله تعالى في مقام آخر: (قوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، **والثاني**: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه)[1].

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٠).

وقال رحمه الله تعالى في مكان آخر: (وتبليغ سنة إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه)(١).

الثالث عشر: من فضل الدعوة إلى الله: أنها سبب لدخول الجنة.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (جاءت ملائكةٌ إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلب يقظانُ. فقالوا: إن لصاحِبكُم هذا مثلاً، قال: فاضربوا لهُ مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: مثلُهُ كمثلِ رجلٍ بنى داراً، وجعل فيها مأدبةً، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدّارَ، وأكل من المأدبَةِ، ومن لم يُجب الداعي لم يدخُلِ الدارَ، ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوّلُوها له يفقَهها، فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العين نائمةٌ والقلب يقظانُ. فقالوا: فالدارُ الجنة، والداعي محمدٌ ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس)(٢).

وقال ﷺ: «**كلُ أُمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(٣).

(١) «التفسير القيم» (ص٤٣١).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٨١).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

فإذا كان الذي يطيعُ الداعي إلى الله له الجنة، فما بالكُم بالداعي إلى الله؟!

لقد مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبعُ الناسَ في منازلهم وأسواقهم وفي المواسم بمنى يقول: «**من يؤويني، مَنْ ينصرني؛ حتى أبلغ رسالةَ ربي وله الجنة؟**»(١).

عباد الله! إذا كان الذي ينصرُ الداعي إلى الله ويؤويه له الجنة، فما بالكم بالداعي إلى الله!

العنصر الثالث: حكم الدعوة إلى الله.

دلت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله عز وجل وأنها من الفرائض. والأدلة في ذلك كثيرة منها:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال عز وجل: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

فبيّن سبحانه أن أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة إلى الله وهم أهل البصائر، والواجب كما هو معلوم هو اتباعه والسير على منهاجه عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، والحاكم (٢/ ٦٨١، ٦٨٢)، وابن حبان (٦٩٧٣)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٤٦)، والبزار «كشف الأستار» (١٧٥٦)، [«الصحيحة» (٦٣)].

وصرح العلماء أن الدعوة إلى الله عز وجل فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي فيها من الدعاة من يقوم بذلك الواجب؛ فإن كل قطر وأقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فالدعوة تصبح فرض كفاية إذا قام بها من يكفي ويسقط عن الباقين ذلك الواجب، وتصير الدعوة في حق الباقين سنة مؤكدة وعملاً صالحاً جليلاً.

وإذا لم يقم أهل الأقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على تمامها، صار الإثم عاماً، وصار الواجب على الجميع، وعلى كل إنسان في هذه الحال أن يقوم بالدعوة بحسب طاقته وإمكانه.

أما بالنسبة إلى عموم البلاد فالواجب أن تُشكل طائفة مُهيأة، تقوم بالدعوة إلى الله جل وعلا في أرجاء المعمورة، تبلغ رسالات الله، وتبين أمر الله عز وجل بالطرق الممكنة، فإن الرسول ﷺ قد بعث الدعاة، وأرسل الكتب إلى الناس وإلى الملوك والرؤساء ودعاهم إلى الله عز وجل.

وفي وقتنا الحاضر يسر الله عز وجل أمر الدعوة بطرق أكثر وأسهل، لم تحصل لمن قبلنا، وإقامة الحجة على الناس اليوم ممكنة بطرق متنوعة: عن طريق الإذاعة ... عن طريق التلفزة..... وعن طريق الصحافة ... فالطرق شتى، والواجب على أهل العلم والإيمان، وعلى خلفاء الرسول ﷺ أن يقوموا بهذا الواجب، وأن يتكاتفوا ويتعاونوا، وأن يبلغوا رسالات الله إلى عباد الله ولا يخشوا في الله لومة لائم، وعليهم أن لا يحابوا في ذلك كبيراً ولا صغيراً ولا غنياً ولا فقيراً، بل يبلغوا أمر الله إلى عباد الله، كما أنزل الله، وكما شرع الله.

وقد تكون الدعوة فرض عين عليك، إذا كنت في مكان ليس فيه من يؤدي ذلك سواك، فإذا كنت في مكان ليس فيه من يقوى على هذا الأمر، ويبلغ أمر الله سواك، فالواجب عليك أن تقوم بذلك، أما إذا وجد من يقوم بالدعوة والتبليغ والأمر والنهي غيرك، فإن أمر الدعوة يكون حينئذ في حقك سنة، وإذا بادرت إليه وحرصت عليه كنت بذلك منافساً في الخيرات، مسابقاً إلى الطاعات.

ومما احتج به على أن الدعوة إلى الله فرض كفاية قوله جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران].

قال الحافظ ابن كثير عن هذه الآية ما معناه: ولتكن منكم أمة منتصبة لهذا الأمر العظيم، تدعو إلى الله، وتنشر دينه، وتبلغ أمره سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله وقام بأمر الله في مكة حسب طاقته، وقام الصحابة كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم بذلك حسب طاقتهم، ثم لما هاجروا قاموا بالدعوة بشكلٍ أكبر وأبلغ، ولما انتشر الصحابة رضي الله عنهم في البلاد بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، قاموا بالدعوة إلى الله أيضاً: كل على قدر طاقته وعلى قدر علمه.

فعند قلة الدعاة، وعند كثرة المنكرات وغلبة الجهل -كحالنا اليوم- تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته، وإذا وجد في محل محدود -كقرية ومدينة ونحو ذلك- من تولى أمر الدعوة إلى الله وقام به كفى، وصار التبليغ في حق غيره سنة؛ فقد أقيمت الحجة على يد ذلك الداعي، ونفذ أمر الله على يده.

ولكن بالنسبة إلى بقية أرض الله، وإلى بقية الناس، فيجب على العلماء بحسب طاقتهم، وعلى ولاة الأمر بحسب طاقتهم أن يبلغوا أمر الله، وهذا فرض عين

عليهم بالتعيين: كلٌّ على طاقته وقدرته، وبهذا يعلم أن كون الدعوة إلى الله فرض عين، وكونها فرض كفاية أمر نسبي، يختلف باختلاف الظروف والأحوال.

فقد تكون الدعوة فرض عين بالنسبة إلى أقوام وإلى أشخاص، وسنة بالنسبة إلى أشخاص وإلى أقوام، لأنه وجد في محلهم وفي مكانهم من قام بأمر الدعوة لله وكفى عنهم.

أما بالنسبة إلى ولاة الأمور، ومن لهم القدرة الواسعة فعليهم من الواجب أكثر مما على غيرهم، وعليهم أن يبلغوا الدعوة إلى كل من استطاعوا من الأقطار، حسب الإمكان وبالطرق الممكنة وباللغات الحية التي ينطق بها الناس، فيجب أن يبلغوا أمر الله بتلك اللغات حتى يصل دين الله إلى كل أحد باللغة التي يعرفها؛ فإن الأمر الآن ممكن وميسور بالطرق التي تقدم بيانها، طرق الإذاعة والتلفزة والصحافة وغير ذلك من الطرق التي تيسرت اليوم ولم تتيسر في السابق، كما أنه يجب على الخطباء في الجمع وفي غير ذلك، أن يبلغوا ما استطاعوا من أمر الله عز وجل، وأن ينشروا دين الله بحسب طاقتهم وحسب علمهم.

ونظراً إلى انتشار الدعوة إلى المبادئ الهدامة، وإلى إلحاد وإنكار رب العباد، وإنكار الرسالات، وإنكار الآخرة، ونظراً إلى انتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البلدان وغير ذلك من الدعوات المضللة، فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضاً عاماً وواجباً عاماً على جميع العلماء، وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام، فرض عليهم أن يبلغوا دين الله حسب الطاقة والإمكان

بالكتابة والخطابة وبالإذاعة وبكل وسيلة استطاعوا وعليهم ألا يتقاعسوا عن ذلك أو يتكلوا على زيد أو عمرو، فإن الحاجة بل الضرورة ماسة اليوم إلى التعاون والاشتراك والتكاتف في هذا الأمر العظيم أكثر مما كان قبل ذلك؛ لأن أعداء الله قد تكاتفوا وتعاونوا بكل وسيلة للصد عن سبيل الله والتشكيك في دينه، ودعوة الناس إلى ما يخرجهم من دين الله عز وجل، فوجب على أهل الإسلام أن يقابلوا هذا النشاط المضل، وهذا النشاط الملحد بنشاط إسلامي، وبدعوة إسلامية على شتى المستويات، وبجميع الوسائل والطرق الممكنة، وهذا من باب أداء ما أوجب الله على عباده من الدعوة إلى سبيله[1].

(١) انظر: مجلة الندوة العالمية للشباب الإسلامي (الدعوة إلى الله) (ص٣٧٧-٣٨٠).

٧

الباب السابع

أصول الدعوة إلى الله

أصولُ الدعوة إلى الله

تبيّن لنا مما سبق أن الدعوة إلى الله تعالى من أحسن الأقوال والأعمال والقُرباتِ التي يتقربُ بها العبد إلى الله تعالى، وأن المقصودَ بالدعوة إلى الله هو الدعوةُ إلى توحيد الله، وإلى دينه، ودين الله هو الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ من عند ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

ثم اعلموا أن الرجوع إلى الإسلام -بالدعوة إلى الله على بصيرة- هو العلاجُ الوحيدُ للأمة في هذا الزمان، فإن الأمة قد أصيبت بأمراض عديدة، علاجُها الوحيد هو: الرجوع إلى الدين.

ومن هذه الأمراض:

المرض الأول: الذلُ والهوان.

قال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعهُ حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1].

في هذا الحديث شَخَّصَ لنا رسول الله ﷺ المرض الذي أصاب الأمة وهو الذل والهوان، وبيّن لنا ﷺ سببهُ وهو: الذنوب والمعاصي، وفي مقدمتها: الشرك.

«**إذا تبايعتم بالعينة**» -أي: أكلتم الربا-، «**وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع**» -كنايةٌ عن حب الدنيا والركون إليها ونسيان الآخرة- «**وتركتم الجهاد**»

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي في «السنن» (٥/ ٣١٦)، والبزار «البحر الزخار» (٥٨٨٧)، وأبو نعيم (٥/ ٢٣٧)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤١٧)، [«الصحيحة» (١١)].

-أي: بسبب حب الدنيا وكراهية الموت- «**سلط الله عليكم ذلاً**» وهذا هو الداء، وهذا هو المرض. وعلاجه: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**».

ورسولنا ﷺ يخبرنا في حديث آخر عن حالِ الأمةِ إذا ما ركنت إلى الدنيا ونسيت الآخرة وعصت ربها، فيقول ﷺ: «**يُوشكُ الأممُ أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتِها**». فقال قائلٌ: ومِن قلةٍ نحنُ يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثيرٌ؛ ولكنّكم غُثاءٌ كغثاءِ السيلِ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبكم الوهَنَ**». فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهنُ؟ قال: «**حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ**»(1).

المرض الثاني: التفرق والاختلاف، الذي أدى إلى ضعف الأمة.

وسببهُ: الشرك والحزبيةُ البغيضة ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون]. **وعلاجه**: الرجوع إلى الدين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران:١٠٣]

وحبل الله هو: الدين، هو الإسلام.

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم (١/ ٢٣٩)، والطيالسي (١٠٨٥)، [«الصحيحة» (٩٥٨)].

المرض الثالث: كثرة القتل والتفجير والتدمير، الذي أدى إلى غياب الأمن في كثير من البلاد الإسلامية.

وسببه: فساد العقيدة وانتشار فكر التكفير في الأمة. **وعلاجه**: الرجوع إلى الدين وفهمه فهماً صحيحاً.

وتأملوا في المثالين التاليين كيف عالج حُذاق الدعاة أناساً مرضوا بداء التكفير، وكيف أنهم أنقذوهم من الهلاك حين ردوهم وأرشدوهم إلى الفهم السليم القويم الذي فهمه الصحابة.

المثال الأول: لما خرج الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما فهموا الإسلام فهماً خاطئاً -ذهب إليهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وردهم إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً- كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم فرجع منهم ألفان[1].

المثال الثاني: والذين خرجوا إلى الحج يحملون فكر الخوارج في عقولهم، ويريدون أن يخرجوا على الحُجاج في الحج، فمروا بالمدينة وجلسوا في مجلس علم لجابر ابن عبدالله رضي الله عنه في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جلسوا وفهموا الإسلام من هذا الصحابي فهماً صحيحاً رجعوا عن فكرهم جميعاً[2].

فهذه أمراضٌ أُصيبت الأمةُ بها، والعلاج من هذه الأمراض هو أن ترجع الأمةُ إلى دينها، ولا يمكن للأمة أن ترجع إلى دينها إلا بالدعوة إلى الله تعالى

(١) سيأتي ذكر الخبر لاحقاً.

(٢) انظر الخبر في صحيح مسلم (١٩١).

على بصيرةٍ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف].

والدعوة إلى الله تقومُ على أربعة أصول:

الأصل الأول: موضوع الدعوة (الإسلام).

الأصل الثاني: الداعي إلى الله.

الأصل الثالث: المدعو إلى الله.

الأصل الرابع: أساليب ووسائل الدعوة إلى الله.

الأصلُ الأول: موضوع الدعوةِ: الإسلام

الدين الذي جاء به جبريل عليه السلام من عند ربه إلى محمد ﷺ، فبلغ النبي ﷺ هذا الدين إلى الصحابة، وبلغ الصحابة مَن بعدهم هذا الدين، هو الإسلام، الذي يجب على الأمة أن ترجع إليه وتبلغه، لا أن ترجع إلى الإسلام كما فهمته الخوارج أو الرافضة، ولا إلى الإسلام كما يفهمه الحزبيون والحركيون! لا، بل عليها أن ترجع إلى الإسلام الحق صافياً من غير كدر ولا تغيير أو تبديل.

فعلى الداعي إلى الله أن يفهم الإسلام بمفهومه الواسع، وهو: الاستسلامُ والخضوعُ والانقيادُ لله رب العالمين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩].

ولقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران].

وعلى الداعي إلى الله أن يفهم أن الإسلام بهذا المفهوم هو دين الأنبياء جميعاً.

* فهذا نوح عليه السلام جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

* وهذا إبراهيم عليه السلام جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

* وها هم أبناء يعقوب عليه السلام عندما قال لهم أبوهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

* وها هو موسى عليه السلام جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

* وها هو يوسف عليه السلام جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

* وها هو عيسى عليه السلام جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران].

* وها هو محمدٌ صلى الله عليه وسلم -خاتم الأنبياء والمرسلين- جاء بالإسلام، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر].

فالدين عند الله هو الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل، وجعل الله لكل نبيٍّ شِرعةً ومنهاجاً، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وعلى الداعي إلى الله أن يفهم الإسلام فهماً صحيحاً كما جاء في حديث جبريل عليه السلام.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ، ولا يعرفهُ منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله** صلى الله عليه وسلم**، وتقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً**» قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسألُهُ ويُصدِّقُهُ قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «**أن تلد الأمَةُ ربَّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة، العالَة، رِعاءَ الشاءِ، يتطاولون في البنيان**».

قال: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «**يا عمر! أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسولُهُ أعلمُ. قال: «**فإنه جبريلُ أتاكم يعلّمُكم دينكم**»[1].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨).

وعلى الداعي إلى الله أن يعلمَ -وهو يدعو النـاسَ إلى الإسـلام- أن الإسـلامَ هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية إلى يوم القيامة قـال تعـالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وعلى الداعي إلى الله أن يعلمَ أن المستقبل للإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

وقال ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض**» -أي: ضم لي الأرض- «**فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها**»(١).

وقال ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمر**» -أي: هذا الدين- «**ما بلغ الليل والنهـارُ، ولا يتركُ الله بيت مدرٍ ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين؛ بعز عزيز، أو بذل ذليـل، عـزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**»(٢).

وعلى الداعي إلى الله تعالى أن يعلم -وهو يدعو الناس إلى الإسلام- أن من أسلم سلمت له الدنيا والآخرة، ومن كفر خسر الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٥٨)، وفي «مسند الشاميين» (٩٥١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦١٥٥)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٨١)، [«الصحيحة» (٣)].

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]، وقال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْـجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1].

فإذا عرف المسلم أن الإسلام هو دين الله، وأنه الدين الحق، وأن المستقبل للإسلام، دعا الناس إلى هذا الدين بكل فخر واعتزاز وثبات.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت].

أمثلة في دعوة النبي ﷺ وصحابته الناس إلى الإسلام

فانظر أيها الداعي إلى الله وتأمل كيف أن مدار الدعوة هو دين الإسلام فقط، وبمفهومه السليم.

١- عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان أخبرَه مِنْ فِيهِ إلى فِيهِ، قال: انطلقتُ في المُدّةِ التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتابٍ من رسول الله ﷺ إلى هِرقل، يعني عظيمَ الروم.

قال: وكان دِحيةُ الكلبيُّ جاء به، فدفَعَه إلى عظيم بُصرى، فدفَعهُ عظيم بصرى إلى هرقل -إلى أن قال:- وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلِم تَسلَم، وأَسلِم يُؤتِك الله أجركَ مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

الأريسيين[١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران][٢].

٢- عن أبي هريرة ﷺ؛ أنه قال: بينا نحن في المسجد، إذ خرج إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**انطلقوا إلى يهودَ**»، فخرجنا معه، حتى جئناهُم. فقام رسول الله ﷺ فناداهم. فقال: «**يا معشر يهود! أسلِمُوا تسلَمُوا**»، فقالوا: قد بلّغت يا أبا القاسم! فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ذلك أُريدُ**» -أي: أريد أن تعترفوا أني بلغت- «**أسلِموا تسلَمُوا**». فقالوا: قد بلّغت يا أبا القاسم! فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ذلك أُريدُ**» فقال لهم الثالثة. فقال: «**اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أُجْلِيَكُم من هذه الأرض، فمن وجَدَ مِنكم بماله شيئاً فَلْيَبِعْهُ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله**»[٣].

٣- يقول أبو هريرة ﷺ: (بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة، يُقال له ثُمامة بن أُثالْ، سيد أهل اليمامةِ، فربطوه بساريةٍ من سواري المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «**ماذا عندك؟ يا ثُمامة!**» فقال: عندي يا محمد! خير، إن تَقْتُلْ تقتُلْ ذا دم -أي: إن تقتل تقتل صاحب دم، لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله، ويدرك قاتله به ثأره، -أي: لرياسته وفضيلته- وإن تُنعِم تُنعِمْ على شاكر، وإن كنتَ تُريد المال فسلْ تُعطَ منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعدَ الغدِ.

(١) الأريسيين: الفلاحين.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٩٤٤)، ومسلم (١٧٦٥) واللفظ له.

فقال: «**ما عندكَ؟ يا ثُمامة!**» قال: ما قلت لك، إن تُنعِمْ تُنعِمْ على شاكر، وإن تقتل تقتُل ذا دم، وإن كنتَ تُريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك؟ يا ثُمامةُ!**» فقال: عندي ما قلتُ لك، إن تُنعِم تُنعم عل شاكرٍ، وإن تقتل تقتُل ذا دمٍ، وإن كنتَ تريدُ المال فسل تُعطَ منه ما شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثُمامَةَ**» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبْدهُ ورسولُه. يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجه أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه كلّها إلي. والله! ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين كُلّهِ إليّ، والله! ما كان من بلدٍ أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد كلّها إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أُريدُ العُمرة، فماذا ترى؟ فبشّرهُ رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر. فلما قدِمَ مكة قال له قائل: أصبوت؟ -أي: أخرجت من دينك- فقال: لا. ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا، والله! لا يأتيكُم من اليمامةِ حبَّةُ حِنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ)[(١)].

٤- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ قال: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتابِ، فادْعُهُم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسولُ الله، فإن هم أطاعُوا لذلك، فأعلِمُهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلِمهُم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخَذُ من**

(١) صحيح أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) واللفظ له.

أغنيائهم فتُرَدُّ في فقرائهم، فإن أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلومِ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١].

فعلى الداعي إلى الله أن يدعوَ الناس إلى توحيد الله، وتطبيق دينه، لا أن يدعو لحزب أو حركة أو طائفة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (**ليس للمعلِّمين أن يحزِّبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونوا مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى، كما أمر الله عز وجل، وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحدٍ عهداً بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من المعتدين**)[٢].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩) واللفظ له.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥، ١٦) نقلاً عن محاضرات في الدعوة والدعاة للشيخ عبد العظيم بن بدوي.

الأصل الثاني: الداعي إلى الله

فصل: صفات الداعي إلى الله

الداعي إلى الله هو الذي يقوم بدعوة الناس إلى دين الله، وحتى ينجح في دعوته لا بدّ أن يتصف بالصفات التالية:

الصفة الأولى: الإخلاص

الإخلاص هو سرُّ النجاح في كل شيء، ولذلك جاءت الأدلةُ في الكتاب والسنة تأمرُ بالإخلاص لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾[الأنعام].

وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرتهُ إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتهُ إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرتهُ إلى ما هاجر إليه**»[1].

وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال الفُضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أحسنه هو: أخلصُهُ وأصوبُهُ). قالوا: يا أبا علي! ما أخلصُهُ وأصوبُهُ؟ فقال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالصُ أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف][1].

الإخلاص لله عز وجل في الدعوة إلى الله يُكسبُ الداعي إلى الله قوة إيمانٍ وثبات على الحق، وتضحيةً في سبيل الله، ونشاطاً في الدعوة، فلا يخاف أحداً إلا الله، ولا يرجو من الناس ثواباً، ولا يريد بعمله ثناءً ولا فخراً ولا رياءً، وإنما يُريد الله والدار الآخرة، فهو متوكلٌ على الله وحده.

قال تعالى عن نبيه نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى عن نبيه هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم.

وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود].

وهذه القوةُ في الدعوة إلى الله بسبب الإخلاص لله، والتوكل عليه، وعدم التطلعِ إلى ما في أيدي الناس، ولذلك ما بعث الله نبياً إلى قومه إلا وقال لهم: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

فالدعوةُ لا تكونُ إلا إلى الله، وإلى سبيل الله، وإلى صراط الله، ولا تجوز الدعوة إلى سبيلِ فلانٍ أو طريق فلانٍ، ولا إلى مذهب فلان، ولا إلى رأي فلان. ولا تجوزُ الدعوةُ إلى حزبٍ أو تنظيمٍ أو جماعةٍ، وذلك:

أ- لأن مُرْسِل الرسل والأنبياء هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [نوح:١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

فالمُرسِلُ للأنبياء هو الله سبحانه وتعالى، وليست هناك جهةٌ يصدرُ منها التكليف بالدعوةِ غيرُ الله سبحانه، ولما كان العلماءُ هم ورثة الأنبياء، فلا بُدّ أن تكون دعوتهم هي عين دعوة الأنبياء والرسل، إنها الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أي: إلى دين الله.

ب- لأن المقصودَ المرادَ بالدعوة: هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾ [القصص]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرعد]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣]. فغاية الدعوة هو الله، هو رضا الله، هو الفوز بالجنة.

ج- ولأن السبيلَ الوحيد الذي يوصلُ إلى الله هو سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

إن الدعوةَ تكون من الله، وإلى الله، وإلى سبيل الله، ولذلك أمرَ الله رسوله محمداً ﷺ إمام الدعاةِ بالدعوةِ إلى الله تارةً، وبالدعوة إلى سبيله تارةً أخرى، وهذا هو منهجُ الأنبياء جميعاً في الدعوة إلى الله.

ومن أخطر ما أضر بالدعوة إلى الله على مدار التاريخ الإسلامي، هو ما شابها[1] من الدعوات إلى مذاهب وطوائف وأشخاص، باسم الدعوة إلى الله تعالى، وإلى دينه، فكل دعوة ترفع شعاراً مخالفاً لشعار الأخرى، وتستحدث طرقاً وأساليب ومصطلحات ومناهج توالي عليها وتعادي، مما فرق الأمة أحزاباً ومزقها طرائق، ومعلوم أن المسميات -حتى وإن كانت شرعية أو سائغة في الأصل- إذا كان يحصل بسببها ولاء وبراء لغير الحق، وتكون سبباً في التفريق بين المؤمنين، فإنها

(١) شابها: خالطها.

محرمة من هذا الباب. والدليل على ذلك، ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين، حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعَّاب، فكسع أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً، حتى تداعوا؛ وقال الأنصاري: يا لَلأنصار، وقال المهاجري: يا لَلمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: «**ما بال دعوى أهل الجاهلية؟**» ثم قال: «**ما شأنهم؟**» فأُخبر بكسعة المهاجري للأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها خبيثة**»[1].

الصفة الثانية: الصدق.

الصدقُ في الدعوة إلى الله سببٌ لنجاح الداعي إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد]. وقال تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

وقال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدقُ، ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً**»[2].

ومن الأمثلة على الصدق في الدعوة إلى الله:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٠٧).

أ- مؤمن آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

ب- مؤمن آل ياسين.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس].

ج- الغلام والراهب:

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كبرَ قال للملك: إني قد كبرتُ فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غُلاماً يعلمُهُ، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامهُ، فأعجبهُ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربهُ، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.**

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الساحرُ أفضلُ أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم! إن كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبرهُ. فقال له الراهب: أي بُني! أنت اليومَ، أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى، فإن ابتليت فلا تدُلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس.

فقال له الملك: من رد عليك بصرَك؟ قال: ربي. قال: أوَلك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُك الله، فأخذه فلم يزل يُعذبُهُ حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُني! قد بلغ من سِحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل! فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله.

فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دلّ على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمئشار فوُضِعَ المئشار في مفرق رأسه، فشقهُ به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه.

فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذُروتهُ، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوهُ في قُرقُورٍ، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به.

فقال: اللهم! اكفينهم بِمَ شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمُرُك به، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كِنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبهُ على جذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله، ربِّ الغلام، ثم رماه فوقَع السهم في صُدْغِهِ، فوضع يدهُ في صُدغِهِ في موضع السهم، فمات، فقال الناسُ: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِي الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذرُ؟ قد والله! نزل بك حذرُكَ، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود بأفواهِ السكك فخُدَّت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأَقْحِموهُ فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمَّهْ! اصبري فإنك على الحق»[1].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

الصفة الثالثة: العلم.

الدعوة إلى الله تعالى على منهاج النبوة لا بدّ أن تقومَ على العلم، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد].

كيف أن الله سبحانه وتعالى قدَّم العلم على العمل، والواقعُ أن تقديم العلم على أي عملٍ ضروري للعامل حتى يعلمَ ما يريدُ فيقصدهُ ويعملَ للوصول إليه.

وإذا كان تقديم العلم على أي عملٍ ضرورياً، فإنه أشدُ ضرورةً للداعي إلى الله، لأن ما يقومُ به من الدين والدعوة إليه منسوب إلى رب العالمين، فيجب أن يكون الداعي على بصيرة وعلم بما يدعو إليه، وبشرعية ما يقولهُ ويفعله أو يتركه، فإذا فقد العلم المطلوب واللازم لهُ، كان جاهلاً بما يريده، ووقع في الخبط والخلط والقول على الله ورسوله بغير علم، فيكون ضررهُ أكثر من نفعه، وإفساده أكثر من إصلاحه، وقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لجهله بما أحلهُ الشرع وأوجبه، وبما منعه وحرّمه.

فيجب إذن على كل داعٍ إلى الله تعالى: البدء بتعلم شرع الله، ومعرفة الحلال والحرام، وبما يجوزُ وما لا يجوز، وبما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ، وما يحتمل وجهين أو أكثر وما لا يحتمل، وعليه أن يعلم أن العلم ما قام عليه الدليل الشرعيُّ من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو من أدلة الشرع الأخرى.

وعلى المسلم أن يستزيد من هذا العلم الشرعي النافع؛ ليعرف موضوع دعوته، وليكون فيها على بصيرة وبينةٍ فلا يأمر إلا بحق ولا ينهى إلا عن باطل[1].

(١) انظر: كتاب «أصول الدعوة» (ص٣٢٦).

خطورة الجهلِ والقول على اللّـه بغير علم.

إن الداعي إلى الله إذا دعا الناس بدون علم قال على الله أموراً بغير علم وهـذا حرام.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف]. وقال تعـالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل].

الجاهل إذا دعا وأفتى بغير علم وقع في الحرام، وربما قتـل نفسه وقتـل غـيره ودمرّ مجتمعه.

* وهذا مثالٌ لمن قتل نفسه بسبب الجهل فتأملوا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قـال: «**كـان فـيمن كـان قـبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلمِ أهل الأرض، فـدُلّ عـلى راهـب، فأتاهُ، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمّـل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ عل رجلٍ عالمٍ، فقال: إنـهُ قتـل مائـة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبـين التوبـة؟ انطلـق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله تعالى فاعبـد الله تعـالى معهـم، ولا ترجـع إلى أرضك فإنها أرضُ سوءٍ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختـصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.**

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً، مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملَك في صورة آدميّ، فجعلوه بينهم»، -أي: حكماً- فقال: «**قيسوا ما بين الأرضَيْنِ فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة**»[(١)].

* مثال آخر:

يقول ﷺ: «**كان فيمن قبلكم رجل به جرح، فجزع، فأخذ سكيناً فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، قد حرمت عليه الجنة**»[(٢)].

* مثالٌ لمن أفتى بغير علم فتسبب في قتل غيره.

عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ**» -أي: الجهل- «**السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم**»[(٣)].

* أما من أفتى ودعا بغير علم فتسببَ في إضلال الناس وتدمير المجتمع فهذا ظاهرٌ في قوله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن**

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٦٣)، ومسلم (١١٣).

(٣) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٢٨)، والدارقطني (٧١٩)، [«صحيح أبي داود» (٣٢٥)].

يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناسُ رؤوساً جُهّالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا»(١).

وقال ﷺ: «**إن الله لا ينزعُ العلم بعد أن أعطاهموهُ انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جُهّالٌ، يُستَفتَوْنَ فيُفتون برأيهم، فَيُضِلّون ويَضِلون»**(٢).

فضل العلم.

لما كان الجهلُ سببٌ لكل شر جاءت الأدلـةُ في الكتاب والسنة تأمرُ وتحثُّ وتُرَغِّبُ في العلم الشرعي.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

واستشهد الله تعالى بأهل العلم على أَجَلِّ مشهود به وهو توحيد الله، وقرن شهادتهم بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة، وهذه تزكية لهم وتعديل وتوثيق، لأن الله تعالى لا يستشهد بمجروح.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣٠٧).

* وقال ﷺ: «**ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتْهُم الرحمةُ، وحفتهُم الملائكةُ، وذكرهُمُ الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عملُهُ، لم يُسرعْ به نسبُهُ**»[١].

* وقال ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالِمَ ليستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتانُ في الماءُ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ**»[٢].

وعن صفوان بن عسال المُرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد مُتكئ على بُردٍ له أحمر، فقلتُ له: يا رسول الله! إني جئتُ أطلب العلم. فقال: «**مرحباً بطالب العلم، إنّ طالب العلم تحُفُّه الملائكةُ [وتظله] بأجنحتها ثم يركبُ بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلبُ**»[٣].

وقال ﷺ: «**من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) **حسن لغيره**: أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٩٧)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠)].

(٣) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٥٤)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٨/ ٤٤، ٤٥)، وابن عدي في «الكامل» (٨/ ٤٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٧١)].

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وقال ﷺ: «**الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً ومتعلماً**»(١).

وقال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين؛ رجلٌ آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويُعلِّمُها**»(٢).

وقال ﷺ: «**فضلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة، وخيرُ دينكم الورع**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنه مرّ بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق! ما أعجزَكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراثُ رسول الله ﷺ يُقسَم، وأنتم هاهنا؛ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟

قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة! قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نرَ فيه شيئاً يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى؛ رأينا قوماً يصلون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلالَ والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم! فذاك ميراثُ محمد ﷺ)(٤).

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٤)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).

(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٠)، والحاكم (١/ ١٧١)، والبزار «البحر الزخار» (٢٩٦٩)، وأبو نعيم (٢/ ٢٤١)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٦٨)].

(٤) **حسن موقوف**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٨٣)].

وَ أفضل العلم معرفة التوحيد، وخطورة الشرك

فالعلمُ الشرعي هو علمُ الكتاب والسنة بِفَهمِ سلف الأمة، وهو سببٌ للسعادة في الدنيا والآخرة، كما أن الجهلَ سببٌ لشقاء العبد في الدنيا والآخرة، ولما كان منهجُ الأنبياء في الدعوة إلى الله هو الاهتمامُ بالتوحيد فيجب على الدعاةِ أن يبدأوا دعوتهم بالتوحيد والتحذير من الشرك، وفيما يلي إشارةٌ إلى أهم ما يجب على الدعاة دعوة الناس إليه وتعريفهم وتعليمهم إياه مما يتعلق بتوحيد الله عز وجل.

أولاً: أقسام التوحيد.

التوحيدُ ثلاثة أقسام:

١- **توحيدُ الربوبية**: وهو إفراد الله عز وجل بالخلق، والملك، والتدبير.

٢- **توحيد الألوهية**: وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة.

٣- **توحيدُ الأسماء والصفات**: وهو إفراد الله عز وجل بما له من الأسماء والصفات وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثباتْ، وذلك بأن نثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

وقد اجتمعت هذه الأقسام الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

ثانياً: التحذير من الشرك.

على الدعاة إلى الله على بصيرةٍ أن يحذروا الناس من الشرك وذلك:

١- لأن الشرك ظلم عظيم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان].

٢- لأن الشرك يحبط الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام].

٣- لأن الشرك سبب للخلود في نار جهنم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة].

٤- لأن الشرك يمنع مغفرة الذنوب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً؛ لأتيتك بقرابها مغفرة**»[١].

٥- لأن الشرك من أعظم الذنوب، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[٢].

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٥)، وأحمد (٥/ ١٧٢)، والدارمي (٢٧٩٠)، وأبو نعيم (٢/ ٢٦٢)، [«الصحيحة» (١٢٧)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

٦- لأن الشرك من أكبر الكبائر، قال ﷺ لأصحابه يوماً: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**». قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله**»[(١)].

٧- لأن الشرك يفرق الأمة شيعاً وأحزاباً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

٨- لأن الشرك يجعل صاحبه من شر الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة].

ثالثاً: الشهادتان.

على الداعي إلى الله أن يكون على علمٍ بموضوع الدعوة وهو الإسلام عامةً، والشهادتان خاصة.

الشهادتان هما الركنُ الأعظم في أركان الإسلام، لا يدخل العبدُ في الإسلام إلا بهما، ولا يخرجُ منه إلا بنقضهما.

وهما العروة الوثقى التي قال الله فيها: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦].

وهما العهد الذي قال الله فيه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم].

وهما القول الثابت الذي قال الله فيه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

وهما كلمة التقوى التي قال الله عنها: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦].

وهما الكلمة الطيبة التي قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

وبهما تتعلقُ الشقاوة والسعادة، وبهما تؤخذ كتب الأعمال باليمين أو بالشمال، وبهما يثقل أو يخف الميزان، وبهما تتعلق النجاة من النار والفوز بالجنة، فمن أتى بهما دخل الجنة، ونجا من النار، ومن لم يأت بهما فاتته الجنة، وحُكم عليه بالخلود في دار البوار.

من لقي الله بهما دخل الجنة عاجلاً أو آجلاً، عاجلاً إن مات تائباً غير مُصرٍّ على معصية، وآجلاً إن مات غير تائب وهو مصرٌّ على المعصية، ولم يشأ الله أن يغفر له، فهذا يعذب في النار بذنوبه، ثم يخرجه الله منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، حتى لا يستوي أهل التوحيد وأهل الشرك في الخلود في النار، فأهل التوحيد وإن دخلوا النار بذنوبهم فإنهم لا يخلدون فيها، وأما المشركون فهم فيها خالدون، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

رابعاً: فضائل (لا إله إلا الله).

(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد التي من أجلها قاتل الرسول ﷺ، ومن أجلها استُشهد الصحابة رضوان الله عليهم، قال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[١].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١)، وأبو داود (٢٦٤٠)، والترمذي (٢٦٠٦)، وابن ماجه (٣٩٢٧)، والنسائي (٣٠٩٥)، [«صحيح الجامع» (١٣٧٠)].

(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد التي من قالها وشهد أن محمداً رسول الله دخل في الإسلام وأصبح من المسلمين وحَرُمَ ماله ودمه، قال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»(١).

(لا إله إلا الله) أعلى شعب الإيمان، قال ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان**»(٢).

(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، من قالها وهو في فراش الموت ثم صعدت روحه إلى بارئها دخل الجنة، قال ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٣).

(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد التي تمنع صاحبها من الخلود في النار، قال ﷺ: «**إن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»(٤).

وفي حديث الشفاعة يقول ربنا جل وعلا لملائكته: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٤)، [«صحيح الجامع» (٦٤٧٩)].

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٤٠١)، ومسلم (٣٣).

(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤).

خامساً: شروط (لا إله إلا الله).

(لا إله إلا الله) لها شروط من جاء بها، وعلم بمقتضاها انتفع بها في الدنيا والآخرة، وأصبح من أهلها، فمن كان يريد النجاة من عذاب الله فعليه أن يعلم هذه الشروط ويعمل بمقتضاها ليكون من أهل (لا إله إلا الله).

الشرط الأول: العلم بمعناها المنافي للجهل.

على من يقول: (لا إله إلا الله) أن يعلم معناها، والكل يقول (لا إله إلا الله)، ولكن الكثير لا يفهم معناها قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

وقال ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١].

اعلم يا عبد الله أن (لا إله إلا الله) نفيٌّ وإثباتٌ، (لا إله) نفي، (إلا الله) إثباتٌ، فعليك أن تنفي الألوهية عن كل الآلهة، وتثبتها لله وحده؛ لأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

إن الجهل بلا إله إلا الله أوقع الكثير من الناس في الشرك على رؤوسهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فها هم قوم موسى عليه السلام بعد أن نجاهم الله من عدوهم عبروا البحر إلى الشاطئ الآخر، فمروا على جماعة يعكفون على أصنام لهم ويشركون بالله فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦).

فالذي يقول: (لا إله إلا الله) ويدعو غير الله جاهل بـ (لا إله إلا الله)، والذي يقول: (لا إله إلا الله) ويطوف بقبور الصحابة والتابعين جاهل بـ (لا إله إلا الله)، فيجب على قائلها أن يعلم معناها.

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك.

أي: على قائل (لا إله إلا الله) أن يكون مستيقناً بها قلبه، فالله عز وجل وصف في كتابه عباده المؤمنين الصادقين بأنهم لم يرتابوا أي لم يشكوا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

وقال ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ، غيرُ شاك فيهما، إلا دخل الجنة**»[1].

وقال ﷺ لأبي هريرة: «**من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة**»[2].

ووصف ربنا المنافقين بأنهم يشكون في (لا إله إلا الله) فقال تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة] أي: شكت قلوبهم فهم في شكهم يترددون، ولذلك ترى المنافق مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾[النساء].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣١).

الشرط الثالث: القبول لـ (لا إله إلا الله) المنافي للرد.

على قائل (لا إله إلا الله) أن يقبل ما جاءت به، فالله عز وجل وصف عباده المؤمنين بأنهم يقولون (لا إله إلا الله) سمعنا وأطعنا، إذا أمرهم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

ووصف المكذبين أنهم إذا قيل لهم: قولوا: (لا إله إلا الله) يستكبرون، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

الشرط الرابع: الانقياد والاستسلام لـ (لا إله إلا الله) المنافي للترك.

أي: على قائل (لا إله إلا الله) أن يستسلم لها ولما جاءت به؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر]. أي: ارجعوا إلى ربكم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان]. أي: ينقاد إلى الله وهو موحد، فإن فعل ذلك فقد استمسك بـ (لا إله إلا الله).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب.

على قائل (لا إله إلا الله) أن يقولها صادقاً من قلبه، وكثير من الناس يقولون: (لا إله إلا الله) وهم من أكذب الكاذبين، قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة].

وقال ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار**»(١).

الشرط السادس: الإخلاص المنافي للشرك

على قائل (لا إله إلا الله) أن يصرف عبادته لله وحده، لا لأحد غيره، ومن صرف من العبادة شيئاً لغير الله فقد أشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

وقال ﷺ: «**أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو نفسه**»(٢).

الشرط السابع: المحبة لأهلها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة].

وقال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار**»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢)، واللفظ للبخاري.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

الشرط الثامن: الكفر بالطواغيت.

والطاغوت هو: كل ما يُعبد من دون الله برضاه.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة].

وقال ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حَرُمَ ماله ودمه وحسابه على الله**»[1].

*** ومن الأمثلة على الدعوة إلى الله بعلم:**

تعلق الخوارج ببعض الشبهات الباطلة، فذهب إليهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وردّها عليهم فرجع من رجع منهم وبقي من بقي منهم في ضلالة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (لما خرجت الحرورية -وهم الخوارج-، اعتزلوا في دار وكانوا ستة آلاف. فقلتُ لعليّ: يا أمير المؤمنين، أبرد بالصلاة؛ لعلي أكلّم هؤلاء القوم. قال: إني أخافهم عليك، قلتُ: كلا، فلبست وترجلت، ودخلتُ عليهم في دار نصف النهار وهم يأكلون، فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس، فما جاء بك؟

قلتُ لهم: أتيتكُم من عند أصحاب النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلمُ بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحدٌ؛ لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون، فانتحى لي نفر منهم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣).

قلتُ: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمه؟ قالوا: ثلاث. قلت: ما هنّ؟ قال: أما إحداهن، فإنه حكَّم الرجال في أمر الله؛ وقال الله (تعالى): ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] ما شأن الرجال والحُكم؟ قلت: هذه واحدةٌ.

قالوا: وأما الثانية فإنه قاتل، ولم يَسْبِ، ولم يغنم، إن كانوا كفاراً لقد حل سَباهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سباهم ولا قتالهم؟ قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ ... قالوا: محى نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا. قلت لهم: أرأيتكم إن قرأتُ عليكم من كتاب الله جل ثناؤه، ومن سنة نبيه ﷺ ما يردُّ قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم.

قلت: أما قولكم حكَّم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم في كتاب الله؛ أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيتم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الآية [المائدة:٩٥]، وكان من حكم الله أنه صيَّره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز فيه حكم الرجال، أنشُدُكم الله، أحكم الرجال في صلاح ذات البَين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، هذا أفضل.

وفي المرأة وزوجها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[النساء:٣٥] فنشدتكم الله، حُكم الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة؟ خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة، وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟! فإن قلتم إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها؛ فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا؛ فقد كفرتم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦] فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منهما بمخرج، أفخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، إن نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعليٍّ: «اكتب يا علي! هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك.

فقال رسول الله ﷺ: «**امح يا علي! اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا عليّ، واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله**»، والله لرسول الله ﷺ خيرٌ من عليّ، وقد محى نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة.

أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم -أي: على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه - فقُتلوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار)[1].

---

(١) **حسن**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥/ ١٦٥-١٦٧) والسياق له، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

الصفة الرابعة: القدوة الحسنة.

المقصودُ بالقدوة الحسنة أن يكون الداعي إلى الله صورة حيةً للإسلام، يتجلى الإسلام في تصرفاته وحركاته وسكناته، فتكون عقيدتهُ وعبادتهُ وأخلاقه وتعاملُه مع الناس وفق الكتاب والسنة.

والقدوة الحسنة في الداعي إلى الله لها أهميةٌ عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، ويظهرُ ذلك من الأمور التالية.

الأمر الأول: أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم السلام لتبليغ الشرائع المنزلةِ عليهم قولاً وعملاً.

مما يدلُ على أهمية القدوةِ الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى أنه سبحانه وتعالى لما أرسل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لدعوة أقوامهم لم يجعلهم مجرد نَقَلة للشريعة بالقول فحسب، بل فرض عليهم الإيمان بما كُلّفوا بأمر الناس بالإيمان به، وأمرهم بفعل ما أُلزِموا بأمر الناس بفعله، كما أوجب عليهم اجتناب ما طُلب منهم أن ينهوا الناس عنه.

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل أمر الله تعالى كلّ واحدٍ من الأنبياء أن يكون أول فاعلٍ لما كان يأمر به أمتهُ، وأول مجتنب لما كان ينهاهم عنه، فكانوا عليهم الصلاة والسلام جميعاً قُدوةً حسنةً لأُممهم في فعل الخير الذي كانوا يأمرونهم به، وتركِ الشر الذي كانوا ينهونهم عنه.

*ومن الأمثلة على ذلك:

إبراهيم عليه السلام.

أمر الله عز وجل خليلهُ إبراهيم عليه السلام بأن يُسلِمَ، فأسلمَ عليه السلام، ثم أمر بنيه بالاستسلام لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ [البقرة].

شعيبٌ عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود].

يحيى عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، قال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّبَ**»[1].

إمام الدعاة إلى الله وخاتمُ الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

أمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يُعلن للناس أنه قد أُمر بأن يكون أول من أسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾ [الأنعام].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وابن حبان (٦٢٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٨٥-٢٨٧)، وأبو يعلى (١٥٧٢)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢)].

وكان رسول الله ﷺ أول الناس إيماناً بما أُنزل إليه، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)[١].

الأمر الثاني: ثناء الله عز وجل ورسوله ﷺ على من جمع بين الدعوة والقدوة الحسنة.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت].

فبيّن الله تعالى أن من جمع بين الدعوة والقدوة الحسنةِ والإعلان بإسلامه فهو أحسنُ الناس قولاً.

وقال ﷺ: «**مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث**» -أي: المطر- «**الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيةٌ**» -أي: طيبة- «**قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب**» -أي: الأرض الصلبة- «**أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقَوا وزرعوا. وأصابَ منها طائفة أخرى إنما هي قيعان**» -أي: مستوية ملساء- «**لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فَقِه في دين الله، ونفعهُ ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**»[٢].

ففي هذا الحديث الشريف شبّه النبيُّ الكريمُ ﷺ ما بعثه الله تعالى به من الهدى والعلم بالغيث الكثير، وشبّه العالِمِ العامِل بعلمه والمعلِّم لغيره بأرض طيبة تستفيد من الغيث الكثير، حيث تشرب الماء وتفيد غيرها فتنبت الكلأ والعشب الكثير.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٦/ ٩١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ للبخاري.

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن الإمام القرطبي وغيره من أهل العلم أنهم قالوا في شرح الحديث: (ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه. ثم شبّه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلِّم فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرها)[١].

الأمر الثالث: استعاذة النبيُ الكريم ﷺ من علمٍ لا ينفع.

قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**» -أي: لا ينفع صاحبه-، «**ومن قلب لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[٢].

وقال عليّ رضي الله عنه: (تعلّموا العلم تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله)[٣].

الأمر الرابع: ذمُ من خالف فعلُه قولَه.

وكذلك مما يدل على أهمية القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم من توبيخ وتقريع لمن خالف عملُه قولَه.

• **ففي كتاب الله تعالى:**

وبخ اللهُ الذين يأمرون الناسَ بالمعروف ولا يفعلونه.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

---

(١) انظر: [«فتح الباري» (١/ ١٧٧)].

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٦٤).

وشبّه الله الذين يحملون العلم ولم يعملوا به بالحمار.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ -أي: حملوها وكلّفوا العملَ بها- ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ -أي: لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها- ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة].

وشبّه الله الذي ترك العمل بعلمه بالكلب.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

قال الإمام ابن القيم: (فشبّه سبحانه من آتاه كتابه، وعلّمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به، واتبع هواه وآثر سخط الله تعالى على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسّها نفساً، وهمّته لا تتعدّى بطنه، وأشدّها شرهاً وحرصاً)[1].

ثم إن الله عز وجل يمقتُ الذين يقولون ما لا يفعلون.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

(١) «أعلام الموقعين» (١/ ١٦٥).

• **وفي سنة رسول الله:**

قال ﷺ: «**مثل العالم الذي يُعلّمُ الناس الخير، وينسى نفسه، كمثل السّراج يضيء للناس، ويحرقُ نفسه**»[١].

• **ومن أقوال العلماء في ذم من خالف فعلُهُ قولَه:**

سأل رجلٌ حذيفة رضي الله عنه فقال: (ما النفاق؟) قال: (أن تتكلم بالإسلام ولا تعملَ به) [٢].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عن الذين تخالفُ أفعالهم أقوالهم: (علماء السوءِ جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالُهم للناس: (هلموا) قالت أفعالهم: (لا تسمعوا منهم) فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق)[٣].

قال أبو الأسود الدؤلي:

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيرهُ ... هلّا لنفسك كان ذا التعليم
تصفُ الدواءَ لذي السقامِ من الضنا ... كيما يصحَ به وأنت سقيمُ

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١٤)، [«صحيح الجامع» (٥٨٣١)].
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٦٣).
(٣) «الفوائد» (ص٩٤).

ابــدأ بنفــسك فانههــا عــن غيِّهــا فــإذا انتهــتْ عنــه فأنــت حكــيم
لا تنــه عــن خلــقٍ وتــأتيَ مثلَــهُ عــارٌ عليــك إذا فعلــتَ عظــيم

الأمر الخامس: أن الله عز وجل يسألُ العالمَ يوم القيامة عن علمه ماذا عَمِلَ به.

قال ﷺ: «**لا تزولُ قدما عبد يومَ القيامة حتى يُسأل عن: عمره فيم أفناه؟، وعن علمه فيم فعل فيه؟، وعن ماله من أين اكتسبه؟، وفيم أنفقه؟، وعن جسمه فيم أبلاه؟**»(١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: «يا عويمر!» فأقول: (لبيك رب). فيقول: «ما عملتَ فيما علمتَ»)(٢).

الأمر السادس: سوءُ عاقبة من خالف فعلهُ قولَه.

قال ﷺ: «**مررت ليلة أُسريَ بي على قومٍ تقرضُ**» -أي: تُقطعُ- «**شفاهُهم بمقاريض من نار**»قال: «**قلت: من هؤلاء؟**» قالوا: «**خطباء من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟**»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٤٠)، وأبو يعلى (٧٤٣٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦)].

(٢) **صحيح لغيره موقوف**: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٩)].

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى (٣٩٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٦٧)، وأبن أبي شيبة (١٣/ ٢١٩-٢٢٠)، [«الموسوعة الحديثية»].

وقال ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النـار، فتنـدلق أقتـابُ بطنـه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهـلُ النـار، فيقولـون: يـا فـلان! مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عـن المنكـر؟ فيقـول: بـلى، قـد كنـت آمـرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**»(١).

الأمر السابع: اهتمام الناسِ وارتباطهم بعمل الداعي إلى الله.

ومما يدلُّ على أهمية القدوةِ الحسنة في الـدعوة إلى الله تعـالى مـا يُـشاهَدُ لـدى الناسِ من اهتمامٍ بالغٍ وارتباطٍ وثيقٍ بأعمال الداعي إلى الله، ولذلك كان عمـر بـن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناسَ عن شيء جمع أهل بيته فقال لهم: (إني نهيـتُ النـاس كذا وكذا، وإن الناسَ لينظرون إليكم نظـر الطـير إلى اللحـم. وأيـم الله! لا أجـدُ أحداً منكم فعلَهُ إلا أضعفتُ له العقوبة ضعفين)(٢).

فالناس يتوقعون رؤية صورة حيةٍ للدعوة في سيرة الداعي، وإن وجود أدنـى اختلاف بين فعلِه وقوله يثيرُ تساؤلات حوله، بل أحياناً حول دعوتِهِ.

*** ومن الأمثلة على ذلك:**

١ - استشكال أم سلمة رضي الله عنها صلاة النبي ﷺ بعد العصر لتعارضـها ظـاهراً مـع نهيه ﷺ عن ذلك:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) واللفظ له.

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١/ ١٢٥).

فقد روى الشيخان عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عنها، ثم رأيتُه يصليهما حين صلى العصر، ثم دخل عليّ، وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فأرسلتُ إليه الجارية، فقلت: قومي بجنبه، فقولي له: تقول لك أم سلمة: يا رسول الله! سمعتك تنهى عن هاتين، وأراك تصليهما؟ فإن أشار بيده فاستأخري عنه. ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف، قال: «**يا بنت أبي أمية! سألت عن الركعتين بعد العصر، وإنه أتاني أناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان**»[1].

ومما نجده في هذه القصة أن أم سلمة رضي الله عنها استشكلت الخلاف بين القول والفعل لدى سيد المرسلين أفضل الخلق صلوات ربي وسلامه عليه، وأثار ذلك تساؤلاً لديها، فكيف لا يثير مثل ذلك الخلاف تساؤلاً، بل تساؤلات إذا ما وُجد لدى غيره صلى الله عليه وسلم؟

٢- استشكال حفصة رضي الله عنها استمرار النبي صلى الله عليه وسلم في إحرامه بعد أمره أزواجه بالتحلل:

فقد روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن حفصة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أزواجه أن يَحْلِلْن عام حجة الوداع، فقالت حفصة: فما يمنعك؟. فقال: «**لبّدتُ رأسي، وقلّدتُ هديي، فلستُ أحِلُّ حتى أنحر هديي**»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣٩٨)، ومسلم (١٢٢٩).

الأمر الثامن: أن استجابة الناس للدعوة بالقدوة الحسنة أكثرُ وأسرعُ من استجابتهم للدعوة بالقول فقط.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ - أثر الدعوة المقرونة بالقدوة الحسنة في صرف صاحب الغار عن الفاحشة بعد القدرة عليها:

أخبر النبي الكريم ﷺ عن ثلاثة رهط انطلقوا حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فدعوا الله تعالى بصالح أعمالهم، ففرج الله تعالى عنهم.

وكان من قصة أولئك الثلاثة كما رواها الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**قال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحبَّ الناس إليّ، فأردتُها عن نفسها فامتنعت مني، حتى أَلَـمَّت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدَرت عليها قالت: لا أُحل لك أن تفض الخاتَم إلا بحقه، فتحرجتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها**»[1].

ما الذي جعل الرجل يتحّرج من الوقوع على الفتاة، وقد قدر عليها بعد طول انتظار، بل ولقد كانت أحب الناس إليه؟

إنها رحمة الرب الكريم سبحانه وتعالى، ثم الدعوة المقرونة بالقدوة، فإن المرأة لديها ما لدى الرجل من شهوة، ولكنها كانت ممتنعة عن قضاء وطرها بالحرام،

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) واللفظ للبخاري.

ودعت الرجل الراغب فيها، والقادر عليها في ذلك الحين إلى الامتناع من قضاء شهوته بالحرام، فجعل الله القادر المقتدر كلامها مؤثراً فيه.

٢- أثر الدعوة بالفعل والقدوة الحسنة في مسارعة الصحابة على التحلّل من عمرتهم بعد صلح الحديبية.

عقد النبي الكريم ﷺ الصلح مع قريش بالحديبية، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم، فلم يقم منهم أحد، ثم دعاهم ﷺ إلى التحلل بفعله حيث نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فماذا كان أثر ذلك في أصحابه؟

فلنسمع ما يحدّثنا الإمام البخاري عن مسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان قالا: (فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا**» فوالله! ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بُدْنك، وتدعوَ حالقك فيحلقك.

فخرج، فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً)[1].

ما الذي أخرج الصحابة رضي الله عنهم من ذلك الهم الشديد الذي كانوا فيه بسبب قرار العودة من الحديبية من غير قضاء نسكهم وبعثهم على المبادرة إلى النحر والحلق حتى خيف أن يقتل بعضهم بعضاً بسبب المسارعة؟

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

إنه فضل الله تعالى عليهم أولاً، ثم رؤيتُهم صورةً تطبيقية لما أُمِروا به من قبل النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على هذا الحديث: (**وفيه أن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرّد**)[1].

(كان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا خرج إلى الناس فكأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدّون الدنيا شيئاً)[2].

الأمر التاسع: تعليمُ النبي ﷺ الناس أمور الدين بالبيان الفعلي.

ومما يدلُ أيضاً على أهمية السلوك (القدوة الحسنة) في الدعوة إلى الله تعالى ما ثبت من قيام النبي ﷺ بتعليم الصحابة أمور الدين بالبيان الفعلي.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- تعليم النبي ﷺ كيفية الوضوء بالبيان الفعلي.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف الطُّهُور؟ فدعا ﷺ بماءٍ في إناء فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً، ثم مسح برأسه، فأدخل إصبعيه

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٤٧).

(٢) انظر: «لطائف المعارف» (٥١، ٥٢).

السبَّاحتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، وبالسبّاحتين باطن أذنيه، ثـم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: «**هكذا الوضوء. فمن زاد على هذا أو نقص فقـد أساء وظلم**»، أو «**ظلم وأساء**»)[١].

٢- تعليم النبي ﷺ أوقات الصلاة بالبيان الفعلي.

روى الإمام مسلم عن سليمان بن بريدة عـن أبيـه رضي الله عنه عـن النبـي ﷺ، أن رجلاً سأله عن وقت الصلاة فقال له: «**صلِّ معنا هـذين**» (يعنـي اليـومين). فلـما زالت الشمس أمر بلالاً فأذّن، ثـم أمـره فأقـام الظهـر، ثـم أمـره فأقـام العـصر، والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمـره فأقام العشاء حين غاب الشفق. ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر.

فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر -وهو الدخولُ في البرد- فأبرد بهـا، فأنْعمَ[٢] أن يُبرد بها. وصلى العصر والشمس مرتفعـة. أخرهـا فـوق الـذي كـان، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل، وصلى الفجر فأسفر بها.

ثم قال: «**أين السائل عن وقت الصلاة؟**». فقـال الرجـل: أنـا يـا رسـول الله**!** قال: «**وقت صلاتكم بين ما رأيتم**»[٣].

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه أبو داود (١٣٥)، والبيهقي في «الـسنن» (١/ ٧٩)، والبغـوي في «شرح الـسنة» (٢٢٩)، [«صحيح أبي داود» (١٢٣)] وقال الشيخ الألباني رحمه الله: دون قوله: «أو نقص»، فإنه شاذ.

(٢) فأنعمَ أن يبرد بها: بالغَ في الإبراد بها.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٦١٣).

ونجد في هذا الحديث أن النبي الكريم ﷺ أخبر السائل عن أوقات الصلوات الخمس بأدائها في أوقاتها، قال الإمام النووي مبيّناً فوائد الحديث: (وفيه البيان بالفعل، فإنه أبلغ في الإيضاح)[(١)].

٣- تعليمُ النبي ﷺ الناسَ الصلاة على المنبر.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة، امرأة قد سمّاها سهل «**مُري غلامك النجار، أن يعمل لي أعواداً، أجلس عليهن إذا كلمتُ الناس**». فأمرتْه، فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوُضِعت هاهنا.

ثم رأيت رسول الله ﷺ صلّى عليها وكبّر، وهو عليها، ثم ركع، وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر، ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «**أيها الناس! إنما صنعتُ هذا لتأتموا، ولتعلَّموا صلاتي**»[(٢)].

٤- تعليمُ النبي ﷺ كيفية البزاق في الثوب أثناء الصلاة بالبيان الفعلي.

عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى نُخامة في القبلة فشقّ ذلك عليه، حتى رؤي في وجهه. فقام فحكّه بيده، فقال: «**إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه، أو إن رَبَّه بينه وبين القبلة، فلا يبزقنّ أحدكم قِبل قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه**» ثم أخذ طرف ردائه، فبصق فيه، ثم ردّ بعضه على بعض، فقال: «**أو يفعل هكذا**»[(٣)].

---

(١) «شرح النووي» (٥/ ١١٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩١٧)، ومسلم (٥٤٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٠٥)، ومسلم (٥٥١).

محمدٌ ﷺ أسوة الدعاة إلى الله

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم على نبيه الكريم محمد ﷺ ليُخرجَ الناسَ به من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم].

فأخذ رسول الله ﷺ يتلو القرآن على الناس، قال تعالى: ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق:١١].

ولم يكتف ﷺ بذلك بل أخذ يُعلِّمهُم القرآن، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة].

ولم يقف ﷺ عند تلاوة القرآن على الناس وتعليمهم إياه، بل قدم صورةً حيةً وقدوةً صالحةً حتى لقد قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب].

وهذه زوج النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها وهي من أعرف الناس به، تشهد له بذلك، فعن سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه قال: (انطلقتُ إليها -أي: إلى عائشة رضي الله عنها- فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خُلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن)[1].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٧٤٦).

قال الإمام النووي في شرح قولها ﵂: (معناه العملُ به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبارُ بأمثاله وقصصه، وتدبرُهُ، وحسنُ تلاوتِه) [١].

وإليكم بعض الصور المشرقة من سيرة حبيبنا وأسوتنا محمد ﷺ؛ عسى أن تُنَشِّطَ الهمم في المسارعة إلى طاعة الله، وإلى الدعوة إليه سبحانه وتعالى.

١ - النبي ﷺ وذكره الله تعالى.

جاء الأمرُ بالإكثار من ذكر الله في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب].

وحثّ النبي ﷺ على ذكر الله، فقال ﷺ لرجل من أصحابه: «**لا يزال لسانكُ رطباً من ذكر الله عزّ وجلّ**» [٢]. فكيف كان هو ﷺ في ذكره لربه عز وجل؟

تقول عائشة ﵂: (كان النبي ﷺ يذكرُ الله على كل أحيانه) [٣].

ويقول ابن عمر ﵄: (إنا كنا لنعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة: «رب اغفر لي وتب عليّ؛ إنك أنت التواب الرحيم») [٤].

---

(١) «شرح النووي» (٦/ ٢٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (٤/ ١٨٨)، [«صحيح ابن ماجه» (٣٠٧٥)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٧٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد (٢/ ٢١)، [«صحيح أبي داود» (١٣٤٢)].

٢- اهتمام النبي ﷺ بالصلاة.

ورد الأمر بالمحافظة على الصلوات الخمس في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة].

وأمر النبي الكريم ﷺ المسلمين بالمحافظة عليها كذلك، واستمر يأمرهم ويحثهم عليها حتى كان ذلك آخر كلامه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان آخر كلام النبي ﷺ: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»(١).

فكيف كان اهتمامه ﷺ بالمحافظة عليها؟

لقد حافظ ﷺ على الصلوات الخمس في المسجد في جماعة حتى في مرضه الذي مات فيه، وحافظ عليها جماعةً في سفره، وحافظ عليها جماعةً حتى في حال الحرب.

ولم يحافظ ﷺ على الصلوات الخمس فحسب، بل كان يحافظُ على صلاة الليل، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تَفَطَّرَ -أي: تتشقق- رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله! أتصنع هذا، وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة! أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»(٢).

٣- إنفاقه ﷺ في سبيل الله.

جاء الأمرُ بالإنفاق في سبيل الله في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة].

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٥٨)، [«صحيح ابن ماجه» (٢٢٠١)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللفظ له.

وحث على ذلك رسول الله ﷺ أصحابه، فقال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»(١).

فكيف كان إنفاقه ﷺ في سبيل الله تعالى؟

كان رسول الله ﷺ أكثرَ الناسِ جوداً وإنفاقاً وكرماً، يظهر ذلك من الأدلة التالية:

عن جابرٍ رضي الله عنهما قال: (ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ، فقال: لا)(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: (ما سُئِلَ رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال: فجاء رجل فأعطاهُ غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلِموا، فإن محمداً يُعطي عطاءً لا يخشى الفاقة) (٣).

وعنه رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ لا يدخرُ شيئاً لغدٍ) (٤).

٤- معاشرته ﷺ لنسائه.

ورد الأمرُ بمعاشرة النساء بالمعروف في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٦٢)، وابن حبان (٦٣٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٦٤)، والضياء في «المختارة» (١٦٠١)، [«مختصر الشمائل» (٣٠٤)].

وقال ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً**»[١].

فكيف كان ﷺ يتعامل مع نسائه؟

كان رسولُ الله ﷺ من أحسن الناسِ تعاملاً مع نسائه، يظهر ذلك من الأدلة التالية:

سُئِلتْ عائشة رضي الله عنها: ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في أهله؟ قالت: (كان في مهنة أهله -أي: في خدمة أهله-، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)[٢].

وتقول عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**خيركُم خيرُكُم لأهله، وأنا خيركُم لأهلي**»[٣].

٥- وفاؤه ﷺ بالعهد:

ورد الأمر بالوفاء بالعهد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾[الإسراء].

وأمر النبي ﷺ أمتهُ بالوفاء بالعهد، فقال ﷺ: «**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عُقدةً، ولا يحلّها حتى ينقضي أمدُها، أو ينبِذ إليهم على سواء**»[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠٣٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، والدارمي (٢٢٦٤)، وابن حبان (٤١٦٥)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٨٥)].

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، وأحمد (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٥٩)، وابن الجارود (١٠٦٩)، [«صحيح أبي داود» (٢٣٩٧)].

فكيف كان اهتمامه ﷺ بالوفاء بالعهد حتى مع الأعداء؟

عن حذيفة رضي الله عنهما قال: (ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيل -وهو والد حذيفة رضي الله عنه- قال: فأخذنا كفارُ قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهدَ الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر. فقال: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»[1].

٦- النبي ﷺ والإيثار.

ورد الحثُّ على الإيثار في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وحثّ النبي ﷺ أمتهُ على الإيثار كذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «**أن تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى**»[2].

فكيف كان صلوات ربي وسلامه عليه في إيثاره الآخرين على نفسه وأهله؟

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (جاءت امرأة ببردة... قالت: يا رسول الله! إني نسجتُ هذه بيدي أكسوكها. فأخذها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٨٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

وإنها لإزاره، فجسّها -أي: مسها- رجل من القوم فقال: يا رسول الله! أكسنيها. قال: «**نعم**». فجلس ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنتَ. سألتَها إياه، وقد عرفت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل: والله! ما سألتها إلا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه)[(١)].

٧- عفو النبي ﷺ وصفحُه.

ورد الأمرُ بالعفو والصفح في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر].

ورغبّ النبي ﷺ أمتهُ في ذلك، قال ﷺ: «**يا عقبة بن عامر! صِلْ من قطعكَ، وأعطِ من حرمَك، واعفُ عمن ظلمك**»[(٢)].

وفي رواية: «**وأعرض عمن ظلمك**»[(٣)].

فكيف كان عفوه وصفحه ﷺ عمن ظلمه؟

عندما جاء مَلكُ الجبال إلى النبي ﷺ وقال له: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ -أي: تأمرني بما شئت-، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يُشرك به شيئاً**»[(٤)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٨١٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٧٩)، [«الصحيحة» (٨٩١)].

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨)، [«الموسوعة الحديثية»].

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) واللفظ له.

كيف لا؟ والله عز وجل يقول في وصفه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين، وسيف النبي ﷺ معلّق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ قال: «**لا**». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «**الله**»[1].

وفي رواية لأبي بكر الإسماعيلي في «صحيحه»: فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال: «**من يمنعك مني؟**» فقال: كن خير آخذ. فقال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**» قال: لا. ولكني أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[2].

٨- تواضعه صلوات ربي وسلامه عليه.

جاء الأمرُ الإلهي للنبي ﷺ بالتواضع، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء].

وأمر النبي ﷺ أمته بذلك فقال ﷺ: «**وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[3].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤١٣٦)، ومسلم (٨٤٣).

(٢) «رياض الصالحين» حديث رقم (٧٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

فكيف كان تعامله ﷺ مع أصحابه؟

كان ﷺ من أكثر الناس تواضعاً، يظهر ذلك من الأدلة التالية:

عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال: (انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله! رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟

قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي، حسبتُ قوائمه حديداً، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها)[1].

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ رضي الله عنه راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته)[2].

٩- زهده ﷺ في الدنيا.

جاء الأمرُ بالزهد في الدنيا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

وأمر رسول الله ﷺ أمته بذلك، فقال ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٧٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥)، وابن حبان (٦٤٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٨٣٧)، [«الموسوعة الحديثية»].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦١٤).

ولقد ضرب النبي ﷺ لأمته أروع الأمثلة في الزهد في الدنيا، يظهر ذلك من الأدلة التالية:

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: (ابن أختي! إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقلت: يا خالة! ما كان يعشِّيكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانه، فيسقينا)[١].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «**مالي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»[٢].

وتقول عائشة رضي الله عنها: (ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا شاةً، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء)[٣].

بل لقد مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير أخذه طعاماً لأهله) [٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١)، والحاكم (٤/ ٣٤٥)، [«صحيح الجامع» (٥٦٦٨)].

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٦٣٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٣٦١)، والنسائي (٤٦٥١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٨٦٣)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٣٦)، [«الموسوعة الحديثية»].

١٠- دعوته ﷺ إلى الله تعالى.

ورد الأمر بالقيام بالدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج].

وأمر النبي ﷺ أمته بذلك، فقال ﷺ: «**بلّغوا عني ولو آية**»[1]، وقال ﷺ: «**فليبلغ الشاهدُ الغائبَ**»[2].

فكيف كانت عنايته ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى؟

كان ﷺ أشد الناس اهتماماً وأكثرهم عنايةً بالدعوة إلى الله تعالى، فكان يدعو إلى الله في جميع الأماكن والأزمان والأحوال، وكان ﷺ يستخدم في سبيل ذلك جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحةِ له، يظهر ذلك من الأدلة التالية:

عن شيخ من بني مالك بن كنانة قال: (رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «**يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**». قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: يا أيها الناس، لا يغرّنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى. قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ)[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٦٣)، [«الموسوعة الحديثية»].

عن ربيعة بن عباد من بني الديل -وكان جاهلياً فأسلم- قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق (ذي المجاز) وهو يقول: «**يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه؟ فقالوا: هذا عمه أبو لهب[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانت عامة وصيّة رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»)[2].

أرأيتم يا معشر الدعاة إلى الله تعالى كيف كان النبي ﷺ حريصاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في آخر أنفاسه الشريفة.

كانت هذه نماذج عامة من سيرته ﷺ، جمع فيها بين القول والعمل، وإليكم هذه النماذج في دعوته ﷺ بشكل خاص والتي يجمع فيها أيضاً بين القول والعمل.

١- مشاركته ﷺ في بناء المسجد وأثرها على الصحابة.

رغب رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة في بناء المسجد، فأمر بذلك أصحابه. ولكنه ﷺ لم يقتصر على أمر أصحابه ببنائه، بل شارك معهم، فعن أنس

---

(١) **إسناده جيد**: أخرجه أحمد (٤/ ٣٤١)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٦١)، والحاكم (١/ ٦١-٦٢)، [«صحيح السيرة النبوية» (ص١٤٢، ١٤٣)].

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، وأحمد (٣/ ١١٧)، وأبو يعلى (٢٩٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٥٢)، والبزار «البحر الزخار» (٧٠١٤)، [«صحيح ابن ماجه» (٢٢٠٠)].

رضي الله عنه قال: (وجعلوا [أي: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم] ينقلون الصخر [لبناء المسجد] وهم يرتجزون، والنبي صلى الله عليه وسلم معهم، وهو يقول:

«اللهم لا خير إلا خير الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة»[1])

ويقول أنس رضي الله عنه: (فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبنيه -أي: المسجد- وهم يناولونه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«ألا إن العيشَ عيشُ الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة»[2])

٢- مشاركته صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق وأثرها على الصحابة.

قرّر رسول الله صلى الله عليه وسلم حفر الخندق في غزوة الأحزاب، فأمر أصحابه بحفره، ولم يقف صلوات ربي وسلامه عليه عند ذلك، بل شارك مع أصحابه في حفره، عن البراء رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل معنا التراب، ولقد وارى الترابُ بياض بطنه وهو يقول:

«والله لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فأَنْزِلَن سكينة علينا   إن الأُلى قد أبوا علينا»

قال: وربما قال:

«إن الملأ قد أبوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينا»

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٧٤٢)، وأحمد (٣/ ١١٨)، [«صحيح ابن ماجه» (٦١١)].

ويرفع بها صوته)[١].

٣- رأفته ﷺ بأصحابه.

خرج النبي الكريم ﷺ في غزوة الفتح مع أصحابه في شهر رمضان، فكان ﷺ يصوم كما كان أصحابه يصومون معه، فبلغه عليه الصلاة والسلام أن الناس يشقّ عليهم الصيام، فرغب في رفع مشقة الصيام عنهم في سفر الجهاد، فدعا بإناء من لبن أو ماء، وهو على راحلته، فرفعه إلى أقصى طول يده ليراه الناس، فأفطر فلم يكن من الصحابة إلا أن أفطروا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فصام حتى بلغ عُسفان، ثم دعا بماء، فرفعه إلى يده ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان)[٢].

٤- طلب النبي ﷺ من أهله ضيافة المحتاج قبل أن يطلب ذلك من أصحابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق! ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، حتى قلن كلهنَّ مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.

فقال: «**من يُضَيِّفُ هذا الليلة، رحمه الله؟**». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا، يا رسول الله! فانطلق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٣٦)، ومسلم (١٨٠٣) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٩٤٨)، ومسلم (١١١٣).

قوت صبياني، قال: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السِّراج، وأريه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف.

فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «**قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**»[١].

٥- بدء النبي ﷺ بإبطال دم حفيد عمه وربا عمّه، وذلك عند إبطال دماء الجاهلية ورباها.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه -في حديث طويل عن حجة الوداع- قال: فأتى -أي: النبي ﷺ- بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله**»[٢].

٦- بدء النبي ﷺ برد ما كان له ولبني هاشم من سبي هوازن، وعند حثه للصحابة على ذلك، وأثر ذلك عليهم.

جاء وفد هوازن تائبين، وأراد النبي ﷺ ترغيب المسلمين في رد سبيهم إليهم، فبدأ ﷺ بردّ ما كان له ولبني هاشم، ثم رغّب المسلمين في ردّ ما لديهم من سبيهم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٢١٨).

عن مروان والمسور بن مخرمة رضي الله عنه قالا: (فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد، فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحبّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك** -أي: يعطيه بطيب نفسه- **فليفعل، ومن أحبّ أن يكون على حظه** -أي: يَرُدَّ السَبي بشرط أن يُعطى عوضه- **حتى نعطيه إيّاه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل**». فقال الناس: قد طيّبنا ذلك يا رسول الله!)[1].

فخلاصة الكلام أن النبي ﷺ كان يسارع إلى فعل ما كان يأمر به أصحابه، كما كان عليه الصلاة والسلام يبادر إلى اجتناب ما كان ينهى عنه أصحابه، وقد كان لذلك أثر كبير في استجابة الصحابة لأمره ونهيه.

سلف الأمة خير من تأسى بالنبي ﷺ

وبعدما تقدم، أقدم فيما يلي نماذج من حياة سلفنا الصالح، الذين كانوا يسارعون إلى فعل الطاعات وترك المنكرات، فكانوا خير أسوة -بعد النبي ﷺ- لمن بعدهم، وكانوا حقاً خير الدعاة للناس بأقوالهم وأفعالهم.

١- أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحرصه على الأعمال الصالحة.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم اليوم صائماً؟**» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن**

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٣١٨، ٤٣١٩).

أطعم منكم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟**» قال: أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة**»[١].

٢- عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتواضعه.

يقول سعيد بن المسيَّب رحمه الله تعالى: (حجّ عمر، فلما كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العليّ العظيم، المعطي ما شاء لمن شاء، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي، في مدرعة صوفٍ، وكان فظاً، يتعبُني إذا عملتُ، ويضربُني إذا قصرتُ. وقد أمسيتُ ليس بيني وبين الله أحدٌ! ثم تمثل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويفنى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه	والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له	والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التي كانت لعزتها	من كل أوب إليها وافدٌ يفدُ
حوض هنالك مورودٌ بلا كذبٍ	لا بد من ورده يوماً كما وردوا[٢]

٣- أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه وإنفاقه في سبيل الله.

يقول أنس رضي الله عنه: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخلٍ، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاءُ، وكانت مستقبلةً المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخُلُها

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠٢٨).

(٢) ابن عساكر (٤٤/ ٣١٦).

ويشرب من ماءٍ فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]. قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بخٍ، ذلك مالٌ رابح! ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله! فقسمها أبو طلحة في أقاربهِ وبني عمه)(١).

٤- الصحابة رضي الله عنهم وتحريم الخمر.

هاجر النبي ﷺ والمسلمون معه إلى المدينة، وكان فيهم من يشرب الخمر لأنها لم تحرم بعد، وبعدما استقرت الأقدام في المدينة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:١٩]، فقالوا: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء]، فقال الفاروق عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فحرم الله الخمر تحريماً نهائياً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

فقالوا: انتهينا، انتهينا، وأخرجوا ما كان في بيوتهم من الخمر وأراقوه في شوارع المدينة.

قال أنس رضي الله عنه: (إني لقائم أسقيها -أي: الخمر- أبا طلحة وأبا أيوب ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ في بيتنا، إذ جاء رجل فقال: هل بلغكم الخبر؟ قلنا: لا، قال: فإن الخمر قد حرمت، فقال: يا أنس! أَرِق هذه القلال، قال: فما راجعوها ولا سألوا عنها، بعد خبر الرجل) [(١)].

٥- أبو هريرة رضي الله عنه وتلاوة القرآن الكريم في صلاة الليل في بيته.

عن أبي عثمان النهدي قال: (تضيّفتُ أبا هريرة رضي الله عنه سبعاً فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون -أي: يتناوبون- الليل أثلاثاً، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا) [(٢)].

٦- حُب الأنصار لقراءة القرآن الكريم.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، وجاء زوجها وكان غائباً، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلاً، فقال: «**من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟**» فانْتُدِبَ رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦١٧)، ومسلم (١٩٨٠) واللفظ له.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦٠٩).

الله!. قال: «**فكونوا بفم الشِّعب**». قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي. فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب، قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ الليل أحب إليك أن أكفيكه، أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله.

فاضطجع المهاجري، فنام، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة[1] القوم، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه، فوضعه، وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه فنزعه، فوضعه، وثبت قائماً. ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهبَّ[2] صاحبه فقال: اجلس فقد أُتيتُ.

فوثب، فلما رآهما الرجل، عرف أن قد نذروا[3] به، فهرب. فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله! ألا أهببتني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أُحبّ أن أقطعها حتى أُنفِذَها. فلما تابع الرميَ ركعتُ، فأريتُك. وأيم الله! لولا أن أُضيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفِذها[4].

فيا أيها المسلمون! ويا دعاة الإسلام! هؤلاء هم أسلافكم فبهم اقتدوا تهتدوا.

---

(١) ربيئة القوم: حارسهم.

(٢) أهبَّ: أيقظ.

(٣) نذروا: شعروا.

(٤) **حسن**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣، ٣٤٤)، وأبو داود (١٩٨)، وابن خزيمة (٣٦)، وابن حبان (١٠٩٣)، والحاكم (١/ ٢٨٥، ٢٥٩)، والدارقطني (٨٥٨)، [«الموسوعة الحديثية»].

الأصل الثالث: المدعو[1]

من هو المدعو؟

المدعو هو: الإنسان، أيُّ إنسان كان، وكل إنسان، لأن الإسلام رسالةُ الله الخالدة التي بعث الله بها محمداً ﷺ إلى الناس أجمعين، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨].

وهذا العموم بالنسبة للرسالة والدعوة لا يُستثنى منه أي إنسان، فكل إنسان بالغ عاقل مخاطبٌ بالإسلام ومكلفٌ بقبوله، والإذعان له، مهما كان جنسهُ ونوعهُ ولونهُ ومهنتهُ وإقليمهُ، ذكراً كان أو أنثى، إلى غير ذلك من الفروق بين البشر، ولذلك فقد كان ممن آمن بمحمد ﷺ العربي كأبي بكر، والحبشي كبلال، والرومي كصهيب، والفارسي كسلمان، والمرأة كخديجة، والصبي كعلي بن أبي طالب، والغني كعثمان بن عفان، والفقير كعمار رضي الله عنهم أجمعين.

أصناف المدعوين:

الصنف الأول: «الملأ» وهم السادة والكُبراء.

الصنف الثاني: جمهور الناس وعامتهم.

الصنف الثالث: أهل الكتاب.

الصنف الرابع: المنافقون.

الصنف الخامس: العُصاة.

---

(١) انظر: كتاب «مراعاة أحوال المخاطبين» د. فضل إلهي.

فعلى الداعي إلى الله أن يكون على علمٍ بأصناف المدعوين؛ ليدعو كل صنف بالطريقة التي تناسبهُ؛ ويراعيَ أحوالهم.

مُراعاة أحوال المدعوّين (المخاطَبين).

هناك بعضُ الدعاة لا يوفقون في دعوتهم لأسباب كثيرة منها: أنه لا يُراعي أحوال المدعوين أو المخاطبين في دعوته، إما بالإفراط وإما بالتفريط، فمن الدعاة مَنْ لا يُلقي للمدعوين أو المخاطبين بالاً (**وهذا تفريطٌ**) ومنهم من يغيرُ ويُبدلُ في الأصولِ والأسسِ ويقع في معصيةِ الله بحجة مراعاةِ أحوال المدعوين أو المخاطبين (**وهذا إفراطٌ**).

ومراعاةُ أحوالِ المدعوين أو المخاطبين أمرٌ مشروعٌ في الكتاب والسنة.

أولاً: مشروعيةُ مراعاة أحوال المدعوين أو المخاطبين في كتاب الله.

تظهرُ مراعاةُ أحوال المدعوين أو المخاطبين في كتاب الله مما يلي:

١- إرسال الرسل.

إنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ، وكان من حكمة الله عز وجل أنه بعث إلى كل أمةٍ نبياً منهم، وبلسانهم، وبمعجزات تناسب عصره، وفي كل هذا مراعاة لأحوال من بعث إليهم الأنبياء عليهم السلام، وإليكم تفصيل هذا الكلام.

أ. اصطفاءُ الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من بين أقوامهم.

ومما يدل على ضرورة علم الداعية بأحوال المدعوين وأهمية مراعاتها أثناء الدعوة إلى الله عز وجل إن الله عز وجل اصطفى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من بين أقوامهم، فعلى سبيل المثال:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ [الشعراء:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ [الشعراء:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ [الشعراء:١٤٢].

فبيّن سبحانه وتعالى أن نوحاً وهوداً وصالحاً عليهم السلام كانوا إخواناً لأقوامهم، أي: في النسب.

وهكذا بعث الله تعالى إلى كل أمة نبياً منهم، وكانت الحكمة في ذلك -والله تعالى أعلم- أن الناس يكونون أفهم لكلام النبي المبعوث إليهم لأنه منهم، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته، وأقرب إلى اتباعه، وكذلك فالنبي المبعوث في قوم هو منهم أعرف بهم وبمشاكلهم ورغباتهم.

ب. بعث الله تعالى الرسل عليهم السلام بألسنة أقوامهم.

ومما يدل على ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين، وأهميتها في الدعوة إلى الله تعالى، أن الله عز وجل لم يرسلْ رسولاً إلا بلسان قومه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم] وكانت الحكمة في ذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولوا: إننا لم نفهم ما خوطبنا به.

ومما ينبغي التنبيه إليه أنه لا حجة للعجم في هذه الآية للكفر بنبوة إمام الأنبياء وقائد المرسلين محمد ﷺ، لأن من تُرجم له ما جاء به النبي الكريم ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة.

ج. إعطاء الله عز وجل الأنبياء عليهم السلام معجزاتٍ تلائم حال أقوامهم.

أيد الرب عز وجل النبيين والمرسلين عليهم السلام بمعجزات متنوعة، فمما أيد به موسى **عليه السلام معجزة العصا**، ومما أيد تعالى **عيسى عليه السلام معجزة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى**، ومن المعجزات التي وهبها الله عز وجل **لنبينا الكريم القرآن الكريم الذي أوحاه الله تعالى إليه**، قال ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[1].

وكانت الحكمة في تنوع معجزات الأنبياء عليهم السلام -كما بيّن ذلك كثير من علماء الأمة- مراعاة مناسبتها لأحوال أقوامهم.

ومما لا شك فيه أنه تتجلى في ملاءَمَةِ معجزات الأنبياء عليهم السلام أحوال أقوامهم ضرورةُ مراعاة أحوال المخاطبين في الدعوة إلى الله تعالى واختيار الوسيلة والأسلوب المناسبين لهم، والله تعالى أعلم.

٢- أمر الله عز وجل حبيبه الكريم محمداً ﷺ بالقيام بالدعوة بعدة طرق.

ومما يدل على ضرورة التعرف على أحوال المدعوّين ومراعاتها أثناء الدعوة، أنه سبحانه وتعالى أمر نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام بالقيام بالدعوة بعدة طرق، فعلى سبيل المثال جاء الأمر الإلهي بالقيام بالدعوة بثلاث طرق في قوله عز وجل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له.

ففي الآية الكريمة أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالقيام بالدعوة بثلاث طرق، وهي:

١- الحكمة.

٢- الموعظة الحسنة.

٣- المجادلة بالتي هي أحسن.

وتُستخدم مع كل صنف طريقة تناسبه وتلائمه، قال الإمام ابن القيم في تفسير هذه الآية: جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق:

فالمستجيبُ القابلُ الذكي **الذي لا يعاندُ الحق ولا يأباه**: يدعى بطريق الحكمة.

والقابل الذي **عنده نوعُ غفلةٍ وتأخرٍ**: يُدْعى: بالموعظة الحسنة: وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

والمعاند الجاحدُ يجادَلُ بالتي هي أحسن.

وورد الأمر الرباني باستخدام الشدّة والغلظة مع الكفار والمنافقين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: (فأمرهُ الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم)[1].

وخلاصة الكلام: أن الله عز وجل أمر النبي ﷺ باستخدام عدة طرق في الدعوة إلى الله تعالى، مع كل صنف الطريقة التي تناسبه، وإن اختيار طريقة من

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٥٦٦).

تلك الطرق مع طائفة من الطوائف، يتطلب معرفة حال تلك الطائفة حتى تُستخدم الطريقة الملائمة لها.

٣- تظهر مراعاةُ أحوال المدعوّين في كتاب الله من التشريعات الإسلامية.

ومما يدلُّ أيضاً على ضرورة مراعاة أحوال المدعوين وأهميتها أن الله عز وجل قد راعى أحوال العباد فيما شرعه لهم، ويتجلى هذا فيما يلي:

أ- مراعاةِ أحوالِ الناس في ترتيب نزول القرآن الكريم.

ومما يدلُّ على ضرورة مراعاة أحوال الناس في الدعوة أن الله عز وجل راعى أحوال العباد في **ترتيب التنزيل**.

تقول عائشة ﵂: (...إنما نزلَ أول ما نزل منه -أي: القرآن- سورة المفصل، فيها ذكرُ الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نزل الحلالُ والحرام.

ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر) لقالوا: (لا ندعُ الخمرَ أبداً). ولو نزل: (لا تزنوا) لقالوا: (لا ندعُ الزنا أبداً). لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[القمر]. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده -أي: بالمدينة-)[1].

ويتضحُ فيما ذكرته أم المؤمنين عائشة ﵂ مراعاةُ أحوال النفوسِ البشريةِ في ترتيب التنزيل.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على ما ذكرته رضي الله عنها: (أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاءُ إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار. فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت: (ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: (لا ندعها) وذلك لِما طُبعت عليه النفوس من النُّفرة عن ترك المألوف)[1].

ب- مراعاة أحوال الناس بتشريع رخصٍ عند القيام بأركان الإسلام الأربعة.

جعل الله تعالى الصلاة والزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام، واقتضت حكمته جل جلاله بتشريع رُخصٍ للعبادِ عند القيام بها مراعاةً لظروفهم وأحوالهم، فعلى سبيل المثال:

* الوضوء، جاء فيه رخصة التيمم في حال عدم وجود الماء مثلاً، وفي حال عدم القدرة على استخدام الماء. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾[النساء]

* الصلاة في حالة المرض والخوف والسفر والمطر، رخص الله -سبحانه فيها مالم يرخص في حال الصحة والأمن والإقامة، والأدلة على ذلك كثيرة صحيحة تطلب من مظانها.

(١) «فتح الباري» (٩/ ٤٠).

ج- مراعاة أحوال الناس بتشريع التفريق بين حالتي الخطأ والعمد في الأحكام.

ومما يدل على عظيم اهتمام الإسلام بأحوال الناس وظروفهم، ومراعاتها أنه فرّق بين حالتي الخطأِ والعمدِ في الأحكام فعلى سبيل المثال:

* الأكل والشرب عمداً وخطأً في نهار رمضان، فيؤاخذ الصائم على العمد ويعفى عنه في حال الخطأ والنسيان.

* القتل عمداً وخطأً.

د- مراعاة اختلاف أحوال الناس بتشريع التنويع في عقوبة الزنا.

ومما يدلُّ على ضرورة مراعاة أحوال المدعوين وأهميتها ما شرع الله تعالى من التنويع في عقوبة الزنا، حيث جعل عقوبة مرتكبي هذه الجريمة على قدر نسيانهم، ونكرانهم للنعمة التي أنعمها عليهم. فقرر أن عقوبة الزاني البكر الجلد مائة والنفي سنة، وعقوبة الثيب الجلدُ مائة والرجم[1].

قال ﷺ: «**خذوا عني! خذوا عني! قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلدُ مائةٍ ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»[2].

فجعل الله تعالى عقوبة المحصن أشد من عقوبة البكر، لأن معصيته أقبح حيث منحه الله تعالى نعمة وفرصة لوقاية نفسه عن الحرام، لم يمنحها البكر، فبزيادة النعمة، زاد قبح المعصية، وزادت العقوبة كذلك.

(١) اختلف أهل العلم في الجمع بين الجلد والرجم للزاني الثيب والراجح الاقتصار على الرجم فقط لأنه فعل النبي ﷺ.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٦٩٠).

و- مراعاة أحوال الناس بتشريع التنويع أو التخيير في الكفارات.

شرع الله عز وجل كفارات لتكفير سيئات العباد وتطهيرهم من الآثام والذنوب، ولم يقتصر لطفه بهم على ذلك بل جعل أنواع الكفارات عديدة، كي يتمكنوا من اختيار النوع الميسور لهم منها، فعلى سبيل المثال شرع الله تعالى **كفارة الأَيمان**، فخيّر العباد بين **إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة**، فإذا تعذر عليهم الكفارة بأحد هذه الأمور الثلاثة شرع لهم صيام **ثلاثة أيام كفارة لذلك**.

كذلك أذن المولى عز وجل **بصوم شهرين متتابعين** عند تعذر تحرير **رقبة مؤمنة** في كفارة قتل الخطأ.

كما شرع الله عز وجل التخيير في كفارة قتل المحرم الصيد متعمداً بين الهدي والصيام والطعام.

وفي **كفارة الظهار جاء الترتيب على النحو التالي**:

١- تحرير رقبة.

٢- صوم شهرين متتابعين لمن لم يستطع العتق.

٣- إطعام ستين مسكيناً لمن لم يستطع الصوم.

فخلاصة الكلام: أن الإسلام قد راعى أحوال الناس بتشريع التنويع والتخيير في الكفارات. وهذا مما لا شك فيه ينبه على ضرورة اهتمام الداعية بأحوال الناس وظروفهم عند مخاطبته إياهم.

وسنّ رسول الله ﷺ ترتيب الكفارة **لمن جامع في نهار رمضان** على النحو التالي:

١- عتق رقبة.

٢- صوم شهرين متتابعين لمن لم يستطع العتق.

٣- إطعام ستين مسكيناً لمن لم يستطع الصوم.

فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! هلكت. قال: «**ما لك؟**».

قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم.

فقال رسول الله ﷺ: «**هل تجد رقبة تعتقها؟**». قال: لا. قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا. قال: «**فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟**» قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ. فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيها تمر، والعَرَق: المِكتل، قال: «**أين السائل**» فقال: أنا. قال: «**خذها، فتصدّق به**». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله! ما بين لابتيها -يريد الحرّتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي.

فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «**أطعمه أهلك**»[١].

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على الحديث الشريف: (وفي الحديث أيضاً أن الكفارة بالخصال الثلاث على الترتيب المذكور)[٢]. ولم يقتصر الأمر على مراعاة

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٤/ ٢١٣).

الترتيب المذكور، بل راعى النبي ﷺ حال من كان عليه الكفارة، فقرّر أن إطعام ما أُعطيَهُ من الصدقة لأهل بيته يكفيه عن إطعام ستين مسكيناً.

ثانياً: مشروعية مراعاةِ أحوال المدعوين أو المخاطبين في السنة النبوية المطهرة.

لقد كان إمامُ الدعاةِ وقدوتهم رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه يعتني عنايةً شديدةً بأحوال المخاطَبين، وكان يهتم اهتماماً بالغاً بمراعاة اختلاف أحوال الناس، وشخصياتهم أثناء الدعوة والتوجيه والإرشاد.

وقد شهد أصدق القائلين، وأعظم الشاهدين ربنا عز وجل بقيام النبي ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، فقال عز من قائل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

فقد كان ﷺ يدعو على بصيرةٍ فيما يدعو إليه، وعلى بصيرةٍ في حالِ المدعو، وعلى بصيرةٍ في كيفية الدعوة، وقد تجلت عنايته الكريمة بأحوال المخاطبين، وظهر اهتمامه بمراعاتها في عدة صور وأشكال منها:

١- إخبار النبي ﷺ لمن يرسله داعياً عن وصفِ المدعوين، وأمره الدعاة بمراعاة الترتيب والتدرج في الدعوة.

ومما يدل على اهتمام النبي الكريم ﷺ بأحوال المدعوين ومراعاتها: أنه ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أخبره عن حال من سيأتيهم، كما أمرهُ بمراعاة الترتيب والتدرج في الدعوة نظراً إلى أحوالهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل، حين بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوماً أهل كتابٍ، فإذا جئتهم فادعهم إلى: أن يشهدوا أن لا إله إلا**

الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لـك بـذلك، فـأخبرهم أن الله قـد فـرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً، تُؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ عـلى فقـرائهم، فـإن هـم أطـاعوا لـك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[١].

فمما نجده في هذا الحديث الشريف أن النبي الكـريم ﷺ أخـبر معـاذاً رضي الله عنه عن حال من أرسله إليهم.

يقول الحافظ ابن حجر مبيناً حكمة ذلك: (هي كالتوطئة للوصـية لتـستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، ونجد في هذا الحـديث الـشريف أيـضاً أمـره ﷺ معاذاً رضي الله عنه بمراعاة الترتيب في الدعوة).

ويقول الحافظ ابن حجر مبيناً حكمة ذلك: (بدأ بـالأهم فـالمهم، وذلـك مـن التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة)[٢].

٢- تخوُّل النبي الكريم ﷺ أصحابه بالموعظة في الأيام، وقِصر خطبته ﷺ.

إن من المعروف المشهور حبَّ الصحابة للرسول الكريم ﷺ وتعظيمهم إياه، لقد كان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأولادهم والناس أجمعين، وكـانوا يعظمونه ﷺ حتى وصفهم عدوهم لقومه بقولـه: (أي قـوم! لقـد وفـدتُ عـلى

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٣٥٩).

الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! إن رأيت مليكاً قطُّ يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمدٍ ﷺ محمداً)[(١)].

وإذا كان حب الصحابة وإجلالهم للنبي ﷺ بهذه الصورة، فكيف يكون حرصهم واشتياقهم للاستماع له؟ لكن وبرغم هذا الحب كله، كان رسول الله ﷺ يراعي الأوقات في تذكيرهم، ولم يكن يعظهم كل يوم، وكان كذلك يقصد في خطبته، وفيما يلي ما يدل على ذلك:

أ- تخوّله ﷺ أصحابه بالموعظة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظةِ في الأيام، كراهةَ السآمة علينا)[(٢)].

ب- قِصَر خطبته ﷺ.

ولم يكن النبيّ الكريم ﷺ يطيلُ الخطبة، بل كانت خطبتهُ قصداً.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كنت أصلي مع رسول الله ﷺ، فكانت صلاته قصداً، وخطبتهُ قصداً)[(٣)]. والمراد بكونها قصداً -كما ذكر الملاّ علي القارئ-: (متوسطة بين الإفراط والتفريط من التقصير والتطويل)[(٤)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٦).

(٤) انظر: «مرقاة المفاتيح» (٣/ ٤٩٨).

ومما لا شك فيه أن تخول النبي ﷺ أصحابه بالموعظة في الأيام، وقِصَر خطبته يدلان على ضرورة مراعاة أحوال الناس في الدعوة إلى الله تعالى.

٣- اهتمامُ النبي الكريم ﷺ بتقريب المعاني إلى أفهام المخاطبين -على تفاوت أفهام الناس- وذلك لترسيخ المعاني في القلوب والعقول.

ومما يدل على عناية النبي الكريم ﷺ بمراعاة أحوال المخاطبين أنه كان يهتم بتفهيمهم كلامه، وترسيخ معانيه في أذهانهم، وقد كان عليه الصلاة والسلام يستخدمُ أساليب متعددة، ووسائل متنوعة لتحقيق هذا الهدف، وقد تجلّى هذا في سيرته المطهرة في عدة أشكال وصور عديدة، منها ما يلي:

أ- كونُ كلامه ﷺ كان فصلاً بيناً.

عن عائشة رضي الله عنها (أن رسول الله ﷺ لم يكن يسردُ الحديث كسردِكم)[١].

والسردُ: هو الإتيان بالكلام على الولاء والاستعجال فيه، ومعنى الحديث -كما ذكر الحافظ ابن حجر-: (لم يكن ﷺ يتابع الحديث استعجالاً، بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع)[٢].

بل كان هناك تأنٍ وتمهل في كلامه ﷺ مع تبيين الحروف والحركات.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٥٧٨).

وصوّرت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها كلامه ﷺ بقولها: (كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه)[١]، وقد بلغ اهتمامه صلوات ربي وسلامه عليه بهذا حتى لو عدّ العادّ حديثه لأحصاه، عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان يحدّث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه)[٢]، صلوات الله وسلامه عليه، أين هذا من أولئك الذين يجعلون كل همّهم إلقاء ما أخذوه وحفظوه، من كلمات وعبارات على عُجالة، من هنا وهناك على مسامع الحاضرين، سواءٌ فهموا نصف كلامهم أو ثُلُثَه أو رُبْعه أو سُدْسَه، أم لم يفهموا منه شيئاً؟ فإلى الله المشتكى، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

ب- إعادته ﷺ للكلام أثناء الدعوة والتعليم.

ومن مظاهر اهتمامه ﷺ بتفهيم السامعين كلامه، أنه كان يكرّره ويعيده، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد**»[٣].

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «**استووا، استووا، استووا، فوالذي نفسي بيده، إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي**»[٤].

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٣٩)، وأحمد (٦/ ١٣٨)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠٩)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢٠٧)، [«الصحيحة» (٢٠٩٧)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩) واللفظ له.

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي (٨١٣)، وأحمد (٣/ ٢٦٨)، وأبو يعلى (٣٥١٤)، وأبو عوانة (١٠٨٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٨٠٨)، [«صحيح النسائي» (٧٨٣)].

ومن شواهد إعادته ﷺ الكلام أكثر من ثلاث مرات، ما رواه الإمام الدارمي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: (سمعت رسول الله ﷺ يخطب فقال: «**أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار**». فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهل السوق، وحتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه)[١].

فكرّر النبي ﷺ في هذه الأحاديث الشريفة كلامه؛ لتأكيد المعاني وترسيخها في أذهان المخاطبين، والله تعالى أعلم.

ج- استخدامه ﷺ وسائل الإيضاح في التوجيه والتعليم.

ومن مظاهر اهتمام النبي الكريم ﷺ بتقريب المعاني إلى أفهام السامعين ما كان يستخدمه عليه الصلاة والسلام من وسائل الإيضاح أثناء قيامه بالدعوة والإرشاد والتوجيه والتعليم.

ومن وسائل الإيضاح التي استخدمها النبي الكريم ﷺ رسم الخطوط، روى الإمام البخاري عن عبدالله رضي الله عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خططاً صغاراً، إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو: قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الدارمي (٢٨١٤) واللفظ له، وأحمد (٤/ ٢٧٢)، والحاكم (١/ ٤٢٣)، [«المشكاة» (٥٦٨٧)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤١٧).

روى الأئمة أحمد والنسائي والدارمي والحاكم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سبل**» -قال يزيد: متفرقة- «**على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣][1]). ففي هذا الحديث وفي الذي قبله، رسم النبي صلى الله عليه وسلم الخطوط لتقريب المعاني إلى أفهام السامعين.

قال الملاّ علي القاريء تعليقاً على قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (خط لنا) أي: لأجلنا تعليماً وتفهيماً وتقريباً، لأن التمثيل يجعل المقصود من المعنى كالمحسوس[2].

وكذلك من وسائل الإيضاح التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم لتقريب المعاني إلى أفهام السامعين الأدوات المادية.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم غرز بين يديه غرزاً، ثم غرز إلى جنبه آخر، ثم غرز الثالث، فأبعده، ثم قال: «**هل تدرون ما هذا؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل يختلجه** -أي: الأجل يجتذبه ويقتطعه- **دون ذلك**»[3].

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والدارمي (٢٠٧)، وابن حبان (٦)، والحاكم (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٣)، والبزار «كشف الأستار» (٢٢١٠)، [«الموسوعة الحديثية»].

(٢) انظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٤١١).

(٣) **إسناده جيد**: أخرجه أحمد (٣/ ١٧، ١٨)، وأبو نعيم (٦/ ٣٣٩)، [«الموسوعة الحديثية»].

وفي رواية في «شرح السنة»: «**فيتعاطى الأمل، فلحقه الأجل دون الأمل**»[1] -أي: فيلحقه الموت قبل أن يصله[2].

ومما نجده في هذا الحديث الشريف أن النبي ﷺ استخدم ثلاثة أعواد، لتنبيه الأمة على كون الأجل أقرب إلى الإنسان من أمله، حيث غرز العود الذي كان يمثّل الأجل أقرب إلى العود الذي يمثل الإنسان من العود الذي يمثل أمله، كم كان حريصاً على تفهيم كلامه للسامعين، وتقريبه إلى أفهامهم! ولا غرابة في هذا وقد وصفه أصدق القائلين جل جلاله فقال عنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

د- استخدامه ﷺ أسلوب ضرب الأمثال.

ومما يتجلّى فيه اهتمام رسول الله ﷺ بتفهيم السامعين كلامه، وتقريب المعاني إلى أفهامهم، أنه كان يكثر من ضرب الأمثال.

روى الإمام البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت**»[3].

---

(١) **إسناده حسن**: حديث رقم (٤٠٩١)، [«شرح السنة للبغوي» - ط. المكتب الإسلامي/ تحقيق: شعيب الأرناؤوط].

(٢) «مرقاة المفاتيح» لملا علي القاري (٩/ ١٢٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على الحديث: (وفي الحديث ضرب الأمثال للتقريب للأفهام)[١].

وروى الإمام مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٢].

قال الإمام النووي تعليقاً على الحديث الشريف: (وفيه جواز التشبيه، وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام)[٣].

فخلاصة الكلام: أن النبي الكريم ﷺ كان يستخدم عدداً من وسائل الإيضاح؛ لتقريب المعاني إلى أفهام السامعين، ولترسيخها في قلوبهم، وفي هذا بلا شك تتجلى عنايته الكريمة بالمخاطبين، واهتمامه الشريف بمراعاة أحوالهم.

٤- مراعاة النبي الكريم ﷺ أحوال الوافدين عليه.

لقد تجلى اهتمام النبي الكريم ﷺ بمراعاة أحوال الناس أيضاً من خلال تعامله مع الوافدين عليه، فتأملوا معي ما يلي:

أ- اهتمامه ﷺ بالإجابة على أسئلة الوافدين.

ومما يدل على عنايته ﷺ بمراعاة أحوال الوافدين، أنه كان عليه الصلاة والسلام يهتم بالإجابة على تساؤلاتهم، حتى ولو أظهروا الغلظة والشدّة في مخاطبتهم إياه.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥٥٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٣) «شرح النووي» (١٦/ ١٣٩-١٤٠).

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئٌ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجلُ الأبيضُ المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبدالمطلب؟ فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك**». فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجدْ عليّ في نفسك.

فقال: «**سلْ عما بدا لك**». فقال: أسألك بربّك وربّ من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللهم نعم**» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك بالله، آلله أمر أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسّمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**» فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسولُ مَن ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)[1].

ومما نجد في هذا الحديث أن شدة الوافد في مخاطبة النبي الكريم ﷺ لم تجعله يصرف النظر عن إجابته، بل استمر النبي الكريم ﷺ يجيب عن أسئلته حتى شرح الله صدره للإسلام فقال: (آمنت بما جئت به).

وقد بلغ من شدة اهتمامه ﷺ بالإجابة على تساؤلات الوافدين، أنه جاءه شخص يوماً يسأله عن دينه، وكان ﷺ يخطب، فترك خطبته حتى انتهى

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣).

إليه، فأُتي بكرسي فجلس عليه ﷺ ، فعلَّمه ما شاء الله أن يعلّمه، ثم عاد إلى خطبته فأتمها.

فقد روى الإمام مسلم عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال: (انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله! رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟

قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي، حسبتُ قوائمه حديداً، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها)[1].

ب- مراعاته ﷺ اشتياق الوفود إلى أهلهم.

كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على تعليم الوفود أمور دينهم، كيف لا؟ وقد بعثه الله تعالى كي يعلّم الناس الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

كان عليه الصلاة والسلام رغم حرصه هذا لا يغفل أو يتغافل عن اشتياق الوفود إلى أهلهم، فإذا وجد أنهم قد اشتهوا أهلهم أمرهم بالرجوع إليهم، وأوصاهم بتعليم أهلهم ما تعلّموه منه، ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام البخاري عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: (أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَة -جمع شاب- متقاربون -أي: في السن والعلم والقراءة- فأقمنا عنده عشرين ليلة،

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٧٦).

وكان رسول الله ﷺ رقيقاً، فلما ظن أننا قد اشتهينا أهلنا -أو قد اشتقنا- سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه.

قال: «**ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلّموهم ومروهم** -وذكر أشياء أحفظها ولا أحفظها- **وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمَّكم أكبرُكم**»[1].

نعم، هذا شيءٌ من لطف واهتمام رسول الله ﷺ بمراعاة أحوال الوافدين عليه، وهذا -بلا شك- يدل على ضرورة مراعاة أحوال الناس أثناء دعوتهم إلى الله عز وجل.

٥- مراعاة النبي الكريم ﷺ أحوال الناس عند الإفتاء.

ومما يدل على عناية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بأحوال الناس، أنه كان ﷺ يهتم بأحوالهم، ويراعيها عند الإفتاء، وقد تجلّى ذلك في عدّة صور منها:

أولاً: التعرف على المستفتي.

ثانياً: اختلاف الفتوى باختلاف أحوال السائلين.

ثالثاً: إجابة السائل بأكثر مما سأله.

وسأذكر إن شاء الله تعالى في هذا المقام بعض الشواهد الدالة على هذه الصور الثلاثة:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٢٤٦)، ومسلم (٦٧٤).

أولاً: التعرف على المستفتي.

ومما يدل على اهتمامه عليه الصلاة والسلام بالتعرف على المستفتي ما رواه الإمام البخاري عن زينب امرأة عبدالله[١] رضي الله عنهما قالت: كنتُ في المسجد فرأيتُ النبي ﷺ فقال: «**تصدّقن ولو من حليّكنّ**» وكانت زينب تنفق على عبدالله وأيتام في حجرها. فقالت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ. فانطلقت إلى النبي ﷺ فوجدتُ امرأةً من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتي، فمرّ علينا بلال فقلنا: سل النبي ﷺ أيجزي عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري، وقلنا له: لا تخبرْ بنا، فدخل فسأله، فقال: «**من هما؟**».

قال: زينب، قال: «**أي الزيانب؟** » قال: امرأة عبدالله. قال: «**نعم ولها أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة**»[٢].

ومما نجده في هذا الحديث الشريف أن النبي الكريم ﷺ استفسر بلالاً رضي الله عنه عن المستفتيتين، ولما ذكر بلال رضي الله عنه اسم زينب استفسر بقوله: «**أي الزيانب؟**» ولعل هذا الاستفسار منه ﷺ -والله تعالى أعلم- كي يتمكن من التعرف على حال السائلة، فتكون إجابته لها على حسب حالتها.

---

(١) عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

ثانياً: اختلاف الفتوى باختلاف أحوال السائلين.

لقد ثبت التنوع في فتاوى النبي الكريم ﷺ بسبب اختلاف أحوال السائلين، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

ترخيصه ﷺ للشيخ بالتقبيل في حالة الصوم، ونهيه عن ذلك الشاب.

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنا عند النبي ﷺ فجاء شاب، فقال: يا رسول الله! أقبِّل وأنا صائم؟. قال: «**لا**». فجاء شيخ، فقال: أقبّل وأنا صائم؟ قال: «**نعم**». فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: «**قد علمتُ لم نظر بعضكم إلى بعض، إن الشيخ يملك نفسه**»[1].

فلم يكن الاختلاف في فتواه ﷺ بين حكم تقبيل الشيخ والشاب في حالة الصوم؛ إلا مراعاةً لاختلاف القدرة في السيطرة على النفس ما بين الشيخ والشاب.

ثالثاً: إجابته ﷺ السائل بأكثر مما سأله.

ومما يدل على اهتمامه عليه الصلاة والسلام بمراعاة أحوال المستفتي عند الإفتاء، أنه كان يجيب المستفتي بأكثر مما كان يسأله مراعاةً منه ﷺ لما قد يحتاجه السائل، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

بيانه ﷺ حكم ماء البحر وميتته لمن سأل عن حكم مائه فقط.

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٥)، [«صحيح الجامع» (١٦٤٦)].

روى الأئمة مالك وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ به؟ فقال رسول الله رضي الله عنه: «**هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته**»[1].

ففي هذا الحديث سئل عليه الصلاة والسلام عن حكم ماء البحر فأجاب عنه، وزاد على الإجابة حكمُ ميتةِ البحر مراعاةً لحاجة المستفتي، لأن المحتاج إلى ماء البحر للوضوء قد يحتاج إلى أكل ميتة البحر كذلك.

٦- اهتمام النبي الكريم ﷺ بمراعاة أحوال المأمومين.

ومما يتجلّى فيه اهتمام رسول الله ﷺ بمراعاة أحوال الناس، ما ثبت من عنايته ﷺ العظيمة بأحوال المأمومين من خلال عدة نصوص ووقائع، وفيما يلي بعض منها:

أ- أمره ﷺ الأئمة بتخفيف الصلاة مراعاة لأصحاب الأعذار من المأمومين.

أمر النبي ﷺ كلّ من صلى بالناس بتخفيف الصلاة، مراعاة للضعيف والسقيم والكبير من المأمومين.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مالك في «الموطأ» (رواية الليثي) (٤٥)، و(رواية محمد بن الحسن) (٤٦)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، [«إرواء الغليل» (٩)].

فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا صلى أحدُكم بالناسِ فليخفف، فإنّ فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، وإذا صلّى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء**»[1].

ب- غضبه صلى الله عليه وسلم الشديد على الإمام بسبب إطالته الصلاة بالمأمومين.

وقد بلغ من شدّة اهتمامه عليه الصلاة والسلام بمراعاة حال المأمومين أنه لما عرف عن حبيبه معاذ رضي الله عنه أنه كان يطيل الصلاة بالمأمومين، غضب عليه غضباً شديداً.

فقد روى الإمام البخاري عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوّل بنا فلان، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً من يومئذ. فقال: «**أيها الناس! إنكم منفِّرون. فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف، وذا الحاجة**»[2].

وفي رواية: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا معاذ! أفتان أنت -أو أفاتن- ثلاث مرار، فلولا صليت بـ** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس]، **و**﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل] **فإنه يصلّي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**»[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

ج- مراعاته ﷺ المأمومين أثناء صلاته بهم.

ولم يقتصر عليه الصلاة والسلام على أمر الأئمة بتخفيف الصلاة ونهيهم عن إطالتها، بل كان ﷺ مهتماً بفعل ما أمر به غيره، وحريصاً على اجتناب ما نهى عنه الآخرين، فقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان من أخف الناس صلاة، في تمام)[١].

ولربما صلّى بالناس فسمع بكاء الصبي فتجوَّز في صلاته، وقرأ سورة قصيرة، كراهية أن يشقّ على أمه.

فقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة)[٢].

وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام: «**إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمّه**»[٣].

الله أكبر! صلوات ربي وسلامه عليه، ما أرحمه! وما أشفقه على الأمة! صدق الله القائل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة].

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٦٩).
(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٧٠).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠٧).

فإذا كان اهتمام إمام الدعاة ﷺ بمراعاة أحوال المأمومين بهذه الصورة، فلـمَ لا يهتم الدعاة بمراعاة أحوال المدعوين أثناء دعوتهم إلى الله تعالى؟!

يقول الإمام النووي تعليقاً على تخفيف النبـي ﷺ الـصلاة عنـد سـماع بكـاء الصبي: (وفيه دليل على الرفق بالمأمومين وسائر الأتباع ومراعاة مـصلحتهم، وأن لا يدخل عليهم ما يشقّ عليهم، وإن كان يسيراً من غير ضرورة)[1].

إننا نشاهد إعراض كثير من الناس عن استماع إلى الخطب والمـواعظ الدينيـة، ولهذا الإعراض عدة أسباب، ولعل من أهمها غفلة كثير من القائمين بالـدعوة، أو تغافلهم عن أحوال المدعوين وظروفهم ومصالحهم، فماذا يتوقع هؤلاء أن يقـول لهم الرسول الكريم ﷺ لو كان حيّاً فشاهدهم وعلم بهم؟ وهو الـذي لم يتحمـل من حبيبه ومحبِّه معاذ رضي الله عنه إهمال مصالح المأمومين فزجره بقوله: «**يا معاذ! أفتـان أنت؟ يا معاذ! أفتان أنت. يا معـاذ! أفتـان أنـت؟**». فلـيعلم هـؤلاء أن المطلـوب التخفيف في الصلاة من غير نقص، فيوجز في الصلاة ويُتمّها، وكـذلك يـوجز في خطبه ومواعظه ويتمُّها.

٧- تنويـع الـنبي الكـريم ﷺ في اسـتخدام أسـلوب اللـين والـشدّة مراعـاة لأحـوال المخاطبين.

ومما يدل على مراعاة النبي ﷺ أحوال المدعوّين: ما ثبت من اسـتخدامه ﷺ الشدّة إلى جانب اللين والرفق.

(١) «شرح النووي» (٤/ ١٨٧).

فقد رفق النبي الكريم ﷺ بعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه حينما كانت يده تطيش في الصحفة، وبمعاوية بن أبي الحكم السُلمي رضي الله عنه حينما تحدّث في الصلاة، وبالأعرابي الذي بال في المسجد، وبالشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا.

واستخدم رسول الله ﷺ الشدة مع من تختم بالذهب، ومع الصحابة رضي الله عنهم الذين مسحوا الأرجل أثناء الوضوء، ومع الإمام الذي أطال في الصلاة من غير مراعاة لأحوال المأمومين، ومع أبي ذر رضي الله عنه حينما سبّ غلامه، ومع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمعه يحلف بأبيه.

وكان من أسباب هذا التنوع من استخدام الرفق واللين والغلظة والشدة مراعاة أحوال المخاطبين، فاستعمل عليه الصلاة والسلام الرفق بالجاهل الذي لم يكن يعرف حكم الشرع لصغر سنه، أو حديث عهده بالإسلام، واستخدام الشدة مع من صدر منهم ما لا يتوقّع منهم ذلك لطول صحبتهم له ﷺ، ولعلمهم وورعهم وتقواهم. والله تعالى أعلم بالصواب[1].

٨- ترك النبي ﷺ بعض الأمور المختارة مخافة وقوع الناس في أشدّ منها.

مما يتجلّى فيه اهتمام النبي ﷺ بمراعاة أحوال المدعوين أنه كان يترك أحياناً بعض الأمور المختارة، مخافة وقوع الناس في أشد منها بسبب قصور فهمهم وجهلهم وعنادهم، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما يلي:

---

(١) كتاب «من صفات الداعية: اللين والرفق».

أ- موافقته ﷺ على ترك بعض الأمور المختارة في صلح الحديبية خوفاً من فشل مفاوضات الصلح بالكامل.

لما أصرّ سهيل بن عمرو مندوب قريش عند كتابة عقد الصلح بالحديبية على أن يتنازل النبي ﷺ عن بعض الأمور المختارة، وافق ﷺ على ما أصرّ عليه خوفاً من فشل مفاوضات الصلح.

فقد روى الإمام البخاري أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «**لقد سَهُل لكم من أمركم**». فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله! ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب.

فقال المسلمون: والله! لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**». ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله**» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ: «**والله! إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبدالله**» فقال له النبي ﷺ: «**على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**» فقال سهيل: والله لا تتحدث العربُ أنا أُخِذنا ضُغطة[1]، ولكن ذلك من العام المقبل.

(١) ضُغطة: قهراً.

فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا[1].

وفي رواية أخرى: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك[2].

نجد فيما ذُكر أن النبي ﷺ وافق على ترك أمور أربعة وهي:

١- كتابة [بسم الله الرحمن الرحيم].

٢- كتابة [محمد رسول الله].

٣- طواف البيت في ذلك السفر.

٤- إبقاء من جاءه من مسلمي مكة المكرمة عنده.

وفي كل هذه الأمور خير، لكنه ﷺ وافق على تركها لما خشي من ظهور مفسدة عظمى -وهي فشل مفاوضات الصلح- بسبب جهل وعناد وإصرار سهيل بن عمرو وقريش، فكان قراره ﷺ -كما قال الإمام ابن القيم-: للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧١١، ٢٧١٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٣٦).

ب- عدمُ إذنه ﷺ بقتل عبدالله بن أبي -برغم استحقاقه لذلك-؛ خوفاً من سوء تفسير الناس لقتله.

لما أساء عبدالله بن أبيّ الأدب مع النبي الكريم ﷺ، استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله، لكن النبي ﷺ لم يسمح له بذلك، ولم يكن امتناعه عليه الصلاة والسلام عن الإذن بقتله إلا خشية سوء تفسير الناس لذلك بسبب قصور فهمهم.

فقد روى الإمام البخاري عن جابر رضي الله عنه أن عبدالله بن أبي قال: (لما حصل شجار بين رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، ونادى كل واحد منهما جماعته، قال ابن سلول: أقد تداعَوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبدالله. فقال النبي ﷺ: «**لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه**»[1].

فلم يكن عدم إذنه عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه ،إلا لما توقع من تناقل الناس الخبر بشكل خاطئ -بسبب قصور الأفهام- فينشرون أنه ﷺ يقتل أصحابه، فيكون ذلك بالتالي سبباً لنفور الكثير من الناس عن الإسلام.

ج- تركه ﷺ إعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه، خشية نفور الناس عن الإسلام.

ترك النبي ﷺ بناء الكعبة على ما كان عليه في عهد قريش، ولم يُعدْه إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، رغم رغبته في ذلك، فقد روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

قالت: قال النبي ﷺ: «**يا عائشة! لولا قومُك حديثٌ عهدُهُم** -قال ابن الزبير: بكفر- **لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون**»[1].

وقد بين المحدثون -جزاهم الله تعالى عنا خير الجزاء في الدارين- حكمة امتناع النبي الكريم ﷺ من إعادة بناء الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، فعلى سبيل المثال: فإن الإمام البخاري ترجم على هذا الحديث بقوله: (باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه).

فخلاصة الكلام: أن مما يدل على عناية رسول الله ﷺ بأحوال المدعوّين، أنه ﷺ كان يترك أحياناً بعض الأمور المختارة؛ مخافة وقوع الناس في أشد منها بسبب قصور فهمهم وجهلهم وعنادهم.

٩- غضّ النبي الكريم ﷺ الطرف عن بعض المخالفات مؤقتاً، وأمره ﷺ أمته بذلك.

ومما يتجلّى فيه اهتمام رسول الله ﷺ بمراعاة أحوال الناس: غضّه الطرف عن بعض المخالفات مؤقتاً، وأمره ﷺ أمته بذلك، ولم يكن هذا إلا من باب دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وترك أيسر المصلحتين لتحصيل أعظمهما، مراعياً أحوال الناس ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أ- تركه ﷺ الأعرابي يبول في المسجد حتى فرغ.

فقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣).

الله ﷺ: مه مه! قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه، دعوه**» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن**»، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه)[1].

ولم يكن ترك النبي ﷺ الأعرابي يبول في المسجد، وأمره الصحابة كذلك بتركه، إلا لما خشي من حدوث منكر أعظم من منعه، وفي هذا قال الحافظ ابن حجر: (وإنما تركوه يبول في المسجد لأنه كان شرع في المفسدة، فلو مُنع لزادت إذ حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منع لدار بين أمرين: إما أن يقطعه فيتضرَّر، وإما أن لا يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد)[2].

ب- أمره ﷺ بالصبر على الأمراء الذين تُرى عندهم المعصية، مع ضرورة كراهيتها.

أمر النبي الكريم ﷺ أمته بلزوم طاعة الأمراء الذين تُرى عندهم المعصية، ونهى عن الخروج عليهم ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام.

فقد روى الإمام مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلّون[3] عليكم وتصلّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**». قيل: يا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٩)، ومسلم (٢٨٥) واللفظ له.

(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٢٣).

(٣) الصلاة هنا بمعنى الدعاء.

رسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة**»[١].

ولم يأمر النبي الكريم ﷺ بلزوم طاعة أولئك الأمراء وعدم الخروج عليهم؛ إلا تجنباً لما يترتب على ذلك من الفتن العظيمة والمفاسد العريضة.

١٠- مراعاة النبي الكريم ﷺ اختلاف أحوال الناس عند تقديمهم للصدقة.

من المعلوم أن الأصل في الصدقة ما كان عن ظهر غنى، قال ﷺ: «**إنما الصدقة عن ظهر غنى**»[٢].

لكن النبي ﷺ مع هذا لم يكن يتعامل مع الراغبين في الإنفاق في سبيل الله تعالى على وتيرةٍ واحدة، ومن الأمثلة على ذلك:

أ- منعهُ ﷺ الشخص الذي تُصُدِّق عليه بثوبين من التصدق بأحدهما.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (دخل رجلٌ المسجد، فأمر النبي ﷺ الناس أن يطرحوا ثياباً، فطرحوا، فأمر له منها بثوبين، ثم حث على الصدقة فجاء -أي: هذا الرجل- فطرح أحد الثوبين، فصاح به وقال: «**خذ ثوبك**»)[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٥٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠١)، والدارمي (١٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٤١)، وابن حبان (٣٣٦١)، وأبو يعلى (٢٠٨٧)، [«الموسوعة الحديثية»].

(٣) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٦٧٥)، والنسائي (١٤٠٨)، وأحمد (٣/ ٢٥)، وابن حبان (٢٤٩٦)، وابن خزيمة (١٧٩٩)، والحاكم (١/ ٥٧٣، ٥٧٤)، وأبو يعلى (٩٩٤)، [«صحيح أبي داود» (١٤٦٩)].

ب- أمرهُ ﷺ كعب بن مالك رضي الله عنه بإمساكِ بعض ماله بدل التصدق بكامله.

عن كعب بن مالك قال: قلت يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ؟ قال: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر[١].

ج- موافقته ﷺ على تصدق الفاروق بنصف ماله وتصدق الصديق بكل ماله رضي الله عنهما

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**». قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله)[٢].

ولم يكن هذا التنوع في تعامله ﷺ مع أولئك إلا مراعاةً لأحوالهم، وقد بيّن ذلك علماء الأمة، فعلى سبيل المثال قال الإمام الخطابي: (ولم ينكر ﷺ على أبي بكر الصديق رضي الله عنه خروجه من ماله أجمع لما علمه من صحة نيته وقوة يقينه، ولم يخف عليه الفتنة كما خافها على الرجل الذي ردّ عليه الذهب)[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٦)، والحاكم (١/ ٥٧٤)، والبزار في «البحر الزخار» (١٥٩)، وعبد بن حميد (١٤)، [«صحيح أبي داود» (١٤٧٢)].

(٣) «معالم السنن» (٢/ ٧٨).

هذا وقد ذكر الإمام البخاري في «صحيحه»: (باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، -إلى أن قال:- إلا أن يكون معروفاً بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، كفعل أبي بكر رضي الله عنه حين تصدّق بماله، وكذلك آثر الأنصار المهاجرين)[١].

وبيّن الإمام الطبري أن جمهور علماء الأمة قالوا باختلاف حكم التصدق بكل المال باختلاف أحوال المتصدّق، فقال رحمه الله تعالى: (قال الجمهور: من تصدق بماله كله في صحة بدنه وعقله حيث لا دَين عليه، وكان صبوراً على الإضاقة ولا عيال له، أو له عيال يصبرون أيضاً فهو جائز، فإن فُقد شيء من هذه الشروط كره)[٢].

ونقل الإمام النووي مثل هذا عن الشافعية فقد قال رحمه الله تعالى: (مذهبنا أنه -أي: التصدق بجميع المال- مستحب لمن لا دَيْنَ عليه، ولا له عيال لا يصبرون، بشرط أن يكون ممن يصبر على الإضاقة والفقر، فإن لم تجتمع هذه الشروط فهو مكروه)[٣].

فخلاصة الكلام: أن النبي الكريم ﷺ لم يكن يتعامل مع الراغبين في الإنفاق في سبيل الله تعالى على وتيرة واحدة، بل كان ينوع في تعامله معهم مراعياً أحوالهم.

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٧١).

(٢) نقلاً عن «فتح الباري» (٣/ ٢٩٥).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٢٥).

الأصل الرابع: أساليب الدعوة ووسائلها

كلامنا عن هذا الأصل سيكون حول العناصر التالية:

العنصر الأول: مصادر هذه الأساليب والوسائل ومدى الحاجة إليها.

العنصر الثاني: أساليب الدعوة.

العنصر الثالث: وسائل الدعوة.

العنصر الأول: مصادرُ أساليب الدعوة ووسائلها

مصادر الدعوة ووسائلها هي:

أولاً: القرآن الكريم.

في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تتعلق بأخبار الرسل الكرام، وما جرى لهم مع أقوامهم، وما خاطب الله تعالى به خاتمهم محمداً ﷺ من أمور الدعوة إليه، وهذه الآيات الكريمة يُستفاد منها أصولُ أساليب الدعوة ووسائلها، التي يجبُ أن يفقهها المسلمُ كما يفقه أمور الدين الأخرى، لأن الله عز وجل ما قصها علينا وأخبرنا بها إلا لنستفيد منها، ونتزود من معانيها، فإن مما يعيننا على الدعوة إلى الله تعالى أن نلتزم بنهجها.

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[هود]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

فهذه أدلةٌ تشير إلى لزوم الاقتداء بنهج رسل الله في الدعوة إلى الله عز وجل.

ثانياً: السنة النبوية.

وفي السنة النبوية أحاديثُ كثيرةٌ تتعلق بأمور الدعوة ووسائلها، كما أن السيرة النبوية المطهرة وما جرى لرسول الله ﷺ في مكة والمدينة، وكيفية معالجته ﷺ للأحداث والظروف التي واجهته، كل ذلك يعطينا مادة غزيرةً جداً في أساليب الدعوة ووسائلها، لأن الرسول الكريم ﷺ مرّ بمختلف الظروف والأحوال التي يمكن أن يمرّ بها الداعي في كل زمان ومكان، فالسيرة النبوية والتوجيهات النبوية الكريمة تطبيقات عملية لما أمر اللهُ به رسوله ﷺ من أمور الدعوة وتبليغ الرسالة، وما ألهمه رسوله الكريم في هذا المجال، فلا يجوز للداعي أن يغفل عن سيرة النبي ﷺ، فإن الله عز وجل أمرنا أن نتأسى به ﷺ فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

ثالثاً: سيرة السلف الصالح.

إن في سيرة السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان توجيهات مهمة في أمور الدعوة، يستفيد منها الدعاة إلى الله، لأن السلف الصالح كانوا أعلم من غيرهم بمراد الشارع، وفقه الدعوة إلى الله، وما زال أهل العلم يستدلون ويستنيرون بسيرتهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

والمنهج الصحيح الحق في الدعوة إلى الله هو منهج الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

ضرورة الاستمساك بالنهج الصحيح في الوسائل والأساليب.

النهج الصحيح في الوسائل والأساليب هو النهج المستقى من المصادر التي بيناها، والاستمساك بهذا النهج ضروري لكل داع ولازم له وواجب عليه لأن الإسلام يقضي به، والواجب على المسلم أن يستمسك بما يقضي به الدين، كما أن التزام هذا النهج الصحيح يقرب من الغاية، ويوصل إلى المراد ولو بعد حين، بخلاف غيره من المناهج فإن فيها أخطاء تبعد عن الغاية، ولا توصل إلى المطلوب، ثم إن المطلوب من الداعي أن يحرص على طاعة الله، واتباع الصواب، وعدم الوقوع في الخطأ أو في العصيان، وتحقيق هذا المطلوب من الداعي إنما يكون بالتزامه بالنهج الصحيح، فإذا ما قام الداعي بما هو مطلوب منه لم يكن مسؤولاً عن نتيجة عمله، من حيث بلوغ الغاية والوصول إلى المراد، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] والحساب إنما يكون على مشروعية عمل الإنسان، وهل أدى كل ما عليه من واجب؟ وإذا تبين هذا الأمر، ووعاه الداعي وفقهه، لم يكن له أن يخرج على النهج الصحيح بحجة صعوبته، أو طول مدته، أو عدم قبول الناس له، أو تعجلاً من الداعي لبلوغ الغاية، أو انسياقاً منه وراء عاطفة نبيلة دينية حسنة، ورغبة صادقة في العمل والجهاد والشهادة في سبيل الله، لأن الخطأ لا يصير صواباً بالنيات الحسنة والعواطف النبيلة، والوصول إلى المقصود لا يكون بالسير على ما لا يؤدي

إليه، وإن كان السائر جد حريص على الوصول، ويكفي للتدليل على ما أقول أن أُذكر أن أحكام الشريعة ما نزلت دفعة واحدة، وأن الدعوة الإسلامية ما سارت وراء رغبات المتحمسين وعواطف الصادقين المتعجلين، فالقتال لم يشرع في مكة، وكان جواب النبي ﷺ للمتعجلين: أن اصبروا، وصلح الحديبية لم تتسع له صدور كثير من المسلمين، بالرغم من صدقهم وعمق إيمانهم واستعدادهم للقتال وللاستشهاد، ولكن اتسع له صدر النبي ﷺ، لأن المسألة ليست مسألة استعداد للموت، والصدق في هذا الاستعداد، وإنما المسألة هي لزوم السير على النهج الصحيح، فهو وحده الموصل إلى المراد وبلوغ الغاية على الوجه المطلوب، ولهذا نزل القرآن واصفاً ذلك الصلح بالفتح المبين، فعلى الداعي أن لا يتأثر بالعواطف والمقاصد الطيبة، والحماس لخدمة الإسلام عند تعين الوسيلة والأسلوب.

وليدع النظر السديد يعين الوسائل والأساليب في ضوء ما جاء في المصادر التي ذكرناها؛ فإن الحماس والعاطفة والرغبة في العمل يجب أن يوجه ذلك كله لتحقيق وتنفيذ الأسلوب الصحيح، والوسيلة الصحيحة بعد تقريرهما، لا أن يوجه ذلك للتشكيك في الأسلوب الصحيح، والتجديف بعيداً عن الوسائل الصحيحة والجدل العقيم.

العنصر الثاني: أساليب الدعوة

تقوم أساليب الدعوة الناجحة على تشخيص الداء في المدعوين ومعرفة الدواء، وأصل داء الناس في القديم والحديث جهلهم بربهم، وشرودهم عنه أو

كفرهم به ورفضهم الدخول في العبودية الكاملة له ورفضهم السير على النهج الذي جاء به محمد ﷺ من ربه، واغترارهم بالدنيا وركونهم إليها، وغفلتهم عن الآخرة، أو إنكارهم لها، وكل هذه الأمور تجتمع مع الكفر بالله، وتتفرق مع أصل الإيمان به.

أما أصل الدواءِ لهذا الداءِ فهو: الإيمان بالله رباً وإلهاً لا إله غيره، والكفر بالطاغوت بكل أنواعه ومظاهره، والإقبال على الله وعدم الركون إلى الدنيا.

ولذلك كان منهجُ الأنبياء جميعاً هو الاهتمامُ بتشخيص هذا الداء ووصف هذا الدواء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وما من نبي بعثه الله في قومه إلا وهو يقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩].

أساليب الدعوة إلى الله:

١- أن يبدأ الداعي إلى الله بالأهم فالمهم.

فهذا هو منهج الأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود].

٢- الحكمة.

٣- الموعظة الحسنة.

٤- الجدال بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل].

نقل الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ عن ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ قوله: (ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعوِّ:

- فإنه إمّا أن يكون طالباً للحق محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يُدعَى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة أو جدال.
- وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.
- وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يُجادَلُ بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتُقِلَ معه إلى الجلاد إن أمكن)[1].

٥- الترغيب والترهيب.

٦- القدوة الحسنة.

٧- الرفق واللين.

٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩- التبشير والتيسير.

١٠- الجهاد.

---

(١) «فتح المجيد» للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ (١٠٨-١٠٩).

العنصر الثالث: وسائل الدعوة

تبليغ الدعوة إلى الله يكون بالوسائل التالية:

١- خطبة الجمعة.

٢- المحاضرات العامة.

٣- الدروس.

٤- الحوار.

٥- القدوة الحسنة.

٦- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧- استخدام وسائل الأعلام بجميع أشكالها.

٨- التأليف والكتابة والتحقيق والتخريج.

٩- المال.

١٠- عمل الدراسات.

وأفضل هذه الوسائل نفعاً **خطبة الجمعة.**

١) أخي الخطيب! اعلَمْ أن خطبة الجمعة ذكر لله، وليست سباً ولا شتماً، والدليل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الجمعة:٩]

فسمى الله الخطبة: ذكراً، ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجِّر** -أي: المبكر- **كمثل الذي يُهدي بَدَنة، ثم كالذي يُهدي بقرة، ثم كالذي يُهدي كبشاً، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام، طووا صحفهم، وجلسوا يستمعون الذكر**».

فسمى النبي ﷺ الخطبة ذكراً «**وجلسوا يستمعون الذكر...**»[1].

فاحذر أخي الخطيب! **دعاة الاستعجال** ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم]

٢) أخي الخطيب! اعلم أن الخطبة الناجحة هي التي تقوم على ثلاثة أركان

الركن الأول: الإخلاص لله عز وجل.

الركن الثاني: العلم الشرعي (علم الكتاب والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم).

الركن الثالث: فن الخطابة.

وكنت أذكر ذلك لشيخنا الألباني رحمه الله فيقول: أحسنت يا أبا إسلام.

٣) أخي الخطيب! كيف تقوم بتحضير الخطبة؟!

أولاً: اختيار موضوع الخطبة.

ثانياً: الاستخارة على وقت إلقاء هذا الموضوع.

ثالثاً: جمع المراجع المعتبرة التي تتكلم عن هذا الموضوع.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٢٩)، ومسلم (٨٥٠).

رابعاً: جمع الآيات والأحاديث الصحيحة التي تتكلم عن هذا الموضوع.

خامساً: قراءة تفسير الآيات وشرح الأحاديث من مصادرها.

سادساً: تقسيم الموضوع إلى نقاط.

سابعاً: وضع الآيات والأحاديث تحت كل نقطة بما يناسبها.

ثامناً: كتابة الخطبة بخط واضح وبلغة صحيحة.

تاسعاً: عرضها بعد الكتابة على بعض أهل العلم إن أمكن.

عاشراً: حفظها حفظاً جيداً.

٤) عوامل نجاح الخطيب[1].

أولاً- العوامل التي تتعلق بالخطيب.

ثانياً- العوامل التي تتعلق بموضوع الخطبة.

ثالثاً- العوامل التي تتعلق بالوسائل والأساليب.

رابعاً- العوامل التي تتعلق بالمدعوين.

---

(١) **تنبيه**: إن ما ورد في هذا الموضوع مأخوذ من بعض الكتب التي ألفت في فن الخطابة، مع تحفظي على بعض ما نقل منها، لعدم وجود الدليل، فتقرأ بتحفظ، ولا يؤخذ منها إلا ما وافق الدليل الصحيح.

أولاً: العوامل التي تتعلق بالخطيب.

إن عوامل نجاح الخطيب -ما يتعلق منها بالخطيب، أو الموضوع، أو الوسائل والأساليب، أو المدعوين- ينبغي أن تتكامل فيما بينها، وذلك لأنه لا يمكن للخطيب أن ينجح في خطبته، ويحقق ما يهدف إليه، إلا إذا تحققت هذه العوامل الأربعة السابقة، وسعى في تحصيلها، أو تحصيل أكثرها، واجتهد في أن يصل فيها إلى أعلى درجة من الإتقان، والمراعاة لما يجب أن يكون عليه حال إلقائه.

وفي هذا المبحث نبدأ بالحديث عن أولها، وهي العوامل التي تتعلق بالخطيب، وهي على النحو الآتي:

الأول- الإخلاص لله سبحانه وتعالى: لقد قيل: (إذا خرج الكلام من القلب، وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان)[1]. فلذا ينبغي للخطيب الداعي إلى الله سبحانه وتعالى الحرص على تصحيح نيته قبل إلقاء خطبته، حتى إذا خرجت من قلبه؛ وقعت في قلب المستمع.

الثاني- حسن الهيئة والسمت: إن مظهر الخطيب الجيد، وهيئته الحسنة، وسمته الجميل، من العوامل التي تؤثر في نجاح الإلقاء، وتحقيق أهدافه، وذلك لما يزرعه من التمكين في قلوب المستمعين له، والثقة به، فالمستمع يرى الخطيب بعينيه، قبل أن يسمعه بأذنيه.

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ٨).

ويؤكد هـذا المعنـى قولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر]

فأمْرُهُ عز وجل بتطهير الثوب عند الإنذار، فيه إشـارة قويـة عـلى أن الـداعي الطاهر المطهر في داخله، وما يظهر على خارجـه، تـستقبله العيـون بالترحـاب... بمقدار ما تشم منه ريحاً طيباً، وثوباً نظيفاً[1] .

ولذا كان رسـول الله ﷺ: إذا أراد الخـروج إلى أصـحابه؛ أصـلح مـن ثوبـه وشعره، وتطيب بأحسن الطيب[2] .

فعن رفاعـة أَبِي رِمْثَـةَ ﵁ قـال: (رَأَيْـتُ النَّبِـيَ ﷺ يَخْطُـبُ وَعَلَيْـهِ بُـرْدَانِ أَخْضَرَانِ)[3].

وفي حديث جبريل ﵇ المشهور ما يـدل عـلى المعنـى الـسابق، إذ جـاء فيـه أن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﵁ قَـالَ: (بَيْنَـا نَحْـنُ عِنْـدَ رَسُـولِ الله ﷺ ذَاتَ يَـوْمٍ، إِذْ طَلَعَ علينا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَـاضِ الثِّيَـابِ، شَـدِيدُ سَـوَادِ الـشَّعْرِ، لا يُـرَى عَلَيْـهِ أَثَـرُ

(١) انظر: «الخطابة في موكب الدعوة» (ص٦٥).

(٢) انظر: «الشمائل المحمدية»، للترمذي، باب ما جاء في شعر الرسول ﷺ (ص٣٤-٣٨)، وباب ما جاء في ترجل رسول الله ﷺ ص (٣٩-٤٢)، وباب مـا جـاء في لبـاس رسـول الله ﷺ (ص٥٣-٦٠)، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، لابن القيم الجوزية، (١/ ١٣٥-١٤٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه النسائي (١٥٧٢)، وأبو داود (٤٢٠٦)، والترمـذي (٢٨١٢)، وأبـو نعـيم (٩/ ٤٤)، [«صحيح النسائي» (١٤٨١)].

السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيه،...)[١] الحديث.

فقد قيل: (إن الحكمة في مجيء جبريل عليه السلام بهذه الهيئة الحسنة، من شدّة بياض الثياب، وشدة سواد الشعر، ليعظم اتجاههم إليه، وإصغائهم لما يقول، ويقال له. فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم في أعينهم، واستماعا له)[٢].

هذا وإن للباس أثراً قويّاً في الرفع من معنويات الخطيب، وعلو نفسيته، فتجده يملك زمام نفسه، ولا يخطئ بإذن الله تعالى، وترفع من قدره في عينه، وتساعده على سهولة التفكير بنجاح.

ومن العناية بالمظهر والملبس: الاعتناء بلباس التقوى في الأقوال والأفعال، فيعفي اللحية على سنة الرسول ﷺ، ويحف الشارب، ويقلم الأظافر، ويستاك،... إلخ.[٣]

الثالث- الوقوف المناسب أثناء الإلقاء: ويقصد به أن يقف الخطيب أثناء إلقائه في مكان بارزٍ لجميع الحاضرين، وأن يقف في مسقط الضوء، يقول الصحابي الجليل جَابِرُ بنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه: (إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَخْطُبُ قَائِماً، ثُمَّ يَجْلِسُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ قَائِماً، فَمَنْ نَبَّأَكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ جَالِساً فَقَدْ كَذَبَ، فَقَدْ وَالله! صَلَّيْتُ مَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ صَلاةٍ)[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨).

(٢) انظر: الخطابة في موكب الدعوة، (ص٦٢).

(٣) «الدراسة النظرية للخطابة»، (ص٧٤).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٢).

إذن فوقوف الخطيب المناسب في مكان يرى منه المستمعين له، وهم يتمكنون من رؤيته، يجعل من هذه الرؤية المتبادلة المستمرة خلال الإلقاء من العوامل التي تفيد في التأثر والتأثير، وذلك أن المستمع عند رؤية خطيبه يكون قد أشرك في تلقّيه الخطبة حاسّتي السمع والبصر.

ولا شك أن الخطيب إذا ارتاح في وقوفه، ولم يحس بالتعب، أو الضيق؛ استطاع أن يؤدي خطبته على أتم وجه، وأحسن صورة.

ولا بأس بأن يعتمد الخطيب بإحدى يديه على طرف المنبر، لأن في استناده تحقيقاً لاتزان جسمه، وراحته في وقوفه[1].

كما ينبغي للخطيب أن يكون في وقفته مستقيم الجسد، فلا انحناء ولا تقوس، وأن يبرز بصدره إلى الأمام، وذلك أن الوقوف الصحيح يدل على اهتمام الخطيب بموضوعه أثناء الإلقاء، واحترامه للجمهور المستمع له، فإن الناظر إلى خطيب يقف بطريقة تثير السخرية: كأن يقف متقوساً، أو أن ينحني، أو أن يتمايل بجسده، ينفر من سماع خطبته، ويشعر بأن الخطيب إما أن يكون غير مقتنع بما يقول، أو أنه غير محترم ومقدر للمستمعين له.

الرابع- رباطة الجأش، والاستعداد النفسي الجيد: تعتبر هذه الصفة والحالة النفسية الجيدة للخطيب من العوامل المؤثرة في نجاح إلقائه، وتأثيره في

(١) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» (ص١٣٠).

السامعين، وذلك لأنها تمكنه من الهيمنة على الموقف، والقدرة على الإلقاء، فتجده يتحدّث بقوة وشجاعة، مطمئن النفس، غير مضطرب ولا وجِل، عالي الهمة. فبمثل هذه الصفة سيضفي من نفسه على السامعين، ومن روحه إلى روحهم، الثبات والثقة بالنفس والقوة والنشاط[1] .

وخير مثال على ذلك ما نلمسه بوضوح في موقف الصديق ﷺ، وهو يخطب في الصحابة ﷺ، بعد وفاة رسول الله ﷺ، إذ خرج إليهم وهم في أمر شديد وعظيم عليهم، (فتشهد...فقال: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّداً ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّداً ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

ووَالله لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُون أنَّ الله أَنْزَلَ الآية، حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلاَّ يَتْلُوهَا)[2] .

فنجد في خطبته -رضوان الله عليه- الحزم والقوة ورباطة الجأش[3] ، التي أثرت في نفوس مستمعيه، وجعلتهم يردّدون ما قال، مع التسليم والرضا بما نزل بهم.

---

(١) انظر: «الخطابة» (ص٥٦)، و«الخطابة وإعداد الخطيب» (ص١٨٥). و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص١٦٧). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص١٢٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري(١٢٤٢).

(٣) انظر: «الخطابة وإعداد الخطيب» (ص١٨٥).

وبضده تتميز الأشياء، إذ نجد أن من فقد هذه الصفة: يكون الخوف سبباً في اضطرابه، وزعزعة موقفه، فلا يتمكن بسبب وجله، وضعف جنانه من السيطرة على موقفه، والقدرة على الكلام، ورفع صوته، وشدة حماسته، وإنما نجده تنحبس الكلمات في حلقه، وتنقطع بانقطاع نفسه، وتتردّد بتردُّده، حيث يعتريه فزع الموقف، فيسعى جهده أن ينهي خطبته بأسرع وقت، ليخلص من الحرج الذي يتلجلج فيه.

ومما يزيد في قلقه واضطرابه، نظره إلى الحاضرين الذين يستمعون له، ونظرهم إليه، فيحاول أن يغيِّب بصره عن رؤية الناظرين إليه ما استطاع، إذ كلما وقع بصره على أحد ينظر إليه، ازداد خوفه، واشتد اضطرابه[1].

الخامس- قوة الملاحظة، وحضور البديهة: إن الخطيب وهو يلقي خطبته، ينبغي أن يكون قوي الملاحظة، يدرك أحوال السامعين، أهم مقبلون عليه؟ فيسترسل في قوله، ويستمر في نهجه، أم هم معرضون؟ فيتجه إلى ناحية أخرى، يراها أقرب إلى قلوبهم، وهذا يحتاج إلى سرعة البديهة في معرفة ما يناسبهم، وما هو أقرب إلى قلوبهم[2].

ومن جانب آخر: فكثيراً ما يفاجأ الخطيب وهو يلقي خطبته، بما لم يتوقع، مما يسوؤه، أو يفرحه، فإن لم يكن قوي الملاحظة، وسريع البديهة، يحسن التصرف،

(١) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» (ص١٢٤).

(٢) انظر: «الخطابة» (ص٥٥). و«الخطابة وإعداد الخطيب» (ص١٨٣-١٨٤). و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص١٦٥). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص١١٨-١٢١).

والخروج من المأزق الذي هو فيه، وإلا وقع في الإرتباك والإخفاق في خطبته، مما قد ينتج عنه انصراف القلوب عنه.

السادس- قوة الشخصية: وهذا العامل في غالب أحواله يكون هبة من الله سبحانه وتعالى، فبه يجذب الخطيب الناسَ إلى سماع خطبته، ويؤثر فيهم، ويجعلهم يسيرون خلفه، ويعملون بما يقول.

وقوة الشخصية هي التي تجعل الخطيب يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، يقول الله سبحانه وتعالى في وصف عباده المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]. ويقول الله عز وجل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر].

ويؤكد النبي ﷺ على أهمية قوة المؤمن فيقول ﷺ: **«الْـمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهَّ مِنْ الْـمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهَّ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»**[1].

قال الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث: (والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس، والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه، وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك)[1].

ومن الأمور التي تساعد على تحقيق قوة الشخصية وتنميتها، وهي:

١- تقوية الإيمان: بطلب العلم والحرص عليه، والإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، والتمسك بالعبادات والنوافل.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد]. ويقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

٢- معرفة حقيقة الجاهلية، وما يعيشه أهل الباطل من الضلال والتخلف والرجعية. فبه يقوى الإيمان، والتمسك بالحق، والدعوة إليه، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أخشى عليكم ألا تعرفوا الجاهلية؛ فلا تعرفوا قدر الإسلام).

٣- تحديد الأهداف والغايات، والأساليب المؤدِّية إلى بلوغها مهما كانت الأسباب[2]. قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ٢١٥).

(٢) انظر: «الخطابة وإعداد الخطيب» (ص١٩٣).

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة].

ثانياً: العوامل التي تتعلق بموضوع الخطبة

إنَّ من عوامل نجاح الخطيب: ما يتعلق بالموضوع الذي يلقيه الخطيب، وقد سبق الحديث عن العوامل التي تتعلق بالخطيب نفسه، وذُكر أنه هناك عوامل متعددة، وأنه ينبغي أن تتكامل جميع العوامل فيما بينها، وذلك لتحقيق أكبر قدر من النجاح في الإلقاء.

وهنا نتحدّث عن العوامل التي تتعلق بالموضوع، وهي على النحو الآتي:

الأول- اختيار الموضوع المناسب: هناك أمور تتعلق باختيار الموضوع المناسب ينبغي على الخطيب أن يراعيها، ويعطيها من الاهتمام والعناية الشيء الكثير، حتى يحقق النجاح المطلوب من إلقائه للموضوع، ومنها:

١- المناسبة: أي أن تكون الخطبة مناسبة للاجتماع الذي سيتحدث فيه، فمثلاً إن كان في مناسبة زواج، فيحسن أن يتكلم عن الزواج، والترغيب فيه، أو عن أسباب السعادة في الحياة الزوجية، وهكذا، ولك أن تتخيل ماذا يكون الأثر لو تحدث عن الطلاق ؟! أو سوء طبائع النساء ؟! أو عن الخيانة الزوجية؟!

ومن جانب آخر: ينبغي للخطيب أن يختار من الموضوعات ما له صلة بالأحداث الجارية التي يعيشها الناس، ويربط ذلك بما جاء في الكتاب والسنة،

ولا يخرج عن الثوابت؛ حتى لا يكون من خطباء ما يطلبه المستمعون، وعليه أن يكون من خطباء ما يحتاجه المستمعون، وما يهمهم ويشغل بالهم، فمثل هذه الموضوعات تساعد الخطيب، وهو يلقي خطبته على تحقيق الأثر المطلوب من التأثير والتوجيه للمدعوين.

٢- **الوقت المحدد:** إذْ هناك بعض المناسبات التي يكون الوقت محدداً فيها للخطيب، لا يحسن بالخطيب أن يخل به، سواءٌ في الزيادة أو النقص عمّا هو محدد له، وخاصة في المناسبات التي يتعاقب فيها الخطباء الصعود على منصة الإلقاء لأخذ دورهم في الخطابة، فلذا عليه أن يختار الموضوع المناسب للوقت المحدد له، فلا يختار موضوعاً يفرض عليه التطويل، ولا يطرق بحثاً لا يستطيع أن يؤدِّيه بتمامه في الوقت المخصص له، حتى يتمكن من إلقائه كاملاً، وبذلك يحقق حاجة المستمعين لخطبته[1].

٣- **البُعد عن إثارة الخلافات بين الناس (مراعاة أحوال المستمعين):** وقد يقع في هذا الخطيب من حيث لا يدري، إما لسوء فهمه، أو لقلة معرفته بالمجتمع وعوائده.

والخطيب في الأصل موجه ومرشد، ومن كان بهذه المثابة من رفعة المقام، كان حريًّا به أن يجمع ولا يفرق، ويؤلف بين القلوب ولا ينفر، ويوحّد الصفوف ولا

---

(١) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» (ص٢٨)، و«المنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية» ص٢٠٨-٢٠٩.

يشتت، ولا يكون ذلك على حساب الدين كما يفعله بعض الحزبيين والحركيين. ومتى مس الخطيب مشاعر المستمعين نفَّرهم، فهدم، وهو يبغي البناء[١] .

الثاني- التحضير الجيد: إن الخطيب الذي يسعى لكي يكون ناجحاً في إلقائه، جدير به أن يعدّ موضوعه إعداداً كاملاً، ويحضر جميع أفكاره تحضيراً جيداً، وقد شبهه بعضهم بمثل من يريد إقامة بيت للسكنى، إذْ يحتاج إلى تحضير سابق يبدأ من اختيار المكان، ثم تجهيز المواد الأساسية، وهكذا إلى أن ينتهي من البناء[٢] .

ويكون التحضير للموضوع بالرجوع إلى الكتب المناسبة، ومظان الحصول على المعلومات المناسبة، لكي يصبح عند الخطيب مادة كافية، وحصيلة جيدة من الأفكار والمعلومات، تمكنه من عرض موضوعه على درجة من الثقة والاطمئنان، وذلك لارتكازه على قاعدة من العلم والمعرفة التي تغطي الموضوع من جميع جوانبه، وما قد يسأل عنه، وأفضل المراجع: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

كما إن للتحضير الجيد أثراً ينعكس على نفوس السامعين الذين يشعرون بأن ثمة جهداً بذله الخطيب في موضوعه، مما يؤِّدي إلى زيادة ثقتهم به، واحترامهم له[٣] .

---

(١) «الدراسة النظرية للخطابة» (ص٢٤).

(٢) انظر: «أصول الخطابة والإنشاء» ص (٣٦).

(٣) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» ص (٢٩). وانظر: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ص (١٤٦-١٤٧). و«الخطابة بين المنهج والواقع»، (ص١٢٢-١٢٨).

الثالث- التقسيم الجيد: ويقصد بذلك أن يجعل الخطيب لموضوعه الذي يريد أن يتحدّث فيه، أقساماً واضحة، يتدرج فيها من قسم إلى آخر، وكل قسم يكون تمهيداً لما بعده.

ويمكن أن نقسم موضوع الخطبة إلى أقسام رئيسة، وتحت كل قسم رئيس: أقسام فرعية، وذلك على النحو الآتي:

القسم الأول- المقدمة: وهي مدخل يمهد فيه الخطيب للأفكار التي سيعرضها في خطبته. ومما يبين أهميتها وأثرها في نجاح الخطبة النقاط الآتية:

أ- أثرها القوي في تأمين النجاح المناسب للخطبة، فإنها إن كانت محكمة وقوية؛ كان أثرها كبيراً في تنبيه الجمهور، وإثارة اهتمامهم، والسيطرة على أذهانهم ومشاعرهم، وجعلهم يصغون إلى موضوع الخطبة.

ب- إن براعة الاستهلال -أي المقدمة الجيدة- لها أثر فعال في تدعيم موقف الخطيب، وغرس الثقة في نفسه ليتابع طريقه في طرح موضوعه.

ج- إذا أخفق الخطيب في استهلاله فربما أدى ذلك إلى تزلزل موقفه، وضعف إقبال الأذهان والأسماع عليه.

د- إن المقدمة هي أول ما يطرق آذان المستمعين، وأنه يصعب تغيير الانطباع الذي تتركه في أذهانهم، مما يؤكد أهمية العناية بها[1] .

---

(١) انظر: «المنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية» (ص١٩١-١٩٢). و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص١٢٦). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص٢٥-٢٦). و«الدراسة النظرية للخطابة» (ص١٩-٢٠).

وأما الأقسام الفرعية التي تندرج تحت المقدمة، فهي:

١- **الاستفتاح**: وهو افتتاح موضوع الخطبة، بالحمد لله سبحانه وتعالى، والصلاة والسلام على رسول الله، إذ كان النبي ﷺ لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله والثناء عليه، ومن أشهر ما أثر عنه ﷺ، ما يسمى بخطبة الحاجة[١].

٢- **التمهيد**: وهو الجزء الذي يربط بين الاستفتاح، والقسم الثاني من الموضوع «وهو ما يسمى بصلب الموضوع، أو الغرض من الخطبة». ويستحب أن يكون متصلاً بموضوع الخطبة، ممهداً لها، مناسباً من حيث الطول والقصر، لوقت الخطبة الكلي. فلا يطيل في المقدمة إذا كان الموضوع قصيراً، ولا يختصر إن كان الموضوع كبيراً، والوقت طويلاً.

القسم الثاني- صلب الموضوع (الغرض): ويقصد به عرض محتويات الخطبة، والأفكار التي فيها، وهو الذي ينبغي أن تتناسب معه المقدمة والخاتمة طولاً وقصراً، وشكلاً ومعنى، ومضموناً وأسلوباً، وتركيزاً وتأكيداً، وهذا القسم هو الذي ينصبّ عليه جهد الخطيب، ويقوم عليه الموضوع، فهو محور الارتكاز والقوة في الخطبة، وهو عمودها الفقري، وقلبها النابض، فقد يمكن الاستغناء عن الأجزاء الأخرى، أما هذا فلا يمكن الاستغناء عنه[٢].

---

(١) انظر: «رسالة خطبة الحاجة» للشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) انظر: «الخطابة وإعداد الخطيب» (ص٩٣-٩٤).

هذا وينبغي أن يتصف صلب الموضوع بصفات، منها:

أ- **الوضوح**: إذْ هو السبيل إلى تقبُّل أذهان السامعين لأفكار الموضوع، وإدراك المعاني المطروحة فيه.

أما إذا خلا الموضوع من صفة الوضوح، فجاءت أفكاره معقدة الفهم، عسيرة الإدراك، صعبة التفسير، أدى ذلك إلى نفور السامعين، وانصرافهم عن متابعة الخطيب وهو يلقي خطبته.

ب- **الشمول**: إذْ ينبغي أن يشمل جميع جوانب العنوان الذي يتحدّث فيه، وأن يستوفي كافّة أطرافه.

ج- **الترتيب**: وهو أن يرتب فقرات الموضوع ترتيباً متوازناً مناسباً، بحيث لا تدخل فقرة في أخرى، ولا يتقدّم قسم على آخر، وإلا لأدّى ذكر الفقرات بصورة عشوائية إلى التكرار الممل، والتشويش المضل[١].

القسم الثالث- الخاتمة: والمقصود بها النهاية التي ينهي بها الخطيب خطبته، ويتم حديثه، فهي بمثابة الختام للشيء إذا بلغ غايته، فكأن الخاتمة تشير إلى اكتمال الموضوع، وتحقق المقصود.

ومما يبين أهمية الخاتمة في نجاح الخطيب، النقاط الآتية:

١- أنها هي التي تحافظ على قوة الموضوع، والتأكيد على ما جاء فيه.

---

(١) «خصائص الخطبة والخطيب» (ص٢٩-٣٠).

٢- أنها تزيد رسوخ الموضوع في أذهان السامعين، وذلك لأنها آخر أجزاء الخطبة، فهي بذلك أقرب ما يبقى في ذهن السامع وذاكرته.

ولما كانت الخاتمة هي آخر مرحلة في الخطبة؛ وجب أن يعطيها الخطيب من الاهتمام والعناية، الشيء الكثير، يجمع فيها شتات الموضوع بقصد استخلاص ما يريد من النتائج والثمار، لكي تكون مؤثرة وموجزة ومفيدة.

الرابع- حسن الاستشهاد في الخطبة: لابد للخطيب أن يدعم خطبته بأدلة وأمثلة وقصص وغيرها من الشواهد، التي يستشهد بها في خطبته، ليقوي حجّته، ويدعِّم قوله، حتى يكون أقدر على إقناع السامعين، وكسب ثقتهم، واستمالتهم إليه.

ومن حسن اختيار الشواهد، أن يراعي الخطيب النقاط الآتية:

١- **التنويع في الأدلة:** فإنّه أدعى لجذب انتباه السامع، والتأكيد على صحة ما يقول.

٢- **أن يكون الدليل متصلاً بالفكرة تماماً**، وأن يربط بينه وبينها، مبيناً موضع الشاهد، ووجه الاستشهاد.

٣- **أن يوثق الأدلة من مصادرها**، ويختار الصحيح منها.

٤- **أن يعنى بضبط النصوص**، وحفظها، وخاصة التي من القرآن الكريم، والسنة النبوية.

٥- **أن يرتب الأدلة،** فالقرآن أولاً، ثم السنة، ثم أقوال السلف الصالح، وهكذا.

٦- **أن لا يكون الشاهد طويلاً،** حتى لا يصرف السامعين عن موضوع الخطبة.

٧- **أن لا يكثر من الأدلة والشواهد،بحيث ينسي آخر الخطبة أولها.**

٨- **التجديد في الأدلة والشواهد،** بحيث يبتعد عن الأدلة والاستشهادات التي تُطرق بكثرة، واعتاد الناس على سماعها، إذ أنها قد لا تؤثر فيهم، ولا تشدهم للموضوع، فاختيار الأدلة الصحيحة التي تخفى على كثير من الناس، بسبب قلة طرحها عليهم، يضيف إليهم جديداً، ويجذبهم للموضوع، والعمل به[1].

ثالثاً: العوامل التي تتعلق بالوسائل والأساليب

إنّ من عوامل نجاح الخطيب: ما يتعلق بالوسائل والأساليب، التي يستخدمها الخطيب أثناء إلقائه للخطبة، وقد سبق الحديث عن العوامل التي تتعلّق بالخطيب نفسه، والتي تتعلق بموضوع الخطبة. هنا نتحدث عن العوامل التي تتعلق بالوسائل والأساليب، وهي على النحو الآتي:

(١) انظر «الخطابة» (ص٢٩-١٠٥). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص٥٤-٥٨). و«المنهج الدعوي في أصول المحاضرة الدعوية» (ص٢٢١-٢٢٢). و«وميض من الحرم»، خطب ومواعظ من المسجد الحرام، سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم، (٣/ ١٥).

الأول- وضوح الصوت، وسلامة النطق: إنّ من أهم العوامل التي تتعلق بالوسائل: حسن أداء الكلمة، وجهارة الصوت وجماله، وإخراج الحروف من مخارجها الطبيعية، والسلامة من عيوب النطق المعروفة، كاللثغة، والتمتمة، والفأفأة، والحبسة..[1]، وهذه العيوب منها ما هو في أصل خلقة الإنسان، وهذا قد يكون علاجه بالذهاب إلى الأطباء والمستشفيات، ومنها ما هو بسبب الجهل بأصول الكلام ومخارج الحروف، وهذا علاجه بتعلم مخارج الحروف، والتدرب على نطقها، وكيفية أدائها بالطريقة الحسنة، وكثرة المران والممارسة.

ومما يبين أهمية هذا الأمر: أنه إذا خلا صوت الخطيب من الجهارة والجمال، فكان ضعيفاً خافتاً، أو صارخاً قبيحاً، أو متهدجاً متحشرجاً؛ فإن الأسماع تنفُر منه، والقلوب تحتجب عنه، والنفوس ترفض الركون إليه، وتأبى الإقبال عليه[2].

وقد شبه بعضهم الصوت بالذهب وصناعته، فإن الصُّنَّاع يختلفون في الإبداع والإتقان لصناعته وصياغته وتشكيله في حليٍّ بعضها يُبهر العيون، ويجذب المشترين، وبعضها الآخر لا يجد إلا الكساد ونفور الناس منه. ومما يؤكد هذا المعنى طلب النبي ﷺ من بلال رضي الله عنه أن يرفع الأذان لجمال صوته ووضوحه.

ومن جانب آخر: فإن مما يتعلق بسلامة النطق، وجمال الكلمة، صون الخطبة عن اللحن، وخاصة منه الجلي الواضح، الذي تنفر منه الآذان، وتنزعج من

---

(١) انظر: «الخطابة» (ص١٤٥). و«الخطابة وإعداد الخطيب» (ص٢٠٦-٢٠٧)، و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص١٧٣-١٨٠).

(٢) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» (ص١١٣).

سماعه، مما يكون سبباً في صرف المستمعين عن الاستفادة من الخطبة، والتأثر بما فيها من وعظ وإرشاد.

فلذا على الخطيب أن يتعلم قواعد اللغة العربية، وإعرابها، ولا حرج عليه إن كان الكلام مكتوباً أن يشكل الكلمات بالحركات المناسبة، وخاصة منها ما يشكل عليه[1] .

الثاني- اختيار الألفاظ، والتراكيب المناسبة: الألفاظ والتراكيب، هما القالب الذي تصب فيه الأفكار والمعاني؛ لتصل عبره إلى الأذهان والقلوب، فالخطيب بهما ينقل أفكاره، وآراءه، وعواطفه إلى أسماع الآخرين، وبمقدار ما تكون الألفاظ والتراكيب، قوية وواضحة؛ يكون تأثيره في النفوس عالياً، واستيلاؤه على الأذهان والقلوب كبيراً. وهنا سأتحدّث عن كلٍّ من الألفاظ والتراكيب على حدة، فأقول مستعيناً بالله تعالى:

أولاً- الألفاظ: والمقصود به الكلمة المفردة، وكل كلمة، أو لفظة عربية تدل على معنىً معينٍ، ونحن لا ننكر أن هناك مترادفات في اللغة العربية ينوب بعضها عن بعض، ولكن نجد أن كل لفظة تحتوي على زيادة في المعنى العام الكلي الذي تشترك فيه هذه المترادفات.

مثال ذلك: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾ [القلم]

---

(١) انظر: «الخطابة بين النظرية والتطبيق» (ص٤٢)، و«شعاع من المحراب» (٢/ ٩).

فقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ ، له مترادفات، مثل: نعلمه، نحدده، نميزه..

فمن خلال ما سبق نصل إلى **عدة ملاحظات**[1] ، يجب مراعاتها عند إعداد الخطبة، وهي:

١- **اختيار اللفظ المناسب**، للمعنى المناسب، وهذا النوع من الاختيار يزيد في جمال الكلام وروعة البيان.

٢- **البعد عن الكلمة الغريبة**، وإيثار الألفاظ الواضحة المأنوسة، لأن الكلمات الغريبة تجعل السامع ينصرف إلى التفكير فيها، وفي غرابتها، مما ينتج عنه الانصراف عن سماع بعض أجزاء الخطبة، وما فيه من أفكار وأهداف.

مثال ذلك: بدلاً من أن يقول الخطيب: (تفاقمت)، يقول: (اشتدت، أو اتسعت، أو زادت).

وبدلاً من أن يقول: (عرّد)، يقول: (فرّ، أو هرب).

٣- **مراعاة الجرس الصوتي المعبر**، والوقع الجميل على السمع، وتجنب الكلمات الشائكة النطق، التي تنفر الأذن عن سماعها.

فلذا على الخطيب أن يختار الكلمات المناسبة للفكرة التي يتحدّث عنها، فمثلاً:

---

(١) في هذه الملاحظات، انظر: «الخطابة» (ص١٢٧-١٣٠). و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص٦٤-٧٣). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص٣٣).

أ- إذا تحدّث عن الجهاد، اختار الألفاظ ذات الجرس القوي، الصادقة الوقع في السمع والنفس، التي تثير الحماسة والشجاعة، مثل الكلمات الآتية: الخوف، الجهاد، البأس، العنف، الهزيمة، صليل، دوي المدافع.. وهكذا.

ب- إذا تحدّث عن الإيمان، اختار الألفاظ ذات الإيحاء، الهادئ المطمئن، مثل كلمات: الهداية، النور، الرشاد، الاستقامة...

ج- إذا تحدّث عن مناسبة حزن، اختار مثل كلمات: الأسى، مرارة، مأساة، ألم، مصيبة، ابتلاء، فراق، الصبر، تسليم، وداع، الموت.. وهكذا.

٤- **البعد عن الكلمات المبتذلة الركيكة**، والألفاظ العامية الممجوجة، مثل كلمة: (كمش)، التي بمعنى (أمسك).

٥- **عدم تكرار لفظ معين** في الخطبة في غير مواطن الحاجة إليه، لأن ذلك يؤدِّي إلى سآمة السامع، ومله، بينما نلاحظ أن تجديد الألفاظ في المعنى المشترك، يجذب انتباه السامع، يشدُّه إلى الخطيب، بل ويجعل السامع في حيوية ونشاط.

ثانياً- التراكيب: والمقصود بها هي: العبارات والجمل التي تتألف من عدة ألفاظ، لتحقيق معنى معينٍ مقصود، وبمقدار ما تكون التراكيب واضحة المعاني، حسنة السبك، جارية على قواعد اللغة العربية، خالية من التعقيد وتنافر الكلمات، مؤتلفة مع الجو العام للخطبة، متناسبة مع المعاني المقصودة ؛ تكون الخطبة قوية التأثير، جميلة العرض، محمودة الذكر[1] .

---

(١) انظر «خصائص الخطبة والخطيب» (ص٣٦).

وعلى هذا يجب **ملاحظة الأمور الآتية** عند صياغة التراكيب[1] :

١- أن تكون التراكيب قوية متماسكة، محققة للمعنى المقصود بأجمل صورة لفظية، سليمة من التفكك والضعف.

٢- أن تكون التراكيب متوازنة في ترتيب ألفاظها، خالية من التعقيد الناشئ عن ضعف انتظام الألفاظ، وسوء ترتيبها، الذي قد ينتج عنه اختفاء دلالة الكلام على المعنى المراد، فإنه إذا حصل تقديم، أو تأخير، أو فصل بين الألفاظ التي ينبغي أن تتجاور، وتتصل مع بعضها في التركيب، أدى ذلك إلى ما يُعرف بالتعقيد اللفظي، وذلك عيب خطير في الكلام.

مثال ذلك: التركيب الخاطئ: (إن في حقيقة الأمر الأخلاق هي أساس بقاء واستقرارها الأمة). وأما التركيب الصحيح للكلام السابق، فهو: (إن الأخلاق في حقيقة الأمر، هي أساس بقاء الأمة واستقرارها).

وهناك نوع آخر من التعقيد: يلجأ إليه بعض الخطباء، وهو إدخال الرمزيات في كلامهم، بهدف التطوير في الخطبة، فيغرقون في تلك الرمزيات إلى حد تضيع فيه المعاني، وتزيغ معه الأذهان عن إدراك المراد، وذلك لأن الخطبة من طبيعتها: الوضوح، وسرعة نقل الأفكار والمعاني إلى أذهان السامعين، وهذه الرمزيات لا تصلح في مثل هذا الضرب من الكلام، مهما كان رائعاً في الخيال والتصوير.

(١) في هذه الملاحظات، انظر: «الخطابة» (ص١٣١-١٣٤). و«خصائص الخطبة والخطيب» (٣٦-٤٢).

٣- **ينبغي أن يلاحظ هيئة التراكيب** من حيث الطول والقصر، إذ المعلوم أن التراكيب القصيرة، هي أنسب شيء في النص الخطابي، لأنه يرتكز في إلقائه على الصوت ونبراته، وكلاهما يعتمد اعتماداً كلياً على نفس الخطيب المحدود، الذي لا يطيق الاستمرار في العبارات الطويلة، بدرجة قوة الصوت، ونبراته التي يبدأ بهما في بداية النطق بالتركيب الطويل. وهذا قد ينتج عنه:

أ- أن يختل توازن الصوت واللهجة وينتقل من النشاط إلى الفتور.

ب- أن ينقطع نفس الخطيب، فيضطر إلى الوقوف، مما يترتب عليه انقطاع المعنى على السامع.

٤- **التصرف في فنون القول**، بأن تتعاقب على المعنى، أو المعاني ضروب من التعبير، من إخبار، إلى تعجب، إلى تهكم، إلى تعجب، إلى نفي، إلى نهي، إلى نداء، إلى قسم..، وذلك أن من سمات الإلقاء الناجح، أن ينوع الخطيب في أسلوب إلقائه، أما إذا التزم الخطيب ضرباً واحداً من ضروب التعبير، فإن ذلك ينجم عنه السآمة والملل لدى نفوس مستمعيه.

٥- **خلو التراكيب من التكرار غير المناسب**: فكما قلنا في الألفاظ أن من محاسنها في الخطبة، عدم تكرار اللفظ الواحد من غير حاجة داعية إليه. نقول كذلك: إن التركيب الواحد إذا تكرر أكثر من مرة، من غير حاجة داعية إليه، يعتبر من العيوب التي يجب أن يتحاشاها الخطيب في إلقائه خطبته.

أما إذا كان التكرار في مكانه المناسب، وتستدعيه الحاجة، فهذا يعتبر من جمال الأسلوب، الذي يرسخ في النفوس الأفكار والقيم الحميدة[1]، ومثال ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن]، تكرر في سورة الرحمن، واحداً وثلاثين مرة.

وقوله ﷺ في خطبة الوداع: «**ألا هل بلغت؟**» قالو: نعم، قال: «**اللهم اشهد**» (ثلاثاً)[2].

ويمكننا أن نلحق بهذه الملاحظة، أن من عيوب الإلقاء: قضية التزام الخطيب بلازمة معينة يرددها كثيراً أثناء خطبته، كقوله: (نعم يا مسلمون، أو هكذا أيها الناس، أو أجل معشر المؤمنين)، فإنها تلفت نظر المستمع إلى عدها، وترقب قولها وتكرارها، مما ينتج عنه أن ينصرف عن فهم معاني الخطبة، وإدراك أهدافها.

وإذا أردت أخي الخطيب أن تجتنب الأخطاء في كل ما سبق فعليك بقال الله، قال رسول الله ﷺ، -أي: عليك بنصوص الوحيين: الكتاب والسنة-.

الثالث- حسن استخدام حركات الجسد: إن حركات جسد الخطيب وهو يلقي خطبته، لها أثر كبير في نجاحه، وتحقيق أهدافه، إذا كانت في مكانها الصحيح، واستخدمت بطريقة جيدة، وقد قيل: استخدام الإِشارة يزيد

---

(١) انظر: «الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ» (ص١٣٨-١٣٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٤٠٣).

في إيضاح العبارة[١]. ويقول الجاحظ: (الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ)[٢].

وهذه الحركات، هي: النظر إلى المستمعين، وتعبيرات الوجه، وإيماءات الرأس، وحركات اليد، والحركة الكلية للجسم. والحديث عنها بالتفصيل على النحو الآتي:

أ- **النظر إلى المستمعين**: فمما ينبغي للداعي أن يتفطن له أثناء إلقائه: هو أن لا يُظهر تفضيل البعض على البعض في المودة، أو الاعتناء من خلال نظره إليهم، أو أن ينشغل بالنظر إلى الأوراق التي بين يديه، أو الحائط الذي بالخلف، وهكذا، بل ينبغي أن يكون نظره إليهم جميعاً، ولا يخص بعضهم في ذلك دون البعض، فإن كان المستمعين له قلة؛ نظر إلى كل واحد منهم لبضع ثوان، مما يشعر المستمع أن الخطيب يحدثه شخصياً، وإن كانوا كُثراً؛ فيحسن أن يرمقهم بنظرات مباشرة وطويلة في سائر الاتجاهات، وألا ينظر بضبابية وعدم تحديد، حتى يشعر الجميع بأن الخطيب يلقي عليه مباشرة، وأنه يخصه بالكلام[٣].

وأذكر أنه في إحدى خطب الجمعة، فوجئت بضعف تجاوب المستمعين مع الخطيب وخطبته، مع أهمية الموضوع وقوته، فظهر لي أن السبب -والله أعلم- هو

---

(١) انظر: «الخطابة» (ص١٥١-١٥٢)، و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص ١٣٠).

(٢) نقلاً عن: «الخطابة في موكب الدعوة» (ص٦٩).

(٣) انظر: «خصائص الخطبة والخطيب» (ص ١٣٠)، و«فن الكلام» (ص٧٧).

أن الخطيب بدأ خطبته منذ صعد على المنبر، بالنظر إلى الأوراق التي كتبها، ثم أخذ يقرأ منها جميع ما كتب فيها، ولم يرفع نظره عنها حتى انتهى من خطبته، فانشغل المستمعون عنه، حتى أن بعضهم غلبه النوم.

هذا **ومن جانب آخر**: فعليه أن يخص بالنظر من يكلمه، أو يسأله، أو يبحث معه على الوجه الخاص، فعند ذلك ينبغي أن يعطيه مزيداً من التفاف إليه، أو إقبال عليه.

ب- تعبيرات الوجه: وهي التي تشير إلى مدى شعور الخطيب، وأحاسيسه لحظة الإلقاء، فعندما يذكر شيئاً مفرحاً وساراً، ولم يصحبه الوجه البشوش، يكون التأثير ناقصاً في المستمعين، وعندما يدعو الخطيب إلى الاطمئنان والتفاؤل فإن وجهه ينبغي أن يكون مشرقاً متهللاً، وأن تكون أساريره نفسها داعية للأمل، وعندما يكون الإلقاء في موضوع يحزن ويؤلم، ولم تصحبه تعبيرات الوجه التي تدل على الحزن والتألم والتوجع، يكون التأثير في المستمعين ناقصاً[1].

ج- إيماءات الرأس: وغالباً ما تستخدم للتعبير عن الموافقة أو عدمها، وهي تُؤثر بشكل كبير على تأكيد الموافقة، أو عدمها.

د- حركات اليد: تستخدم حركات اليد في أشكال متعددة لنقل المعاني المختلفة.

فمثلاً: رفع إحدى اليدين إلى أعلى قد يشير إلى مواقع الحماس والقوة في الخطبة. وقد يشير استخدام الأصابع إلى التنويه بالنقاط المتعددة التي ينوي

(١) انظر: «طرق الخطابة والإلقاء» (ص١٤٤)، و«فن الكلام» (ص٧٧-٧٨).

سردها، أو التي يحتويها الموضوع. بينما يُعدُّ استخدام الإِصبع الواحد (السبابة) إلى أعلى في مرات متكررة، للدلالة على التهديد والتحذير.

وكذلك فإن الخبط على المنصة يستخدم للتشديد على فكرة معينة، والتمسك بها[١].

وهكذا فإن لكل معنى ما يناسبه من حركات اليد المختلفة.

ومن الأمثلة على استخدام الحركة في الكتاب والسنة:

قول الله سبحانه وتعالى، على لسان مريم بنت عمران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم]. إذ بلّغت الإشارة المراد، كما لو أنها تكلمت بالمعنى الذي فهموه منها.

وفي السنة المطهرة استخدم رسول الله ﷺ الإشارة بيديه، أو إحداهما كثيراً، فمن ذلك قوله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا[٢].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فِي حَجَّتِهِ، فَقَالَ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ. قَالَ: «**وَلا حَرَجَ**»، قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: «**وَلا حَرَجَ**»[٣].

---

(١) انظر: «طرق الخطابة والإلقاء» (ص١٤٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، ومسلم (٢٩٨٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٤)، ومسلم (١٣٠٦).

وعــن أَبِي هُرَيْــرَةَ عَــنْ النَّبِــيِّ ﷺ قَــالَ: «**يُقْــبَضُ الْعِلْــمُ، وَيَظْهَــرُ الْجَهْــلُ وَالْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْـهَرْجُ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْهَرْجُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ، فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ[1].

هـ- الحركة الكلية للجسم: كأن يحرك جسمه لليمين، أو الشمال، وذلـك للدلالـة على جهة من الجهات، أو يرفع جـسمه للأعـلى، للدلالـة عـلى التعجـب، أو التعظيم لأمر من الأمور، وهكذا.

وحركــات الجــسد المختلفــة -النظــر إلى المــستمعين، وتعبــيرات الوجــه، وإيماءات الرأس، وحركات اليد، والحركة الكلية للجسم- ينبغي أن تكـون وفـق الضوابط الآتية:

١- أن تكون ملائمة للمعنى المراد من العبارة، حتى تتحقق مؤازرتهـا للعبـارة في الإيضاح والتبيين. فإذا لم تأت الإشارة مناسبة للمعنى المقصود؛ تصبح ضرباً من العبث لا فائدة منه.

٢- أن تسبق القول له المقصودة له؛ لأنها تعتبر موطئة له، ومنبهة إليه.

أما إذا جاءت الإشارة بعد القول؛ فلا فائدة منها؛ لأن القول أبلـغ في التعبـير من الإشارة. عند ذلك لا يعود للإشارة أيُّ معنىً إذا سبقها القول.

٣- أن تكون متزنة متناسقة، تعطي مدلولها بكل وضوح ورشاقة، بعيـدة عـن العنف المفرط، والمبالغة الشنيعة. فإذا كثرت، وزادت عن الحدّ المطلـوب،

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٥).

تصبح نوعاً من الحركات المخرجة للخطيب عن حدّ الوقار والهيبة، وربما أدّت زيادة الحركات وكثرتها إلى استثارة ضحك بعض السامعين[١] .

الرابع - الاهتمام بدرجة الصوت، ونبراته: إن درجة الصوت من حيث السرعة والبطء، والارتفاع والانخفاض، لها أثر كبير على نفوس السامعين، وسأذكر هنا -بإذن الله تعالى- أهم النقاط التي ينبغي على الخطيب أن يلاحظها أثناء إلقائه [٢]، وهي:

١- أن يجعل صوته مناسباً للمكان والسامعين، فلا ينخفض حتى يصير همساً، ولا يعلو حتى يكون صياحاً يصك الأذان، وبين المرتبتين درجات ينبغي مراعاتها.

ولكن ينبغي أن يكون الصوت في الغالب: مرتفعاً، وجهورياً واضحاً، وأن من قال عكس ذلك، فقد خالف الدليل، الثابت عن النبي ﷺ: أنه (إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ)[٣].

---

(١) «خصائص الخطبة والخطيب» (ص ١٣١). وانظر: «الخطابة في موكب الدعوة» (ص٦٨).

(٢) في هذه الملاحظات، انظر: «الخطابة» (ص١٤٧-١٥٠). و«الخطابة وإعداد الخطيب» (ص٢٣٠). و«الدراسة النظرية للخطابة» (ص٤٤-٤٥)، و«شعاع من المحراب» (ص١١). و«خصائص الخطبة والخطيب» (ص١١٢-١١٤). و«الخطابة الدينية بين المنهج والواقع» (ص٦٤)، و«طرق الخطابة والإلقاء» (ص١٣٨-١٤٢)، و«فن الكلام» (ص٧٤-٧٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨٦٧).

كما أنه ينبغي أن يبدأ الخطبة منخفض الصوت، ثم يعلو شيئاً فشيئاً، حتى يكون وقعه على السامعين مقبولاً، ولا يفجأهم بالصوت المرتفع.

٢- الابتعاد عن الإسراع في النطق، والحذر منه، لأنه يفوت على السامع الشيء الكثير من النفع.

هذا وإن أعظم الخطباء وأجلهم من تمهل في إلقائه، وأوضح نطقه، وأجاد في إسماعه، وتلك هي صفة رسول الله ﷺ، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ يُبَيِّنُهُ، فَصْلٌ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إليه)(١).

وكما ذممنا الإسراع، فإنَّا لا نمدح الإبطاء في الإلقاء إذا خرج عن صورته الطبيعية، وأصبح ضرباً من التمطيط، فإن ثمرته سيئة في نفوس السامعين، إذ ينتج عنه الاسترخاء، وشرود الذهن.

٣- أن لا يكون الصوت على وتيرة واحدة، حتى لا ينجم عن ذلك الملل والسأم إلى نفوس السامعين، الذي يتطلّب انتباههم ونشاطهم من الخطيب أن يُلون صوته، ما بين الخفض والرفع، والسرعة والإمهال.

٤- إبراز الكلمات المهمة، وجعل غير المهمة ثانوية، وذلك إما أن يكون بالضغط على بعض مقاطع الكلمة، أو بالسرعة على مقطع آخر.

(١) **إسناده جيد**: أخرجه الترمذي (٣٦٣٩)، والحميدي (٢٤٧)، وأحمد (٦/ ٢٥٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠٩)، وإسحاق بن راهويه (١٧٠٤)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢٠٧)، والبغوي (٣٦٩٦)، [«المشكاة» (٥٨٢٨)].

مثال: قلت للعاصي سوف **تندم** على هذا العمل. فتظهر نبرة خاصة في كلمة تندم، وذلك بالضغط على حرف النون.

مثال: إن المعاصي لها **شؤم** عظيم. فتظهر نبرة خاصة في كلمة شؤم، بالسرعة في نطقها.

٥- التوقف قبل وبعد كل فكرة، فقد قيل: إن الصمت في بعض الأحيان كالحديث. فلذلك عندما يُستخدم الصمت بحكمة أثناء الإِلقاء، يُصبح له تأثير عظيم على السامعين، ولكن لابد أن تكون الوقفات طبيعية، وفي المكان المناسب، وإلا أفسدت الإِلقاء.

الخامس- العناية بالمنبر أو المنصة: إن استعانة الخطيب بشيء يخطب من عليه، حتى يسمع الناس كلامه بوضوح، ويروا حركاته وانفعالاته، من الأمور التي تساعد على نجاح الإِلقاء، والتأثير فيهم، فلذا كان رسول الله ﷺ، يخطب في مسجده من على المنبر[1]. ولذا لما كان رسول الله ﷺ خارج المسجد في مكان لا يوجد فيه منبر، جلس على بعيره وهو يخطب في الناس كما في حجة الوداع، وأمسك أحدهم بخطامه[2]. وذلك ليسمع الناس صوته، ويرونه وهو يتحدث ويشير. يقول الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث: (وفيه دليل على استحباب الخطبة على

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٤٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

موضع عال من منبر وغيره، سواء خطبة الجمعة والعيد وغيرهما، وحكمته أنه كلما ارتفع؛ كان أبلغ في إسماعه الناس، ورؤيتهم إياه، ووقوع كلامه في نفوسهم)[١] .

كما ينبغي للخطيب أثناء الإلقاء أن يصرف عن المنصة كل ما قد يكون سبباً في اشتغاله عن الخطبة، أو إشغال السامعين عن سماعها، كأن يكون على المنصة أو المنبر، باقة ورد، أو أوراق وإعلانات، أو أن يكون هناك حركة لبعض المنظمين في قاعة الخطبة..، وهكذا، فلذا لـمّا أراد النبي ﷺ، أن يخطب في حجة الوداع من على بعيره، أمسك أحد الصحابة بخطامه، وعن ذلك يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفائدة إمساك الخطام، صون البعير عن الاضطراب، حتى لا يشوش على راكبه)[٢]. والمستمعين الذين ينظرون إليه.

فلذا ينبغي للداعية الخطيب في هذا الزمان أن يستعين بكل وسيلة مشروعة تساعده على إيصال صوته كالمذياع ومكبر الصوت.. وغير ذلك من وسائل التقنية الحديثة، وأن يصرف كل ما يشوش ويؤثر على خطبته.

رابعاً: العوامل التي تتعلق بالمدعوين

إن من عوامل نجاح الخطيب: ما يتعلق بالمدعوين، الذين يستمعون للإلقاء، وقد سبق الحديث عن العوامل التي تتعلّق بالخطيب نفسه، والتي تتعلق بموضوع

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١١/ ١٧٠)، وانظر: «فتح الباري»، لابن حجر، (١/ ١٩٢).

(٢) المرجع السابق، (١/ ١٩١).

الخطبة. والتي تتعلق بالوسائل والأساليب، وهنا نتحدّث عن العوامل التي تتعلق بالمدعوين الذين يستمعون الخطبة، وهي على النحو الآتي:

الأول- مخاطبة الناس على قدر عقولهم: من المعلوم أن الخطيب إذا كان يلقي خطبته في موضوع لا تدركه عقول السامعين له، فإنه يضيع وقته، ووقتهم؛ بل وقد تكون النتيجة عكسية، فيكذبونه ويرفضون ما يقول، قال أمير المؤمنين عَلِيُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟)[1]. يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وفي هذا الحديث دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، خشية أن يشتبه عليهم فهمه، ومثال ذلك وضابطه: إذا كان الحديث في الظاهر يقوي البدعة، وفي أصله غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بالظاهر مطلوب)[2].

إذن فحديث الخطيب مع الناس على قدر عقولهم، وإدراكهم، له أهمية كبيرة جدّاً، **فهو أولا**: أدعى لقبولهم الخطبة والدعوة. **وثانياً**: حتى لا يكون سبباً لوقوعهم في منكر عظيم، وهو: تكذيب الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ.

الثاني - مراعاة نفسياتهم وأعمارهم: قد يكون الخطيب عالماً متبحراً، لكنه لا يعي كيف يوصل هذا الخير الذي يحمله بين جوانحه إلى الناس، وما طرائق التبليغ المرتبطة بمعرفة أحوال المستمعين.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٧).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧٢). وانظر: «الفتاوى»، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨/ ٣٣٨).

فلذا وجب على الخطيب مراعاة نفسيات المستمعين له، **ومما له صلة بنفسيات السامعين**، أنهم يملون وينفرون من كثرة الكلام، وطول وقته، فلذا كان سلفنا الصالح -رضوان الله تعالى عليهم- حريصين على هذا الأمر أشد الحرص، فهذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يا أبا عبد الرحمن لوددتُ أَنَّك ذكرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك؛ أنِّي أكره أن أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أتخوَّلُكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ، يتخولنا بها؛ مخافة السآمَةِ عَلَيْنَا[1].

وهذا ترجمان القرآن ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما، يقول: (حَدِّثِ الناس كل جمعة مَرَّةً،فَإِنْ أبيت فمرتين، فإن أكثرت فَثَلَاثَ مرارٍ، ولا تُمِلَّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، ولَا أُلْفِيَنَّكَ تَأتِي القوم وهم في حديثٍ من حديثهمْ، فَتقصُّ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ، فتُمِلُّهُمْ، ولكن أنصت فإذا أمرُوك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر السَّجع من الدعاء فاجتنبه، فَإِنِّي عهدْتُ رَسُول الله ﷺ، وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك، يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجْتِنَاب)[2].

وأيضاً مما له صلة بنفسيات السامعين، أنهم ينفرون ممن ينقدهم علناً، ويتهجم عليهم أمام الناس، أو على أسرهم، أو مجتمعاتهم، أو أعرافهم وعاداتهم، فلذا وجب عل الخطيب إذا نصح في الدين، أو وجّه لأدب من الآداب

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣٣٧).

الإجتماعية، أن يكون نصحه وتوجيهه ضمن إطار عام، وأسلوب بليغ، وحكمة رشيدة، وبُعد عن الهجوم المباشر، وليكن شعاره قول الرسول ﷺ: «**ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟...**»[١].

وأيضاً مما له صلة بنفسيات السامعين: أنهم ينفرون من الخطيب إذا كانت عباراته وكلماته نابية، أو قاسية، يقول رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الْفَاحِشِ، ولا الْبَذيءِ**»[٢]. لذا فعليه أن ينتبه لهذا الأمر، ويكون رقيقاً في عبارته، سمحاً في ألفاظه.

الثالث- خلوّ قلوبهم من الشواغل، ومن الهوى المنحرف: إن مما له صلة كبيرة بنجاح الإلقاء، وتأثيره في المستمعين، أن تكون قلوبهم خالية من الشواغل والملهيات، يقول ابن القيم الجوزية رحمه الله: (والناس **ثلاثة**: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له. **الثاني**: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه. **والثالث**: رجل حي القلب، مستعد، تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه،

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٤٠١).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وأحمد (١/ ٤٠٤-٤٠٥)، وابن حبان (١٩٢)، والحاكم (١/ ٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٠٧)، و«الأوسط» (١٨١٤)، [«صحيح الجامع» (٥٣٨١)].

وألقى السمع، وأحضر قلبه ولم يشغله، بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع، **فهذا القسم**: هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة، والمشهودة. **فالأول**: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. **والثاني**: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه)[1].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق]. قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة، **أحدها**: أن يكون له قلب حي واع، فإذا فقد هذا القلب، لم ينتفع بالذكرى. **الثاني**: أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل، لم ينتفع بكلامه، **الثالث**: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له، وهو الشهيد، أي: الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر، لم ينتفع بالخطاب، وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي، إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولا بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه، ولكن قلبه كله في موضع آخر، لم يدركه فكثيرا ما يمر بك إنسان، أو غيره، وقلبك مشغول بغيره، فلا تشعر بمروره، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء)[2].

وأيضاً ينبغي للخطيب الحرص على أن يخطب في أناس خالية قلوبهم من الهوى المنحرف والشبهات، لأن هذا من شروط قبول الكلام، ووقوعه في القلب،

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٤٢).

(٢) المرجع السابق، (٣/ ٢٣١).

وتأثيره في السامع، يقول د/ عبد العزيز الحميدي: (إن التأثير بالكلام لا بد له من **ثلاثة أمور**:

١- أن يكون الكلام خارجاً من القلب.

٢- أن يكون الكلام علماً نافعاً.

٣- وأن يقع على قلب خالٍ من الهوى المنحرف)[1].

• معشر الدعاة إلى الله! ومن أسباب نجاح الداعي إلى الله تعالى في دعوته أن يكون على علمٍ بقواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيما يلي فصل في قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فصل: قواعد الدعوة إلى الله

القاعدة الأولى: لا بد من العلم بالمعروف الذي يدعو إليه، وبالمنكر الذي ينهى عنه، جاء عن بعض السلف: (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه).

وهذا واضح فكما أن من يعالج المريض يحتاج إلى فهم بالمرض والدواء -أي: أن يكون طبيباً جيداً- فكذلك الداعي، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨] والبصيرة تشمل ما قلناه.

(١) انظر: «التاريخ الإسلامي مواقف وعبر» (٢٠/ ٤٤١).

القاعدة الثانية: الرفق، والأصل فيه الكتاب والسنة، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه].

والقول اللين الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة ذكره الله تعالى في سورة النازعات، قال تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾[النازعات] فهذا الخطاب صريح في بيان الحق، ولكنه رفيق لا يجد المبطل فيه إثارة لنفسه المثقلة بالباطل، ثم يبلغ اللين والرفق في الخطاب إلى مدى أبعد من ذلك فيقول موسى كما حكاه الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه].

فهذا تحذير لطيف وصادق إلى فرعون إذ لم يوجه موسى عليه السلام العذاب إلى فرعون مباشرة وإنما قال: ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ وهذا فيه من لين القول والتلطف في التحذير، وإذا كان الله تعالى قد أمر موسى عليه السلام بالقول اللين مع عصمته وحفظ الله له، فغيره أولى بالأخذ باللين والتلطف في الخطاب؛ فإن القائل باللين ليس بأفضل من موسى، والمقول له ليس بأخبث من فرعون.

وفي السنة النبوية: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه**»، «**أن الله يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**» ولا شك أن القول اللين في الدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يدخل في مفهوم الرفق المأمور به، ولا شك أن الداعي المسلم قد يخرج في بعض الأحيان عن هذا النهج من اللين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن عليه دائماً أن يحمل نفسه عليه، لأنه هو السبيل القويم الذي دلت عليه السنة النبوية، وطبقه

الرسول ﷺ فعلاً، فمن هذه التطبيقات ما جاء عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: (بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم، يُصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

القاعدة الثالثة: النظر إلى المصالح والمفاسد، ومعنى ذلك: أن يكون قول الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بفقه ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر عليه، فإذا تعارضت المصالح والمفاسد فيما يأمر به أو ما ينهى عنه نظر: فإن كان فيما يقوله أمراً ونهياً مصالح أعظم من المفسدة التي تحصل في أمره ونهيه، وجب عليه الأمر والنهي، وإن كان العكس -أي: المفاسد أعظم- لم يجب بل قد يحرم[1].

القاعدة الرابعة: اختلاط المعروف بالمنكر، الداعي بالنسبة لأنواع المعروف يدعو إليها دعوة مطلقة، وكذا بالنسبة لأنواع المنكر ينهى عنها نهياً مطلقاً.

ولكن بالنسبة لشخص معين أو طائفة معينة إذا كانوا جامعين بين معروف ومنكر، وهم إما أن يفعلوهما معاً أو يتركوهما معاً، فعلى الداعي أن ينظر: فإن كان

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ١٢٨).

مصلحة المعروف أكبر وأرجح، أمر به وإن جاؤوا بـالمنكر المغمـور في الخـير، وإن كان الشر أكثر نهى عنه، وإن فات الخير الكثير المغمور فيه، وإذا اشتبه الأمـر عـلى الداعي توقف حتى يتبين له الأمر فلا يقدم إلا بعلم وإخلاص.

القاعدة الخامسة: التبليغ حسب الإمكان، وليس من شروط أداء واجـب التبليـغ أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي إلى كل إنسان مكلف في العالم، إذ لـيس هـذا من شرط تبليغ الرسالة، فكيف يشترط فيما هو من توابعها؟

بل يشترط أن يتمكن المكلفون من وصـل ذلـك إلـيهم، ثـم إذا فرطـوا فلـم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه، فإن التفريط منهم لا منه[(١)] .

مثالٌ من القرآن الكريم في الدعوة إلى الله بالأساليب والوسائل الشرعية[(٢)]

سورة نوح

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٨/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) هذا المثال مأخوذ من كتاب «محاضرات في الدعوة إلى الله» لفضيلة الشيخ: عبدالعظيم بن بدوي حفظه الله.

﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح].

إن أحسن كلمة تقال هي الدعوة إلى الله، وأحسن عملٍ يؤديه الإنسان هو الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. أي: لا أحد أحسن منه قولاً.

والدعوة إلى الله وظيفة المصطَفَيْن الأخيار وأتباعهم، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

والدعوة إلى الله لها قواعد وأصول، يجب على من أراد القيام بالدعوة أن يتعلمها أولاً، وقبل أن يخوض غمار الدعوة، كما أنّ عليه أن يستفيد من تجارب الدعاة قبله.

وسورة نوح من السور التي تضمنت شيئاً من قواعد الدعوة وأصولها، وشيئاً من تجربة الداعي الأول نوح عليه السلام، أوحى الله بها إلى نبيه محمد ﷺ ليستفيد منها هو والدعاةُ من بعده.

استُفتحت السورة ببيان مصدر الإرسال ومصدرِ التكليف بالدعوة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح]، فالمُرسل هو الله سبحانه، وليست هناك جهةٌ يصدر منها التكليفُ بالدعوة غير الله سبحانه، وتتلخص رسالة نوحٍ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ

﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح]، والإنذار هو الإعلام المتضمن التخويف، وهو المناسب لقوم نوح، إذ كانوا على شفا حفرةٍ من النار، لما وقعوا فيه من الشِّرْكِ وعبادةِ الأصنام، ولـمَّا كان الله تعالى لا يُعذِّبُ حتى يبعثَ رسولاً، فإنَّ الله تعالى بعثَ نوحاً إلى قومه، يدْعوهم إلى التَّوحيد، ويُنْذِرُهم عذابَ الله إنِ استمرُّوا على الشِّرك، بـ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾[نوح:٢]، أي: بيِّن النِّذراةِ، ظاهِرُ الأمرِ واضحُهُ، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾[نوح:٣].

وهكذا يجبُ أن تكونَ الدَّعْوة، يجبُ أن تكونَ الدَّعوةُ إلى الله، إلى عبادتِه وتقواه، وإلى طاعةِ رسولِه واتِّباعِه، ولا يجوز أن تكون الدَّعوةُ إلى غَيْرِ هذه الثلاثةِ أبداً، لا يجوزُ أنْ تكونَ الدَّعوةُ إلى عبادةِ غيرِ الله، ولا يجوز أن تكونَ الدَّعوةُ إلى غيرِ رسُولِ الله، لا يجوز أن تكونَ الدَّعوةُ إلى مذْهبٍ، ولا إلى رأْيٍ، ولا إلى حِزْبٍ، ولا إلى جماعةٍ، ولا إلى شيخٍ، ولا إلى إمامٍ، يجبُ أن تكونَ الدَّعوةُ إلى عبادةِ الله وحْدَه، وطاعة رسولِه وحْدَه.

والذي يقرأُ القرآنَ يجدُ أنَّ الأنبياءَ جميعاً وهم حمَلَةُ رايةِ الدَّعوةِ إلى الله، قد اتَّفقوا في الدَّعوةِ على كلمةٍ واحدة، يقولُها كلُّ نبيٍّ لقومه، وهي: ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ولم يكن هذا الاتِّفاقُ من المرْسَلين أنْفُسِهم، لأنَّهم لم يجْتَمِعُوا يوماً ما، ولكن لما كانَتْ جِهَةُ الإرْسالِ واحدةً، وجهةُ التَّكليفِ واحدةً، وهي الله، والله وحْدَه، فقد كلَّفَ الله رُسُلَهُ أجْمعين بالدَّعوةِ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو عِبَادَةُ الله وحدَه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء].

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحْدَهُ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بِفِعْلِ ما أمر، واجْتنابِ ما نَهى عنْه وزجر، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في كلِّ ما آمركم وأنهاكم؛ فإني لا آمرُكم ولا أنهاكم إلا بإذْنِ الله، فطاعةُ رسول الله طاعة لله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

ثم رغبهم في الاستجابة، فبيّن لهم مالهم إذا استجابوا فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤]، أي: إن استحببتم لي، وقبلتم هذه الدعوة، فعبدتم الله وحده، واتّقيتم سخطه وعذابه بترك الشرك، فإن الله ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤] أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي استوجبتموه بكفركم.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح]، وهذا ترغيب في الاستجابة، ومعناه: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر الله تعالى بعذابكم فـ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ [الطور]، لأن الله إذا قضى شيئاً فلا رادّ لقضائه، ولا مُعقّب لحكمه، ولا غالب لأمره، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح].

وهكذا يجب على الداعية أن يحمل همّ الدعوة ليلاً ونهاراً، وأن لا يفتر عن الدعوة ولا يقعد عنها أبداً، وأن لا ييأس من الناس، وإن صرحوا له بعدم اتباعه.

ولم الإصرار من نوح على هذه الدعوة؟ أي مصلحة يرجوها؟ وأيُّ مكسبٍ يحققه، وأيُّ غاية يطمع فيها؟

إنَّه -والله- لم يكن يطمع في شيءٍ سوى أن يقومَ بما كلَّفه الله به، وأن يُشْهِدَ ربَّه أنه ما قصَّر، وأنه بلَّغ، وهذا هو الذي يملِكُه، ولا يمْلِكُ قُلوبَ النَّاس، ومع أنهم كانوا يَفرّون منه، إلَّا أنَّه كان دائماً يتحيَّنُ الفُرَصَ، فيغشاهم في مجالسهم، فإذا فاجأهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسْمَعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ حتى لا يعرفهم، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ على الكفر، ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان ﴿ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾.

ومع هذا الإصْرارِ لم يترُك نوحٌ دعوتهم، بل استمرَّ فيها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾.

وهكذا يُعلِّم الدُّعاةَ الإصرار على الدَّعوة، وإن أصرَّ المدعوون على رفضها، لا لشيء إلا طمعاً في الأجر الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: «**لأَنْ يَهْدِيَ الله بكَ رجُلاً واحدً، خيرٌ لك من حُمُرُ النَّعم**»[1]، وإلَّا حرصاً على نجاة المدعوِّين -الذين يرفُضُونَ الدّعوة- من النَّار، لأنهم يعلمُونَ عِلمَ اليقين، أنَّ مَنْ رفض دعوَةَ الرُّسل، فقد وجبت له النَّار، كما قال النبي ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذٌ بحُجزكم عن النار، وأنتم تفلَّتون من يدي**»[2].

لذلك كان نوحٌ مُصِرَّاً على الاستمرار في الدَّعوة مع إصرار قومه على عدم قبولها، وبهذا أمر الله نبينا محمداً ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، وعندهما: «خير لك من أن يكون لك حمر النعم» بدل: «خير لك من حمر النعم».

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٨٥).

ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[فصلت]، أي: فاعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، فلن نتبعك أبداً، ولن نؤمن لك أبداً.

هكذا قالوا، ومع ذلك يأمر الله نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى التوحيد والاستقامة، فيقول له عقب قولهم ذلك: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾[فصلت].

وفي هذا تعليمٌ للدعاة أن لا يتركوا الدعوة لمجرد قول المدعوين أو بعضهم: لن نؤمن لكم. فإن الأمر ليس إليهم، وقلوبهم ليست بأيديهم، وإنما كما جاء في الحديث: «**إن قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن. كقلبٍ واحدٍ. يُصَرِّفهُ حيث يشاء**»[1] وكم من كافرٍ حارب الرسول ﷺ، وحارب الدعوة، وقتل المسلمين، ثم شرح الله صدره للإسلام.

متى أسلم الفاروق عمر؟ ومتى أسلم سيف الله المسلول خالد؟ ومتى أسلم أبو سفيان وابنه معاوية؟ وغيرهم من أمثالهم كثير.

فعلى الداعية أن لا ييأس من الناس أبداً، وعليه أن لا يهتم بكثرة الأتباع، فإن نوحاً عليه السلام، لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فما آمن معه إلا قليل.

وقد يستعظم بعض الناس هذا الجهد المتواصل الذي بذله نوح عليه السلام، ويستقلُّ هذه النتيجة. جُهد ألف سنةٍ، ومحصلته، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود]. ولكننا نقول: إن إيمان واحد فقط أعظم من جهدِ ألف سنة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

أساليب الدعوة:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح]

هذه الآيات تُعلِّمُ الدعاة أساليبَ الدعوة، وأنّ على الداعية أن يستخدم في الدّعوة الأسلوب المناسب، فيستخدم الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى، ثم يرشدهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ أي كثير المغفرة لمن استغفره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء].

وفي الحديث عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال: **«يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»**[1].

هذا آجل ثواب الاستغفار، وأما عاجله: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أي متواصلة الأمطار. فالأمطار تحبسها الذنوب، وترسلها التوبة. ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، والدارمي (٢٧٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٩)، وفي «الصغير» (٢/ ٨٢)، [«الصحيحة» (١٢٧)].

الرزق عليكم، وسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضِّرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جناتٍ فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها[1].

والربط بين الاستغفار وسعة الرزق قد ذُكر في القرآن الكريم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

ولذا كان الأنبياء يأمرون أقوامهم بالاستغفار، كما أمر به نوح قومه، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾ [هود].

وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)﴾ [هود].

هذا أسلوب الترغيب، ثم انتقل نوح عليه السلام إلى أسلوب الترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾، قال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

---

(١) ابن كثير (٤٢٥/ ٤).

ثم انتقل بعد ذلك إلى تنبيههم إلى آيات قدرة الله وعظمته في أنفسهم فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾، وهذه الأطوار قد فُسِّرَتْ في سورة الحجِّ والمؤمنون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ﴾ [الحج:٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق]. وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

ولـمّا لفت أنظارهم إلى آيات الله في أنفسهم، لفتها بعد ذلك إلى ما في الكون من آيات، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]. كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك:٣-٥]. وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

ثم يُلفت أنظارهم إلى النشأة الأولى التي يستدل بها على النشأة الآخرة، فيقول: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ [نوح]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه].

وفي حديث البراء بن عازب الطويل في وصف قبض روح المؤمن والكافر، قال ﷺ في حق العبد المؤمن: «**فَيُشَيِّعُهُ من كل سماء مقرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى**»[(1)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح]، يعني أنَّ الله هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، وممهدة لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

ومراد نوح عليه السلام من ذلك كله، أن يجعلهم يقرون بتوحيد الإلهية كما كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، لقد كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق سبع سموات طباقاً، وأنه هو الذي جعل الأرض بساطاً، وأنه الذي خلقهم ورزقهم، ثم كانوا يعبدون مع الله الأصنام والأوثان، فكان مراد نوح عليه السلام من لفت أنظارهم إلى دلائل عظمة الله أن يتحصل منهم على الإقرار: بأن الله يجب أن يُعبد وحده كما خَلَق وحده.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، والحاكم (١/ ٩٣-٩٥)، والطيالسي (٧٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٥)، [«أحكام الجنائز» (١٩٨)].

ومع طول المدة وتنوع الأساليب، كانت النتيجة العصيان والتمرد، والتواصي بالكفر: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح]، اتبعوا سادتهم وكبراءهم الذين يدعونهم إلى النار، وعصوني وأنا أدعوهم إلى العزيز الغفار. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح]، مكراً متناهياً في الكبر، مكروا لإبطال الدعوة، وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس، ومكروا لتزيين الكفر والضّلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم، وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ بهذه الإضافة: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ لإثارة النخوة الكاذبة، والحمية الآثمة في قلوبهم، وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً، فخصوها بالذكر ليُهيِّج ذكرها في قلوب المضللين الحمية والاعتزاز. ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

روى البخاري رحمه الله في «الصحيح» بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا وُدّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت)[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح:٢٤] يعني الأصنام التي اتخذوها، أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦].

ولقد كان تصريحهم في هذه الوصية ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح:٢٣] إشارة لنوح عليه السلام أن القوم لا خير فيهم، بل إن الله أوحى إليه بما تُشير إليه هذه الوصية، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود].

وهنا وجد نوح عليه السلام هذا الدعاء ينبعث من قلبه ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح].

وقبل أن يُتم الدعاء يذكر الرب سبحانه ما أحاط بالقوم من العذاب، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

وقد ذكر سبحانه في سورة أخرى، كيف أغرقوا فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر].

وفي قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ إشارة إلى عذاب القبر، الذي يؤمن به أهل السنة والجماعة، لمن كان له أهلاً، كما يؤمنون بنعيم القبر لمن كان له أهلا. نسأل الله أن يجيرنا من عذاب القبر وعذاب النار، وأن يجعل قبورنا روضة من رياض الجنة.

ووجه الاستدلال على عذاب القبر من هذه الآية: أن الله رتب دخولهم النار بعد غرقهم بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب، ومعلوم أن نار الآخرة لم

يدخلوها بعد، فدل ذلك أن النار التي دخلوها بعدما أغرقوا هي نار القبر، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها.

ومما يدل على ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].

وفي نهاية المطاف وبعد هذا الجهد الذي بذله نوح عليه السلام في دعوة قومه، يتوجه عليه السلام إلى ربه يطلب منه أن يغفر له، فعسى أن يكون قد وقع منه خطأ أو تقصير: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فأنا بحاجة لمغفرتك، ولا غنى بي عن رحمتك.

وهكذا نرى نوحاً عليه السلام وهو رسول الله يستغفر الله، بينما قومه الكفرة الفجرة يرفضون أن يستغفروا الله، وفي استغفاره عليه السلام تعليم للدعاة أن يُنيبوا لربهم دائماً بالاستغفار، فإنهم مهما قدموا من تضحيات، فإنهم مقصرون.

ولم ينس نوح عليه السلام أن يستغفر لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح]

ويظهر من استغفاره لوالديه أنهما كانا مؤمنين، وإلا لروجعَ فيهما كما روجع في ولده حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

وفي استغفاره عليه السلام للمؤمنين عامةً ولمن دخل بيته مؤمناً خاصةً، إرشادٌ وتعليمٌ للمؤمنين ولا سيما الدعاة منهم، أن يستغفروا لإخوانهم المؤمنين إذا

استغفروا لأنفسهم، وقد قال النبي ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمنٍ ومؤمنةٍ حسنة**»[1].

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم].

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٥)، [«صحيح الجامع» (٦٠٢٦)].

٨

الباب الثامن

الدعوة إلى الله وخطورة الأحاديث الضعيفة

الدعوة إلى الله وخطورة الأحاديث الضعيفة

حكم العمل بالحديث الضعيف(*)

امتن الله على المؤمنين بكمال الشرع كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[المائدة:٣]، وبتفصيل الكتاب كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾[الأنعام:١١٤]، وبلغ الرسول ﷺ البلاغ المبين كما أمره ربه سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]، ومحال أن تكون هذه الشريعة التي تكفل الله بحفظها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحِجر]، قد فات شيء من بيان الرسول ﷺ حُفّاظ الأمة وثقاتها، وتحمله بعض الرواة الضعفاء، حتى تضطر الأمة الى العمل بمرويات هؤلاء الضعفاء خشية فوات شيء من الشرع.

والنبي ﷺ أخبر عن وجود الطائفة المنصورة بلفظ يفيد استمراريتها، واستحالة خلو طبقة من الزمن منها حتى تقوم الساعة، ومن أعظم وظائف الطائفة المنصورة هو حفظ الشرع وأداؤه لمن بعدهم وهكذا.

فأدلة الشرع الصحيحة -ولله الحمد- فيها كفاية، ولذلك قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: (إن في صحيح الحديث شغل عن سقيمه)[1] ، وقال الإمام مسلم بن

(*) كتاب «المحرر في مصطلح الحديث» للشيخ حمد بن إبراهيم العثمان (ص١٤٢-١٤٩).

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٥٩).

الحجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: (الأخبار الصحاح من رواية الثقات، وأهل القناعة أكثر من أن يُضطر الى نقل من ليس بثقة ولا مقنع)[١]، وقال أبو حاتم ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولأن فيما يصح من الأخبار -بحمد الله ومنّه- يغني عنا عن الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها)[٢]، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (والدين بحمد الله كامل غير محتاج الى تقويته بالكذب)[٣] .

والدين كذلك بحمد الله غير محتاج الى الأحاديث الضعيفة، بل الأحاديث الضعيفة تُزاحم الأحاديث الصحيحة، وتصد عنها، وتُوقع في غير المشروع بل وتُغير الأحكام.

قال عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا ينبغي للرجل أن يُشغل نفسه بكتابة الحديث الضعيف، فأقل ما في ذلك أن يفوته من الصحيح بقدره)[٤].

والأحاديث الضعيفة هي التي أوقعت الناس في البدع، وأفسدت على الناس عباداتهم، وشغلتهم عن الصحيح المشروع، ولذلك قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا تُحدثوا الا بالثابتات، ودعوا الضعاف، فإنها سبيل الى إتلاف ما ليس له تلاف)[٥].

---

(١) «مقدمة صحيح مسلم» (ص٢٨).

(٢) «المجروحين» (١/ ٢٥).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٩).

(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٢٢).

(٥) «فتح الباري» (٣/ ١٨٩).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: (ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لا تصح، فيضيع زمانهم في غير المشروع، ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات، ويرون أن التجفف هو الدين.

وكذلك الوعاظ يُحدثون الناس بما لا يصح عن الرسول ﷺ ولا أصحابه، فقد صار الحال عندهم شريعة، فسبحان من حفظ الشريعة بأخبار أخيار، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وإنما اشتغلت قلوب طوائف من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة إما من الأدعية، وإما من الأشعار، وإما من السماعات، ونحو ذلك لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، -أعني إعراض قلوبهم- وإن قاموا بصورة المشروع)(٢).

والحافظ الذهبي رحمه الله لما عاب على القاضي عياض في «الشفا» سرد الأحاديث الضعيفة في فضائل نبينا محمد ﷺ قال: (ونبينا صلوات الله عليه وسلامه غني بمدحه في التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالآحاد النظيفة الأسانيد عن الواهيات)(٣).

لذلك لا يجوز أن يتعبد الناس بأحاديث الضعفاء، ولا يُعتمد في الشريعة على أحاديث لم تثبت بالطرق المعروفة، وما حفظها الثقات، وإنما جاءت من طرق

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٣٨-٢٣٩).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٦٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢١٦).

ضعيفة لا أركان ولا قوائم لها. والله حرم علينا أن نقول عليه إلا الحق، والقول على رسول الله ﷺ كذلك سواء بسواء، قال الإمام أحمد رحمه الله: (للناس أحاديث يتحدثون بها على أبواب دورهم ما سمعنا بشيء منها، وقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لم نعلم، والقول على رسول الله ﷺ قول عليه)[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾[الأعراف:١٦٩]، وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: (فوجدناه تعالى قد أخبر أن ذوي الكتاب مأخوذ عليهم أن لا يقولوا على الله إلا الحق، وكان ما يأخذونه عن الله تعالى هو ما يأخذونه عن رسله -صلوات الله عليهم- إليهم، فكان فيما أخذه الله تعالى عليهم أن لا يقولوا على الله إلا الحق، ودخل فيه أخذه عليهم أن لا يقولوا على رسله إلا الحق، كان الحق ها هنا كما هو في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[الزُّخرُف]، وكان من شهد بظن فقد شهد بغير الحق، إذ كان الظن كما قد وصفه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[يونس:٣٦]، وفي ذلك إعلامه إيانا أن الظن غير الحق، وإذا كان من شهد الظن شاهد بغير الحق، كأمثلة من حدّث عن رسول الله ﷺ حديثاً لظن محدثاً عنه بغير الحق، والمحدث عنه بغير الحق محدّث عنه بالباطل، والمحدث عنه بالباطل كاذب عليه كأحد الكاذبين عليه الداخلين في قوله عليه السلام: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[2] نعوذ بالله تعالى من ذلك)[3].

---

(١) «الاستغاثة» لشيخ الإسلام (١/ ٧١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦١٩٧)، ومسلم (٣).

(٣) «مشكل الآثار» (١/ ٣٧٥).

وقال ابن دحية الكلبي: (الاحتياط في رواية الأحاديث عن النبي ﷺ واجب، وإن نقلها بغير ثبوت السند ومعرفة الصحة حرام)[(١)].

وقال البغوي رحمه الله: (فأمر النبيُّ ﷺ بالتثبت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فلا يروي حديثاً حتى يكون مروياً عن ثقة، فقد روي عن النبي ﷺ قال: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**»[(٣)])[(٤)].

وهذا كله احتياطاً وزجراً من رواية ما لم يُتيقن صحته، أما ما عُلم ضعفه، وعدم صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ، فبناء الأحكام أو الأعمال عليها أعظم جرماً من القول على الله بغير علم.

قال العلامة الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله: (ولا يحل لنا أن نسند حكماً في شريعة الله إلى دليل ضعيف، لأن هذا من القول على الله بما نعلم أنه لا يصح عن الله، وليس بلا علم، بل أشد، لأننا إذا أثبتنا حكماً في حديث ضعيف، فهذا أشد من القول على الله بلا علم، لأننا أثبتنا ما نعلم أنه لا يصح)[(٥)].

---

(١) «أداء ما وجب من بيان وضع الوضاعين في رجب» (ص٢٥-٢٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥).

(٣) **صحيح**: «مقدمة صحيح مسلم» (ص٨).

(٤) «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٢).

(٥) «الشرح الممتع» (٤/ ٢٤٦).

والاحتياط هو مذهب الصحابة والتابعين، قال ابن أبي ليلى رحمه الله: (كنا إذا أتينا زيد بن أرقم رضي الله عنه فنقول: حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: إنا قد ذكرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد)[١].

وقال أبو أحمد بن عدي رحمه الله: (وقد تحرج قوم من أصحابه صلى الله عليه وسلم في الرواية عنه خوفاً من الزيادة والنقصان فيما سمعوا منه لئلا يكونوا داخلين في قوله عليه الصلاة والسلام: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»)[٢].

بل إن الصحابة إذا رأوا حديثاً واحداً اختلف في رفعه ووقفه تحرجوا في نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بالتعبد بالحديث الضعيف؟

قال البغوي رحمه الله: (ولذلك كره قوم من الصحابة والتابعين إكثار الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم خوفاً من الزيادة والنقصان، والغلط فيه، حتى أن من التابعين من كان يهاب رفع المرفوع فيوقفه على الصحابي، ويقول: الكذب عليه أهون من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من يسند الحديث حتى إذا بلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال، ولم يعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يقول: رفعه، ومنهم من يقول: رواية، ومنهم من يقول: يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك هيبة للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً من الوعيد)[٣].

---

(١) رواه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٨) بإسناد صحيح.

(٢) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ١٥).

(٣) «شرح السنة» (١/ ٢٥٥، ٢٥٦).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (اشتهر أن أهل العلم يتسمحون في إيراد الأحاديث في الفضائل، وإن كان فيها ضعف ما لم تكن موضوعة، وينبغي مع ذلك اشتراط أن يعتقد العامل كون ذلك الحديث ضعيفاً، وأن لا يُشهر ذلك لئلا يعمل المرء بحديث ضعيف فيشرع ما ليس بشرع، أو يراه بعض الجهال فيظن أنه سنة صحيحة، وقد صرح بمعنى ذلك الأستاذ أبو محمد بن عبد السلام وغيره.

وليحذر المرء من دخوله تحت قوله ﷺ: «**من حدث عني بحديث رأى أنه كذب فهو أحد الكذابين**»)[(١)].

فتأمل شرط ابن حجر وقوله: (وأن لا يُشهر) فهو يقتضي عدم روايته، وتحديث الناس به لئلا يُشهر، ومع الأسف فإن كثيراً ممن نقل شروط ابن حجر[(٢)] في إيراد الأحاديث الضعيفة في الفضائل لا يذكر شرطه هذا[(٣)].

(١)

تحذير الإمام الألباني الخطباء والدعاة من رواية الحديث الضعيف

لقد كان للعلامة الألباني رحمه الله دوراً كبيراً، وجهداً مباركاً في هذا العصر من خلال تحقيقه لكتب السنة المتمثلة بمشروعه الذي قام عليه (تقريب السنة بين يدي الأمة) وتمييز أحاديثها الصحيحة والضعيفة، وبالتالي إرشاد الأمة للعمل

(١) «تبيين العجب في فضل شهر رجب» (ص٧١، ٧٢).

(٢) سيأتي ذكر الشروط لاحقاً.

(٣) كالسخاوي في «القول البديع» (ص٢٥٨)، والسيوطي في «تدريب الراوي» (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

بالحديث الصحيح وتجنب رواية الحديث الضعيف فضلاً عن العمل به، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أشد الناس تحذيراً من إشاعة الأحاديث الضعيفة، وذلك من خلال مؤلفاته، والكتب التي قام على تحقيقها.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «صحيح الترغيب والترهيب» (ص٦٧، ٦٨): (ولما كان قد استقر في نفسي منذ نعومة أظفاري -فضلاً من الله ونعمه- أنه لا يجوز إشاعة الأحاديث الضعيفة والمنكرة ولو في «الترغيب والترهيب» بين أفراد الأمة، لا التساهل بروايتها على الطلاب وغيرهم، كما يفعل ذلك عامة الخطباء والمدرسين والمرشدين والوعّاظ، متأثراً في ذلك بأقوال الأئمة الذين أسلفت لك فيما تقدم بعض أقوالهم في هذا المجال [سيأتي لاحقاً ذكر أقوالهم] فقد رأيت لزاماً عليّ أن لا ألقي درساً منه إلا بعد تحضيره، والتحقق من كل حديث من أحاديثه، في كل باب من أبوابه، وفصل من فصوله) ا.هـ.

وفي هذا إرشاد منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ للخطباء والدعاة، ومن له علاقة بالوعظ والإرشاد الى التحضير المسبق لمحاضرته، ودرسه الذي يريد إِلقاءَه على الناس، وانتقاء الأحاديث الصحيحة، ونشرها بين الأمة ليعمّ النفع ويهتدي الناس الى سنة المصطفى ﷺ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «صحيح الجامع الصغير» (ص٥٠): (والذي أَدين الله به، وأدعو الناس إليه، أن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقاً، لا في الفضائل والمستحبات ولا في غيرها) ا.هـ.

ذكر أقوال العلماء ومناقشة الشيخ الألباني للإمام المنذري على تساهله في رواية الحديث الضعيف

إن من الشائع المعروف بين جمهور أهل العلم وطلابه أن الحديث الضعيف يُعمَل به في فضائل الأعمال، ويعتبرون ذلك قاعدة علمية لا جدال فيها عندهم، وهي غير مسلَّمة على إطلاقِها عند المحققين من العلماء كما سيأتي نقله عنهم، فأولئك إذا بلغهم حديث ضعيف بادروا الى العمل به، غير منتبهين لاحتمال كونه شديد الضعف، أو موضوعاً، وحينئذ لا تجوزُ روايته إلا ببيان حاله، والتحذير منه، فضلاً عن العمل به، فيقع المحظور الأول[١] وزيادة كما هو ظاهر، فلو أنه بيَّن لهم ذلك، لم يعملوا به إن شاء الله تعالى[٢].

قاعدة (العمل بالحديث الضعيف) ليس على إطلاقها

ثم إن القاعدة المزعومة ليست على إطلاقها، بل هي مقيّدة في موضعين منها: **أحدهما**: حديثي، **والآخر**: فقهي.

أ- القيد الحديثي

أما الحديثي، فهو قولهم: «الحديث الضعيف» فإنه مقيَّد -اتفاقاً- بالضعيف الذي لم يشتدّ ضعفه، بله الموضوع، كما بيَّنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في

---

(١) راجع «مقدمة صحيح الترغيب والترهيب» (ص٢٨) للتعرف على المحظور الأول.

(٢) انظر مثالاً هاماً لهذا في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» المجلد الأول حديثاً موضوعاً فيه برقم (٣٢١) قوّى به بعض أفاضل علماء السند حديثاً ضعيفاً، بسبب سكوت العلماء عن وضعه، واقتصار بعضهم على تضعيفه!

رسالته: «تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب»، ولم أعثر عليها الآن في مكتبتي، فأنقل ذلك عنه بواسطة تلميذه الثقة الحافظ السخاوي؛ فإنه قال في آخر كتابه القيم: «القول البديع في فضل الصلاة على الحبيب الشفيع» (ص١٩٥-طبع الهند)، بعد أن نقل عن النووي أنه قال: «قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: «يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف، ما لم يكن موضوعاً. وأما الأحكام كالحلال والحرام، والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يعمل فيها، إلا بالحديث الصحيح أو الحسن؛ إلا أن يكون في احتياط في شيء من ذلك».

وعن ابن العربي المالكي أنه خالف في ذلك فقال: «إن الحديث الضعيف لا يُعمَل به مطلقاً».

شرائط العمل بالحديث الضعيف عند الحافظ ابن حجر

قال الحافظ السخاوي: «وقد سمعت شيخنا مراراً يقول: -وكتبه لي بخطه-:

إنَّ شرائط العمل بالضعيف ثلاثة:

الأول: متفق عليه، أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج مَن انفرد مِنَ الكذَّابين والمتَّهمين بالكذب، ومن فحُش غلطه.

الثاني: أن يكون مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج ما يُخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً.

الثالث: أن لا يُعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا يُنسَب إلى النبي ﷺ ما لم يقله.

قال: والأخيران عن ابن عبد السلام، وعن صاحبه ابن دقيق العيد، والأول نقل العلائي الاتفاق عليه».

ما توجبه الشروط المذكورة على أهل العلم من التمييز

قلت: وليس يخفى على الفَطِن اللبيب أن هذه الشروط توجب على أهل العلم والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه أن يميزوا للناس شيئين هامين:

الأول: الأحاديث الضعيفة من الصحيحة، لكي لا يعتقد العاملون بها ثبوتها، فيقعوا في آفة الكذب على رسول الله ﷺ كما تقدم في كلام الإمام مسلم وغيره.

والآخر: الأحاديث الشديدة الضعف من غيرها؛ لكي لا يعملوا بها، فيقعوا في الآفة المذكورة.

والحق -والحقَّ أقول-: إنَّ القليلَ من علماء الحديث -فضلاً عن غيرهم- من له عناية تامة -بالتمييز الأول، كالحافظ المنذري - على تساهله المتقدم بيانه - والحافظ ابن حجر العسقلاني في كتبه، وتلميذه الحافظ السخاوي في كتابه: «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»، وغيرهم. وفي عصرنا هذا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تحقيقه وتعليقه على «مسند الإمام أحمد» وغيره، ومثله اليوم أقل من القليل. وأقل من هؤلاء بكثير من له عناية تامة بتمييز الأحاديث الضعيفة جداً من غيرها، بل إني لا أعلم من له تخصص في هذا المجال، مع كونه من الأمور الهامة كما بينته آنفاً، وهو عندي أهم من عنايتهم بتمييز الحديث الحسن من الصحيح، مع أنه ليس تحته كبير فائدة، لأن كلاً منهم يُحْتَجُّ به في الأحكام كما سبق، اللهم إلا عند

التعارض والترجيح، بخلاف ما نحن فيه، فإنه يُعمَل بالحديث الضعيف في الفضائل؛ دون الضعيف جداً، فبيانه واجب من باب أولى.

ما ذكره المنذري من تساهل العلماء في الترغيب والترهيب والجواب عليه

فإن قيل: لِمَ هذ التفصيل والتشديد في رواية الحديث الضعيف، والمنذري رحمه الله قد ذكر في مقدمة كتابه: «أن العلماء أساغوا التساهل في أنواع من الترغيب والترهيب، حتى إن كثيراً منهم ذكروا الموضوع؛ ولم يبيّنوا حاله». وجواباً عليه أقول: إن التساهل الذي أساغوه يحتمل وجهين:

الأول: ذكر الأحاديث بأسانيدها. فهذا لا بأس به، كيف لا وهو صنيع جميع المحدِّثين من الحفّاظ السابقين الذين كان أول أعمالهم في سبيل حفظ السنة وأحاديثها، إنما هو جمعها من شيوخها بأسانيدهم فيها. ثم من كان منهم على علم بتراجم رواتها من جميع الطبقات، ومعرفة بطرق الجرح والتعديل، وعلل الحديث، فإنَّه يتمكن من التحقيق فيها، وأن يميز صحيحها من سقيمها، وإلى هذا وذلك أشاروا بقولهم المعروف: «قَمِّشْ ثمَّ فَتِّشْ»، فهو إذن من باب «ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب».

وعلى هذا الوجه ينبغي أن يحملَ قول المنذري المذكور عن العلماء؛ إحساناً للظن بهم أولاً، ولأنه هو الذي يدل عليه كلام الحفاظ ثانياً، بالإضافة إلى ما ذكرناه مما جرى عليه عملهم. فهذا هو الإمام أحمد يقول: «إذا جاء الحلال والحرام شدّدنا في الأسانيد، وإذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد»[1].

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨/ ٦٥).

فهذا نص فيما قلنا، ومثله قول ابن الصلاح في «علوم الحديث» (ص١١٣): «ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد، ورواية ما سِوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله، وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال، وسائر فنون الترغيب والترهيب، وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد». فتأمَّل في قوله: «التساهل في الأسانيد»؛ يتجلَّى لك صحة ما ذكرنا. والسبب في ذلك أن مَن ذكر إسناد الحديث فقد أعذر وبرئت ذمته، لأنَّه قدم لك الوسيلة التي تمكّن من كان عنده علم بهذا الفن من معرفة حال الحديث صحة أو ضعفاً، بخلاف من حذف إسناده، ولم يذكر شيئاً عن حاله، فقد كتم العلم الذي عليه أن يبلّغه.

الأدب في رواية الحديث الضعيف عند ابن الصلاح

من أجل ذلك عقَّب ابن الصلاح على ما تقدم بقوله: «إذا أردت رواية الحديث الضعيف بغير إسناد فلا تقل فيه: قال رسول الله ﷺ: كذا وكذا، وما أشبه هذا من الألفاظ الجازمة بأنه ﷺ قال ذلك، وإنما تقول فيه: رُوي عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، أو بلغنا كذا وكذا.. وهكذا الحكم فيما تشكّ في صحته وضعفه. وإنما تقول: قال رسول الله ﷺ... فيما ظهر لك صحته»[1].

(١) **قلت**: تأمل هذا؛ يتبين لك خطأ المنذري في اصطلاحه المتقدم.

لابد من التصريح بالضعف

قلت: فثبت أنه لابد من بيان ضعف الحديث في حال ذكره دون إسناده، ولو بطريق ما اصطلحوا عليه مثل: (رُوي) ونحوه. ولكني أرى أن هذا لا يكفي اليوم؛ لغلبة الجهل، فإنه لا يكاد يفهم أحد من كتب المؤلف، أو قول الخطيب على المنبر: «روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: كذا وكذا..» أنه حديث ضعيف، فلا بد من التصريح بذلك كما جاء في أثر علي رضي الله عنه قال: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله» أخرجه البخاري[1]، ولنعم ما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في «الباعث الحثيث» (ص١٠١): «والذي أراه أن بيان الضعف في الحديث الضعيف واجب في كل حال، لأن ترك البيان يوهم المطَّلع عليه أنه حديث صحيح، خصوصاً إذا كان الناقل من علماء الحديث الذي يُرجع إلى قولهم في ذلك، وأنه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال ونحوها في عدم الأخذ بالرواية الضعيفة، بل لا حُجَّة لأحد إلا بما صح عن رسول الله ﷺ من حديث صحيح أو حسن».

قلت: والوجه الآخر الذي يحتمله كلام المنذري المتقدِّم إنما هو ذكر الأحاديث الضعيفة بدون أسانيدها، ودون بيان حالها حتى الموضوع منها، فهذا في اعتقادي مما لا أتصوَّر أن يقوله أحد من العلماء الأتقياء، لما فيه من المخالفة لما تقدَّم في كلام الإمام مسلم من نصوص الكتاب والسنة في التحذير من الرواية

(١) رقم (٨٣-مختصر البخاري-الطبعة الجديدة).

عن غير العدول، لا فرق في ذلك بين أحاديث الأحكام والترغيب والترهيب وغيرها، وكلام مسلم المتقدم صريح في ذلك.

تأثيم الإمام مسلم لمن يروي عن الضعيف، ولا يبين حاله ولو في الترغيب والترهيب

وأصرح منه قوله بعد بحث هام في وجوب الكشف عن معايب رواة الحديث وذكر أقوال الأئمة في ذلك، قال (١/ ٢٩): «وإنما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك لما فيه من عظيم الخطر، إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي بتحليل أو تحريم، أو أمر أو نهي، أو ترغيب وترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه، ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته؛ كان آثماً بفعله ذلك، غاشًّاً لعوامّ المسلمين، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من يُضطر إلى نقل من ليس بثقة، ولا أحسب كثيراً ممن يُعَرِّج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة، ويعتدُّ بروايتها بعد معرفته بما فيها من التَّوَهُّن والضعف - إلا أنَّ الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثّر بذلك عند العَوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث وألَّف من العدد! ومن ذهب في العلم هذا المذهب، وسلك هذا الطريق فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمَّى جاهلاً، أولى من أنْ يُنسَبَ إلى علم».

عاقبة التساهل برواية الأحاديث الضعيفة وكتم بيانها

والحقيقة؛ أن تساهل العلماء برواية الأحاديث الضعيفة ساكتين عنها، قد كان من أكبر الأسباب القوية التي حملت الناس على الابتداع في الدين؛ فإن كثيراً من العبادات، التي عليها كثير منهم اليوم إنما أصلها اعتمادهم على الأحاديث الواهية، بل والموضوعة، كمثل التوسعة يوم عاشوراء، الحديث (٦١٧ و٦١٨) «ضعيف الترغيب»، وإحياء ليلة النصف من شعبان، وصوم نهارها الحديث (٦٢٤)، وغيرها. وهي كثير جداً، تجدها مبثوثة في كتابي «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة»، وساعدهم على ذلك تلك القاعدة المزعومة القائلة بجواز العمل بالحديث الضعيف في الفضائل، غير عارفين أن العلماء المحققين قد قيدوها بقيدين اثنين:

أحدهما حديثي، وقد سبق تفصيله، وخلاصة ذلك أن كل من يريد العمل بحديث ضعيف، ينبغي أن يكون على علم بضعفه، لأنه لا يجوز العمل به إذا كان شديد الضعف. ولازمُ هذا الحدُّ من العمل بالأحاديث الضعيفة وانتشارها بين الناس، لو قام أهل العلم بواجب بيانها.

ب- القيد الفقهي

وأما القيد الآخر وهو الفقهي، فهذا أوان البحث فيه، فأقول: قد دندن الحافظ ابن حجر حوله في الشرط الثاني المتقدم بقوله: «وأن يكون الحديث الضعيف مندرجاً تحت أصل عام..».

إلا أن هذا القيد غير كاف في الحقيقة، لأن غالب البدع تندرج تحت أصل عام، ومع ذلك فهي غير مشروعة، وهي التي يسميها الإمام الشاطبي بالبدع الإضافية، وواضح أن الحديث الضعيف لا ينهض لإثبات شرعيتها، فلابد من تقييد ذلك بما هو أدق منه، كأن يقال: أن يكون الحديث الضعيف قد ثبتت شرعية العمل بما فيه بغيره مما يصلح أن يكون دليلاً شرعياً، وفي هذه الحالة لا يكون التشريع بالحديث الضعيف، وغاية ما فيه زيادة ترغيب في ذلك العمل مما تطمع النفس فيه، فتندفع إلى العمل أكثر مما لو لم يكن قد رُوي فيه هذا الحديث الضعيف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٥١): «وذلك أن العمل اذا علم أنه مشروع بدليل شرعي، وروي في فضله حديث لا يعلم أنه كذب، جاز أن يكون الثواب حقاً، ولم يقل أحد من الأئمة إنه لايجوز أن يجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع».

قول ابن تيمية المفصل في ذلك، وأنه لا يجوز استحباب شيء لمجرد وجود حديث ضعيف في الفضائل

وقد فصَّل الشيخ رحمه الله هذه المسألة في مكان آخر من «مجموعة الفتاوى» (١٨/ ٦٥-٦٨) تفصيلاً لم أره لغيره من العلماء، فأرى لزاماً علي أن أقدّمه إلى القرّاء؛ لما فيه من الفوائد والعلم، قال بعد أن ذكر قول الإمام أحمد المتقدم[1]: «وكذلك ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال: ليس

(١) وهو قوله: (إذا جاء الحلال والحرام شدّدنا في الأسانيد...).

معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يُحْتَجُّ به، فإن الاستحباب حكم شرعي، فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملاً من الأعمال من غير دليل شرعي فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم، ولهذا يختلف العلماء في الاستحباب كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين المشروع.

مراد العلماء من العمل بالحديث الضعيف في الفضائل

وإنما مرادهم بذلك أن يكون العمل مما قد ثبت أنّه مما يحبه الله، أو مما يكرهه الله بنص أو إجماع، كتلاوة القرآن، والتسبيح والدعاء، والصدقة، والعتق، والإحسان إلى الناس، وكراهة الكذب والخيانة، ونحو ذلك، فإذا رُوي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها، وكراهة بعض الأعمال وعقابها؛ فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه، إذا روي فيها حديث لانعلم أنّه موضوع؛ جازت روايته والعمل به؛ بمعنى: أن النفس ترجو ذلك الثواب، أو تخاف ذلك العقاب، كرجل يعلم أن التجارة تربح، لكن بلغه أنها تربح ربحاً كثيراً، فهذا إن صدق نفعه، وإن كذَب لم يضرّه.

مثال للعمل بالحديث الضعيف بشرطه

ومثال ذلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات، وكلمات السلف والعلماء، ووقائع العلماء، ونحو ذلك مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي؛ لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوز أن يُذكَرَ في الترغيب والترهيب، والترجية والتخويف فما عُلِم حسنه أو قبحه بأدلَّة الشرع، فإنّ ذلك ينفع ولا يضر، وسواء

كان في نفس الأمر حقاً أو باطلاً، فما عُلِمَ أنّه باطل موضوع لم يجز الالتفات إليه، فإنّ الكذب لا يفيد شيئاً، وإذا ثبتَ أنّه صحيح أُثبِتَت به الأحكام، وإذا احتمل الأمرين رُوي لإمكان صدقه، ولعدم المضرّة في كذبه، وأحمد إنما قال: «إذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد». ومعناه: أننا نروي في ذلك بالأسانيد، وإن لم يكن محدثوها من الثقات الذين يحتج بهم. وكذلك قول من قال: يُعمل بها في فضائل الأعمال، إنما العمل بها العمل بما فيها من الأعمال الصالحة، مثلا التلاوة والذكر، والاجتناب لما كره فيها من الأعمال السيئة.

ونظير هذا قول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو: «**بلّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليبتوأ مقعده من النار**». مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم**»؛ فإنه رخَّص في الحديث عنهم، ومع هذا نهى عن تصديقهم وتكذيبهم، فلم يكن في التحديث المطلق عنهم فائدة لما رخَّص فيه وأمر به، ولو جاز تصديقهم بمجرد الإخبار لما نهى عن تصديقهم؛ فالنفوس تنتفع بما تظن صدقه في مواضع.

لا يجوز التقدير والتحديد بأحاديث الفضائل

فإذا تضمّنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديراً وتحديداً، مثل صلاة في وقت معيّن بقراءة معينة، أو صفة معينة لم يجز ذلك؛ لأن استحباب هذا الوصف المعيّن لم يثبت بدليل شرعي، بخلاف ما لَو رُوِيَ فيه: «**مَن دخل السوق فقال: لا إله إلا**

الله... **كان له كذا وكذا**»[١] ، فإنَّ ذِكْرَ الله في السوق مستحبٌّ، لما فيه من ذِكرِ الله بين الغافلين، كما جاء في الحديث المعروف: «**ذاكر الله في الغافلين، كالشجرة الخضراء بين الشجر اليابس**»[٢] . فأما تقدير الثواب المرويّ فيه فلا يضر ثبوته ولا عدم ثبوته، وفي مثله جاء الحديث الذي رواه الترمذي: «**مَن بلغه عن الله شيء فيه فضل، فعمل به رجاء ذلك الفضل أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك**»[٣] .

فالحاصل؛ أن هذا الباب يُروى ويُعمَل به في الترغيب والترهيب لا في الاستحباب، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف على الدليل الشرعي».

خلاصة كلام ابن تيمية في العمل بالحديث الضعيف في الفضائل

أقول: ذلك كله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيراً، ونستطيع أن نستخلص منه أن الحديث الضعيف له حالتان:

الأولى: أن يحمل في طيَّاته ثواباً لعمل ثبتت مشروعيته بدليل شرعي. فهنا يجوز العمل به، بمعنى أن النفس ترجو ذلك الثواب، ومثاله عنده: (التهليل في السوق) بناء على أن حديثه لم يثبت عنده، وقد عرفت رأينا فيه.

---

(١) قلت: استغربه الترمذي، لكن له طرق يرتقي بها إلى درجة التحسين كما كنت ذكرت في تعليقي على «الكلم الطيب» (رقم الحديث ٢٢٩)، وحسن إسناده المنذري كما في (١٦-البيوع/ ٣-باب/ حديث رقم (١٦٩٤)).

(٢) «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٦-البيوع/ ٣-باب/ حديث رقم (١٠٥١)).

(٣) قلت: عزوه للترمذي وهم أو سبق قلم، وهو مخرج في المصدر السابق، من ثلاث طرق كلها موضوعة. انظر الأرقام (٤٥١-٤٥٣) وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» ووافقه السيوطي.

والأخرى: أن يتضمن عملاً لم يثبت بدليل شرعي، يظن بعض الناس أنه مشروع، فهذا لا يجوز العمل به، وتأتي له بعض الأمثلة الأخرى. وقد وافقه على ذلك العلامة الأصولي المحقق الإمام أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي في كتابه العظيم: «الاعتصام»، فقد تعرض لهذه المسألة توضيحاً وقوة بما عُرِف عنه من بيان ناصع، وبرهان ساطع، وعلم نافع، في فصلٍ عقده لبيان طريق الزائفين عن الصراط المستقيم، وذكر أنّها من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها، مستدلاً على ذلك بالكتاب والسنة، وأنها لا تزال تزداد على الأيام، وأنه يمكن أن يجد بعده استدلالات أُخَر، ولا سيما عند كثرة الجهل وقلة العلم، وبعد الناظرين فيه عن درجة الاجتهاد، فلا يمكن إذن حصرها، قال (١/ ٢٢٩)[١]: «لكنا نذكر من ذلك أوجهاً كلية يقاس عليها ما سواها».

من طرق المبتدعة الاعتماد على الأحاديث الواهية

(فمنها): اعتمادهم على الأحاديث الواهية [الضعيفة]، والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ، والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها: كحديث الاكتحال يوم عاشوراء، وإكرام الديك الأبيض، وأكل الباذنجان بنيَّته[٢]، وأن النبي ﷺ تواجد واهتز عند السماع حتى سقط الرداء عن منكبيه[٣]، وما أشبه ذلك. فإن

(١) «الاعتصام» تحقيق: الشيخ الفاضل مشهور بن حسن -حفظه الله- (٢/ ١٢-٢٣) والتصحيح عن طبعته، وأما العناوين فهي من وضع الشيخ الألباني -رحمه الله-.

(٢) هذه الأحاديث كلها موضوعة، تجد الكلام عليها في «المقاصد الحسنة» وغيرها.

(٣) حديث موضوع كما صرح به جمع، وقد خرجته في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» برقم (٥٥٨).

أمثال هذه الأحاديث -على ما هو معلوم- لا ينبني عليها حكم، ولا تُجْعَلُ أصلاً، في التشريع أبداً، ومن جعلها كذلك فهو جاهل أو مخطئ في نقل العلم، فلم ينقل الأخذ بشيء منها عمَّن يعتدّ به في طريقة العلم، ولا طريقة السلوك.

وإنما أخذ بعض العلماء بالحديث الحسن لإلحاقه عند المحدثين بالصحيح؛ لأن سنده ليس فيه من يعاب بجرح متفق عليه، وكذلك أخذ من أخذ منهم بالمُرْسَل؛ ليس إلا من حيث أُلحِقَ بالصحيح في أن المتروك ذكره كالمذكور والمعدل[1]. فأما ما دون ذلك، فلا يُؤخذ به بحال عند علماء الحديث: ولو كان من شأن أهل الإسلام [الذابين عنه] الأخذ من الأحاديث بكل ما جاء عن كل من جاء؛ لم يكن لانتصابهم للتعديل والتجريح معنى، مع أنهم قد أجمعوا على ذلك، ولا كان لطلب الإسناد معنى [يُتحصل]، فلذلك جعلوا الإسناد من الدين، ولا يعنون: «حدثني فلان عن فلان» مجرداً، بل يريدون ذلك لما تضمَّنه من معرفة الرجال الذين يحدِّث عنهم، حتى لا يسند عن مجهول، ولا مجروح، ولا [عن] متّهم، لا عمَّن [لا] تحصل الثقة بروايته؛ لأن روح المسألة أن يغلب على الظن من غير ريبة أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ لنعتمد عليه في الشريعة، ونسند إليه الأحكام. والأحاديث الضعيفة لا يغلب على الظن أن النبي ﷺ قالها، فلا يمكن أن يسند إليها حكم، فما ظنّك بالأحاديث المعروفة بالكذب؟! نعم، الحامل على اعتمادها في الغالب إنما هو ما تقدم من الهوى المتَّبع»[2]. قال:

(١) قلت: ومع ذلك فهو مردود عند المحدثين كما بيَّنه الخطيب في «الكفاية» (ص٣٩١-٣٩٧).

(٢) لم يذكر الشيخ الألباني رحمه الله تتمة الكلام وتجاوز عنه وهو موجود في «الاعتصام» (٢/ ١٦، ١٧).

تقرير إشكال حول اشتراط الصحة في أحاديث الترغيب

«فإن قيل: هذا كله ردّ على الأئمة الذين اعتمدوا على الأحاديث التي لم تبلغ درجة الصحيح، فإنهم كما نصّوا على اشتراط صحة الإسناد، كذلك نصّوا أيضاً على أنَّ أحاديث الترغيب والترهيب لا يُشترَط في نقلها للاعتماد [عليها] صحةُ الإسناد، بل إن كان ذلك، فبها ونعمت، وإلا فلا حرج على من نقلها واستند إليها، فقد فعله الأئمة، كمالك في «الموطأ»، وابن المبارك في «رقائقه»، وابن حنبل في «رقائقه»، وسفيان في «جامع الخير» وغيرهم. فكل ما في هذا النوع من المنقولات راجع إلى «الترغيب والترهيب»، وإذا جاز اعتماد مثله جاز فيما كان نحوه مما يُرجَع إليه، كصلاة الرغائب والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة أول جمعة من رجب، [وصلاة الإيمان، والأسبوع، وصلاة بر الوالدين، ويوم عاشوراء]، وصيام رجب، والسابع والعشرين منه، وما أشبه ذلك، فإن جميعها راجع إلى الترغيب في العمل الصالح، فالصلاة على الجملة ثابت أصلها، وكذلك الصيام، وقيام الليل، كل ذلك راجع إلى خير نُقِلت فضيلته على الخصوص. وإذا ثبت هذا؛ فكل ما نُقلت فضيلته في الأحاديث فهو من باب الترغيب فلا يلزم فيه شهادة أهل الحديث بصحة الإسناد؛ بخلاف [أحاديث] الأحكام.

فإذن؛ هذا الوجه من الاستدلال من طريق الراسخين، لا من طريق الذين في قلوبهم زيغ؛ حيث فرَّقوا بين أحاديث الأحكام، فاشترطوا فيها الصحة، وبين أحاديث الترغيب والترهيب، فلم يشترطوا فيها ذلك!

رد الإشكال بتفصيل علمي دقيق

فالجواب: أن ما ذكره علماء الحديث من التساهل في أحاديث الترغيب والترهيب لا ينتظم مع مسألتنا المفروضة. وبيانه: أن العمل المتكلَّم فيه:

١- إما أن يكون منصوصاً على أصله جملة وتفصيلاً.

٢- أو لا يكون منصوصاً عليه لا جملة ولا تفصيلاً.

٣- أو يكون منصوصاً عليه جملة لا تفصيلاً.

فالأول: لا إشكال في صحته كالصلوات المفروضات، والنوافل المرتَّبة لأسباب وغير [أسباب]، وكالصيام المفروض، أو المندوب على الوجه المعروف، اذا فُعِلَتْ على الوجه الذي نص عليه من غير زيادة ولا نقصان: كصيام [عاشوراء و]يوم عرفة، والوتر [بعد نوافل الليل]، وصلاة الكسوف، فالنص جاء في هذه الأشياء صحيحاً على ما شرطوا، فثبتت أحكامها من الفرض والسنة والاستحباب. فإذا ورد في مثلها أحاديث ترغّب الناس فيها، أو تحذِّر من ترك الفرض منها، وليست بالغة مبلغ الصحة، ولا هي أيضا من الضعف بحيث لا يقبلها أحد ، أو كانت موضوعة لا [يصح الاستشهاد بها]، فلا بأس بذكرها والتحذير بها والترغيب، بعد ثبوت أصلها من طريق صحيح.

والثاني: ظاهر أنه غير صحيح، وهو عين البدعة؛ لأنه لا يرجع إلا لمجرد الرأي المبنيّ على الهوى، وهو أبدع البدع وأفحشها كالرهبانية المنفيّة عن الإسلام، والخِصاء لمن خشي العنت، والتَّعبُّد بالقيام في الشمس، أو بالصمت من غير

كلام أحد، فالترغيب في مثل هذا لا يصح؛ إذ لا يوجد في الشرع، ولا أصل له يرغِّب في مثله، أو يحذر من مخالفته.

والثالث: ربما يُتَوَهَّم أنه كالأَول، من جهة أنه إذا ثبت أصل عبادة في الجملة فيسهل في التفصيل نقله من طريق غير مشترط الصحة، فمطلق التنفّل بالصلاة مشروع، فإذا جاء ترغيب في صلاة ليلة النصف من شعبان، فقد عضده أصل الترغيب في صلاة النافلة، وكذلك اذا ثبت أصل صيام [النافلة]، ثبت صيام السابع والعشرين من رجب، وما أشبه ذلك!

وليس كما توهَّموا؛ لأن الأَصل إذا ثبت في الجملة لا يلزم إثباته في التفصيل. فإذا ثبت مطلق الصلاة لا يلزم منه إثبات الظهر أو العصر أو الوتر أو غيرها حتى ينص عليها على الخصوص، وكذلك اذا ثبت مطلق الصيام لا يلزم منه إثبات صوم رمضان أو عاشوراء أو شعبان أو غير ذلك، حتى يثبت بالتفصيل بدليل صحيح. ثم ينظر بعد ذلك في أحاديث الترغيب والترهيب، بالنسبة إلى ذلك العمل الخاص الثابت بالدليل الصحيح(١).

والدليل على ذلك: أن تفضيل يوم من الأيام، أو زمان من الأزمنة بعبادة ما يتضمَّن حكماً شرعياً فيه على الخصوص؛ كما ثبت لعاشوراء مثلاً، أو لعرفة، أو لشعبان -مزية على مطلق التنفل بالصيام- فإنه ثبتت له مزيّة على الصيام في مطلق الأيام، فتلك المزية اقتضت مرتبة في الأحكام أعلى من غيرها بحيث لا تُفهم من

(١) تجاوز الشيخ الألباني رحمه الله عن خمسة أسطر، انظر: «الاعتصام» (٢/ ٢١).

مطلق مشروعية [صيام] النافلة ، لأن مطلق المشروعية يقتـضي أن الحـسنة بعـشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف في الجملة، وصيام يوم عاشوراء يقتضي أنه يكفِّر السنة التي قبله، فهو أمر زائد على مطلق المشروعية، ومـساقه يفيـد لـه مزيـة في الرتبـة، وذلك راجع إلى الحكم. فإذن، هذا الترغيب الخـاص يقتـضي مرتبـة في نـوع مـن المندوب خاصة، فلا بد من رجوع إثبات الحكم إلى الأحاديث الصحيحة بناء على قولهم: «إن الأحكام لا تثبت إلا من طريق صحيح»، والبدع المستدلّ عليهـا بغـير الصحيح لابدّ فيها من الزيادة على المشروعات، كالتقييد بزمان [ما] أو عدد [مـا] أو كيفية ما، فيلزم أن تكون أحكام تلك الزيادات ثابتة بغير الصحيح، وهـو أمـر ناقض لما أسسه العلماء. ولا يقال: إنهم يريدون أحكام الوجوب والتحريم فقـط. لأنا نقول: هذا تحكّم من غير دليل، بل الأحكام خمسة، فكما لا يثبت الوجوب إلا بالصحيح، [كذلك المندوب والإباحة وغيرهما لا تثبت إلا بالصحيح]. فإذا ثبـت الحكم فاستَسْهِلَ إن [شئت] في أحاديث الترغيب والترهيب، ولا عليك.

خلاصة كلام الإمام الشاطبي

فعلى كل تقدير: «كل ما رُغِّبَ فيه إن ثبت حكمه أو مرتبته في المشروعات من طريق صحيح، فالترغيب [فيه] بغير الصحيح مغتَفَر. وإن لم يثبت إلا من حـديث الترغيب فاشترط الصحة أبداً، وإلا خرجت عن طريق القوم المعـدودين في أهـل الرسوخ. فلقد غلط في هذا المكان جماعة ممن يُنـسَب إلى الفقـه، ويتخـصص عـن العوام بدعوى رتبة الخواص. وأصل هـذا الغلـط عـدم فهـم كـلام المحـدثين في الموضعين، وبالله التوفيق».

قلت: هذا كله من كلام الإمام الشاطبي، وهو يلتقي تمام الالتقاء مع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى، ومن الطرائف أن هذا مشرقي وذاك مغربي، جمع بينهما -على بعد الدار- المنهج العلمي الصحيح.

صعوبة تمييز الضعيف الذي يجوز العمل به حديثياً وفقهياً

وبعدما عرفت أيها القارئ هذا الشرط الفقهي في جواز العمل بالحديث الضعيف، وذاك الشرط الحديثي المتقدم: أن لا يكون شديد الضعف يتبين لك أنه كان من الواجب على الحافظ المنذري أن يميز الحديث الضعيف، والضعيف جداً، والموضوع، ويعطي كل حديث من أحاديث كتابه الضعيفة مرتبته من هذه المراتب الثلاث، وأن لا يجمل القول فيها بتصديرها كلها بصيغة (رُوي)، خشية أن يبادر أحد من القرّاء إلى العمل ببعض الواهي والموضوع منها، فيقع في المحظور السابق بيانه ولو كان من الفقهاء.

هذا من الناحية الحديثية. وأما من الناحية الفقهية، فليس يخفى أنه من غير الميسور تمييز الحديث الضعيف الذي يجوز العمل به، من الذي لا يجوز العمل به، إلا على المحدِّثين الفقهاء بالكتاب والسنة الصحيحة، وما أقلَّهم! ولذلك فإني أرى أن القول بالجواز بالشرطين السابقين نظري غير عملي بالنسبة إلى جماهير الناس، لأنه من أين لهم تمييز الحديث الضعيف من الضعيف جداً؟ ومن أين لهم تمييز ما يجوز العمل به منه فقهياً مما لا يجوز؟ فيرجع الأمر عملياً إلى قول ابن العربي المتقدم: أنه لا يُعمَل بالحديث الضعيف مطلقاً. وهو ظاهر قو ابن حبان: «لأن ما روى الضعيف وما لم يرو في الحكم سيّان»[1] .

---

(١) انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» وتعليقي عليه، (ج٢-ج٣- تحت الحديث٥٠٤).

وهذا هو الذي أنصح به عامة الناس، وهو الذي كنت نصحت بـه في مقدمـة كتـاب: «صـحيح الجـامع الـصغير وزيادتـه» و«ضـعيف الجـامع.. » (ص٥١) فليراجعه من شاء.

مثال من واقع بعض الفقهاء

ولا بأس من أن أَسوق للقراء مثالاً لصعوبة الأمر، على بعض من ينتمي للفقـه فضلاً عن غيرهم، فهناك حديث أنس الصحيح: «لم يكن شخص أحب إلـيهم مـن رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهيتـه لـذلك». رواه الترمذي وغيره. فاستدل به الشيخ علي القاري في «شرح الشمائل» (٢/ ١٦٩)، على أن القيام المتعارف اليوم ليس من السنّة. ونقل عن ابن حجر -يعنـي الهيتمـي- مـا ينافي ذلك، واستغربه، ثم قال: (وأما قول ابن حجر: «ويؤيد مذهبنا من ندب القيام لكل قادم به فضيلة، نحو نسب أو علم أو صلاح أو صداقة(!) حديث أنه ﷺ قام لعكرمة بن ابي جهل لما قدم عليه، ولعدي بن حاتم كلما دخـل عليـه. وضـعفهما لا يمنع الاستدلال بهما هنا؛ خلافاً لمن وهم فيه، لأن الحديث الـضعيف يعمـل بـه في فضائل الأعمال اتفاقاً، بل إجماعاً كما قال النووي»، فمدفوع، لأن الضعيف يُعمَل به في فضائل الأعمال المعروفة في الكتاب والسنّة، لكن لا يُستدلّ على إثبـات الخـصلة المستحبة). فتأمل كيف خطَّأَ الشيخُ القاري الهيتميَّ، وهو من كبار فقهـاء الـشافعية المتأخرين في تطبيق القاعدة المذكور، فما عسى أن يكون حال عامّة الناس في ذلـك؟ ومن شاء المزيد من الأمثلة فليراجع كتابي: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة» يجد العجب العُجاب منها، فانظر مـثلاً الأحاديـث (٣٧٢، ٦٠٩، ٨٧٢، ٩٢٢، ٩٢٨، ٩٤٤) ا.هـ.

(٣)

الأحاديث الضعيفة عمدة المبتدعة والجهلة(*)

الشرع ولله الحمد كامل ومستغن عن الضعيف، وعن قول فلان وفلان، ولكن الآفة بالاستدلال بالضعيف دخلت على الأمة الإسلامية من جهة الجهلة والمبتدعة.

فالجهلة يريدون دعوة الناس وهدايتهم بغير علم، فهؤلاء لا خبرة لهم بالمنقولات فضلاً عن تمييز صحيحها من ضعيفها، فحظ أحدهم بضعة أحاديث وقصص سمعها، فهو يقذف بها إلى الناس وينسبها إلى الشرع، ولذلك كانت عامة أحاديث الجُهال القصاص ضعيفة أو موضوعة.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: (وقال الواعظ كل شيء، لجهله بالتصحيح، ففسدت أحوال الزاهد، وانحرف عن جادة الهدى وهو لا يعلم)(١) .

وقال ابن دحية الكلبي رَحِمَهُ اللهُ: (والوعاظ يروون للعوام جُملة من الترهات)(٢) .

والمبتدعة كذلك عمدتهم الضعيف، لأن البدعة، لا يمكن أن يدل عليها خبر صحيح، فالمبتدعة إنما ضلوا عن الحق إما من جهة الاعتماد على ما لم يثبت أصلاً، أو من جهة تأويل الصحيح تأويلاً فاسداً.

(*) المحرر في مصطلح الحديث» لحمد العثمان (ص١٢٥-١٢٧).

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٣٨).

(٢) «أداء ما وجب» (ص٧٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا ريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح لا عقلي ولا شرعي، سواء كان من الخبريات أو الطلبيات، فإن الدليل الصحيح يستلزم المدلول عليه، فلو قام على الباطل دليل صحيح لزم أن يكون حقاً مع كونه باطلاً، وذلك جمع بين النقيضين مثل كون الشيء موجوداً أو معدوماً)[١].

فلذلك لا تجد للمبتدعة عناية بطرق تمييز المنقولات، وكلما كان المبتدعة أبعد عن السنة كانوا أكثر تعلقاً واستدلالاً بالضعيف والموضوع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (عامة أهل البدع لا يميزون بين الحديث الصحيح وغير الصحيح، لكن ما وافق آراءهم وأهواءهم كان هو الحق عندهم، وإن كان رواية قد اختلقه على الرسول ﷺ، وما خالف ذلك دفعوه)[٢].

وقال: (الشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد، كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب)[٣].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك كل من اتبع المتشابهات، أو حرف المناطات، أو حمّل الآيات ما لا تحتمله عند السلف الصالح، أو تمسك بالأحاديث الواهية، أو أخذ الأدلة ببادي الرأي، له أن يستدل على كل فعل أو قول أو اعتقاد وافق غرضه بآية أو حديث لا يفوز بذلك أصلاً، والدليل عليه استدلال كل فرقة شُهرت بالبدعة على بدعتها بآية أو حديث من غير توقف)[٤].

---

(١) «الجواب الصحيح» (٣/ ٢٦٠).

(٢) «قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادة أهل الشرك والنفاق» (ص١٥٠).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨١).

(٤) «الاعتصام» (١/ ٢٨٥).

والعلامة ولي الله الدهلوي بعد أن ذكر المصنفات المشحونة بالأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة قال: (فطوائف المبتدعين من الرافضة والمعتزلة وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية أن يخلصوا منها شواهد مذاهبهم، فالانتصار بها غير صحيح في معارك العلماء بالحديث)[١].

مثال من الحديث الضعيف

المثال الأول[٢]: «**اختلافُ أُمَّتي رحمَةٌ**».

لا أصل له. ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند، فلم يوفَّقوا.

نقل المناوي عن السبكي أنه قال: (وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع).

وأقره الشيخ زكريا الأنصاري في تعليقه على «تفسير البيضاوي» (ق٩٢/ ٢).

ثم إن معنى هذا الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء، فقال العلامة ابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» (٥/ ٦٤) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث: (وهذا من أفسد قول يكون؛ لأنه لو كان الاختلاف رحمة؛ لكان الاتفاق سخطاً، وهذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أو سخط).

---

(١) «حجة الله البالغة» (١/ ٣١٠).

(٢) نقلاً من «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» للعلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- (المجلد الأول/ ١٤١-١٤٤). حديث رقم (٥٧) بتصرف يسير.

وقال في مكان آخر: (باطل مكذوب).

وإن من آثار هذا الحديث السيئة أن كثيراً من المسلمين يقرّون بسببه الاختلاف الشديد الواقع بين المذاهب الأربعة، ولا يحاولون أبداً الرجوع بها إلى الكتاب والسنة الصحيحة، كما أمرهم بذلك أئمتهم رضي الله عنهم، بل إن أولئك ليرون مذاهب هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم إنما هي كشرائع متعددة[1] ! يقولون هذا مع علمهم بما بينها من اختلاف وتعارض لا يمكن التوفيق بينها إلا برد بعضها المخالف للدليل، وقبول بعضها الآخر الموافق له، وهذا ما لا يفعلون! وبذلك فقد نسبوا إلى الشريعة التناقض! وهو وحده دليل على أنه ليس من الله عز وجل لو كانوا يتأملون قوله تعالى في حق القرآن: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، فالآية صريحة في أن الاختلاف ليس من الله، فكيف يصح إذن جعله شريعة متبعة، ورحمة منزلة؟!

وبسبب هذا الحديث ونحوه ظل أكثر المسلمين بعد الأئمة الأربعة إلى اليوم مختلفين في كثير من المسائل الاعتقادية والعملية، ولو أنهم كانوا يرون أن الخلاف شر؛ كما قال ابن مسعود وغيره رضي الله عنهم، ودلت على ذمه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الكثيرة؛ لَسَعَوْا إلى الاتفاق، ولأمكنهم ذلك في أكثر هذه المسائل بما نصب الله تعالى عليها من الأدلة التي يعرف بها الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، ثم عذر بعضهم بعضاً فيما قد يختلفون فيه، ولكن لماذا هذا السعي وهم يرون أن الاختلاف رحمة، وأن المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة؟!

---

(١) كما صرح المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٠٩)!!

وإن شئت أن ترى أثر هذا الاختلاف، والإصرار عليه، فانظر إلى كثير من المساجد؛ تجد فيها أربعة محاريب، يصلي فيها أربعة من الأئمة! ولكل منهم جماعة ينتظرون الصلاة مع إمامهم كأنهم أصحاب أديان مختلفة! وكيف لا وعالمهم يقول: إن مذاهبهم كشرائع متعددة! يفعلون ذلك، وهم يعلمون قوله ﷺ: «**إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**» رواه مسلم وغيره[1].

ولكنهم يستجيزون مخالفة هذا الحديث وغيره محافظة منهم على المذهب؛ كأن المذهب معظّم عندهم ومحفوظ أكثر من أحاديثه عليه الصلاة والسلام!

وجملة القول؛ أن الاختلاف مذموم في الشريعة، فالواجب محاولة التخلص منه ما أمكن؛ لأنه من أسباب ضعف الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦]، أما الرضا به، وتسميته رحمة، فخلاف الآيات الكريمة المصرحة بذمه، ولا مستند له إلا هذا الحديث الذي لا أصل له عن رسول الله ﷺ.

وهنا قد يرد سؤال، وهو: إن الصحابة قد اختلفوا -وهم أفاضل الناس- أفيلحقهم الذم المذكور؟!

وقد أجاب عنه ابن حزم رحمه الله تعالى، فقال (٥/ ٦٧-٦٨): (كلا، ما يلحق أولئك شيء من هذا؛ لأن كل امرئٍ منهم تحرَّى سبيل الله، ووجهته الحق، فالمخطئ منهم مأجور أجراً واحداً، لنيته الجميلة في إرادة الخير، وقد رُفع عنهم الإثم في خطئهم؛ لأنهم لم يتعمدوه، ولا قصدوه، ولا استهانوا بطلبهم، والمصيب منهم

(١) وهو مخرج في «الإرواء» (٤٩٧)، و«صحيح أبي داود» (١١٥).

مأجور أجرين، وهكذا كل مسلم إلى يوم القيامة فيما خَفِيَ عليه من الدين ولم يبلغه، وإنما الذم المذكور والوعيد المنصوص، لمن ترك التعلق بحبل الله تعالى وهو القرآن، وكلام النبي ﷺ بعد بلوغ النص إليه، وقيام الحجة به عليه، وتعلق بفلان وفلان، مقلداً عامداً للاختلاف، داعياً إلى عصبية وحمية الجاهلية، قاصداً للفرقة، متحرياً في دعواه برد القرآن والسنة إليها؛ فإن وافقها النص أخذ به، وإن خالفها تعلق بجاهليته، وترك القرآن وكلام النبي ﷺ؛ فهؤلاء هم المختلفون المذمومون.

وطبقه أخرى، وهم قوم بلغت بهم رقة الدين وقلة التقوى إلى طلب ما وافق أهواءهم في قول كل قائل، فهم يأخذون ما كان رخصة في قول كل عالم، مقلدين له غير طالبين ما أوجبه النص عن الله وعن رسوله ﷺ) ا.هـ.

ويشير في آخر كلامه إلى «التلفيق» المعروف عند الفقهاء، وهو أخذ قول العالم بدون دليل، وإنما اتباعاً للهوى، أو الرخص، وقد اختلفوا في جوازه، والحق تحريمه لوجوه لا مجال الآن لبيانها، وتجويزه مستوحى من هذا الحديث، وعليه استند من قال: (من قلد عالماً؛ لقي الله سالماً)!

وكل هذا من آثار الأحاديث الضعيفة، فكن في حذر منها إن كنت ترجو النجاة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

المثال الثاني[1]: **«إِنَّما أصحابي مثلُ النُّجوم، فأيُّهُم أَخَذتُم بقوله؛ اهْتَدَيتُم»**.

موضوع: ذكره ابن عبد البر معلقاً (٢/ ٩٠)، وعنه ابن حزم من طريق أبي شهاب الحناط عن حمزة الجزري عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً به.

---

(١) نقلاً عن «السلسلة الضعيفة» (المجلد الأول/ ١٤٩-١٥٢) حديث رقم (٦١).

وقد وصله عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٨٦/ ١): أخبرني أحمد بن يونس: حدثنا أبو شهاب به.

ورواه ابن بطة في «الإبانة» (٤/ ١١/ ٢) من طريق آخر عن أبي شهاب به.

ثم قال ابن عبد البر: «وهذا إسناد لا يصح، ولا يرويه عن نافع من يُحتج به».

قلت: وحمزة هذا هو ابن أبي حمزة؛ قال الدارقطني: (متروك).

وقال ابن عدي: (عامة مروياته موضوعة).

وقال ابن حبان: (ينفرد عن الثقات بالموضوعات، حتى كأنه المتعمد لها، ولا تحل الرواية عنه).

وقد ساق له الذهبي في «الميزان» أحاديث من موضوعاته، هذا منها.

قال ابن حزم (٦/ ٨٣): (فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً، بل لا شك أنها مكذوبة؛ لأن الله تعالى يقول في صفة نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]؛ فإذا كان كلامه عليه الصلاة والسلام في الشريعة حقاً كله وواجباً؛ فهو من الله تعالى بلا شك، وما كان من الله تعالى فلا يختلف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

وقد نهى تعالى عن التفرق والاختلاف بقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ [الأنفال:٤٦]، فمن المحال أن يأمر رسوله ﷺ باتباع كل قائل من الصحابة ﷺ، وفيهم من يحلل الشيء، وغيره يحرمه، ولو كان ذلك لكان بيع الخمر حلالاً؛ اقتداء بسمرة بن

جندب، ولكان أكل البرد للصائم حلالاً؛ اقتداء بأبي طلحة، وحراماً اقتداءً بغيره منهم، ولكان ترك الغسل من الإكسال واجباً اقتداء بعلي وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبي بن كعب، وحراماً اقتداء بعائشة وابن عمر، وكل هذا مروي عندنا بالأسانيد الصحيحة).

ثم أطال في بيان بعض الآراء التي صدرت من الصحابة، وأخطأوا فيها السنة، وذلك في حياته ﷺ، وبعد مماته، ثم قال (٦/ ٨٦): (فكيف يجوز تقليد قوم يخطئون ويصيبون؟!).

وقال قبل ذلك (٥/ ٦٤) تحت (باب: ذم الاختلاف): (وإنما الفرض علينا اتباع ما جاء به القرآن عن الله تعالى الذي شرع لنا دين الإسلام، وما صح عن رسول الله ﷺ الذي أمره الله تعالى ببيان الدين... فصح أن الاختلاف لا يجب أن يراعى أصلاً، وقد غلط قوم، فقالوا: الاختلاف رحمة. واحتجوا بما رُوي عن النبي ﷺ: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. قال: وهذا الحديث باطل مكذوب، من توليد أهل الفسق؛ لوجوه ضرورية:

أحدها: أنه لم يصح من طريق النقل.

والثاني: أنه ﷺ لم يُجِزْ أن يأمر بما نهى عنه، وهو عليه السلام قد أخبر أن أبا بكر قد أخطأ في تفسيرٍ فسره، وكذّب[1] عمر في تأويل تأوله في الهجرة، وخطّأ أبا

(١) **قلتُ**: يعني: خطأه؛ كما في بعض لغات العرب.

السنابل في فتيا أفتى بها في العدة، فمن المحال الممتنع الـذي لا يجـوز البتـة أن يكون عليه السلام يأمر باتباع ما قد أخبر أنه خطأ، فيكون حينئذ أمـر بالخطـأ تعالى الله عن ذلك، وحاشـا لـه ﷺ مـن هـذه الـصفة، وهـو عليـه الـصلاة والسلام قد أخبر أنهم يخطئون، فلا يجوز أن يأمرَنا باتبـاع مـن يخطـئ؛ إلا أن يكون عليه السلام أراد نقلهم لما رووا عنه، فهذا صحيح؛ لأنهم رضي الله عنهم كلهـم ثقات، فمن أيهم نقل، فقد اهتدى الناقل.

والثالث: أن النبي ﷺ لا يقول الباطل، بل قوله الحق، وتشبيه المـشبه للمـصيبين بالنجوم تشبيه فاسد، وكذب ظاهر؛ لأنه من أراد جهـة مطلـع الجـدي؛ فـأمَّ جهة مطلع السرطان؛ لم يهتد، بل قد ضل ضلالاً بعيداً، وأخطأ خطأ فاحـشاً، وليس كل النجوم يُهتدى بها في كل طريق، فبطـل التـشبيه المـذكور، ووضـح كذب ذلك الحديث وسقوطه وضوحاً ضرورياً) ا.هـ.

ونقل خلاصته ابن الملقن في «الخلاصة» (٢/ ١٧٥)، وأقره، وبه ختم كلامه عـلى الحديث، فقال: (وقال ابن حزم: خبر مكذوب، موضوع، باطل، لم يصح قط).

٩

الباب التاسع

الدعوة إلى الله والفهم الصحيح لقاعدة: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه

الدعوة إلى الله والفهم الصحيح لقاعدة[1]

«نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»

اعلم أن العصمة والنجاة تكون بالوقوف مع الألفاظ الشرعية، كما أن الدِّين هو ما دلَّت عليه تلك الألفاظ من المعاني، فهي الكفيلة بكل هدى وبيان، العاصمة من كل خطأ وزلل وفساد.

وأما الألفاظ التي لم ترد في الكتاب والسنة، فإن تعليق الاعتقادات والأعمال والأحكام عليها يجرُّ إلى أقوال باطلة، ويتولد من الشر بسببها ما لا يعلمه إلا الله[2].

واعلم -وفقك الله- أن السُّنِّيَّ لا يقول حتى يقول الله ورسوله، كما أمره الله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرات:١]، والبدعي جعل دينه ما قاله شيوخه، فإذا جاءت نصوص الوحي، قال: هذا مجمل! هذا مؤول!.

وأما أقوال شيوخهم فلا يعتريها عندهم إجمال، ولا إشكال، ولا يحل لأحد مخالفتها، ولو كان ذلك اتباعاً لقول الله تعالى، وقول رسوله ﷺ.

وبعض من تمكَّن الجهل والهوى منه يُعظم الأقوال والقواعد المبتدعة، ويغضب لها إذا تركت، أو بُيِّن ما فيها من الخطأ والزلل.

---

(١) من كتاب «دراسة نقدية لقاعدة المعذرة والتعاون» للشيخ حمد العثمان (بتصرف).

(٢) توضيح الكافية الشافية» (ص١٣٨-١٣٩).

ولـمّا كانت الدعوة إلى الله من أجلّ الطاعات، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت]، قام بهذا الواجب أفراد وجماعات، تباينت مناهجهم، واختلفت طرائقهم، بسبب تفاوتهم في العلم، لأن العلم رُتب، كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف].

وقد أدّى اجتهاد بعض الدعاة إلى تأصيل قواعد دعوية يعمل بمقتضاها في الدعوة إلى الله.

والواجب أن يُجعل ما أنزله الله من الكتاب والسنة أصلاً في جميع الأمور، ثم يُرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويُبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتُقْبَلُ، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فَتُرَدُّ.

ومن جملة هذه القواعد المتداولة في صفوف بعض الجماعات الدعوية، قاعدة: «**يعذر بعضنا فيما اختلفنا فيه، ونتعاون فيما اتفقنا عليه**»!!.

وصاحب هذه القاعد قد قُبض -رحمه الله تعالى وغفر له- ولو كان حيّاً لرجعنا إليه فيها، حتى نتحقق من مراده، ونبين له لوازم قاعدته، لكننا رأينا عمل أتباعه بهذه القاعدة، فظهر لنا مرادهم منها.

فهم لم يخصُّوها بأهل السنة في المسائل الاجتهادية غير المنصوصة، بل وسَّعوا هذه القاعدة حتى وسعت أضل الفرق -كالرافضة-!

والله يعلم كم كانت هذه القاعدة سبباً لتبرير البدع، وحشر مقولات أهلها مع مقولات أهل السنة.

حرمة الألفاظ الشرعية

الله عز وجل أنزل قرآنه وتعبَّدنا بألفاظه ومعانيه، وهو كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت]، والمؤمنون الموحدون تقع كلمات الله ورسوله في قلوبهم موقعها، فإن كان خبراً تلقوها بالتصديق، وإن كانت إنشاءً تلقوها بالانقياد والامتثال.

فقاعدة أهل السنة استعمال الألفاظ الشرعية واحترامها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: (والألفاظ الشرعية لها حرمة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2] أيضاً: (واللفظ إنما يكون له حرمة إذا ثبت عن المعصوم وهي ألفاظ النصوص، فتلك علينا أن نتبع معانيها).

وقال أيضاً[3]: (فأحق الألفاظ بالرعاية ألفاظ الشارع الواردة في الكتاب والسنة).

وإذا تأملت هدي النبي ﷺ -الذي هو أسوة المؤمنين- وجدته كذلك، غاية في تحري ألفاظ القرآن حتى في تقديم وتأخير الألفاظ، وانظر كيف استنبط العلماء من ذلك جملة من الأحكام، كما هو معلوم لمن له استقراء لأحكام الفقه.

قال ابن القيم رحمه الله[4]: (إن النبي ﷺ كان يحافظ على ألفاظ القرآن تقديماً وتأخيراً، وتعريفاً وتنكيراً كما يحافظ على معانيه، وصح عنه قوله - وقد بدأ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١١٤).

(٢) «منهاج السنة» (٣/ ٢٤٦).

(٣) «الصفدية» (٢/ ١٠١).

(٤) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٠٥).

بالصفا-: «**ابدأوا بما بدأ الله به**»[١]، ومنه بداءته في الوضوء بالوجه ثم باليدين اتباعاً للفظ القرآن، ومنه قوله في حديث البراء بن عازب: «**آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت**»[٢] موافقة لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الأحزاب:٤٥]).

وقال ابن أبي العز الحنفي[٣]: (التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية، هو سبيل أهل السنة والجماعة).

ولذلك ترى ألفاظ وأقوال وفتاوى أئمة أهل السنة وعلمائها مطابقة لألفاظ القرآن، لأنها هي الشرع وبها تحصل السلامة من الخطأ والتناقض والاضطراب.

وأما أهل البدع؛ فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فهجروا ألفاظ الوحي المضمون له الصواب، واستعاضوا عنها بأقوال وضعها أئمتهم، وأوقعوا في الأمة بسبب ذلك الفرقة، وكثر لذلك المراء والجدال، وانتشر القيل والقال.

وجاء أتباعهم وجهلة المسلمين وأخذوا هذه القواعد واطردوها، وظنوا أنها من قواعد الشرع الثابتة بمقضتى الأدلة من الكتاب والسنة، ومن رزقه الله الهدى ودين الحق كشف زيفها، ورد الناس إلى كلام الله ورسوله.

الأخطاء في الألفاظ ولَّدت البدع

كم من كلمة خرجت من وثاق رجل يُحسن الناس به الظن - لا سيما إن كان من المنتسبين للعلم والدعوة إلى الله- وتلقاها من حوله بالقبول، وربما صارت كلمة «سائرة» عند طلابه ومحبيه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢/ ٤١٣)، ومسلم (١٢١٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠)

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٧٠-٧١).

فهؤلاء ربما أتوا من جهة حبهم لشيخهم، ولا شك أن الحُب يُعمي ويُصم، أو من جهة جهلهم بكلام الله ورسوله؛ حيث لم يعرفوا موافقة كلام شيخهم لكلام الله ورسوله من عدمه.

والواجب أن يُتبين من كلام الدعاة قبل أن يُتدين بها في ضوء كلام الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: (ليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه، إن لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله، وإلا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله ﷺ، ليس قول الله ورسوله تابعاً لأقوالهم).

والبعض يتهاون في هذا الأمر وما يظن أن الأمر قد يؤول إلى إفساد العقائد والأديان، وإذا نوقش في هذه الألفاظ وما فيها من الخطأ الواضح أو الإجمال والاشتباه هوّن الأمر، وبادر بقوله: (الأمر يسير، ولا مُشَّاحة في الاصطلاح، العبرة بالمعاني لا بالألفاظ..).

وكل من له معرفة بأثر بعض الألفاظ في توليد بعض البدع ونشأتها، يدرك حقيقة جهل، أو تجاهل هؤلاء المتهاونين في الألفاظ.

قال شيخ الإسلام بن تيمية[2]: (اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٩٤).

بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم، وإلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال).

الإجمال حيث يجب الاستفصال بدعة

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ أنصح الخلق وأفصحهم وأتمهم بياناً، وبهذا قامت الحجة وانقطع العذر على كل مخالف معارض.

فهو ﷺ يستفصل حيث يقتضي الأمر، ويُجمل حيث لا يقتضي الأمر التفصيل، ومن هنا قرر العلماء قاعدة شرعية كلية استنبطوا منها جملة من الأحكام هي: (**ترك الاستفصال مع اختلاف الأحوال ينزل منزلة العموم في المقال**)[1]، وذلك أن النبي ﷺ إذا لم يستفصل مع اختلاف الأحوال دل ذلك على أن الحكم والجواب عام لجميع الأحوال.

وأما من لا يستفصل حيث يجب في مواضع الإجمال؛ فهذا قد يكون سببه العي، أو سوء القصد تعمية على الخلق وترويجاً للباطل.

والإجمال يُوقع الإشكال ويكون سبباً للاختلاف والقيل والقال، فلذلك عاب أهل السنة على من فعل ذلك، ورأوا أنه ما بلّغ البلاغ المبين ولا نصح كما ينبغي له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: (ومن أطلق للناس ما لم يطلقه لهم رسول الله ﷺ مع وجود المقتضي للإطلاق، فقد جاء بشريعة ثانية ولم يكن متبعاً للرسول ﷺ، فلينظر امرؤٌ أين يضع قدمه).

---

(١) «شرح الكوكب المنير» (٣/ ١٧٠)، و«إرشاد الفحول» (ص١١٦).

(٢) «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٨٢).

فالواجب الحذر من طريق المبتدعة الذين يستعملون الألفاظ المجملة والمشكلة، ويعدلون عن الألفاظ الصريحة المحكمة، وإذا رأيت شيئاً من ذلك فعليك بتحرير الألفاظ والاستفسار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): (فإذا وقع الاستفصال والاستفسار انكشفت الأسرار، وتبين الليل من النهار).

المشاحة في الاصطلاح

تجرأ بعض المنتسبين إلى العلم بالخروج عن إجماع العلماء في الحدود والتعريفات والاصطلاحات والتقاسيم، حتى رأى الناس من ذلك عجباً! وانظر كيف جعل هؤلاء قسم الشيء قسيماً له، كما حصل لمن أفرد الحاكمية بتوحيد مستقل.

وكان من جواب هؤلاء أنه لا مشاحة في الاصطلاح، وأن العبرة بالمعاني لا بالمباني، وأنه لا دليل خاصاً من الكتاب والسنة على تقسيمات من سبق وتقدم من أهل العلم.

وهذا الكلام ساقط من وجوه:

الأول: أنه لا يُسلَّم لهم دعواهم (لا مشاحة في الاصطلاح) بإطلاق، وجرى رد مثل هذه الدعوى على من زل أو قصر أو أخطأ في الاصطلاح كثيراً، ومن له استقراء وتتبع لكلام العلماء في ذلك، علم بطلان هذه الدعوى مطلقاً.

---

(١) «التسعينية» (١/ ٢١٧).

وانظر على سبيل المثال كيف تعقب الحافظ ابنُ حجر ابنَ الصلاح رحمهما الله جميعاً في تفسيمه للتدليس بقوله: (فيه مشاحة)[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: (واعلم أنه وإن كان يقال: لا مشاحة في العبارات، فإن المقصود هو المعنى، فإن اللسان له موقع في الدين، والعبارة المرضية مندوب إليها، كما أن التعمق منهي عنه. وكذلك كان ﷺ يُغيّر كثيراً من الأسماء: أسماء الأشخاص والأمكنة وغير ذلك، وكانوا ينهون عن اللحن ويأمرون بإصلاح اللسان، فكيف في العبارات العلمية والمفاوضات الفقهية؟! لا سيما في كلام مقصوده تركيب عبارات يقتنص بها الباطل أو يقحم بها الجاهل، متى سومح صاحبها في الإطلاق تمكن من الرواج والنفاق).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله[(٣)]: (وإذا قالوا: لا مشاحة في الاصطلاحات فلنا أن نسمي ذلك تركيباً، قيل: لا مشاحة في الاصطلاحات التي لا تتضمن محذوراً، وأما تمكين المبطل أن يصطلح هو وذووه اصطلاحات يتوسلون بها إلى رد الحق ونصر الباطل؛ فهذا يُشاح فيه كل المشاحة ويُدفع بكل وسيلة).

الثاني: أن اللفظ معتبر كالمعنى سواء بسواء، ولذلك وُضع اللفظ للدلالة على معناه الذي يقتضيه، فالألفاظ قوالب للمعاني، فإذا كان القالب مخالفاً للمعنى الذي يقتضيه دل ذلك على تحايل المتكلم وسوء قصده، بغرض التعمية على

(١) «النكت على كتاب ابن الصلاح» (١/ ٦١٦).

(٢) «تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل بالباطل» (١/ ٢٧١).

(٣) «جامع المسائل» (٣/ ٣١٩).

الخلق، أو الخروج من عهدة ما لزمه من أقوال، أو دل ذلك على جهل المتكلم حيث استعمل من الألفاظ ما يُعبر عما في نفسه ومقصوده.

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: (فإن المتكلم عليه أن يقصد بتلك الألفاظ معانيها، والمستمع عليه أن يحملها على تلك المعاني).

الثالث: أما خرق ما اتفق عليه العلماء من الحدود والتقاسيم والأنواع، بدعوى أن لا دليل خاصاً على ذلك، فهذا القول صادر عن جاهل بأدلة الشرع، فالاستقراء والتتبع دليل شرعي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، في مثل قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣] الآية، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام:١٤٥]، وتفصيل ذلك معروف يُرجع إليه في كتب أصول الفقه.

الأقوال والقواعد المجملة سبب الظهور البدع

اللفظ المجمل: هو الذي يُفهم منه معان، بعضها حق، وبعضها باطل[(٢)].

ومن تأمل في تاريخ الأمة الإسلامية، وجد أن من طرائق المبتدعة الإتيان بألفاظ وقواعد مجملة، ليست في الكتاب ولا في السنة، وجعل هذه الألفاظ والقواعد من المسلّمات، ليتوصلوا بها إلى إبطال ما دلَّ عليه القرآن والسنة، مثل «الجسم»، و«الحيّز»، وقولهم: (الأعراض لا تقوم إلا بجسم، والأجسام متماثلة).

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ١٣٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٠٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: (وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة، ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحد أن يُوافق من نفاها، أو أثبتها، حتى يستفسر عن مُراده، فإن أراد بها معنى يُوافق خبر الرسول ﷺ أقرَّ به، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره.

ثم التعبير عن تلك المعاني: إن كان في ألفاظه اشتباه، أو إجمال، عبَّر بغيرها، أو بين مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة، ومعاني مشتبهه، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله، لم يتصوره، فضلاً عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله، لم يلزمه أن من خالفه يكون مخطئاً، بل يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيباً من وجه، وهذا مصيباً من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث).

والواجب على من يؤصل للدعوة ويقعّد لها، أن لا يطلق ألفاظاً مجملة من غير بيان وتفصيل لها، وأولى به أن لا يستعمل الألفاظ المجملة، حتى لا ينفذ من خلالها المبتدِعة، وكذلك من سئل عن لفظ، أو قاعدة مجملة -تحتمل حقاً وباطلاً- أن لا يطلق الجواب من غير تفصيل، فيكون بذلك مَضَلة لمن رام به الاقتداء.

ومن فعل ذلك، فقد خرج عن هدي النبي ﷺ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١١٤).

قال ابن القيم رحمه الله[١]: (والمقصود التنبيه على وجوب التفصيل إذا كان يجد السؤال محتملاً، وبالله التوفيق، فكثيراً ما يقع غلط المفتي في هذا القسم، فالمفتي ترد إليه المسائل في قوالب متنوعة جداً، فإن لم يتفطن لحقيقة السؤال، وإلا هلك وأهلك).

ومن أجل هذا كله، ترى أقوال وفتاوى الراسخين في العلم المُقتفين لأثر الصحابة والتابعين مطابقة لألفاظ القرآن والسنة، يتحرون ذلك غاية التحري، فحصلت لهم السلامة، ومن حاد عن سبيلهم، حصل له الخطأ، والزلل، والتناقض، والاضطراب.

الخلاف أمر كوني

لا شك أن الله عز وجل قضى وأراد الاختلاف كوناً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

وكما قال النبي ﷺ: «...**وإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً**»[٢].

وقال ﷺ: «**وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة...**»[٣].

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٩٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ١٧٤)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٤)، [«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧)].

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩٢)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، [«الصحيحة» (٢٠٣)]

وبعض الجهال يستدل بهذه الأدلة على وجوب التسليم والإذعان للاختلاف، لأن الله أراده! وهذا يلتبس على من لا يفرق بين ما أراده الله وقضاه كوناً، وما أراده وقضاه شرعاً.

فالخلاف مما قضاه الله وأراده كوناً لحكمة بالغة، حتى يتميز المتبع من المبتدع، ويقوم المتبع بمجاهدة المبتدع بالحجة والبيان.

فالخلاف كالكفر باعتبار إرادة الله له كوناً، فالله لا يحبه، ولكنه سبحانه شاءه وأراده إرادة كونية قدرية.

قال أبو محمد ابن حزم[(١)]: (وقد نص تعالى على أن الاختلاف ليس من عنده، ومعنى ذلك أنه تعالى لم يرضَ به، وإنما أراده تعالى إرادة كون، كما أراد كون الكفر وسائر المعاصي).

فكما أنه لا يمكن لمسلم أن يرضى بالكفر، فكذلك ينبغي أن لا يرضى بالخلاف.

وهذا الخلاف لا يختص بالمسلمين وأهل الملل، بل والمنتسبين للسنة لا بد أن يقع بينهم تنازع واختلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: (فلا بد في الطوائف المنتسبة إلى السنة والجماعة من نوع تنازع، لكن لا بد فيهم من طائفة تعتصم بالكتاب والسنة، كما

---

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» (٥/ ٦٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٦٧)

أنه لابد أن يكون بين المسلمين تنازع واختلاف، لكنه لا يزال في هذه الأمة طائفة قائمة بالحق، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة).

الخلاف سمة أهل البدع

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:١٥٩].

قال البغوي[١]: (هم أهل البدع والأهواء).

وقال ابن المبارك[٢]: (أهل الحق ليس فيهم اختلاف).

وقال الشاطبي[٣]: (الفُرقة من أخس أوصاف المبتدعة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: (والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة، كما يُقال: أهل البدعة والفرقة).

وقال أبو المظفر السمعاني[٥]: (ومما يدل على أن أهل الحديث هم على الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة، من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، وخط واحد، يجرون فيه على طريقة واحدة، لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك

---

(١) «شرح السنة» (١/ ٢١٠).

(٢) رواه الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ٨٥) من طريق سويد بن نصر، قال: أخبرنا ابن المبارك... فذكره.

(٣) «الاعتصام» (١/ ١١٣).

(٤) «الاستقامة» (١/ ٤٢).

(٥) كما في «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٢٢٤-٢٢٥).

واحد، ونقلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرقاً في شيء ما وإن قلَّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء من قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟!

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وأما إذا نظرت إلى أهل الأهواء والبدع، رأيتهم متفرقين مختلفين، أو شيعاً وأحزاباً، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد، يبدِّع بعضهم بعضاً، بل يرتقون إلى التكفير؛ يُكفر الابن أباه، والرجل أخاه، والجار جاره، تراهم أبداً في تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارهم، ولم تتفق كلماتهم «﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]»).

الخلاف آفة الذنوب

قال النبي ﷺ: «**كيف بك يا عبد الله إذا كنت في حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا؟!**» -وشبك بين أصابعه-[(١)].

وعن أنس مرفوعاً-: «ما توادَّ اثنان في الله، فيفرق بينهما، إلا بذنب يحدثه أحدهما»[(٢)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري تعليقاً (٤٨٠)، وابن حبان (٦٦٩٥)، وأبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٩٦)، وفي «الأوسط» (٢٠٨٦)، [«الصحيحة» (٢٠٦)]، وعندهم: (إذا بقيت) بدل (إذا كنت)، وعبد الله: هو عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١) وأحمد (٢/ ٦٨)، وابن المبارك في «مسنده» (١٣)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٣٨٤)، [«صحيح الجامع» (٥٦٠٣)].

وقال قتادة(١): (أهل رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أثر الذنوب في الاختلاف(٢):

(ولهذا كانوا -يعني: الصحابة- في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ، وكانوا على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا على عهد عمر، فلما كانوا في زمن عمر، حدث من بعضهم ذنوب، أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم؛ كمنعهم من متعة الحج، وكإيقاع الثلاث اذا قالوها بكلمة، وكتغليظ عقوبة الخمر، وكان أطوعهم لله وأزهدهم -مثل أبي عبيدة- ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها، حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون، كل منهم يقرُّ الآخر على اجتهاده.

فلما كان في آخر خلافة عثمان، زاد التغيير والتوسع في الدنيا، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر، فحصل بين بعض القلوب تنافر، حتى قُتل عثمان، فصاروا في فتنة عظيمة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال:٢٥]؛ أي: هذه الفتنة لا تصيب الظالم -فقط-، بل تصيب الساكت عن نهيه

---

(١) رواه الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ٨٥): حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة:...فذكره.

وأورده ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٠٨): أنبأنا ابن مكرم بالبصرة: حدثنا بشر بن الوليد: حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة:...فذكره.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤١/ ١٥٧-١٥٩).

عن الظلم، كما قال النبي ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[١].

وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات، وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها، مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر، فطائفة تمنع المتعة مطلقاً -كابن الزبير- وطائفة تمنع الفسخ -كبني أمية وأكثر الناس-، وصاروا يعاقبون مَنْ تَمَتَّعَ، وطائفة أخرى توجب المتعة، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ﷺ، بل خفي عليهم العلم، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب، كما قال ﷺ: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم**»[٢].

وهذا كلامه في القرون المفضلة، فكيف بزماننا هذا؟!

الخلاف شر

إذا رجعنا إلى الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وجدناها تدل على أن الخلاف شر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (خلق أهل رحمته، لئلا يختلفوا)[٣].

وقال أبو محمد ابن حزم[٤]: (فاستثنى تعالى من رحم من جملة المختلفين، وأخرج المرحومين من جملة المختلفين).

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٩)، وابن حبان (٣٠٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥١١)، وأبو يعلى (١٣١)، [«المشكاة» (٥١٤٢)].

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٠٢٣).

(٣) «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٧٢) لأبي بكر بن العربي.

(٤) «الأحكام» (٥/ ٦٦).

وقال الشاطبي[1]: (إن الآية اقتضت أن أهل الاختلاف المذكورين، مباينون لأهل الرحمة، لقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فإنها اقتضت قسمين: أهل الاختلاف، ومرحومين.

فظاهر التقسيم، أن أهل الرحمة ليسوا من أهل الاختلاف، وإلا: كان قسم الشيء قسيماً له، ولم يستقم معنى الاستثناء).

وقال ابن وهب[2]: (سمعت مالكاً يقول فيها: الذين رحمهم الله، لم يختلفوا).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولاً وفعلاً، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء، فاته من الرحمة بقدر ذلك).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ [آل عمران].

قال المزني[4]: (فذم الله الاختلاف، وأمر عنده بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فلو كان الاختلاف من دينه ما ذمه، ولو كان التنازع من حكمه ما أمرهم بالرجوع عنده إلى الكتاب والسنة).

---

(١) «الاعتصام» (٢/ ١٦٩).

(٢) «الأحكام» (٥/ ٦٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٦).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، قال[1]: (كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية، إنما ذلكم من الشيطان**»، فلم ينزلوا بعد منزلاً، إلا انضم بعضهم إلى بعض).

فانظر كيف نسب النبي صلى الله عليه وسلم تفرق الصحابة في المكان من حيث الظاهر، مع ائتلاف بواطنهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٣] إلى الشيطان، وحسبك بفعل أضيف إلى الشيطان، فإنه لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء والمنكر.

فكيف إذا كان الخلاف بما هو أعظم من هذا التفرق في المكان فقط؟! كالخلاف في العقائد، والمسائل العلمية والعملية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه[2]: (الخلاف شر).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]: (اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف، حتى يكون الناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي).

وقول علي رضي الله عنه: (أكره الاختلاف) في حكم بيع أم الولد مما تتجاذبه الأدلة تحريماً أو تحليلاً، فكيف بالمسائل التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة، وإنما

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٦٢٨)، وابن حبان (٢٦٧٣)، والحاكم (٢/ ١٢٦)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٥٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٧/ ٣٢٣)، [«صحيح الترغيب والترغيب» (٣١٢٧)].

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٩٦٠)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٧)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٤٣)، وعبد الرزاق (٢/ ٥١٦)، [«الصحيحة» (١/ ١/ ٤٤٤)].

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٧٠٧).

هي من مُضلات الهوى، والتي صارت الأحزاب تتخذها أصولاً، تسير وتسيّر الأتباع عليها؟!

قال أبو جعفر الطحاوي[1]: (ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً).

عن النعمان بن بشير: أن النبي ﷺ قال[2]: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب**».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: (فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب).

حديث «اختلاف أمتي رحمة»

انظر -غير مأمور- الكلام على هذا الحديث في فصل: (حكم العمل بالحديث الضعيف).

اختلاف التنوع

هذا النوع من الخلاف، كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد، لأنه قد قام الدليل على مشروعية كل واحد منهما، ويذم إذا بغى فيه أحد الطرفين على الآخر.

---

(١) «متن الطحاوية مع الشرح» (٢/ ٧٧٥).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩١١٩)، والبزار «كشف الأستار» (١٦٣٧)، [«صحيح الجامع» (٣٠١٤)].

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٢١).

وهذا النوع من الاختلاف يُسميه العلماء باختلاف التنوع[١]، لا تدافع ولا مُضادة فيه، كالاختلاف في صفة الأذان، والإقامة، وأدعية الاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، والقراءات.

قال ابن السيد البلطيوسي[٢]: (هذا النوع من الخلاف يعرض من قبل أشياء، وسَّع الله فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه ﷺ، كاختلاف الناس في الأذان والتكبير على الجنائز، وتكبير التشريق ووجوه القراءات السبع ونحو ذلك).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: (سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: «**كلاكما محسن، لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا، فهلكوا**»)[٣].

الحق في جهة واحدة

هذا الأصل تظافرت الأدلة عليه من الكتاب والسنة، وعليه عمل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وقد أقام ابن القيم على هذا الأصل أكثر من أربعين دليلاً ذكرها في كتاب مفرد[٤].

الأدلة من القرآن:

١ - قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٧).

(٢) «الإنصاف» (ص٢٠١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤١٠) و(٣٤٧٦) و(٥٠٦٢) وقد جمعها المؤلف (حمد العثمان) وجعلهما حديثاً واحداً.

(٤) انظر «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٢).

قال القرطبي[١]: (حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول، فإن الحق فيها في طرف واحد).

وقد يقول قائل: إن ظاهر الآية يدل على أن ما بعد الله هو الضلال، لأن أولها ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس]، فلماذا هذا التوسع في الاستدلال؟

فالجواب: إن سلفنا الصالح قد استدل بعموم هذه الآية على كل باطل، فاستدل بها الإمام مالك على تحريم الشطرنج كما في رواية أشهب، ووجه ذلك: أن الكفر تغطية للحق، وكل ما كان من غير الحق يجري هذا المجرى[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: (الآيات الناهية عن الاختلاف في الدين المتضمنة لذمه، كلها شهادة صريحة بأن الحق عند الله واحد، وما عداه فخطأ، ولو كانت تلك الأقوال كلها صواباً، لم ينه الله ورسوله عن الخلاف ولا ذمه).

٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، قال ابن القيم[١]: (فقد أخبر سبحانه أن الاختلاف ليس من عنده، وما لم يكن من عنده فليس بالصواب).

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٣٣٦).

(٢) انظر «أحكام القرآن»، لأبي بكر ابن العربي (٣/ ١٠٥٢).

(٣) «مختصر الصواعق»، بواسطة فقه النوازل، للعلامة بكر أبو زيد (ص١٧٦).

٤- قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (فهذان نبيان كريمان، حكما في حكومة واحدة، فخص الله أحدهما بفهمها، مع ثنائه على كل منهما بأنه آتاه حكماً وعلماً، فكذلك العلماء المجتهدون رضي الله عنهم: للمصيب منهم أجران، وللمخطئ فيهم أجر واحد، وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته، ولا يُكلفه الله ما عجز عن علمه، ومع هذا فلا يلزم الرسول ﷺ قول غيره، ولا يلزم ما جاء به من الشريعة شيء من الأقوال المحدثة، لا سيما إن كانت شنيعة).

وهنا تنبيه مهم لابد من الالتفات إليه، وهو أنه لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على عدم لوم ولا ذم من لم يصب الحق مطلقاً، وذلك لأن المسألة التي حكما فيها ليست من مسائل الوحي، وإنما هي من مسائل الاجتهاد، فلم يستوجب الذم على الخطأ.

قال العلامة المفسر محمد الأمين الشنقيطي[٣]: (وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب، فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب، فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لوماً ولا ذماً بعدم إصابته، كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾، أثنى عليهما

(١) المرجع السابق.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٤١).
(٣) «أضواء البيان» (٤/ ٦٥٠).

في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فدل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معاً، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف، ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي، لكان مفهماً إياها كما ترى.

فقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود، بتفهيم الله إياه ذلك).

الأدلة من السنة:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه [(١)]: أن بني قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار فلما دنا من المسجد، قال للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» فقال: «**هؤلاء نزلوا على حكمك**»، فقال سعد: تُقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، فقال ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى الملك**».

فانظر كيف أثنى النبي ﷺ على سعد بقوله: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله**»...؟ فدل هذا على أن سعداً وافق حكم الله في نفس الأمر، وأنه لو حكم بغير هذا الحكم ما وافق حكم الله.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه [(٢)]، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب، فله أجران، وإذا حكم، فأخطأ فله أجر واحد**».

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢)، ومسلم (١٧٦٨)، وقد جمعها المؤلف (حمد العثمان) وجعلها حديثاً واحداً.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، مع اختلاف في ألفاظ الحديث عندهما.

وهذا الحديث صريح في أن الحق في جهة واحدة، للتصريح بتخطئة القول المخالف.

٣- وفي حديث سليمان بن بريدة، عن أبيه[١]، أن رسول الله ﷺ قال: «**وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم، أم لا؟**».

وهذا من أوضح الأدلة على أن حكم الله في نفس الأمر واحد، قد يصيبه العبد أو يخطئه، ووجه أمر النبي ﷺ بهذا في ذلك الوقت، هو أن الأحكام الشرعية لا تزال تنزل، وينسخ بعضها بعضاً.

٤- وقد بيّن النبي ﷺ أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، وجعل الفرقة الناجية واحدة.

قال الشاطبي[٢]: (إن قوله عليه الصلاة والسلام: «**إلا واحدة**»، قد أعطى بنصه أن الحق واحد لا يختلف، إذ لو كان للحق فرق أيضاً، لم يقل: «**إلا واحدة**»).

٥- وفي قصة المرأتين، معهما ابناهما، لما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود، فأخبرتاه، فقال: آتوني

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) «الاعتصام» (٢/ ٢٤٩).

بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل! يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى[(١)].

قال الحافظ ابن حجر في فوائد الحديث[(٢)]: (وفيه أن الحق في جهة واحدة).

عمل الصحابة:

١- قال ابن مسعود رضي الله عنه -لما طلب منه موافقة أبي موسى الأشعري في مسألة البنت وبنت الإبن والأخت، فأعطى البنت النصف، والأخت النصف-: (لقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأخبر أبو موسى، فقال: لا تسألوني، ما دام هذا الحبر فيكم) [(٣)].

فانظر إلى ابن مسعود رضي الله عنه كيف جعل القول الآخر الذي جعله المصوبة صواباً، عند الله ضلالاً؟!

٢- وقال ابن عباس رضي الله عنهما[(٤)]: (لوددت أني وهؤلاء الذين يخالفونني في الفريضة نجتمع، فنضع أيدينا على الركن، ثم نبتهل، فنجعل لعنة الله على الكاذبين).

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يريد أن يباهل مخالفه، والمباهلة فيها أيمان مغلظة، بحضور الزوج، والذرية، ومقترنة بلعنة الله.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧٣٦)، انظر لفظ الحديث.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٢٥٥) وإسناده صحيح.

ومن أجل هذا كله وغيره، قال الإمام مالك[١]: (ما الحق إلا واحد، قولان مختلفان يكونان صواباً جميعاً؟! وما الحق والصواب إلا واحد).

قال مطرف بن الشخير[٢]: (لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحداً لقال القائل: الحق فيه، فلما تشعبت واختلفت عرف كل ذي عقل أن الحق لا يتفرق).

وقال ابن السيد البطليوسي[٣]: (إن اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً[٤]: (ولهذا تجد المسائل التي تنازعت فيها الأمة على أقوال، وإنما القول الذي بعث الرسول ﷺ به واحد منها).

ليس كل مجتهد مصيباً

يتفرع عما سبق من أن الحق في جهة واحدة أنه ليس كل مجتهد مصيباً، فدعوى أن «كل مجتهد مصيب» مصادمة لكل النصوص التي أشرنا إلى بعضها من أن الحق في جهة واحدة.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ[٥]: (هذه العبارة فاسدة من جهة قوله: «كل مجتهد مصيب»!

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٠٧).

(٢) «أصول السنة» (١/ ١٦٩-رقم ٣١٢).

(٣) «الإنصاف» (ص٢٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٢٤).

(٥) «إتمام المنة والنعمة في ذم اختلاف الأمة» (ص٥٠).

وقد رد هذا غير واحد من المحققين، وقُرر في أصول الفقه من بيان فساده ما لا يخفى على طالب العلم).

فهذه القاعدة ليست متلقَّاة عن القرون المفضلة، بل إن أصولها بدعية، قال القاضي أبو الطيب الطبري[1]: (وهذا مذهب معتزلة البصرة وهم الأصل في هذه البدعة، وقالوا هذا لجهلهم بمعاني الفقه، وطرقه الدالة على الحق، الفاصلة بينه وبين ما عداه من الشُّبه الباطلة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: (هذه الأصول التي ادعوها في ذلك باطلة واهية، كما سنبينه في غير هذا الموضع، ذلك أنهم لم يجعلوا لله في الأحكام حكماً معيناً، حتى ينقسم المجتهد إلى مصيب ومخطئ، بل الحكم في حق كل شخص ما أدى إليه اجتهاده.

وقد بينا في غير هذا الموضع، ما في هذا من السفسطة والزندقة، فلم يجعلوا لله حكماً في موارد الاجتهاد أصلاً، ولا جعلوا له على ذلك دليلاً أصلاً، بل ابن الباقلاني، وغيره يقول: «وما ثم أمارة في الباطن، بحيث يكون ظن أصح من ظن، وإنما هو أمور اتفاقية»، فليست الظنون عنده مستندة إلى أدلة وأمارات تقتضيها، كالمعلوم في استنادها إلى الأدلة).

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٣).

(٢) «الاستقامة» (١/ ٤٩).

وأما نسبة هذه العبارة «كل مجتهد مصيب» إلى الإمام الشافعي، فهذا جوابه من وجوه:

أولاً: أن هذا لم يصح عن الشافعي رحمه الله، قال أبو إسحاق المروزي[1]:

(وإنما نسب قوم من المتأخرين -ممن لا معرفة لهم بمذهبه- إليه أن: «كل مجتهد مصيب»، وادّعوا ذلك عليه).

ثانياً: أن المنقول عن الإمام الشافعي خلافه، قال رحمه الله[2]: (الحق في واحد، لا يكون فيه وفي ضده).

وقال ابن القيم رحمه الله[3]: (وأصول الأئمّة الأربعة وقواعدهم ونصوصهم على هذا).

ثالثاً: أن هذا لو صح عن الشافعي رحمه الله، فإنه إنما أراد به اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: (اختلاف التنوع: كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلاد تردد).

رابعاً: أن هذا لو صح عنه؛ فإنه يريد بالمصيب أي: مصيب الأجر، إذا كان من أهل الاجتهاد، وبذل وسعه في طلب الحق.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٢).

(٢) «الرسالة الوافية» (ص٢٥٣) تحقيق الأخ الشيخ دغش العجمي.

(٣) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢١).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٥٢).

قال ابن القيم رحمه الله[1]: (فمن قال: كل مجتهد مصيب للأجر، بمعنى أنـه مطيـع لله في أداء ما كُلف به، فقوله صحيح إذا استفرغ المجتهد وسعه، وبذل جهده).

خامساً: أن معنى «مصيب» في هذه العبارة في إطلاقات الـسلف، أي: مطيـع لله، لا أنه وافق الحق لأنه استفرغ وسعه في تحري الحق، وعنده الآلة التـي تُمكنـه مـن معرفة الحق، وسلك الطريق الموصل إلى الحق، وأعرض عن الطرائق المبتدعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: (وهو مصيب بمعنى أنه مطيـع لله، لكـن قد يعلم الحق في نفس الأمر، وقد لا يعلمه).

صحة العقيدة سبب لإدراك الحق، واستجابة الدعاء

صحة الاعتقاد تقوِّي الإدراك وتصححه، فلذلك تجد أهل السنة موافقين للحق في الحلال والحرام، وإدراكهم له، وإصابتهم للصواب فيه أكثر ممن بعد عن السنة.

وبمقدار البعد عن الـسنة يـضعف إدراك الحـق في الحـلال والحـرام وغـيره، ولذلك تجد من كان أعمى في العقيدة فهو في غيرها أعمى وأضل سبيلاً.

وأما الخطأ والغلط الذي يحصل لبعض أئمة السنة في الحلال والحرام، فهو من لوازم بشريتهم، وانتفاء العصمة عنهم.

قال شيخ الإسلام اين تيمية[3]: (فكل من استقرأ أحوال العالم، وجد المـسلمين أحدّ وأسدّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٢).

(٢) «طريق الوصول إلى العلم المأمول» (رقم ٢٤٥-ص٨٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠).

ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث، تجدهم كذلك متمتعين، وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)﴾ [النساء]).

وكذلك صحة الاعتقاد سبب لإجابة الدعاء، فربما حُرم المبتدعة إجابة دعائهم في مواضع كثيرة بسبب سوء عقيدتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: (ولهذا قيل: إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة، لأنه عقَّب آية الدعاء بقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة:١٨٦]).

كما أن التوحيد سبب لقلة الفواحش، لذلك تجد المنكرات في بلاد التوحيد قليلة، وفي كثير من الأحيان مستترة، وعلى العكس من ذلك تجد بلاد المبتدعة كالرافضة تموج بالفواحش، وإن زعموا تطبيق شريعتهم المبتدَعة!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (فإن البدع في الدين سبب الفواحش وغيرها من المنكرات، كما أن إخلاص الدين لله سبب التقوى، وفعل الحسنات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، لعل التقوى تحصل لكم بعبادته).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٣).

(٢) «الرد على البكري» (١/ ٢٧٤).

وقال أيضاً[1]: (فَقَلَّ من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو يظهر في عمله).

من أجل هذا كله وغيره، لا بد من الاعتناء بالعقيدة أولاً، وهذا هو ما بُعثت به الرسل: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه[2]: (إن أفضل ما نُعِدُّ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

فهم السلف عاصم من الاختلاف

اختلاف الصحابة كان يسيراً، وهذا النزر اليسير كان في مسائل الاجتهاد، وليس في شيء من قواعد الإسلام، ومتابعتهم فيما هم عليه من أقوال، واعتقادات، تورث الاتفاق الذي كان صفة لهم.

بل لا يسع مسلماً أن يخرج عن طريقهم وفهمهم، وفاعل ذلك مُتَوَعَّدٌ بوعيد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

وهم فوقنا في كل شيء، كما قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني**»[3]، وهم الذين شهدوا التنزيل، ورضي الله عنهم رضاً مطلقاً، وليس ذلك لأحد غيرهم.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٢١) ط. الإفتاء السابعة.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٢١).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

قال البربهاري[١]: (والأساس الذي تُبنى عليه الجماعة، هم أصحاب محمد ﷺ ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم، فقد ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار).

وقال أيضاً[٣]: (أحق الناس بالهدى هم الذين باشرهم الرسول ﷺ بالخطاب من خواص أصحابه وعامتهم).

وقال في الصحابة[٤]: (أعلم بمفهوم الخطاب اللغوي وبأسباب الحكم الشرعي وبدلالات حال النبي ﷺ).

وقال أيضاً[٥]: (وكما أنه لم يكن في القرون أكمل من قرن الصحابة، فليس في الطوائف بعدهم أكمل من أتباعهم، فكل من كان للحديث والسنة وآثار الصحابة أتبع، كان أكمل، وكانت تلك الطائفة أولى بالاجتماع، والهدى، والاعتصام بحبل الله، وأبعد عن التفرق والاختلاف والفتنة، وكل من بعد عن ذلك، كان أبعد عن الرحمة، وأدخل في الفتنة.

---

(١) «شرح السنة» (ص٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٣٠).

(٣) «التسعينية» (١/ ٢٠٨).

(٤) «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٢٣٩).

(٥) «منهاج السنة» (٦/ ٣٦٨).

فليس الضلال الغيّ في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في الرافضة، كما أن الهدى، والرشاد، والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسنة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله ﷺ، فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يغضبون لقول غيرهم إلا إذا اتبع قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله).

حديث «صلاة العصر في بني قريظة»

ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: (قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «**لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعنِّف واحداً منهم)[1].

وهذا الحديث تعلق به أرباب البدع المضلة، الذين قالوا: إن للنصوص باطناً غير ما يدل عليه اللفظ! وكذلك المحرِّفون لنصوص الصفات، بل صار عمدة كل مخطئ معرض عن الكتاب والسنة، وسلف الأمة، وليس فيما تعلقوا به متعلَّق، لأن الزمان زمان تشريع، ظن البعض أنه يسوغ تأخير الصلاة عن وقتها، إذا كان الشاغل ضرورة كالحرب.

أما وقد ثبتت الأحكام وبُيّنت الأمور، فليس حال المخطئ بعد ذلك مطابقاً لحال الصحابة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

قال الحافظ ابن حجر[١]: (الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق! ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه.

وحاصل ما وقع في القصة، أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت، ترجيحاً للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، فقد تقدم حديث جابر المصرح بأنهم صلوا العصر بعدما غربت الشمس، وذلك لشغلهم بأمر الحرب فجوزوا أن يكون ذلك عاماً في كل شغل يتعلق بأمر الحرب، لا سيما والزمان زمان التشريع، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية عن الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة).

وقال العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللهُ[٢]:

(تنبيه: يحتج بعض الناس اليوم بهذا الحديث على الدعاة من السلفيين وغيرهم الذين يدعون إلى الرجوع فيما اختلف فيه المسلمون إلى الكتاب والسنة، يحتج أولئك على هؤلاء بأن النبي ﷺ أقرّ خلاف الصحابة في هذه القصة! وهي حجة داحضة واهية، لأنه ليس في الحديث إلا أنه لم يعنِّف واحداً منهم، وهذا يتفق تماماً مع حديث الاجتهاد المعروف، وفيه أن من اجتهد، فأخطأ، فله أجر

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٠٩-٤١٠).

(٢) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٤/ ٤٤٨).

واحد، فكيف يعقل أن يعنف من قد أُجِرَ؟! وأما حمل الحديث على الإقرار للخلاف عند التنازع والاختلاف، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٦] الآية.

وإنّ عجبي لا يكاد ينتهي من أناس يزعمون أنهم يدعون إلى الإسلام، فإذا دُعوا إلى التحاكم إليه قالوا: قال عليه الصلاة والسلام: «**اختلاف أمتي رحمة**»! وهو حديث ضعيف لا أصل له، وهم يقرؤون قول الله تعالى في المسلمين حقاً: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

وقد بسطت القول في هذه المسألة بعض الشيء، وفي قول أحد الدعاة: (نتعاون على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا فيما اختلفنا فيه)! في تعليق لي كتبته على رسالة «كلمة سواء» لأحد المعاصرين لم يسم نفسه! لعله يتاح لي إعادة النظر فيه وينشر).

لا يعذر كل متأوِّل

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف:٥٢].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ [الأنعام:١١٤] قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: (وقوله ﴿مُفَصَّلًا﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين).

وقال عمر بن الخطاب: (لا عذر لأحد في ضلالة ركبها، حسبها هدى، فقد بُيِّنت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر).

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٢٢١).

قال البربهاري معلِّقاً[1]: (وذلك أن السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، وتبين للناس، فعلى الناس الاتباع).

فهناك صنف من الناس متبع لأهوائه، وآرائه، وخواطره، وهواجسه، وتراه يرد ما هو أوضح من الصبح من سنن رسول الله ﷺ، وأشهر من الشمس؛ برأي دخيل، واستحسان ذميم، وظن فاسد، ونظر مشوب بالهوى، فهل يُعذر مثل هذا؟!).

قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني[2]: (المتأول إذا أخطأ وكان من أهل عقد الإيمان، نُظر في تأويله، فإن كان قد تعلق بأمر يفضي به إلى خلاف بعض كتاب الله، أو سنة يقطع بها العذر، أو اجتماع، فإنه يكفر، ولا يعذر، لأن الشبهة التي يتعلق بها مَنْ هذا صنيعه لا تقوى قوة يعذر بها، لأنه ما شهد له أصل من هذه الأصول، فإنه غاية الوضوح والبيان، فلما كان صاحب هذه المقالة لا يصعب عليه درك الحق، ولا يغمض عنده بعض موضع الحجة، لم يعذر في الذهاب عن الحق، بل عمل خلافه في ذلك على أنه عناد وإصرار! ومن تعمد خلاف أصل من هذه الأصول، وكان جاهلاً لم يقصد إليه من طريق العناد، فإنه لا يكفر، لأنه لم يقصد اختيار الكفر ولا رضي به، وقد بلغ جهده، فلم يقع له غير ذلك.

---

(١) «السنة» (ص٢٢).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥١٠).

وقد أعلم الله سبحانه أنه لا يؤاخذ إلا بعد البيان، لا يعاقب إلا بعد الإنـذار، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة:١١٥]، فكـل مـن هـداه الله عز وجل ودخل عقد الإسلام، فإنه لا يخرج إلى الكفر الا بعد البيان).

وقال ابن جرير الطبري[1]: (قال رسـول الله ﷺ: «**مـن اجتهـد فأصـاب فلـه أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر**».

وذلك الخطأ فيما كانت الأدلة على الصحيح من القول فيه مختلفة غير مؤتلفة، والأصول في الدلالة عليه مفترقة غـير متفقـة، وإن كـان لا يخلـو مـن دليـل عـلى الصحيح، من القول فيه، فميّز بينه وبـين الـسقيم منـه، غـير أنـه يغمـضُ بعـضه غموضاً يخفى على كثير من طلابه، ويلتبس على كثير من بغاته.

والآخر منهما غير معذور بالخطأ فيه مكلف قد بلغ حد الأمر والنهي، ومكفّرٌ بالجهل به الجاهل، وذلك ما كانت الأدلة الدالة على صـحته متفقـة غـير مفترقـة، ومؤتلفة غير مختلفة، وهي مع ذلك ظاهرة للحواس).

السلف كانوا يطلبون دلائل الأقوال

من سبر أحوال السلف رحمهم الله ثبت له باليقين، أنهم كانوا يطلبون ممن قال قولاً أو عمل عملاً، أن يقيم الدليل على قوله أو عمله من الكتاب والسنة.

وهذا يعني أنهم لا يعذرون الناس في أقوالهم وأفعالهم ومذاهبهم، إذ لم تستند إلى دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) «التبصير في معالم الدين» (ص١١٣-١١٤).

قال أبو صالح: (سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول[١]: «الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم، مِثلاً بمثل، من زاد أو ازداد، فقد أربى» فقلت له: إن ابن عباس يقول غير هذا؟ فقال: لقد لقيت ابن عباس، فقلت: أرأيت هذا الذي تقول: أشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو وجدته في كتاب الله عز وجل؟!).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[٢]: (قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا؟ قال: فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى، فنزع في ذلك حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم).

الاحتجاج بالاختلاف

يحتج البعض لتسويغ المذهب الذي انتحله -وإن كان ضعيفاً- بأن المسألة مختلف فيها! ومثل هذا الاحتجاج ليس بحجة شرعية، وهو تأصيل لم يقم عليه دليل شرعي، لا من كتاب ولا من سنة.

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر[٣]: (الاختلاف ليس بحجة عند أحد علمته من فقهاء الأمة، إلا من لا بصر له، ولا معرفة عنده، ولا حجة في قوله).

وقال الخطابي[٤]: (وليس الاختلاف حجة، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين).

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٧٨)، ومسلم (١٥٩٦) واللفظ له.

(٢) «مناقب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص٨٦-٨٧)، و«الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٨٠).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٩٩).

(٤) «أعلام الحديث» (٣/ ٢٠٩٢).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: (وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة.

ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف[٢]، فإن له نظراً آخر، بل في غير ذلك.

فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع فيقال: لم تمنع، والمسألة مختلف فيها؟! فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها، لا لدليل عليه يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة، حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً، وما ليس بحجة حجة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: (وليس لأحد أن يحتج بقول أحد في مسائل النزاع، وإنما الحجة: النص، والإجماع، ودليل مستنبط من ذلك تقرر مقدماته بالأدلة الشرعية، لا بأقوال بعض العلماء، فإن أقوال العلماء يحتج لها بالأدلة الشرعية، لا يحتج بها على الأدلة الشرعية).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: (فإنه لا يعترض على الأدلة من الكتاب والسنة بخلاف المخالف، فكيف يكون خلافكم في مسألة قد قام الدليل على قول منازعيكم فيها مبطلاً لدليل صحيح لا معارض له في مسألة أخرى.

---

(١) «الموافقات» (٤/ ١٤١).

(٢) «وقال في معنى (مراعات الخلاف): إعطاء كل واحد منهما ما يقتضيه الآخر! أو بعض ما يقتضيه! وهو جمع بين متنافيين. «الموافقات» (٤/ ١٥١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) «جلاء الأفهام» (ص٤٩٧).

وهل هذا إلا عكس طريقة أهل العلم، فإن الأدلة هي التي تُبطل ما خالفها من الأقوال، ويُعترض بها على من خالف موجبها، فتقدم على كل قول اقتضى خلافها، لا أن أقوال المجتهدين تُعارض بها الأدلة، وتبطل مقتضاها وتقدم عليها).

الترخص بالأخف عند الاختلاف

بعض الناظرين في مسائل الخلاف يُرجح ما يراه أيسر للمكلف في المسألة المختلف فيها، وربما استدل بالنصوص الواردة في وصف الشريعة باليسر، وبأن النبي ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

وإذا أخذنا في الاعتبار أيضاً النصوص الأخرى، وهو أن الجنة حُفت بالمكاره، ونسخ بعض الأحكام إلى الأثقل كصيام رمضان، وكذلك امتناع أن يكون الصواب في كل ما اختلف فيه هو الأيسر للمكلف، وجدنا أن الواجب السعي في ترجيح الراجح، وأن هذا هو الأيسر لأنه هو الشرع.

قال العلامة المعلمي اليماني رحمه الله[1]: (فمن المحال عادة أن يكون الحق دائماً من المسائل الخلافية مع المرخصين، فالترخيص فيها كلها ترك متيقن لكثير من الحق).

وقال الشاطبي رحمه الله[2]: (استدل لمن قال بالأخف بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ وقوله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**» وكل ذلك ينافي شرع الشاق الثقيل.

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص٢٦).

(٢) «الموافقات» (٤/ ١٤٨-١٤٩).

ومن جهة القياس أن الله غني كريم، والعبد محتاج فقير، وإذا وقع التعارض بين الجانبين، كان الحمل على الجانب الغني أولى.

والجواب عن هذا، ما تقدم[١]، وهو أيضاً مؤدٍّ إلى إيجاب إسقاط التكليف جملة، فإن التكاليف كلها شاقة ثقيلة، ولذلك سميت تكليفاً[٢]، من الكلفة، وهي المشقة.

فإذا كانت المشقة حيث لحقت في التكليف تقتضي الرفع بهذه الدلائل؛ لزم ذلك في الطهارات، والصلوات، والزكوات، والحج وغير ذلك، ولا يقف عند حد، إلا إذا لم يبق على العبد تكليف! وهذا محال).

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[٣]: (إذا تنازع الكوفيون والبصريون في مسألة -يعني النحو- فاتَّبع الأَسهل، ولو قيل هذا في المسائل الفقهية يصح أو لا؟ لا يصح، لأنه لا يجوز أن نتبع الرخص).

---

(١) وهو قوله: الحنيفية السمحة إنما أتي فيها السماح مقيداً بما هو جار على أصولها، وليس تتبع الرخص، ولا اختيار الأقوال بالتشهي بثابت من أصولها.

وقوله: وموضع الخلاف موضع تنازع، فلا يصح أن يرد إلى أهواء النفوس، وإنما يرد إلى الشريعة وهي تبين الراجح من القولين، فيجب اتباعه، لا الموافق للغرض. «الموافقات» (٤/ ١٤٥).

(٢) ومن أوضح الأدلة في ذلك الحديث الذي رواه الإمام مسلم: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**». (كتبه: العلامة عبد المحسن العباد).

(٣) «شرح الآجرومية» (ص٣٢٣) ط. مكتبة الأنصار.

الاحتياط في الخلاف

البعض يحتاط في مسائل الخلاف، ولعله يسلك ما فيه مشقة كإعادة طهارة أو إمساك عن حلال خروجاً من الخلاف واحتياطاً لدينه.

والواجب أن يُرجَّح الراجح ويُلتزم الدليل، ولا يلزم المكلفين الاحتياط في كل مسائل الخلاف، وليس بين الحق والباطل والراجح والمرجوح منزلة حتى يُصار إليها.

وإنما رخص العلماء في الاحتياط في المسائل الاجتهادية حيث لا نص ولا دليل يُصار إليه.

قال النووي رحمه الله[1]: (فإن قيل: الخروج من الخلاف مستحب، فالجواب: أنّا إنما نستحب الخروج من خلاف محترم، وهو الخلاف في مسألة اجتهادية. أما إذا كان الخلاف مخالفاً سنة صحيحة -كما في هذه المسألة-[2] فلا حرمة له).

وحيث وُجد الدليل ولم تكن المسألة اجتهادية جاز الاحتياط لمن لم تستبن له السنة، ومع هذا لا يجوز لمن كان هذا حاله إلزام من استبانت له السنة وظهر له الدليل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: (وأما الخروج من اختلاف العلماء، فإنما يُفعل احتياطاً إذا لم تُعرف السنة، ولم يتبين الحق، لأن من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، فإذا زالت الشبهة وتبينت السنة، فلا معنى لمطلب الخروج من الخلاف).

---

(١) «المجموع شرح المهذب» (٣١/ ١٩٦) بتصرف يسير جداً.

(٢) وهي تفضيل الصلاة في الكعبة دون سائر المسجد الحرام في النفل.

(٣) «شرح العمدة كتاب الطهارة» (١/ ٤١٧).

وقال شيخنا الوالد العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[١]: (ومن المعلوم أن النبي ﷺ أمر بالاحتياط فيما لم يتضح فيه الدليل، قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**»)[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[٣].

ثم إنه من الجهة العملية لا يتأتّى الاحتياط في كل مسائل الخلاف، ولا بد من إعمال أحد القولين، ودعوى أن العمل بأحد القولين هو الاحتياط مفتقر إلى دليل، فتحليل ما حرم الله كتحريم ما أحل الله سواء بسواء، فالواجب اتباع الدليل.

قال العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله[٤]: (والحقيقة أن الاحتياط الصحيح إنما هو في الوقوف عند حدود الله، وفي الفتيا بما قام عليه الدليل من الكتاب والسنة).

ليس كل مخطئ مأجوراً

قال الإمام الشافعي رحمه الله[٥]: (ومن تكلف ما جهل، وما لم تثبته معرفته، كانت موافقته للصواب -إن وافقه من حيث لا يعرفه- غير محمودة، والله أعلم.

---

(١) «الشرح الممتع» (٣/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه النسائي (٥٧١١)، وأحمد (١/ ٢٠٠)، وابن خزيمة (٢٣٤٨)، [«صحيح الجامع» (٣٣٧٧)].

(٤) «نظام الطلاق في الإسلام» (ص٥٨).

(٥) «الرسالة» (ص٥٣).

وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه).

وكلام الإمام الشافعي رحمه الله هذا عليه نور الوحي، فكم من خلاف وقع كان سببه القول على الله بغير علم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾!

قال الإمام أحمد: (إنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم)[1].

وحديث بُريدة في القضاء: «... **اثنان في النار: رجل قضى للناس على جهل فهو في النار...**»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله[3]: (ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم، لقل الخلاف).

وكم من خلاف كان سببه العدول عن الكتاب والسنة، إما لقول معظم، أو لرأي محدث، أو لشبهة مضلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء]، والقاضي الآخر الذي في النار: «**رجل عرف الحق، فجار، فهو في النار**».

وكم من خلاف قد ظهر فيه الحق ظهوراً واضحاً بيناً، ومع ذلك يخالف البعض فيه؛ لا لخفاء الحكم، بل تعدّياً؟! فهؤلاء ظالمون آثمون بلا ريب.

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٤).

(٢) انظر «إرواء الغليل» (٢٦١٤) و(٢٦٢٨).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٤).

قال المعلمي[١]: (إذا كانت حجج السنة بيّنة؛ فالمخالف لها لا يكون إلا معانداً أو متبعاً للهوى معرضاً عن حجج الحق).

قال شيخ الإسلام[٢]: (إن الأحكام الشرعية التي نصبت عليها أدلة قطعية معلومة، إذا بلغت هذه الأدلة للمكلف بلاغاً يُمكنه من اتباعها، فخالفها تفريطاً في جنب الله وتعدّياً لحدود الله؛ فلا ريب أنه مخطئ آثم، وإن هذا الفعل سبب لعقوبة الله في الدنيا والآخرة).

وقال شيخ الإسلام[٣] : (فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلاً، أو لتعدّيه حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها، لاتباع هواه بغير هدى من الله؛ فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد).

وقال شيخ الإسلام[٤]: (إن المصيب وإن كان واحداً، فالمخطئ قد يكون معفوّاً عنه وقد يكون مذنباً، وقد يكون فاسقاً).

وقال شيخ الإسلام أيضاً[٥]: (إن القرآن بيان وهدى وشفاء، وإن ضل به من ضل فإنه من جهة تفريطه).

---

(١) «التنكيل» (١/ ٤٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٤٢) بتصرف يسير.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣١٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٧).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٠٠).

ولا أدل على هذا الكلام من دعاء النبي ﷺ بالقتل لمن أفتى بغير علم، فإن رجلاً من الصحابة جُرح في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، فاغتسل فمات، فقال ﷺ: «**قتلوه، قتلهم الله، هلّا سألوا إذا لم يعلموا؟ إنما شفاء العِيِّ السؤال**»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (فإن هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد، إذ لم يكونوا من أهل العلم).

متى يُعذر المخطئ؟

إذا استفرغ العالم وسعه في تحرِّي الحق، وحسن قصده في ذلك، واتبع سبيل المؤمنين في طلب الحق من الكتاب والسنة، وكان جامعاً لآلة العلم التي تمكنه من معرفة الحق، وأخطأ في إدراك الصواب وحكم الله في نفس الأمر، فهذا خطؤه مغفور، بل هو مثاب على اجتهاده وتقواه، كما قال النبي ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأخطأ، فله أجر**»[٣].

وعدم وقوع الخطأ من العالم غير ممكن، ولم يدَّعِه أحد من العلماء، لأن إدراك الصواب في جميع أعيان الأحكام إما متعذَّر أو متعسر.

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٢٧)، [«صحيح أبو داود» (٣٢٥)]، انظر: لفظ الحديث عندهم.

(٢) «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص٤٨).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

قال الحافظ ابن رجب[١]: (وكلهم -يعني العلماء- معترفون بأن الإحاطة بالعلم كله من غير شذوذ منه، ليس هو مرتبة أحد منهم، ولا ادّعاه أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين، فلهذا كان أئمة السلف المجمَع على علمهم وفضلهم، يقبلون الحق ممن أورده عليهم، وإن كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم).

لكن ينبغي أن يعلم أنه لا يلزم الشرع قول قاله عالم باجتهاد فأخطأ، وإن كان قائله من أفضل الأمة وأجلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (ولهذا كان الصحابة إذا تكلموا باجتهادهم ينزِّهون شرع الرسول ﷺ من خطئهم وخطأ غيرهم، كما قال ابن مسعود في المفوِّضة[٣]: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه».

وكذلك روي عن الصديق في الكلالة، وكذلك عن عمر في بعض الأمور، مع أنهم كانوا يصيبون فيما يقولونه على هذا الوجه، حتى يوجد النص موافقاً لاجتهادهم، كما وافق النص اجتهاد ابن مسعود وغيره، وإنما كانوا أعلم بالله ورسوله، وبما يجب من تعظيم شرع الرسول ﷺ أن يضيفوا إليه ما لا علموه وما أخطأوا فيه، وإن كانوا مجتهدين، قالوا: إن الله ورسوله بريئان منه).

---

(١) «الفرق بين النصيحة والتغيير» (ص٢٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٤١-٤٢).

(٣) هي المزوجة بغير مهر، انظر «المغني» (١٠/ ١٣٨).

ضوابط مسائل الاجتهاد

استجدت بعض النوازل في أيامنا هذه، وهي مسائل غير منصوص عليها بعينها نصّاً خاصّاً، لكن لا شك أن هذه النوازل قد أحاطت الشريعة بها علماً، لكمالها.

فالشرع له قواعد كلية ترد إليه أمثال هذه الجزئيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: (فإن الشارع نصوصه كلمات جوامع، وقضايا كلية، وقواعد عامة يُمتنع أن ينص على كل فرد من جزئيات العالم إلى يوم القيامة، فلا بد من الاجتهاد في المعينات، هل تدخل في كلماته الجامعة أم لا).

ومع الأسف، صارت أمثال هذه النوازل سبباً في تفرق شباب الأمة عن علمائها، وصار بعض طلبة العلم يستقل بقوله في هذه النوازل مخالفاً عامة علماء الأمة الكبار المشهود لهم بالاضطلاع بالعلم، وحسن القصد، والسيرة[2].

وقام بعض هؤلاء بسبب هذا بحصر الرجوع إلى العلماء في مسائل الأحكام والعقيدة دون مسائل النوازل، وغروراً بمن لا بصيرة عنده أن عند شبابهم من التحقيق والتدقيق والإحاطة بمسائل النوازل ما ليس عند علمائنا الكبار، وحصل بسبب ذلك من الشرور ما الله به عليم.

---

(١) «منهاج السنة» (٦/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) وهذا من الأمور المعلومة بسبر مواقفهم وسيرهم، وليس هو غيبياً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (٨/ ٤٧٤-٤٧٥): (والإيمان يُعلم من الرجل، كما يعلم سائر أحوال قلبه، من موالاته، ومعاداته، وفرحه، وغضبه، وجوعه، وعطشه، وغير ذلك، فإن هذه الأمور لها لوازم ظاهرة، والأمور الظاهرة تستلزم أموراً باطنة، وهذا أمر يعرفه الناس فيمن جربوه وامتحنوه).

وقال الوزير ابن هبيرة في «الإفصاح»(٥/ ٢٠٧): (فإن للإيمان أرجاً وعَرفاً على نحو المسك).

وما أشبه هؤلاء بالمتكلمين الذين يعظمون أئمة المذاهب كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وسفيان والليث في علم الشريعة العملية والقضايا الفقهية، ويؤخرونهم في مسائل التوحيد ويقدمون شيوخهم المتكلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: (فإن المتكلمين يعظمون هؤلاء -يعني أئمة المذاهب- في علم الشريعة العملي والقضايا الفقهية، وأما في الكلام وأصول الدين مثل مسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوات والمعاد، فلا يلتزمون موافقة هؤلاء، بل قد يجعلون شيوخهم المتكلمين أفضل منهم في ذلك. وقد يقولون: إنهم وإن علموا ذلك لكن لم يبسطوا القول فيه ولم يبينوه كما فعل ذلك شيوخ المتكلمين).

وبعض هؤلاء إذا أنكر عليهم بعض ما ذهبوا إليه في تقريراتهم أجابوك بقولهم: (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)**!!**

وهذه قاعدة صحيحة، لكن الأمر ليس كما يريد هؤلاء، فثم ضوابط وآداب لمسائل الاجتهاد:

فالأمر الأول: أن مسائل الاجتهاد موكولة إلى أهل الاجتهاد، وهم العلماء.

قال الشاطبي[2]: (الاجتهاد المعتبر شرعاً، هو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بما يفتقر إليه الاجتهاد).

(١) «الرد على المنطقيين» (ص٤٤٤).

(٢) «الموافقات» (٤/ ١٦٧).

الأمر الثاني: مصلحة ائتلاف الأمة على علمائها، واتفاقهم عليهم خير من شذوذ طالب العلم عنهم.

قال ابن ابي العز الحنفي[1]: (وقد دلت نصوص الكتاب، والسنة، وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة، يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يُطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية).

وهذا عين الفقه، فإن العلماء أحد صنفي ولاة الأمر الذين أمرنا الله بطاعتهم، وإذا لم تجب طاعتهم في النوازل، فمتى تجب طاعتهم؟

فالمسائل المنصوصة طاعتهم فيها تبع لطاعة الله ورسوله، فليتدبر اللبيب هذا الموضع.

الأمر الثالث: مشاورة العلماء: وهي دليل على علم المشاور واتباعه لأمر الله، وهدي النبي ﷺ وأصحابه، وترك مشاورة العلماء نقص في علم المعرض عنهم.

قال ابن القيم رحمه الله[2]: (وإن كان عنده من يثق بعلمه، فينبغي له أن يشاوره، ولا يستقل بالجواب ذهاباً بنفسه، وارتفاعاً بها أن يستعين على الفتاوى بغيره من

(١) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٣٤-٥٣٥).

(٢) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٦).

أهل العلم! وهذا من الجهل، فقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقد كانت المسألة تنزل بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيستشير لها من حضر من الصحابة، وربما جمعهم وشاورهم، حتى كان يشاور علياً رضي الله عنه، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن ابن عوف، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما [(١)]: (إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ).

الأمر الرابع: بعض النوازل والمسائل المستجدة، الخطأ فيها واضح بيّن، فلا يتجه الاعتراض على منكرها بدعوى: أن مسائل الاجتهاد لا إنكار فيها!

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين في رده على من جوز المظاهرات، ومنع من إنكارها بدعوى: مسائل الاجتهاد لا إنكار فيها!

قال رحمه الله [(٢)]: (مسائل الاجتهاد قسمان:

- قسم نعلم خطأها فتنكر.

- وقسم يكون الأمر فيها متردداً، فهذا هو الذي لا ينكر.

وعلى هذا العمل سائر علمائنا الكبار ينكرون المظاهرات وأشباهها كسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز، والشيخ العلامة الألباني، والعلامة صالح الفوزان، وغيرهم، ولا يلتفتون إلى مثل هذه الإيرادات).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٤٤)، قال الذهبي بعده: إسناده صحيح.

(٢) شريط رقم (٥٧٣٨) تسجيلات ابن القيم الإسلامية - الكويت-.

الأمر الخامس: وهو أن مسائل الاجتهاد اذا صارت شعاراً لأمر لا يسوغ ولا يجوز، فإنه لابد من إنكارها لما يترتب على ترك الإنكار من المفاسد والشرور.

قال شيخ الإسلام بن تيمية[١]: (المسألة الاجتهادية فلا تنكر إلا إذ صارت شعاراً لأمر لا يسوغ، فتكون دليلاً على ما يجب إنكاره، وإن كانت نفسها يسوغ فيها الاجتهاد).

تبيين الأخطاء واجب

من المعلوم أن الله عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة، ولم يعصم الله آحادها من الخطأ لا صدِّيقاً ولا غيره.

وهذه الأمة لا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجوراً، فإذا وقع بعض هذه الأمة في خطأ، فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب، ويبين هذا الحق الذي يجب اتباعه، والخطأ الذي يجب اجتنابه[٢].

وهذا التبيين هو من إنكار المنكر، وهو لحفظ الشريعة وصيانتها عن أن تلزم بأخطاء العلماء، وهو من النصيحة لله ولكتابه ورسوله.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله[٣]: (ومن أنواع النصح لله تعالى وكتابه ورسوله -وهو ما يختص به العلماء-: رد الأهواء المضلة بالكتاب والسنة على موردها،

(١) «منهاج السنة» (١/ ٤٤).

(٢) مقتبس من كلام شيخ الإسلام.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٥٨).

وبيان دلالتها على ما يُخالف الأهواء كلها، وكذلك رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسنة على ردها).

وهذا الأصل العظيم شوش عليه دعاة التجميع، فصاحوا بمن قام بهذا الأصل العظيم، وسموا من قام بهذا الواجب بداعية الفتنة! وهذا مقام خطر، فإن الأخطاء والبدع تصان طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة لما فيه من صيانة الباطل ومحاربة من ينكره، بل وصل بهم الأمر أن نزَّلوا نصوص الخوارج في حق المنكرين، فقالوا عنهم: (خوارج من الدعاة، يقتلون أهل السنة ويدَعُونَ أهل الأوثان)!

وأهل البصائر يعرفون، ويدركون أن هذا بُهتان، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أسلافهم في قذف أهل الإيمان بخلال الخوارج.

قال ابن القيم رحمه الله في «نونيته»[1]:

ومن العجائب أنهم قالوا لمن	قد دان بالآثار والقرآن
أنتم بذا مثل الخوارج إنهم	أخذوا الظواهر ما اهتدوا لمعان
فانظر إلى ذا البهت هذا وصفهم	نسبوا إليه شعبة الإيمان

وهكذا يرد هؤلاء الحق، ويدفعونه بالتهويش، وبوصفه بأقبح الأوصاف لينفر الناس عنه، كما قال ابن القيم[2]: (وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح).

(١) وكما جار هؤلاء في إطلاق هذا الوصف على عباد الله، سلط الله عليهم من حزبهم من يصفهم بهذا الوصف، جزاء وفاقاً، ولا يظلم ربك أحداً، فهل من عاقل يعتبر؟!

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٤٤).

ولو ترك هذا الأصل، لعلا الباطل على الحق، والخطأ على الصواب، والغي على الرشاد، والبدعة على السنة، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

والحق أن المبتدعة هم خوارج، وسماهم بذلك جماعة من السلف كأيوب السختياني[1]، لأنهم خرجوا على الشرع المنزل بأهوائهم.

قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي[2]: (كما لا يحسن في سياسة الملك العفو عمن سعى على الدولة بالخروج على السلطان، لا يحسن أيضاً أن يُعفى عمن ابتدع في الأديان، لأن فساد الأديان والابتداع كفساد الدول بالخروج على الملك والاستتباع؛ فالمبتدعون خوارج الشرائع).

وقال العز بن عبد السلام[3]: (أوجب الله على العلماء إعزاز الدين وإذلال المبتدعين، فسلاح العالم علمه كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين المشركين، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائفين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله تعالى بعينه التي لا تنام، ويعزه بعزه الذي لا يضام.

خصوصاً وقد قال القشيري: سمعت أبا علي الدقاق قدس الله سره يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، فالساكتون عصاة آثمون مندرجون تحت قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة]) ا.هـ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١).

(٢) «الفنون» (١/ ١٠٩).

(٣) بواسطة «شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور» (ص٢٣٣-٢٣٤) ط. الافتاء الأولى، أفادني بذلك الأخ الشيخ دغش العجمي جزاه الله خيراً.

أهل البدع أخطر من أهل الملل

كلامنا في بيان أن خطر المبتدعة أعظم من خطر أهل الملل إنما هو من جهة عظم الفتنة بهم، والتباس أمرهم على العامة لأنهم من أهل القبلة، وليس الكلام في المفاضلة بينهما باعتبار العذاب الأخروي.

والشريعة فرّقت في الأحكام بين أهل الملل وأهل البدع من المسلمين، وجعلت أحكام أهل البدع أغلظ من أهل الملل في بعض الأمور، من ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: (هؤلاء -يعني أهل الكتاب- يُقرون على دينهم المبتدع والمنسوخ متسترين به، والمسلم لا يقر على مبتدع ولا منسوخ، لا سرّاً ولا علانية).

فضرر أهل البدع المكفرة المضلة على المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى، فإن هؤلاء المبتدعة يفسدون القلوب ابتداء، وأما اليهود، والنصارى، وأهل الحرب لديار المسلمين، ففسادهم للقلوب لا يكون إلا تبعاً[٢].

وفساد اليهود والنصارى ظاهر لعامة المسلمين، أما أهل البدع، فإنه لا يظهر فسادهم لكل شخص.

وقال شيخ الإسلام[٣]: (إن كثيراً من أهل البدع منافقون النفاق الأكبر).

وقال أيضاً[٤]: (إن فعل هذه البدع يناقض الاعتقادات الواجبة، وينازع الرسل ما جاءوا به عن الله، وأنها تورث القلب نفاقاً، ولو كان نفاقاً خفيفاً).

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣٢).

(٣) بواسطة «طريق الوصول» (ص٢٥١).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١١٦).

وقال[1]: (فمن تدبر هذا علم يقيناً ما في حشو البدع من السموم المضعفة للإيمان، ولهذا قيل إن البدع مشتقة من الكفر).

وقال الشاطبي[2]: (فإن البدع في الدين هلاك، وهي في الدين أعظم من السم في الأبدان).

ولهذا نبه العلماء إلى أن إنكار منكَر المبتدعة أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، بل إن أئمة الهدى يرون أن انتزاع مدرسة شرعية من مبتدع، أفضل من انتزاع بلدة من الكفار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: (من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا).

وقال عبد الرحمن بن مهدي[4]: (آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة).

وهذا رجاء بن حيوة كتب لهشام بن عبد الملك في غيلان القدري وصالح: (أقسم بالله لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم)[5].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١١٦).

(٢) «ملحق الإفادات والإنشادات» (ص١٧٨).

(٣) «نقض المنطق» (ص١٥٦).

(٤) «ذم الكلام للهروي بواسطة صون المنطق» (ص٦١).

(٥) «تاريخ ابن أبي خيثمة» (١/ ٢٥٤-رقم ٧١١)، وإقامة الحدود موكولة إلى الإمام إجماعاً.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر رؤوس الأشاعرة وما وضعوه من قانونهم العقلي وقدموه على النقل (الرازي، أبا بكر بن عربي، الباقلاني، الجويني) قال: (فالنصارى أقرب إلى تعظيم الأنبياء والرسل من هؤلاء)[1].

وقال شيخ الإسلام في سياق رده على غلاة الصوفية[2]: (فهذه المقالات وأمثالها، من أعظم الباطل، وقد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها، وأنه باطل، والواجب إنكارها، فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين، أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، الذي لا يضل به المسلمون).

وهذا الإمام أحمد يرى أنّه يستعان باليهود والنصارى، ولا يستعان بالجهمية، قال المروزي للإمام أحمد: أيستعان باليهود والنصارى وهم مشركون، ولا يستعان بالجهمي؟ قال: (يا بني، يغتر بهم المسلمون)[3].

فهؤلاء هم أعيان ورؤوس أهل السنة، وهذا من جملة أقوالهم، وقد ظهر من يلمز من يقول بهذا من العلماء المعاصرين[4]، ولا أدري لماذا لا يلمز هؤلاء أحمد، وابن تيمية؟!

بل أعجب من هذا أنهم قلبوا الحقائق، واستعمل أهل البدع مثل هذه العبارات في أهل السنة.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٥٩).

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٥٦).

(٤) مع أنه قد جرى على ألسنتهم وأقلامهم إطلاق مثل هذا الوصف على بعض الجماعات الدعوية، انظر كتاب «الولاء والبراء»!!

قال العلامة محمد البشير الإبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (صادف قدوم الشيخ رشيد إلى الشام عزمي على الرجوع إلى الجزائر، وخرج الشيخ رشيد إلى القلمون فخرجت بعده إلى بيروت في وجهتي إلى المغرب، وكان من رفاقي في هذه الوجهة الأستاذ محمد المكي بن الحسين الخضر المتقدم، فاجتمعنا ذات صباح بالشيخ يوسف النبهاني الخرافي المشهور في دكان أحد التجار، وكان النبهاني سمع بي، فجاء مُسلّماً قاضياً لحق الجوار بالمدينة المنورة، إذ كنا قد تعارفنا فيها، فإنّا لكذلك إذ مر بنا الشيخ رشيد ولم يرنا ولم نره، وما راعني إلا النبهاني يلفت رفيقي ويسأله: أتعرف هذا؟ فأجابه، وكيف لا؟ هذا الشيخ رضا، فما كان من النبهاني إلا أن قال: هذا أضر على الإسلام من ألف كافر، فكان امتعاض قطعت نتائجه سرعة الانفضاض)[1].

كذلك ابن القيم قرر أن فساد والتباس المبتدعة أعظم من أهل الملل، فقال[2]: (ومن عظيم آفاتها ومصيبة الأمة بها أن الأهواء المضلة والآراء المهلكة التي تتولد من قبلها لا تزال تنمو وتتزايد على مرِّ الأيام وتعاقب الأزمنة، وليست الحال في الضلالات التي حدثت من قبل في أصول الأديان الفاسدة كذلك، فإن فساد تلك معلوم عند الأمة، وأصحابها لا يطمعون في إدخالها في دين الإسلام، فلا تطمع أهل الملة اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية ولا الثانوية ونحوهم أن يدخلوا أصول مللهم في الإسلام).

---

(١) «الآثار» (١/ ١٨٠).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٤٩-٣٥٠).

وقال الشوكاني[1]: (اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة، وقد تكون مفسدة أهوية المبتدعة أشد على أهل هذه الملة من مفسدة اتباع أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون أنهم ينصرون الدين ويتَّبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة ويدفعون من شنعة إلى شنعة حتى يسلخوه من الدين ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله ومصيبة صبها الله على المقصرين، لأنه يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسأل الله اللطف والسلامة والهداية).

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في شأن الصوفية[2]: (استعمارهم لأفكار ضعاف العقول أشد من استعمار كل طوائف المستعمرين).

وقال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين في كلامه على منع أهل الذمة من الخروج مع المسلمين للاستسقاء[3]: (إذا منعنا أهل الذمة مع ظهور كفرهم فمنعنا لأهل البدع من باب أولى).

---

(١) «فتح القدير» (١/ ١٥٤).

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٥٤٦).

(٣) «الشرح الممتع» (٥/ ٢٧٨).

الخلاف الحاصل بالردود أهون من انتشار البدع والأخطاء

وهذا باب تشتبه على كثير من عوام المسلمين وأشباههم، فيقولون: ما للعلماء يقع بعضهم ببعض!!

وأنصاف المتعلمين أيضاً، يطلبون الكف عن الرد على المخطئين والمبتدعة، طلباً للوحدة والاتفاق.

وما علموا أن البدع والأخطاء والسبل هي داعية الفرقة، والمخرجة للناس عن الصراط المستقيم.

ومع الطرق المعوجة، لا يحصل ائتلاف أبداً.

ثم لو قدر أننا أجبناهم لطلبهم، فإن الاختلاف لن يرتفع، لأن الله قضاه كوناً، فالواجب رد البدع والأخطاء، صيانة للشريعة من التحريف.

قال عاصم الأحول لقتادة: (ألا أرى العلماء يقع بعضهم في بعض؟ فقال: يا أحول! أولا تدري أن الرجل إذا ابتدع بدعة، فينبغي لها أن تُذكر حتى تُحذر)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأن المبتدع(٢): (...، كل ذلك مخالف لسنة رسول الله ﷺ فمن أمر بذلك كان أحق بالمنع، ويشهر خطؤه، ليتحفظ الناس من الاقتداء به).

---

(١) «أصول أهل السنة» للإمام اللالكائي (١/ ١٥٤-رقم ٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٥).

وبعض الناس يعيب كتب الردود ويُحَذِّر من قراءتها ويزعم أنها تُفرق ولا تجمع، وتفسد ولا تصلح، وأنه لا علم يلتمس من ورائها، مع تناقض بعض هؤلاء؛ فلهم مؤلفات في الردود على مخالفيهم مع ما فيها من التجني والظلم، وهم واقعون فيما فروا منه من التحذير، بتحذيرهم من كتب الردود.

قال الشوكاني[1]: (وإنما التصنيف الذي يستحق أن يقال له تصنيف، والتأليف الذي ينبغي لأهل العلم الذين أخذ الله عليهم بيانه، وأقام لهم على وجوبه عليهم برهانه، هو أن ينصروا فيه الحق ويخذلوا به الباطل ويهدموا بحججه أركان البدع، ويقطعوا به حبائل التعصب، ويوضحوا فيه للناس ما نزل إليهم من البينات والهدى، ويبالغوا في إرشاد العباد إلى الإنصاف ويحببوا إلى قلوبهم العمل بالكتاب والسنة، وينفِّروهم من اتباع محض الرأي وزائف المقال وكاسد الاجتهاد).

ويقول الشاطبي في الرد على المخطئين والمبتدعين[2]: (فمثل هؤلاء لا بد من ذكرهم والتشريد بهم، لأن ما يعود على المسلمين من ضررهم إذا تركوا أعظم من الضرر الحاصل بذكرهم، والتنفير عنه إذا كان سبب ترك التعيين الخوف من التفرق والعداوة.

ولا شك أن التفرق بين المسلمين وبين الداعين للبدعة وحدهم -إذا أقيم عليهم-، أسهل من التفرق بين المسلمين وبين الداعين ومن شايعهم واتبعهم،

---

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأرب» (ص٨١).

(٢) «الاعتصام» (٢/ ٢٢٩).

وإذا تعارض الضرران، فالمرتكب أخفهما وأسهلهما، وبعض الشر أهون من جميعه، كقطع اليد المتآكلة، إتلافها أسهل من إتلاف النفس.

وهذا شأن الشرع أبداً: يطرح حكم الأخف، وقاية من الأثقل).

قاعدة مقطوعة الصلة بالسلف

قد بيَّنّا فيما سقناه من الأدلة، أن قاعدة (**نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه**) ليس عليها عمل الصحابة رضي الله عنهم، بل إن عملهم على نقيض ذلك تماماً، فترى أحدهم ينسب نفسه إلى الضلال إذا قال بقول غيره، مما يعلم أنه مجانب للصواب.

لو طلبت من قائل هذه القاعدة بيان سلفه بها من القرون المفضلة؛ لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولو كان هذا القول محموداً، لقاله خير القرون، وصدر هذه الأمة، وخيرتها.

والله سبحانه يقول مبكتاً الكفار في إنكارهم فضل خيار المؤمنين، وربطهم الخير في أنفسهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف]، قال الإمام ابن كثير معلقاً[1]: (وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة هو بدعة، لأنه لو كان خيراً، لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٨).

فإن قال قائل: (إن السلف لم يتكلموا بهذه المقولة، لكنهم سكتوا عنها، وسكتهم لا يدل على خطأ هذا القول)!

قلت: إن الأدلة التي ذكرناها عنهم تنقض هذه القاعدة، ولو قدر أنهم سكتوا عن هذه المقالة، فلا يخلوا الأمر من حالين:

الأولى: أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به، فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه.

الثانية: أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم غير عالمين به، فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموا[1].

قال أبو حامد الغزالي في شأن ما لم يؤثر من الألفاظ والأقوال[2]: (ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر).

ثم إن هذه القاعدة -**(نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)**- تقتضي إعذار المذاهب المختلفة، وتسويغ خلافها، وإقرار الجميع على ما هم عليه، كما يقر العلماء في مسائل الاجتهاد التي يسوغ فيها الخلاف**!!** وهذا مسلك بدعي، وإرجاء محض.

(١) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ١٠٠).

(٢) نقله عن شيخ الإسلام اين تيمية في «الاستقامة» (١/ ٨١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: (...وقسم آخر: أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب، أو يعرفون بعضه، ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد يكتمونه، ولا يبيِّنونه للناس، ولا ينهون عن البدع، ولا يذمون أهل البدع ويُعاقبونهم، بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين مطلقاً، وقد لا يفرقون بين ما يقوله أهل السنة والجماعة، وما يقوله أهل البدعة والفرقة، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة، كما يُقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع، وهذه حال كثير من المرجئة، وبعض المتفقهة، والمتصوفة والمتفلسفة).

فلو قلنا بهذه القاعدة لعذرنا كل مخالف! وأقررنا كل بدعة وضلالة!!

والأخطاء يرقق بعضها بعضاً، ويعذر من الأخطاء أولاً ما كان أخف حتى نعذر بعد ذلك في الأخطاء العظيمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: (وإنما يظهر من البدع أولاً ما كان أخف، وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة).

ولو قلنا بهذه القاعدة لعذرنا شارب النبيذ! ولعذرنا من تزوج متعة! ومن باع الدرهم بالدرهم مع المفاضلة! ولعذرنا من أكل في رمضان بعد الفجر قبل طلوع الشمس! ولعذرنا من نكح الزانية مع استمرارها على البغاء! ولعذرنا من نكح المخلوقة من مائه سفاحاً! ولعذرنا من استغاث بالأموات! وعطّل الصفات! وقال بالجبر! ونفى الرؤية! حتى نرضى بعد ذلك بأقل القليل مما مع أصحاب

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٢) «الرسالة التدمرية» (ص١٩٤).

البدع المضلة، فنعذرهم في ضلالهم وغيرهم، ونتعاون فيما بقي معهم من الإقرار بوجود الله، ضد من ينكره من شيوعيين وماديين.

قال الخطابي في سياق حديثه عن النبيذ والمسكر[١]: (ولو قال قائل: إن الناس لـمّا اختلفوا في الأشربة، وأجمعوا على تحريم خمر العنب، واختلفوا فيما سواه، لزمنا ما أجمعوا على تحريمه، وأبحنا ما سواه)!

وهذا خطأ فاحش، وقد أمر الله المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله، فكل مختلف فيه من الأشربة مردود إلى تحريم الله وتحريم رسوله الخمر، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «**كل شراب أسكر، فهو حرام**»[٢]، فأشار إلى الجنس بالاسم العام والنعت الخاص، الذي هو علة الحكم، فكان ذلك حجة على المختلفين، ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل، للزم مثله في الربا، والصرف، ونكاح المتعة، لأن الأمة قد اختلفت فيها).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: (وفي الجملة (باب الاجتهاد والتأويل) باب واسع يؤول بصاحبه إلى أن يعتقد الحرام حلالاً، كمن تأول في ربا الفضل، والأنبذة المتنازع فيها، وحشوش النساء، وإلى أن يعتقد الحلال حراماً، مثل بعض ما ذكرناه من صور النزاع، مثل الضب وغيره، بل يعتقد وجوب قتل المعصوم أو

(١) «أعلام الحديث» (٣/ ١٠٩١-١٠٩٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤٢)، ومسلم (٢٠٠١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦٤).

بالعكس. فأصحاب الاجتهاد وإن عُذروا وعُرفت مراتبهم من العلم والدين فلا يجوز ترك ما تبين من السنة والهدى لأجل تأويلهم، والله أعلم).

وقال الشاطبي مبيناً مفاسد هذا التأصيل، وما يؤول إليه من تضليل[١]: (كالانسلاخ من الدين بترك اتباع الدليل إلى اتباع الخلاف، وكالاستهانة بالدين، إذ يصير بهذا الاعتبار سيالاً لا ينضبط، وكترك ما هو معلوم إلى ما ليس بمعلوم).

قلت: والتعاون مع أصحاب البدع المضلة يوجب الألفة مع الوقت ويوجب السكوت عن منكراتهم فيما بعد، لأن أولئك لا يتعاونون مع من ينكر باطلهم وبدعهم، ويحذر الناس منهم، فإن النفوس تنفر من التعاون مع من يحذر منها وينكر عليها، والمرء مع من أحب يوم القيامة.

فمثل هذه القاعدة لا تحسم مادة الخلاف، بل تزيده، ما دام الكلم معذوراً.

والشريعة إنما بُعثت لحسم مادة الخلاف، وليكون الناس أمة واحدة، قال الخطابي رحمه الله مبيناً هذه المفسدة[٢]: (فأما الافتراق في الآراء والأديان، فإنه محظور في العقول، ومحرم في قضايا الأصول، لأنه داعية الضلال، وسبب التعطيل والإهمال، ولو ترك الناس متفرقين، لتفرقت الآراء والنحل، ولكثرت الأديان والملل، ولم تكن فائدة في بعثة الرسول ﷺ، وهذا هو الذي عابه الله عز وجل من التفرق في كتابه، وذمه في الآية التي تقدم ذكرها).

(١) «الموافقات» (٤/ ١٤٧).

(٢) «العزلة» (ص٥٧-٥٨).

وقال ابن القيم رحمه الله(١): (إن أقوال العلماء وآراءهم لا تنضبط ولا تنحصر، ولم تضمن لها العصمة إلا إذا اتفقوا ولم يختلفوا، فلا يكون اتفاقهم إلا حقاً، ومن المحال أن يُحيلنا الله ورسوله على ما لا ينضبط ولا ينحصر، ولم يضمن لنا عصمته من الخطأ، ولم يقم لنا دليلاً على أن أحد القائلين أولى بأن نأخذ قوله كله من الآخر، بل يترك قول هذا كله ويؤخذ قول هذا كله. هذا محال أن يشرعه الله أو يرضى به؛ إلا إذا كان أحد القائلين رسولاً والآخر كاذباً على الله!).

ولقد ذكر الله عز وجل صراطه المستقيم، وبيَّنه أتمّ بيان، وأرشد إليه أحسن إرشاد، وأكمل الرسول ﷺ البيان والحجة، فما ثمَّ إلا صراط مستقيم، أو سبل معوجة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فإعذار المختلفين هو إقرار ورضاً بهذه السبل المعوجة، وتضييع للصراط المستقيم.

قال ابن القيم رحمه الله(٢): (إن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ولا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله).

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢١٢).

(٢) «التفسير القيم» (ص١٤-١٥).

فليس لأحد أن يُلزم الناس، بل ولا أن يختار لهم إعمال هذه القاعدة واتخاذها أصلاً مع مخالفتها الصريحة لأمر الله، بالرد إليه وإلى رسوله حال الاختلاف والتنازع.

وما قيمة هذه الشريعة، وما حاجة الناس إليها، إذا عُذر كل من انتحل بدعة مضلة أو شبهة مفسدة، فلا يكون هناك أمر مضبوط.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩].

قال الإمام الشافعي رحمه الله[١]: (ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعهما مقطوع إلا بإتيانهما).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: (والله سبحانه قد أمر في كتابه -عند التنازع- بالرد إلى الله ورسوله، ولم يأمر عند التنازع إلى شيء معين أصلاً).

فهذا هو أمر الله وحكمه عند الاختلاف، لا أن يبقى كل مخالف على مخالفته، فإن هذا اختراع وابتداع، بل هو مناف لتجريد المتابعة لله ورسوله.

وهذا هو الحد الفاصل بين المتبع والمبتدع، فالمتبع يرى أنه لا يسعه أن يقول بغير الحق، والمبتدع يُسَوِّغ جميع الأقوال الباطلة، ويعذر أصحابها.

ومن جميل ما خطه قلم العلامة الشيخ بكر أبو زيد، في سياق حديثه عن الأمور التي تمور بالمسلمين موراً، ما قال[٣]: (كسر حاجز (الولاء والبراء) بين

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٦٤).

(٢) «محنة ابن تيمية» (ص١)، بواسطة فقه النوازل، للعلامة بكر أبو زيد (١/ ٥٨).

(٣) «هجر المبتدع» (ص٥-٦).

المسلم والكافر، وبين السني والبدعي، وهو ما يُسمى في التركيب المولد باسم (الحاجز النفسي)، فيكسر تحت شعارات مضللة مثل: (التسامح)، و(تأليف القلوب)[1]، و(نبذ الشذوذ والتطرف والتعصب)، و(الإنسانية)، ونحوها من الألفاظ ذات البريق، والتي حقيقتها مؤامرات تخريبية، تجتمع لغاية القضاء على المسلم المتميز، وعلى الإسلام).

وقال أيضاً[2]: (ومن أبرز معالم التمييز العقدي فيها، وبالغ الحفاوة بالسنة والاعتصام بها، وحفظ بيضة الإسلام عما يدنسها: نصب عامل الولاء والبراء فيها، ومنه إبراز العقوبات الشرعية على المبتدعة، إذا ذكِّروا فلم يتذكروا، ونهوا فلم ينتهوا، إعمالاً لاستصلاحهم، وهدايتهم، وأوبتهم بعد غربتهم في مهاوي البدع والضياع، تشييداً للحاجز بين السنة والبدعة، وحاجز النفرة بين السني والبدعي، وقمعاً للمبتدعة وبدعهم، وتحجيماً لهم، ولها عن الفساد في الأرض، وتسرب الزيغ في الاعتقاد، ليبقى الظهور للسنن صافية من الكدر، نقية من علائق الأهواء وشوائب البدع، جارية على منهاج النبوة وقفو الأثر، وفي ظهور السنة أعظم دعوة إليها، ودلالة عليها، وهذا كله عين النصح للأمة).

فهذه القاعدة (**يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه**) تقتضي السكوت عن ضلالات المخالف، لأن هذا هو مقتضى (المعذرة)، وهذا غاية ما يتمناه القائلون بهذه القاعدة، فهم لا يؤملون موافقة علماء السنة لهم ولا يطمعون في ذلك.

---

(١) قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨١): (فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق).

(٢) «هجر المبتدع» (ص٧).

قال ابن طاهر المقدسي الحافظ: سمعت الإمام أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري -بهراة[1]- يقول: (عرضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك! لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت)[2].

فالسكوت سبب لرواج البدع والأهواء والأخطاء والضلالات، قال ابن قتيبة[3]: (وإنما يقوى الباطل بالسكوت عنه).

لا تأتلف الأمة بهذه القاعدة

لو قُدر أنا أجبنا القوم وأعملنا هذه القاعدة، فهل يحصل الوفاق والائتلاف بهذه القاعدة: يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه؟

فلا ائتلاف ولا اتفاق إلا بالكتاب الهادي:

فالله هو الذي يُؤلف القلوب، قال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

والله لا يُؤلف قلب سني مع بدعي ولا قلب صالح مع طالح؛ بل يقذف في قلب السني الصالح من النفور عن البدعي والطالح بقدر بدعته وفسقه، فالقلوب تجتمع على ما أرادها الله أن تجتمع عليه.

(١) هراة بالفتح مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، وهراة أيضاً مدينة بفارس قرب إصطخر، «معجم البلدان» (٥/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ٢٠٧).

(٣) «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية» (ص٦٠).

فمفارقة البدع والنفرة منه سهم يقذفه الله في قلب السني فلا تقبله روحه ولا تأنس به، وإن أرغمها وأكرهها على ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]، فقوله ﴿ءَامَنُواْ﴾ حققوا التوحيد الخالص، وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حققوا الطاعات كاملة، فباجتماع الأمرين -وهما كمال التوحيد والطاعة- تميل قلوب الناس وتود من كان هذا شأنه، وبمقدار النقص في الأمرين تنقص مودة الخلق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

قال القاسمي[(١)]: (ثم ضلوا على علم بعد موت الرسل، فاختلفوا في الدين لاختلافهم في الكتاب، ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: الكتاب الهادي الذي لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف فيما أنزل لرفع الخلاف). ولم يكن اختلافهم لالتباس عليهم من جهته، بل ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الدلائل الواضحة، ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: حسداً).

وقال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني[(٢)]: (وكان السبب في اتفاق أهل الحديث، أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنة، وطرق النقل، فأورثهم

(١) «محاسن التأويل» (٣/ ٥٢٨).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٢٢٦).

الاتفاق والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف).

وقال الشاطبي[1]: (قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، فبين أن التأليف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى واحد، وأما إذا تعلق كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى، فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]).

وقال شيخ الإسلام[2]: (فإن القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسول والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم).

أقوال العلماء في القاعدة:

سماحة الشيخ العلامة المفتي عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: (نعم، يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق، والدعوة إليه، والتحذير مما نهى الله عنه ورسوله، أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه، فليس على إطلاقه، بل هو محل تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها، فالواجب عدم الإنكار فيها من بعضنا على بعض، أما ما كان خلاف النص من الكتاب والسنة، فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة،

---

(١) «الاعتصام» (٢/ ١٩٢).

(٢) «الرد على المنطقيين» (ص٣٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٥٨-٥٩) جمع د.محمد الشويعر.

والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]، وقوله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقول النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع، فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، وقوله ﷺ: «**من دل على خير، فله مثل أجر فاعله**»، أخرجهما مسلم في صحيحه، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة).

الشيخ العلامة محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قال رَحِمَهُ اللهُ[1]: (فقولهم: «نجتمع فيما اتفقنا فيه»، فهذا حق، وأما قولهم: «يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» فهذا فيه تفصيل:

فما كان الاجتهاد لديه سائغاً، فإنه يعذر بعضنا بعضاً فيه، ولكن لا يجوز أن تختلف القلوب من أجل هذا الخلاف.

وأما إن كان الاجتهاد غير سائغ، فإننا لا نعذر من خالف فيه، ويجب عليه أن يخضع للحق.

فأول العبارة صحيح، وأما آخرها فيحتاج إلى تفصيل).

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللهُ فيمن كتب له في شأن دعاء ختمة القرآن في رمضان[2]: (وأما قولك حفظك الله في الكتاب الثاني إني إذا كنت ما أرى الختمة أن لا أختم وأترك

(١) «الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات» (١/ ٢١٨-٢١٩) جمع: علي أبو لوز.

(٢) «الجواب المختار لهداية المحتار» (ص٧٨).

الناس كل بهواه، فيا محب تعلم أنه إذا تبين للإنسان الحق بدليله، فقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق بما أعطاه من العلم أن يبينه للناس ولا يكتمه، لا سيما في الأمور التي يفعلها الناس، ويقدر أنها ليست على صواب، فإن بيان حكمها يكون أوكد ليتمشى الناس فيها على الصواب).

علامة الشام؛ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللهُ:

قال رَحِمَهُ اللهُ منتقداً قائلي هذه (القاعدة!): (هم أول من يُخالف هذه القاعدة، ونحن لا نشك بأن شطراً من هذه الكلمة صواب، وهو «نتعاون على ما اتفقنا عليه).

الجملة الأولى هي طبعاً مقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

أما الجملة الأخرى: «يعذر بعضنا بعضاً»، لا بد من تقييدها.. متى؟

حينما نتناصح، ونقول لمن أخطأ: أخطأت، والدليل كذا وكذا، فإن رأيناه ما اقتنع، ورأيناه مخلصاً، فندعه وشأنه، فنتعاون معه فيما اتفقنا عليه.

أما إذا رأيناه عاند واستكبر وولى مدبراً، فحينئذ، لا تصح هذه العبارة ولا يعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا فيه)[١].

العلامة صالح بن فوزان الفوزان:

قال حفظه الله تعالى[٢]: (وجوب تحكيم الكتاب والسنة في كل المنازعات، لا في بعضها دون بعض، فيجب تحكيمها في أمر العقيدة، وهذا أهم شيء، وفي المنازعات الحقوقية بين الناس، وفي المنازعات المنهجية والمذاهب والمقالات، وفي

(١) «مجلة الفرقان الكويتية» عدد (٧٧) ص٢٢.

(٢) «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» (٢/ ١٨٥-١٨٧).

المنازعات الفقهية ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، أما الذي يريد أن يأخذ جانباً فقط ويترك ما هو أهم منه، فهذا ليس تحاكماً إلى كتاب الله، فما يقوله دعاة الحاكمية اليوم يريدون تحكيم الشريعة في أمور المنازعات الحقوقية، ولا يحكمونها في أمر العقائد، ويقولون: الناس أحرار في عقائدهم، يكفي أنه يقول: أنا مسلم، سواء كان رافضياً أو كان جهمياً أو معتزلياً، أو.. أو.. إلى آخره، «نجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»! هذه القاعدة التي وضعوها، ويسمونها: القاعدة الذهبية، وهذا في الحقيقة: تحكيم للكتاب في بعض، وترك فيما هو أهم منه، لأن تحكيم الشريعة في أمر العقيدة أعظم من تحكيمها في شأن المنازعات الحقوقية، فتحكيمها في أمر العقيدة وهدم الأضرحة ومشاهد الشرك، ومقاتلة المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، هذا أهم، فالذي إنما يأخذ جانب الحاكمية فقط ويهمل أمر العقائد، ويهمل أمر المذاهب والمناهج التي فرّقت الناس الآن، ويهمل أمر النزاع في المسائل الفقهية، ويقول: أقوال الفقهاء كلها سواء، نأخذ بأي واحد منها! فهذا قول باطل، لأن الواجب أن نأخذ بما قام عليه الدليل فيحكَّم كتاب الله في كل المنازعات العقدية، وهذا هو الأهم، والمنازعات الحقوقية والمنازعات المنهجية، والمنازعات الفقهية، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ [النساء:٥٩] هذا عام، ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠].

وهؤلاء الذين جعلوا الحاكمية بدل التوحيد هم غالطون، أخذوا جانباً وتركوا ما هو أعظم منه، وهو العقيدة، وتركوا ما هو مثله -أو هو أعظم منه-

وهو المناهج التي فرّقت بين الناس، كل جماعة لها منهج، كل جماعة لها مذهب، لم لا نرجع إلى الكتاب والسنة ونأخذ المنهج والمذهب الذي يوافق الكتاب والسنة ونسير عليه؟

والحاصل أن تحكيم الكتاب والسنة يجب أن يكون في كل الأمور، لا في بعضها دون بعض، فمن لم يحكّم الشريعة في كل الأمور كان مؤمناً ببعض الكتاب وكافراً ببعض شاء أم أبى، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥]).

العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد:

الشيخ حفظه الله قام بتقرير منهج أهل السنة في معاملة أهل البدع وذلك من خلال كتابه «هجر المبتدع»، والرد عليهم في كتابه «براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة»، وألف كتاب «الرد على المخالف من أصول الإسلام».

والشيخ حفظه الله في كتابه «الرد على المخالف» أتى ببيان قاعدة «المعذرة وَالتعاون» من القواعد بما ذكره من أدلة الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، وأبطلها على أحسن وجه وبيّن كذلك مضار السكوت، ووصف هذه القاعدة بالمقولة الباطلة، فقال[1]: (والنبي ﷺ يُخبر بافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، والنجاة منها لفرقة واحدة على منهاج النبوة، أيريد هؤلاء اختصار الأمة إلى فرقة وجماعة واحدة مع قيام التمايز العقدي المضطرب؟!

(١) «الرد على المخالف» (ص٧٨).

أم أنها «دعوة إلى وحدة تصدع كلمة التوحيد» فاحذروا.

وما حجتهم إلا المقولات الباطلة:

لا تصدعوا الصف من الداخل.

لا تثيروا الغبار من الخارج.

لا تحركوا الخلاف بين المسلمين.

نلتقي فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه وهكذا).

وقال أيضاً[(١)]: (نتجمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

وهذا تقعيد حادث فاسد، إذ لا عذر لمن خالف في قواطع الأحكام في الإسلام، فإنه بإجماع المسلمين لا يسوغ العذر ولا التنازل عن مسلَّمات الاعتقاد، وكم من فرقة تنابذ أصلاً شرعياً، وتجادل دونه بالباطل؟).

نهاية الجزء الأول

(١) «حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات» (ص١٤٩).

فهرس الجزء الأول